

# الاستغراب

## AL-ISTIGHRAB

دورية فكرية مُحكمة تُعنى بدراسة الغرب وفهمه معرفياً ونقدياً

تصدر عن المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

العدد الثاني والثلاثون . السنة الثامنة ١٤٤٥ هـ - خريف ٢٠٢٣ م

ISSN: ٢٥١٨ - ٥٥٩٤

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق الوطنية العراقية ٢٤٦٤

### أبحاث ودراسات

التَّرْجَمَةُ الثَّقَافِيَّةُ وَالتَّعَدُّدِيَّةُ الكُونِيَّةُ  
والاختلاف الإقليمي

جواد الحبوش

مهام العقل وأدواره في المعرفة الدينية

رضا برنجكار

### منتدى علم الاستغراب

إشكالية العنف والحرية  
في ضوء فلسفة ما بعد الاستعمار

دعاء عبد النبي حامد

### المبتدأ

حضارة الغرب  
وليد الحروب.. وقوة إقصاء الآخر

الشيخ حسن أحمد الهادي

### العتو الغربي.. تاريخية الإرهاب والطغيان

### الملف

حملات الأباطرة الرومان إلى الشرق

أحمد حسين المشعل

الاحتلال الروماني لمصر والمغرب العربي القديم وتداعياته

أ. عقيل نمبر

نظرة نقدية لحقيقة بطش الإمبراطورين

رفاه البوشي الدباغ

الحروب والصراعات الغربية (صراع الأباطرة)

د. عباس مرهج فرج

أسباب الحروب الصليبية ودوافعها

عمار محمد النهار

نظرة تاريخية نقدية للحملات الصليبية الرئيسية

ناديا محمد زهير الغزولي

رؤية العالم الغربية: الوجود بالإبادة والعيش بالإقصاء

شهرزاد حمدي

حرب المئة عام بين إنكلترا وفرنسا

أ.د. أحمد محسن الخضر

## The Scholarly Editorial Staff

Pro. Dr. Ibrahim Mohammad El Zein	Malaysia
Pro.Dr. Ahmad Abdulhalim Atiah	Egypt
Pro. Dr. Husein Nasr	U.S.A.
Pro.Dr.Hamid Parsania	Iran
Pro. Dr. Khalil Ahmad Khalil	Lebanon
Pro. Dr. Zaim Khenchelaoui	Algiers
Pro. Dr. Suad Al Hakim	Lebanon
Pro. Dr. Vitaliy Naumkin	Russia
Pro. Dr. Fathi Al Miskini	Tunis
Pro. Dr. Velin Belev	Bulgaria
Pro. Dr. Carl Ernest	U.S.A
Pro. Dr. Muthaffar Iqbal	Canada
Majdi Izziddin Hassan	Sudan

## Translators

- Asaad Mandi Alkaabi
- Hiba Nassir
- Hasan Ali Matar Alhashimi

## This quarterly

“Occidentalism” An intellectual quarterly aimed at studying and understanding the West from a cognitive and critical perspective

The quarterly “Occidentalism” is interested in understating the West by becoming acquainted with its approaches and intellectual, cultural and ideological structures and rereading them with a well-informed critical spirit. The objective of the Islamic Center for Strategic Studies from publishing this quarterly is based on the need to establish a creative intellectual expanse that leads to a commensurate communication between Islam and the West at the level of cognition and civilization.

At the forefront of the issues we deemed appropriate to work on within the aforementioned expanse is the attempt to approach the West from an angle that goes beyond what the Arab and Islamic elites were and are accustomed to in the past and the present, especially with respect to how the values and knowledge of the West are dealt with, whether in terms of pure imitation of these values or in terms of their complete refusal .

To illustrate its end, this quarterly adopts an integrative methodology based on the activation of three parallel and interrelated lines:

**The first line:** Getting acquainted with western societies as they are in reality, by staying updated about their scientific, intellectual, cultural and political developments, through the knowledge that the elites of these societies have to offer in the context of their analysis of the issues and problems they’re experiencing at the outset of the twenty first century.

**The second line:** Learning about the approaches and policies adopted by the West vis-à-vis the East and Islamic societies in particular, in order to reveal many of the realities and allay the illusions that have captured the Arab and Islamic thought for a long period of time.

**The third line:** This is the line of criticism which has three facets:

**The first facet:** A criticism of the values of western thought and their repercussions at the intellectual level on the Arab and Islamic intelligentsia, and a demonstration of the resulting mechanisms of negative Occidentalism.

**The second facet:** A criticism of the West by the West itself through the selection and translation into Arabic of writings by western philosophers, intellectuals and researchers about issues that reflect the situation of their societies and the transformations heating these societies up in different fields.

**The third facet:** A criticism of the West by the Arab Islamic elites, proceeding from their knowledge of it and of its history and their attempt to compare it based on creative evenness and equal terms .

٣٢

Occidentalism

# الاستغراب

AL-ISTIGHRAB

دورية فكرية مُحكّمة تُعنى بدراسة الغرب وفهمه معرفياً ونقدياً  
تصدر عن المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية  
العدد الثاني والثلاثون - السنة الثامنة ١٤٤٥هـ خريف ٢٠٢٣م

ISSN: 2518 - 5594

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق الوطنية العراقية 2464

الآراء الواردة في هذه المجلة لا تُعبّر بالضرورة عن توجهات المركز

﴿ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا  
عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾

سورة الفرقان: الآية ٢١

## رئيس التحرير

هاشم الميلاني

## هيئة التحرير

أستاذ الدراسات الإسلامية، جامعة جورج واشنطن.	أ.د. سيد حسين نصر
أستاذ الحضارة الإسلامية، جامعة تونس.	أ.د. توفيق بن عامر
أستاذ الفلسفة، الجامعة اللبنانية.	أ.د. خنجر حميّة
عميد كلية الفقه جامعة الكوفة - العراق.	أ.د. ستار الأعرجي
أستاذ الفكر المعاصر الإسلامي، كلية الآداب، جامعة الكوفة.	أ.د. عامر عبد زيد الوائلي
أستاذ التاريخ في جامعة بغداد	أ.د. عبد الجبار ناجي
أستاذ الفلسفة، جامعة النيلين، السودان.	أ.د. مجدي عز الدين حسن
أستاذ الفلسفات القديمة، جامعة القاهرة، مصر.	أ.د. مصطفى الثّشار
مؤرّخ وأستاذ العلوم الحديثة، جامعات كندا.	أ.د. مظفر إقبال
عميد كلية الأديان والعلوم الإنسانية - جامعة المعارف - لبنان.	أ.د. هادي فضل الله

## مصحّح اللغة الأجنبية

الأستاذة أ. هبة ناصر

## مصحّح اللغة العربية

الأستاذ غسان الأسعد

## التصميم والإخراج الفني

علي مير حسين

- هاتف: 00961-1-274465

- موقع: <http://istighrab.iicss.iq>- إيميل: [istighrab.mag@gmail.com](mailto:istighrab.mag@gmail.com)

للتواصل

Islamic Center for Strategic Studies – Civil Compa.

IBAN: LB78 0052 0024 0013 0102 4055 9014

IBL BANK SAL. Swift Code: INLELBBE

التحويل البنكي

## المحتوى

# الجزء

\* حضارة الغرب، وليد الحروب.. وقوة إقصاء الآخر

- الشيخ حسن الهادي ..... ٩

## الملف

\* حملات الأباطرة الرومان إلى الشرق (تراجان، ماركوس أورليوس، سبتيميوس سيفيروس)

- أحمد حسين المشعل ..... ١٦

\* الاحتلال الروماني لمصر والمغرب العربي القديم وتداعياته

- أ. عقيل نمير ..... ٣٧

\* نظرة نقدية لحقيقة بطش الإمبراطورين نيرون ودوميتريان

- رفاة البوشي الدباغ ..... ٥٥

\* الحروب والصراعات الغربية (صراع الأباطرة)

- د. عباس مرهج فرج ..... ٧١

\* أسباب الحروب الصليبية ودوافعها

- عمار محمد النهار ..... ١٠١

\* نظرة تاريخية نقدية للحملات الصليبية الرئيسية

- ناديا محمد زهير الغزولي ..... ١٦٥

\* رؤية العالم الغربية: الوجود بالإبادة والعيش بالإقصاء حال الحرب أنموذجًا

- شهرزاد حمدي ..... ١٩٨

\* حرب المئة عام بين إنكلترا وفرنسا

- أحمد محسن الخضر ..... ٢١٤

### أبحاث ودراسات

\* الترجمة الثقافية والتعددية الكونية والاختلاف الإبستيمي

- جواد الحبوش ..... ٢٤٠

\* مهام العقل وأدواره في المعرفة الدينية

- رضا برنجكار ..... ٢٥٢

### منتدى علم الاستغراب

\* إشكاليّة العنف والحرية في ضوء فلسفة ما بعد الاستعمار

- دعاء عبد النبي ..... ٢٨٠

### قراءات علمية:

\* قراءة في كتاب تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب

- قراءة: إدارة التحرير ..... ٢٩٤

\* الإرهاب الغربي - روجيه غارودي

- أمل ناصر ناصر ..... ٣٠١

\* محمد والقرآن واليهود.. بوابة إلى الحقيقة ..... ٣١٨



## ترحب مجلة الاستغراب بكل نتاج فكري يتسم بالموضوعية وينسجم مع اهتماماتها ضمن قواعد النشر الآتية:

١. تنشر المجلة الأبحاث العلميّة الأصيلّة الموافقة للشروط الأكاديميّة المعتمدة في البحث العلمي وخطواته المتعارف عليها عالمياً.
٢. يشترط انسجام المضمون والمنهج مع أولويات المجلة في نقد الفكر الغربي، وعدم الاكتفاء بعرض الأفكار ووصف الأقوال.
٣. أن يكتب البحث باللّغة العربيّة، ويُرسَل منه نسخة إلكترونيّة بصيغتي (Word) و (pdf)، بحدود ٥,٠٠٠ كلمة، على أن تُرقّم الصفحات ترقيمًا متسلسلاً.
٤. تقديم ملخّص باللّغة العربيّة، يُوضع في أوّل البحث لا يزيد عن (٢٠٠) كلمة، بالإضافة إلى الكلمات المفتاحية للبحث.
٥. تنشر المجلة ترجمة ملخّصات الأبحاث باللّغة الإنكليزية.
٦. أن تحتوي الصّفحة الأولى من البحث على اسم الباحث وعنوانه، وتخصّصه (باللغتين العربيّة والإنكليزيّة) ورقم الهاتف والبريد الإلكتروني.
٧. إرفاق نسخة من السيرة العلميّة إذا كان الباحث يتعاون مع المجلة للمرة الأولى.
٨. يتمّ التعرّف بالكتب والمقالات وسائر المصادر المعلوماتيّة في نهاية الدّراسة بالطريقة التّالية: المؤلّف (المصحّح، الجامع، أو المترجم الذي يذكر بدلاً من المؤلّف)، تاريخ طباعة الأثر، العنوان، ويُضاف في الكتب، مكان النّشر والنّاشر، ورقم الصّفحة، وفي المقالات اسم المجلة العلميّة ورقم الجزء أو الدورة ورقم الصّفحة ورقم النّسخة أيضاً. وتُدْرَج في المواد المعلوماتيّة ما عدا المصادر المطبوعة كالأثار الإلكترونيّة أو المواد المرئيّة والسّمعيّة، ووسيلة الإعلام التي تعرض هذا الأثر.

٩. يُشار إلى المصادر والمراجع جميعها بأرقام الهوامش التي تنشر في أسفل كل صفحة. وتراعى الأصول العلميّة المتعارفة في التوثيق والإشارة بأن تتضمن: اسم الكتاب ورقم الصفحة.
١٠. يزوّد البحث بقائمة مفصّلة من المصادر والمراجع في آخر البحث، وفي حالة وجود مصادر أجنبيّة تُضاف قائمة بها منفصلة عن قائمة المصادر العربيّة، ويُراعى في إعدادها الترتيب الأبجائي لأسماء الكتب أو الأبحاث في المجلّات، أو أسماء المؤلفين.
١١. أن لا يكون البحث قد نُشر سابقًا في مجلّة أو كتاب أو موقع الكتروني..، وليس مقدّمًا إلى أيّة وسيلة نشر أخرى، وعلى الباحث تقديم تعهّد مستقلّ بذلك.
١٢. تعبّر جميع الأفكار المنشورة في المجلة عن آراء كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر جهة الإصدار، ويخضع ترتيب الأبحاث المنشورة لاعتبارات فنيّة ومنهجية فقط.
١٣. تراعي المجلّة الأنظمة مرعيّة الإجراء فيما يخصّ حقوق الملكية الفكرية للمؤلفين.
١٤. يجب أن يرفق الباحث تعهّدًا خطيًّا ببحثه وفق الآتي: جانب مدير تحرير مجلة الاستغراب المحترم  
أقرّ أنا الموقع على هذا أدناه وأتعهد... (بذكر اسم الباحث)  
....(الصفة العلمية للباحث)
- بأن هذه المادة وعنوانها: ..... (العنوان الكامل للبحث) هي من إنتاجي العلمي، ولهذا فهي تدخل في ملكيتي الفكرية، ولم يسبق نشرها، وإنّي أعطي مجلّتكم الكريمة حقّ الطبع والنشر والترجمة وإعادة النشر والتوزيع الورقي أو الإلكتروني.
١٥. تخضع الأبحاث المستلمة لبرنامج الاستلال العلمي (Turnitin).
١٦. لا يجوز للباحث أن يطلب عدم نشر بحثه بعد عرضه على هيئة التحرير.
١٧. تخضع الأبحاث لتقويم وتحكيم سرّي لبيان صلاحيتها للنشر، وعلى وفق الآلية الآتية:
- أ- يبلغ الباحث بتسلّم المادة المرسلّة للنشر خلال مدة أقصاها أسبوع من تاريخ التسلم.
- ب- يخطر أصحاب الأبحاث المقبولة للنشر موافقة هيئة التحرير على نشرها وموعد نشرها المتوقع.
- ت- الأبحاث التي ترى اللجنة وجوب إجراء تعديلات أو إضافات عليها قبل نشرها تُعاد إلى أصحابها، مع الملاحظات المحدّدة، كي يعملوا على إعدادها نهائيًّا للنشر.
- ث- الأبحاث المرفوضة يبلغ أصحابها من دون ضرورة إبداء أسباب الرّفص.
- ترسل الأبحاث على الموقع الإلكتروني للمجلّة: [istighrab.mag@gmail.com](mailto:istighrab.mag@gmail.com)



# البحث

## حضارة الغرب وليد الحروب.. وقوة إقصاء الآخر

■ الشيخ حسن أحمد الهادي

تطلق لفظة تاريخ على الماضي البشري ذاته تارةً، وعلى الجهد المبذول لمعرفة الماضي ورواية أخباره أخرى، والتاريخ علم يُبحث فيه عن حوادث البشر في الزمن الماضي، وقد اهتم الإنسان منذ عهود حياته الأولى وأزمان وجوده على الأرض بتفاصيل هذا التاريخ، ففي كل عصر ومصر يوجد مجموعة من حفظته وكتابه والمؤلفين فيه، ومن المفترض حسب الأصول العلميّة والمنهجية، والقيم الإنسانيّة، فضلاً عن الأخلاق والدين، أن لا يكون التاريخ إلا ذلك الوعاء النظيف والمحصّن ضدّ كل التأثيرات الخارجيّة، التي غالباً ما تكون وليدة شهوات الحكّام والأطماع السياسيّة وغيرها من أهداف الساسة والسلاطين وأعوانهم .

وقد وصّف التاريخ بأنّه مرآة الزمن ومعرفة الماضي الإنساني، وتصوير أحداثه كما وقعت وحدثت بالضبط، ولهذا لا يمكن التسليم بالكثير من الأحداث والمضامين التاريخيّة والدينيّة والسياسيّة، التي دُسّت على صفحات هذا التاريخ، لأنّها لا تتسم بالموضوعيّة والدقّة والأمانة العلميّة، ولا تنسجم مع التاريخ كعلم يستحضر تجارب الماضين بشفافيّة ووضوح، فضلاً عن عدم مراعاة الأصول العلميّة والمنهجية لصياغة الحدث أو الواقعة التاريخيّة كوثيقة شفّافة تعكس الواقع للبشريّة. فالتاريخ -كما نفهمه- هو عملية ضبط الحوادث الكليّة والجزئيّة بالنقل والحديث في حياة الأمم والشعوب، سواء تلك التي تتعلّق بمعتقداتهم الدينيّة وسيرهم، أم تلك التي تتناول حياة الملوك والقادة والحكّام وغيرها... فهو وعاء للزمن وما يقع فيه.

وقد تطوّر البحث التاريخي ليتكفّل بتفسير الوقائع وتحليلها وتعليلها، وكشف العلاقات والروابط بينها، وقد شهد العصر الحديث تطوراً في مدلوله، فاتّسع ليشمل كلّ شيء في الطبيعة والحضارة؛ «الأرض، والمعادن، والنباتات، والحيوان، والأفكار، والعلوم...، إلى جانب الفعاليات الإنسانية»<sup>[١]</sup>، «فلم يعد علم التاريخ منحصرًا بدراسة الوقائع البشريّة التي حدثت في الزمن الماضي فقط، بل اتّسع ليشمل ميادين المعارف والعلوم، والأديان، والفلسفات البشريّة، وتاريخ الأرض وما يعيش عليها من مخلوقات وتحويه من كائنات وظواهر...، وبدأ العلماء يميّزون بين أنواع من التاريخ: كالتاريخ النقلي، والتاريخ العلمي، وفلسفة التاريخ»<sup>[٢]</sup>... وأصبح علم التاريخ متداخلاً مع العديد من العلوم، كالأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والسياسة والاقتصاد وعلم النفس...

\*\*\*

وفي الواقع إنّ الذي ينظر نظرةً موضوعيّةً فاحصةً إلى الكثير من الأحداث والوقائع التاريخيّة في تاريخ البشريّة بشكل عام وتاريخ الغرب بشكل خاص، يجد بأنّها قد وقعت تحت الكثير من التأثيرات ممّا أفقد الكثير من الحقائق التاريخيّة موضوعيّتها وواقعيتها. ويعود السبب في ذلك إلى أنّ كلّ عصر من العصور يكون محكومًا للسلطة والقوّة المسيطرة فيه، والتي بيدها القوّة والقدرة، وبالتالي فإنّ أحداث ذلك العصر تكون -غالبًا- من صناعة الأقلام والمؤرّخين الخاضعين لتلك السلطات، ويحيك هؤلاء الأحداث وفق ما ينسجم مع سياساتهم وأهدافهم الاستعمارية، وإن كان ذلك على حساب طمس الحقائق الساطعة وتزييفها. ولا تغيب النزعات القوميّة، والعصبيّات الدينيّة عن أولئك الناقلين للأخبار التاريخيّة أو المؤلّفين فيها في الماضي والحاضر، فما زالت السياسة وأهواء السياسة تلاحق كلّ الأحداث والتفاصيل اليوميّة لترسمها بالكيفيّة التي تتناسب مع سياساتها ومصالحها على حساب إلغاء تاريخ الأمم والشعوب وحضاراتها.

هذه هي أهم العوامل التي جعلت التاريخ أسيرًا أو تابعًا في الكثير من معطياته لتلك السياسات والمصالح الذاتيّة والدينيّة والعصبيّة والقوميّة في الكثير من مراحل وأوراقه، ولئن وجدت بعض الأوراق الصافية والنظيفة في تاريخ البشريّة، فلأنّ للحقّ والصدق والواقعيّة أنصارها في كل زمان ومكان. ونحن عندما ندرس التاريخ، تارةً ندرسه بما هو نقل للأحداث وسرد لها، فيصبح أمرًا شبيهًا

[١]- محمد مهدي شمس الدين، التاريخ وحركة التقدّم البشري ونظرة الإسلام، ص ١٣.

[٢]- كاظم ياسين، منهجيّة البحث في تاريخ الإسلام، ط ١، بيروت، مركز المصطفى العالمي للدراسات والترجمة والنشر، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص ٤٩.

بالحكايات والقصص. وأخرى ندرسه بما هو إرث وجذر للحاضر نستكشف منه جذور عقليّاته وثقافته وتقاليده، فكأننا ننظر إلى الحاضر وكأنه ثمرة لهذا التاريخ، وإلى الماضي وكأنه جذر وأساس وأصل هذه الثمرة، ما سوف يساعد في فهم هذا الحاضر الذي هو الثمرة، ويساعد على فهم سنّة التطور وما هي العوامل المختلفة التي أدّت إليه، وسوف يساعد بالتالي على اكتشاف قواعد حركة هذا الحاضر، التي من أركانها فكره وثقافته وتقاليده ونظرته إلى الأمور، وهي كلّها من موروثات ماضي هذا الحاضر وانتقلت إليه أباً عن جد.

\*\*\*

وعلى هذا الأساس عندما نقلّب جانباً من صفحات تاريخ الغرب في الحروب نجد بأنّها من أكثر الحروب همجيةً وقتلاً وتدميراً واعتداءً على الممتلكات والأموال والأعراض في تاريخ البشرية، بلا فرق بين أن تكون بين الدول الغربية نفسها، أو بينها وبين عدوّ خارجي مفترض. ولهذا فإنّ كل ما وصل إليه الغرب عمومًا وأوروبا خصوصًا من تطوّر سياسي واجتماعي واقتصادي ونحوه اليوم، فإنّه يقوم على إرث حضارة دموية مفرطة، وعنصريّة مقيّته، فتكت بكلّ أشكال الحياة الإنسانيّة على مرّ التاريخ، والهادف إلى ترسيخ الاستعمار العابر للحضارات والشعوب والدول بكلّ مواردها البشرية وغيرها.

وإنّ المتابع بوعي لمسيرة الغرب المعاصر يجد أنّها جنين مشوّه لحضارات سبقتها والتي كانت تسعى للتخلّص من أي حضارة مقاربة لها، كيف لا وقد انفرّد الغربيون عبر تاريخهم الطويل -وما زالوا- بالإقصائيّة التي لا ترى الآخر من منظور تشاركي بقدر ما تراه منافسًا لدوداً وعدوّاً محتملاً. والتاريخ شاهد لا يكذب، ترى ذلك واضحًا عند وصول الأوروبيين لأستراليا مثلاً إذ لم يبق فيها سوى آثار من الشعوب الأصليّة حتى باتوا يدرسونهم على أنّهم فلكلور وانثروبولوجيا. ويُمكّنك قول ذلك عن الهنود الحمر في أمريكا أيضًا عندما تمّت إبادتهم إبادة تامّة ودموية، وعن العبودية والعنصرية يُمكن أن تقرّآ مئات التقارير التي تتحدّث عن عدد الأفارقة الذين تم استعبادهم ونقلهم من إفريقيا إلى أمريكا يُقال أنّهم وصلوا لأكثر من ١٣ مليون شخص. وكذا عندما نقرأ تاريخ الإبادة التي تعرّض لها المسلمون الأندلسيون على يد الحضارة الأوروبية في محاكم التفتيش لتكتشف بما لا يدع مجالاً للشك بأنّها حضارة كانت تعيث في الأرض فسادًا واستعمارًا، وقامت على الدماء والإقصاء وطرّد الآخر أو إعدامه.

\*\*\*

وعندما نغوص أكثر في عمق صفحات التاريخ الغربي القديم وبالتحديد ما ذهب إليه الغرب الحديث الذي يعتبر أنّ تاريخه الفكري على الأقل، قد بدأ مع الإغريق، أو ما أطلق عليه هو نفسه

«المعجزة الإغريقية»، نجد أنّ التباهي بالقوّة والبطش والاعتداء كان سائداً فيها، ولم تخرج هذه الشعوب من هذه الحالة إلاّ في فترات قصيرة من تاريخها، حيث كانت تسيطر الحروب على مجمل تاريخ تلك المنطقة وذلك الزمن، واستمرّ بعضها لعشرات السنين، وقد شهد الغرب مثل هذه الحروب في مرحلة متأخّرة من العصر الوسيط، فيما أُطلق عليها اسم «الحروب الدينيّة»، دون أن ننسى الحروب الأخرى. ولا غرابة في الأمر فقد كان الإغريق قبائل تفتخر وتتباهى بالقوّة والحرب والدموية، بعيداً عن القيم الإنسانيّة والمثل العليا؛ فلا عجب أن عاشت هذه البلاد قروناً من الاقتتال والحروب، فكانت تنتقل فيه مراكز القوّة من مدينة إلى أخرى؛ من أسبارطة إلى أثينا إلى مقدونيا، وهكذا. ورغم هذا الانتقال والتغيير في مراكز الثقل، إلاّ أنّ الثابت الوحيد الذي لم يتغيّر هو عنصر البطش، والقتل، وسفك الدماء وإلغاء الآخر.

ورغم هذا التاريخ المليء بالحروب والقتل والاحتلال وتغيير الأنظمة، فإنّ عمليّات السطو على التاريخ بكلّ صفحاته لم يسلم منها حتى المنتج الثقافي والحضاري للشعوب الأخرى، فإنّ الآلة الإعلاميّة الغربيّة لم تتوقّف عن إطلاق ادّعاءات عريضة، تزعم فيها أنّ الإغريق هم مصدر العقل والمعرفة العقليّة، في أكبر عمليّة غسل للأدمغة، وتشويه للتاريخ، تقودها آلة إعلاميّة غربيّة معبأة بجحافل من العنصريّة والاستعلاء، بل والاستغباء للشعوب في أرجاء المعمورة.

\*\*\*

يُضاف إلى ما ذكر تمثّل الغزوات الدورية مرحلّة مظلمة جدّاً في تاريخ اليونان، لما تركته تلك الغزوات من آثار اقتصاديّة وديموغرافيّة وسياسيّة على الحياة العامّة، علماً بأنّ هذه الغزوات ليست بعيدة عن العقليّة الغربيّة، ولا هي غريبة عن الغرب نفسه؛ إذ من الواضح أنّ هذه القبائل الدوريّة التي هاجمت بلاد اليونان هي من العنصر الإغريقي نفسه. ثم إنّ الحروب والغزوات الدوريّة، رغم طعن الغربيين بها وبطبيعتها، إلاّ أنّها لا تختلف عمّا كان سائداً في بلاد الإغريق؛ فالاستعباد، وانعدام قيم الحرب، والطبقيّة والعنصريّة، ليست أموراً جاء بها الدوريون، فقد شاهدناها في حروب طروادة وغيرها من الحروب، علماً أنّ حرب طروادة كانت قد وقعت قبل الغزو الدوري، وقد أظهرت حرب طروادة، عدم انحياز الإغريقي للمبادئ الأخلاقيّة، وسيطرة المشاعر القبليّة والعائليّة على قيادتهم على حساب القيم والأخلاق.

وفي مشهد آخر يمكن القول إنّ القيم والأخلاق في الحضارة الآخيّة كانت عبارة عن مجموعة من الأحكام التّابعة عن الانفعال أكثر من قيامها على العقل، وقد بُنيت على الرغبات والطموحات

والتطلّعات، وإن أزهقت في سبيلها الأرواح، وأريقَت الدماء.

والذي تُعزّزه الأدلّة أنّ الأخلاق والقيم عند الآخيين كانت معدومةً في حالة العداء والخصام مع الآخر في المدن الأخرى؛ إذ إنّ امتزاج النخوة بالرغبة المحمومة في القتال، مع وجود فئة عدوانية تميل إلى الصراع والحرب حيث حلّت، أدّى ذلك إلى ظهور نظام أخلاقيّ وقيميّ مضطربٍ ومتردّدٍ في علاقة الآخيين بالآخر، مع عدم وجود لأيّ حقّ من أيّ نوع للضعيف، في عالم لا يعترف إلا بالقوّة.

\*\*\*

ختاماً لم يختلف الفكر الغربي المعاصر عن تاريخه الديموي، مع تبديل في بعض المصطلحات، حيث يستكمل الغربيون حركتهم الاستعمارية على العالم وإن اختلفت الأساليب والتقنيات، إذ لا تختلف الهيمنة والاستعمار السياسي والاقتصادي والمعرفي والتقني عن آلة الحرب والعدوان العسكري في نتائجها وأهدافها، فكلاهما يُظهر الوجه الحقيقي للغرب الهمجي في تعامله مع الآخر حرباً أو سلماً. وهذا يرتبط بثوابت الغرب قديماً وحديثاً وذات صلة «بالنزعة الاستعلائية في الفكر الغربي، وهي صفة متأصلة في هذا الفكر حيث مسّت بل طبعَت أدباء وفلاسفة الغرب بطابع استعلائي، فأعلام الفكر الغربي من الفلاسفة وغيرهم لم يخرجوا من قبضة هذه الأيدولوجيا الاستعلائية والنظرة الفوقية...، فإنّ أمثال هوبز ولوك ورسو وهيوم وغيرهم، كانوا يرون أنّ الحضارة ما هي إلا احتكار على البيض، وهي من صنعهم وحدهم ومقتصرة عليهم، وهيكل كان ينظر للشرق على أنّه في أدنى درجات سلّم الرقي، أدنى من الإغريق والرومان، وقد ترتّب على ذلك جنون القوّة وهاجس التوسّع وقهر الشعوب، وإنّ هذه النزعة لم تغيّرْها الأيام بل هي متوارثة بين أجيال الغربيين، وتشكّل اليوم أحد الأهداف المهمّة في صلب الإستراتيجية الغربية، والتي تقوم على ضرورة ضمان التفوّق الغربي على العالم، ومن أجل تحقيق ذلك، لا بدّ من تبني سياسة هجومية غير إعتدائية وفرادية وغير متردّدة تعتمد على القوّة العسكرية<sup>(١)</sup>، ونقرأ أيضاً تأصيل هذه النزعة في ملامح السياسة الغربية للقرن الحالي والمتمثلة بـ: «ضرورة نشر القوات العسكرية في أغلب بقاع الأرض، والتدخل في أيّة قضية مها كانت إقليمية، وتفرض الحل الذي تراه، ويجب أن تكون المقوم الوحيد لجميع أنظمة الحكم في العالم، والسيطرة على النظام المالي العالمي، كما أنّ

[١]- مصطفى الطحان، «الطريق إلى العصر الأمريكي، مجلة المجتمع، الكويت، العدد (١٥٤٧)، ٢٠٠٣م، ص ٢٤.

هذه السياسة تحمل في ثناياها جعل الثقافة الغربية معياراً للذوق في جميع أنحاء العالم<sup>[١]</sup>.

وخلاصة القول: إنَّ النزعة الاستعلائية وسياسة الإملاءات المباشرة على الآخرين، والوصول إلى مستوى استخدام القوَّة والتهديد باستخدامها ضدَّ أيِّ دولة، لا تنصاع إلى الهيمنة العلنية هو حلقة من سلسلة طويلة تشمل كل الميادين الفكرية والاقتصادية والعسكرية والسياسية، بل هي متجذِّرة في الفكر الغربي<sup>[٢][٣]</sup>.

وفي العصر الراهن هذا الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون يوم تنصيبه في ٢٠ / ١ / ١٩٩٣ يلخِّص ما يحمله ويعمل عليه الغرب بقوله: «إنَّ أمريكا تؤمن بأنَّ قيمها صالحة لكل الجنس البشري، وإننا لنستشعر أنَّ علينا التزاماً مقدَّساً لتحويل العالم إلى صورتنا». ووفق هذه الرؤية تعمل أمريكا في محاولاتها لإزاحة القيم التي تحكم مختلف الأمم لتحلَّ محلَّها القيم الأمريكية القائمة على المفاهيم التي تحكمها في مختلف النشاطات من أدب واقتصاد واجتماع وسياسه! وهذا رئيس الوزراء البريطاني برلسكوني يصرِّح بأنَّ الحضارة الغربية هي أفضل من كلِّ الحضارات، وأكَّد على أنَّ الحضارة الإسلامية ليس لها نصيب في خلق القيم العليا المنتشرة اليوم في العالم.

وقد لخصَّ الأستاذ (روجيه جارودي) قيم الحضارة الغربية هذه قائلاً: «...حادثة فن البوب والرسم الحديث والموجة الحديثة والرواية الحديثة وأيضاً الفلسفة الحديثة التي تتَّصف بإنعدام الفلسفة، تعمل على محقِّ إنسانيَّة الإنسان في كل مجالات الثقافة، أصبح هذا التغيُّب للإنسانية هو المعيار المهم للحداثة»<sup>[٤]</sup>.

ولله الحمد

[١]- عوض بن محمد القرني، «الحرب الإعلامية الأمريكية ضد السعودية وسبل مواجهتها»، مجلة المجتمع، الكويت، العدد (١٥١٦)، ٢٠٠٢م، ص ٣١.

[٢]- نبيل شبيب، الهيمنة الأمريكية والجدور التاريخية»، مجلة المجتمع، الكويت، العدد (١٥١٧)، ٢٠٠٢م صص ٢٠-٢١.

[٣]- محمد عوض هزايمة، النزعة الاستعلائية في الفكر الغربي، عن المنارة، المجلد ١٥، العدد ٢٠٠٩م، بتصرّف

[٤]- روجيه غارودي، حفارو القبور، ص ٨٣، مكتبة الشروق ط ٣، ١٩٩٨-مصر

# الملف

اعتبار نقد الفكر الغربي أصل حاكم على جميع بحوث الملف. ولا يُعتبر موافقاً لشروط المجلة وسياساتها كل بحث لا يتضمّن نقداً للأفكار المطروحة فيه، في كل ما يمكن فيه النقد. نقصد بالنقد أن يعتمد الباحث منهجاً معيّناً في بحثه يُجري على أساسه قراءة تحليلية نقدية للموضوع قيد البحث، وذلك من خلال رؤيته ومناقشته بعين ناقدة تبيّن العيوب والمعاثر المعرفية ومواضع الخلل والتهافت المضمون والقواعد المنهجية المعتمدة في البحث العلمي.

## حملات الأباطرة الرومان إلى الشرق

أحمد حسين المشعل

## الاحتلال الروماني لمصر والمغرب العربي القديم وتداعياته

أ. عقيل نمير

## نظرة نقدية لحقيقة بطش الإمبراطورين

رفاه البوشي الدباغ

## الحروب والصراعات الغريية (صراع الأباطرة)

د. عباس مرهج فرج

## أسباب الحروب الصليبية ودوافعها

عمار محمد النهار

## نظرة تاريخية نقدية للحملات الصليبية الرئيسية

ناديا محمد زهير الغزولي

## رؤية العالم الغريية: الوجود بالإبادة والعيش بالإقصاء

شهرزاد حمدي

## حرب المئة عام بين إنكلترا وفرنسا

أ.د. أحمد محسن الخضر

# حملات الأباطرة الرومان إلى الشرق

## (تراجان، ماركوس أورليوس، سبتيميوس سيفيروس)

أحمد حسين المشعل<sup>[\*]</sup>

### الملخص

لقد وثقت صفحات التاريخ السّياسة الاستعماريّة التوسعيّة للرومان منذ القدم، حيث برز السعي الدائم للرومان نحو التوسّع في العالم، والسيطرة على البلدان الأخرى لتكون تابعة لها في خياراتها السّياسية ومواردها الاقتصادية، وتأمين من عدم وجود من يهدّد مشروعها وحملاتها في المنطقة، وهو ما يفسّر تطلّعات الأباطرة الرّومان إلى غزو الشّرق للقضاء عليها، واحتلال أراضٍ جديدة، لتحقيق حلمهم في الوصول إلى سواحل خليج فارس، والسيطرة على طرق التّجارة العالميّة بين البحر المتوسّط غرباً وخليج فارس شرقاً. ولهذه الغاية كثرت حروبهم وامتدّت لفترات زمنية طويلة، وقد دخل الرّومان في صراع مرير وطويل مع الدّولة الفرثيّة استمرّ لمُدّة قرنين ونصف من الزّمن، وقد تمكّن الإمبراطور تراجان من الوصول إلى سواحل خليج فارس بأسلوب المكر والخديعة في سبيل ذلك، وهو أوّل وآخر إمبراطور روماني يصل إليه.

يعالج هذا البحث حملات الأباطرة الرومان وتسلب الضوء بالعرض والنقد على هذه الحملات، والحروب الممتدة، وتلبس الرومان بسياسة الاستعمار والمكر والخديعة التي لم تتوقّف عند حد معينٍ مهما كانت النتائج والآثار، ولهذا اتّجهت أنظارهم إلى غزو بلاد الرّافدين واحتلالها، بوصفها المركز الرّئيس لتوزيع منتجات التجارة الشّرقية، وهذا ما حاول القيام به الإمبراطوران ماركوس أورليوس، ثم سبتيميوس سيفيروس، ولكنّ حملتهما الاستعمارية باءت بالفشل ولم تضيف أيّة منطقة جديدة للرّومان. وقد تكبّد الرومان خلال هذه الحملات العديد من الخسائر في العتاد والرّجال.

كلمات مفتاحية: الأباطرة الرّومان، الدّولة الفرثيّة، بلاد الرّافدين، الإمبراطور تراجان، ماركوس إيليو أورليوس، سبتيميوس سيفيروس.

## المقدمة

كانت الدولة الفرثية تقف حجر عثرة في وجه السياسة الاستعمارية التوسعية الرومانية في الشرق، ولذلك كان الأباطرة الرومان يتطلعون إلى غزو الشرق، ولهذا فقد دخلوا في حرب وصراع قاس وطويل مع الدولة الفرثية استمرّ لمدة قرنين ونصف من الزمن (٩٢ق.م-٢١٧م)، قاموا خلال هذه الفترة بمحاولات عدّة للاستيلاء على عاصمتهم طيسفون، وأول تلك المحاولات قام بها الإمبراطور تراجان، فقد شجّعه على ذلك احتلاله لمنطقة حوض الدانوب وإخضاعها له بالقوة. فبعد أن أنهى حروبه في الجبهة الأوروبية بدأ بالتجهيز لحملة توسعية كبرى إلى الشرق في عام (١١٤م) لاحتلاله.

وقد تمكّن الإمبراطور تراجان من الوصول إلى العاصمة طيسفون دون أن تحدث أية معركة مع الفرثيين، فقد استخدم أسلوب المكر والخديعة في سبيل ذلك. وتمكّن من الوصول إلى سواحل خليج فارس في عام (١١٦م)، وهو أول وآخر إمبراطور روماني يصل إليه، وبذلك تحقّق هدفه في جعل الطريق من البحر المتوسط نحو الشرق الأدنى مفتوحاً. ولكن ذلك لم يستمر طويلاً، فقد تمكّن الفرثيون بقيادة خسرو من استعادة عاصمتهم وطرد الرومان منها.

ورغم فشل الحملة سياسياً، إلا أنّها أظهرت ضعف الدولة الفرثية، والسبب في ذلك يعود لانشغالهم في الصراعات الداخلية والوصول إلى العرش، كما وجّهت أنظار الرومان إلى غزو بلاد الرافدين واحتلالها، بوصفها المركز الرئيس لتوزيع منتجات التجارة الشرقية، وهذا ما حاول القيام به الإمبراطوران ماركوس أورليوس عام (١٦٢-١٧٠م) وسبتيميوس سيفيروس عام (١٩٥-١٩٩م). ولكن حملتهما الاستعمارية باءت بالفشل ولم تضيف أيّة منطقة جديدة للرومان. وقد تكبّد الرومان خلال هذه الحملات العديد من الخسائر في العتاد والرّجال.

### أولاً: الإمبراطور تراجان tragan (٩٨-١١٧م):

نشأته ووصوله إلى العرش:

هو أول إمبراطور يجلس على عرش الإمبراطورية الرومانية ينحدر من أصول غير رومانية وبالتحديد من إسبانيا. فقد ولد في المستعمرة الرومانية إيتاليكا قرب إشبيلية في إسبانيا عام (٥٢م)، وكان والده عضواً في مجلس الشيوخ. دخل تراجان إلى السلك العسكري صغيراً وتدرّج في

المراتب العسكرية حتّى وصل إلى رتبة قائد (بريتور) عام (٨٥م)، وخدم في الشّرق وألمانيا وصار قنصلاً عام (٩١م). لم يكن للإمبراطور ماركوس نرفا (٩٦-٩٨م) عند تولّيه عرش الإمبراطورية وريث، لذلك تبنّى رسمياً قائده تراجان الذي كان آنذاك يشغل منصب قائد فرق أعالي الراين وأشركه معه في الحكم عام (٩٧م) ومنحه لقب قيصر، وبعد وفاته عام (٩٨م) خلفه على عرش الإمبراطورية الرومانيّة، ويعدّ وصول تراجان للعرش بداية انتهاء سيادة أثرياء الإيطاليين والرومان واحتكارهم الوظائف العليا في الإمبراطورية الرومانيّة، وبداية تولّي طبقة من النبلاء والأعيان القادمين من الولايات الغربيّة. وشهد عهد تراجان ثورة اليهود الكبرى في عام (١١٥م)، التي بدأت في قورينه في بركة، وامتدّت إلى قبرص ومصر وفلسطين، إلّا أنّه قمعها بكلّ عنف ووحشية<sup>[١]</sup>.

كان تراجان عسكرياً ومحارباً ناجحاً من الطّراز الأوّل، وقد انتهج منذ اعتلائه عرش الإمبراطوريّة سياسة قائمة على التوسّع ووضع يد الرومان على كلّ منافذ التّجارة الشّرقية من سهول روسيا إلى البحر الأحمر، إلّا أنّ انشغاله بحروبه في جبهة أوروبا (شمالي نهر الدانوب) خلال الفترة من (١٠١-١٠٧م) جعله يصرف النّظر عن تحقيق ذلك الهدف، فسيطر على منافذ البحر الأسود وجنوب روسيا<sup>[٢]</sup>.

### ولاية سورية في عهد الإمبراطور تراجان

عندما احتلّ الإمبراطور الرومانيُّ بومبي مملكة سورية الطبيعيّة سنة (٦٤ق.م) جعلها تحت اسم واحد هو ولاية سورية بدلاً من مملكة سورية. وأصبحت عاصمتها أنطاكية، بينما جعل كيليكية ولاية مستقلّة بذاتها. وسمح للملوك العرب بالبقاء فيها، على أن تقتصر سلطتهم على ممتلكاتهم الأصليّة، وأن يدفعوا جزية سنويّة. ومع ذلك احتفظ ملك الأنباط بدمشق مقابل مبلغ ضخم من المال، ومنحت أنطاكية وسلوقية وغزة ومستعمرات أخرى الحكم الذاتي أيضاً، ووضعت تحت حكام الولايات.

وقد عدّت ولاية سورية ذات أهميّة مركزيّة خاصّة في الممتلكات الآسيوية، حتّى إنّها وضعت تحت الحكم المباشر لنائب القنصل الرومانيّ الذي يتمتّع بسلطات التّجنيد والاشتراك في الحرب،

[١]- حافظ، احمد غانم، الإمبراطوريّة الرومانيّة من النشأة إلى الانهيار، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية ٢٠٠٧م، ص ٦٦-٦٧.  
[٢]- جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، العلاقات الفرثيّة - الرومانيّة ٢٤٧ق.م - ٢٢٦م، ط ١، دار عدنان للطباعة والنشر، بغداد ٢٠١٧م، ص ١٠٠.

وعهد بها إلى بعض الموظفين الرومان البارزين، وكان أولهم أولوس غابينوس (٥٧-٥٥ ق.م.) مبعوث بومبي.

وفي عام (١٠٥م) احتل تراجان البتراء فألحقت بالإمبراطورية الرومانية تحت اسم الولاية العربية. ولما كانت سورية مركز القوة الرومانية في الشرق الأدنى، فإن الإدارة الرومانية أنشأت سلسلة من المراكز على طول حدود الصحراء، لحماية الأماكن التي كانت ذات حضارة مزدهرة ومأهولة بالسكان بصورة خاصة. وكان جنود هذه الحصون في الغالب من قوات احتياطية جاءت من القبائل الموالية.

وكان الطريق العرضاني بين الشرق والغرب الذي يصل مدن دجلة والفرات بمدن البحر المتوسط ماراً بتدمر يجتاز هذه المنطقة، وكان يعبرها طريق طولاني كبير سمّاه الرومان طريق الملك. ويبدأ هذا الطريق من دمشق فيمُرُّ في حوران إلى جلعاد ومنها إلى مؤاب ثم إلى الجنوب ليتصل بطريق قوافل الجزيرة العربية. وهذا الطريق الرئيس في شرقي الأردن الذي يعود إلى أواخر الألف الثاني ق.م قد رصفه تراجان واستخدمه طريقاً عسكرياً لفرق الجيش، ثم استعمله الحجّاج المسلمون بعد ذلك. وشجّعوا البدو على الاستقرار، وجعلوا سورية سوقاً عالمياً<sup>[١]</sup>.

### حملة الإمبراطور تراجان إلى الشرق ١١٤-١١٦م

استمرّ السلام قائماً بين الطرفين الفرثي<sup>[٢]</sup> والروماني عقب معاهدة رانديا<sup>[٣]</sup> مدّة (٥٠ عاماً). وبوفاة تيرداد الأول الملك الفرثي على أرمينيا عام (١٠٠م) انتهت مدّة السلام بين الفرثيين والرومان، وعلى

[١]- حتى، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ط ٢، ترجمة د. جورج حداد ود. عبد الكريم رافق، دار الثقافة - بيروت ١٩٥٨م. ص ٣٠٩-٣١٩.

[٢]- الفرثيون: أقوام آرية بدوية رعوية تسكن أواسط آسيا، عرفوا بهذا الاسم نسبة إلى الإقليم الذي نزلوا عنده بارثافا (parthava)، وقد استطاعوا أن يشكلوا دولة خاصة بهم عنده هناك وبتتويج أرساس أول ملك عليهم سنة ٢٤٧ ق.م، واستمرت قوتهم في تزايد حتى باتوا خطراً محدقاً بالسلاوقيين، إلا أن حكم الفرثيين لم يستتب إلا بعد مجيء الملك أرتبان الثاني سنة ١٢٦ ق.م، وعُدَّ هذا التأريخ عند بعض المؤرخين هو بداية الحكم الفعلي للفرثيين للعراق والذي دام قرابة ثلاثة قرون ونصف وكانت بدايته من سنة ١٢٦ ق.م حتى نهايته سنة ٢٢٧م. واتسمت هذه المرحلة الممتدة بين هذين التاريخين بصراع مستمر بين قوتين، الأولى الإمبراطورية الرومانية في الغرب، والثانية المملكة الفرثية في الشرق، حيث كانت كل قوة تسعى جاهدة للسيطرة وبسط النفوذ على المنافذ الرئيسة التي تتحكّم بطرق التجارة العالمية والمؤدية إلى بلاد الشام وبلاد الرافدين وكانت أرض الجزيرة ميداناً لهذه الحرب عندما تدور رحاها بين الطرفين. انظر:

Frye, R, N: The heritage of persia, London, 1966, p71.

[٣]- عقدت هذه المعاهدة بين ملك أرمينيا الفرثي تيرداد الأول والقائد الروماني كوربولو عام (٦٣م) في بلدة رانديا (قرب مدينة خربوط): وبموجبها اعترف الجانب الروماني بالملك الفرثي تيرداد الأول ملكاً على أرمينيا، بشرط أن يتم تنويجه من قبل الإمبراطور نيرون في روما نفسها. ومعنى ذلك أن أرمينيا أصبحت تابعة للنفوذ الروماني وأن الملك الفرثي يحكمها بصفته تابعاً لروما. انظر: جواد النوري، ميشم عبد الكاظم، المرجع السابق، ص ٩٥.

إثر ذلك أجلس الملك الفرثي باكور الثاني (٧٨-١٠٨ م) على العرش الأرميني ابنه اكسيدارس (١٠٠-١١٣ م) دون استشارة روما، أو حتى أخذ موافقة إمبراطورها تراجان، وبهذا يكون الفرثيون قد خرقوا معاهدة رانديا.

بعد فترة من إنهاء تراجان غزواته في داكيا «داقية» وجه اهتمامه لاحتلال الشرق، مستغلاً الفوضى التي تعيشها الحكومة الفرثية، ولتأكيد السيطرة الرومانية على أرمينيا من جديد. وكان أول أهدافه إعادة توطيد النفوذ الروماني على أرمينيا والسيطرة على منافذها التجارية وطرده النفوذ الفرثي منها، متخذاً من خرق الفرثيين معاهدة رانديا ذريعة لاستئناف نشاط روما الحربي ضدهم<sup>[١]</sup>.

وقد أعدَّ تراجان العدة للغزوة بدرجة عالية من الدقة والتنظيم، وفي خريف عام (١١٣ م) أبحر الإمبراطور تراجان من روما، وعند وصوله إلى مدينة أثينا<sup>[٢]</sup> قابل وفداً من أوزرويس الذي عرض عليه السلام. وعندما وصل تراجان بجيشه البالغ (١٠٠) ألف جندي إلى مقدونيا أرسل إليه الملك الفرثي خسرو (١٠٨-١٣٠ م) وهو أخو الملك باكور الثاني رسوله محملاً بالهدايا، وقدم إليه فروض الطاعة، وأنه سيعزل اكسيدارس ويعين بدلاً منه بارتامازيريس ابن ملكها السابق تيرداد الأول، وأنه سيتسلم التاج من يد الإمبراطور مثلما فعل والده من قبل. ولكي لا يترك للفرثيين مجالاً للاستعداد لمواجهته، قبل تراجان الهدايا إلا أنه لم يعط جواباً شافياً لرسوله، وإنما اكتفى بالإجابة بأنه سينظر في المسألة بعد دخوله سورية<sup>[٣]</sup>. ومن خلال ذلك يبدو أن تراجان كان مراوغة - محتالاً ويخفي نية الغدر ضد خسرو.

كانت المرحلة التالية لغزوة تراجان عبر بحر إيجه إلى إفسوس Ephesus، المركز التجاري العظيم إلى الغرب من جبال طوروس، ومن أفسوس توجه بالطريق البري عبر أنطاليا، ثم تابع تراجان بالسفن عبر الطريق الساحلي لمدن آسيا الصغرى إلى سلوقية بيريا (Pieria Samandage)، ميناء أنطاكية، وعندما وصل في نهاية شهر كانون الأول حضر هادريان لمقابلته، ثم ذهبوا سوياً إلى قرب جبل كاسيوس، حيث كرس الإمبراطور الغنائم من حرب داكيا إلى الإله زيوس بالابتهاج للإله

[1]- Debevoise. N. C., A political history of Parthia, The university of Chicago, 1938. Pp 217 - 219.

[٢]- أثينا: هي عاصمة اليونان وأكبر مدنها، يعود اسم المدينة إلى آلهة الحكمة الإغريقية أثينا. تقع في جنوبي اليونان على سهل أثينا بين نهري إليسوس وكينيسوس محاطة بثلاث جهات بالجبال والجهة الرابعة تطل على خليج زارونيش الواصل إلى البحر المتوسط. انظر: مرعي، عيد، رحلة في عالم الآثار "آثار يونان ومدن أثرية"، ط ١، دار روافد للثقافة والفنون، دمشق ٢٠١٠م، ص ٨١-٨٢.

[3]- Griffin . M., Nerva to Hadrian, the Cambridge ancient history, second edition, volum XI, Cambridge university press 2008. P124.

من أجل الوقوف إلى جانبه في غزوته القادمة، ودخل بعد ذلك إلى أنطاكية في شهر كانون الثاني عام (١١٤م)<sup>[١]</sup>.

وقد تمكن هادريان من جمع جيش كبير من مناطق مختلفة من سورية عند أنطاكية<sup>[٢]</sup> للغزوة القادمة، ومن المحتمل أن تراجع باقي في المدينة حتى بداية نيسان، ثم عبر شمالاً إلى أرمينيا عبر جبال طوروس. خلال هذه الفترة استخدمت أنطاكية مركز عاصمة للإمبراطورية الرومانية في الشرق، وكان الإمبراطور مشغولاً بالتجهيز للغزوة ضدّ الفرثيين، ودخل أيضاً في مفاوضات دبلوماسية مع الممالك التي تقع في طريقه إلى الفرثيين، وفي البداية استلم رسالة من أبجر السابع ملك أوسروين<sup>[٣]</sup> الذي تقاعس في المجيء شخصياً على أمل أن يبقى محايداً، لكنه أرسل هدايا ورسالة صداقة، وجاء رسل آخرون من مانوس ملك الجزيرة السورية وسبوراسيس Sporaces حاكم مملكة قريبة من انثيموسيا Anthemusia. بعد ذلك ترك الإمبراطور الفرق العسكرية للتوجه إلى ساتالا (في منطقة البحر الأسود في تركيا (Satala Kelkit))، لجعلها قاعدة لغزوته المختارة لمدة سنة، وترك هادريان في المؤخرة لإدارة المنطقة المهمة استراتيجياً ولوجستياً في سورية<sup>[٤]</sup>.

وقد انطلق تراجعاً من أنطاكية إلى ساتالا في مرحلتين، المرحلة الأولى التي أخذها تراجعاً عن طريق حلب إلى قلعة البيرة (أو بيره جك في جنوب شرقي تركيا حالياً، كانت تابعة لحلب)، بعد عبوره إلى الضفة اليسرى للفرات زحف إلى ملطية، ووصل إلى قلعة ملطية Melitene فاحتلها ونهبها. وفي هذه الأثناء استلم تراجعاً رسالة من بارتامازيريس يقترح فيها أن يأتي إلى الإمبراطور مع التاج الملكي الأرميني، ولم يقبل الإمبراطور بهذا، لكن بدلاً من ذلك أرسل ابن جونيوس هومولوس وفوضه للمناقشة وللتأكد من الرسائل المقدّمة من قبل بارتامازيريس، واستمرّ تراجعاً في المرحلة الثانية في مسيره إلى ساتالا، عبر الفرات مرةً ثانية، وبعد ذلك تجاوز معبر إيلزيك إلى

[1]- Bennett . J., Trajan Optimus Princeps, A life and times. Routledge, London and New York, 1997. P194.

[٢]- أنطاكية: هي مدينة أنطاكية الحالية في شمال غربي سورية في منطقة لواء إسكندرون بالقرب من ساحل البحر المتوسط. وقد كانت في العصر الإمبراطوري الروماني ثاني أكبر مدينة في العالم بعد روما. أسست المدينة من قبل القائد العسكري سلوقس الأول نيكاتور (٣٥٨-٢٨٠ ق.م) على الضفة اليسرى لنهر العاصي قبل مصبه في البحر المتوسط بمسافة قصيرة في سنة ٣٠١ ق.م. انظر: مرعي، عيد، المرجع السابق، ص ١١٥.

[٣]- مملكة أوسروين: كانت هذه المملكة تقع في شمال غربي الجزيرة السورية بين نهري الفرات والخابور، وقد استفلت عن السلوقيين في القرن الثاني قبل الميلاد، وصارت مملكة مستقلة وعاصمتها مدينة الرها. انظر: الجنزوري، عليّة عبد السميع، إمارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ٢٠٠١ م، ص ٢٨.

[4]- Bennett . J., op . cit, pp194- 195.

جنوبي مدينة أرمينيا أرساموسا (Arsamosata Palu) التي احتلّت دون مقاومة، ثمّ تابع طريقه إلى الشمال عبر معبر بولومور، وعبر الفرات مرّة أخرى، وبعد مسيرة يوم وصل إلى ساتالا في نهاية شهر أيار عام (١١٤م)<sup>[١]</sup>.

وفي ربيع السنّة نفسها توجّه الإمبراطور إلى أرمينيا، ولمّا علم ملك أرمينيا بارتامازيريس بمسيره إلى بلاده أرسل إليه عرض عليه أن يتوجّه ملكاً عليها، فقام تراجان بخداعه وتظاهر بقوله بذلك العرض، وسار إليه بارتامازيريس ليعلن ولائه، فالتقى به في بلدة اليكيا<sup>[٢]</sup> الواقعة إلى الغرب من مدينة أرضروم، فقام بارتامازيريس بخلع التاج عن رأسه ووضع عند أقدام تراجان معتقداً أنّه سيعيده إليه ويتوجّه به ملكاً على أرمينيا، إلّا أنّ تراجان لم يُعده إليه بل عزله عن الحكم، ولم يكتف تراجان بذلك بل أرسل كتيبة من الفرسان الرومان خلفه وأمرهم بقتله في طريق عودته، بالإضافة إلى صفات المكر والخداع التي تميز بها تراجان فلم يكن ينقصه الغدر، وواصل بقوّاته المدجّجة بالسلاح والرّجال إلى أرمينيا التي لم تستطع قوّاتها المقاومة، فاحتلها وعيّن عليها قائده الرومانيّ كاتليوس سيفيروس، وأعلن أرمينيا ولاية رومانية في صيف عام (١١٤م)، وأطلق عليه مجلس الشيوخ لقب اوبتيموس optimus أي العالي<sup>[٣]</sup>.

وبعد أن وطّد تراجان الأمن في أرمينيا قرّر الزحف جنوباً باتجاه العاصمة طيسفون<sup>[٤]</sup>، وفي بداية عام (١١٥م) احتل ماردين ونصيبين وتوجّه نحو الرها<sup>[٥]</sup>، وعندما وصل تراجان هذه المدينة سارع أبجر السابع حاكمها لاستقباله بالهدايا النفيسة التي تضمّنت (٢٥٠) حصاناً وفارساً مدرّعين، تغييراً عن ولائه وخضوعه له، وهذا يعني أنّ الرها استسلمت طوعاً لتراجان<sup>[٦]</sup>.

ثمّ تابع تراجان طريقه ووصل في صيف عام (١١٥م) إلى شمال بلاد الرّافدين، وتجهّز لضمّها

[1]- Bennett . J., op . cit, p195.

[٢]- أليكيا : تقع على بعد ١٨٠ كم شرق ساتالا، و٣٠٠ كم غرب عاصمة أرمينيا أرتاكساتا (أرتاسات Artasat). انظر : Ibid, p196 [٣]- جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، حملات الأباطرة الرومان (تراجان، ماركوس أورليوس، سبتيميوس سيفيروس) على العراق، مجلة الأستاذ، ملحق العدد الخاص بالمؤتمر العلمي الثالث، جامعة بغداد - كلية التربية ٢٠١٥. ص ١٩٢-١٩٣.

[٤]- مدينة طيسفون: تقع طيسفون (المدائن) في وسط العراق على نهر دجلة مقابل مدينة سلوقية (تل عمر). بناها الفرثيون في القرن الثاني قبل الميلاد وبقوا فيها حتى العصر الساساني. انظر: مظلوم، طارق عبد الوهاب: المدائن (طيسفون)، مجلة سومر - مج ٢٧، الجزء ١-٢، منشورات مديرية الآثار العامّة العراقية - بغداد ١٩٧١، ص ١٢٩.

[٥]- مدينة الرها: كانت عاصمة مملكة أوسروين، وقد حملت عدّة أسماء عبر تاريخها، فقد عرفت في العصور الكلاسيكية باسم إديسا، واسمها السرياني أورهي والاسم الآرامي أورهاي، ومنها اشتقت التسمية العربية القديمة الرها. واسمها الحالي أورفا التي تقع جنوب شرق تركيا اليوم. انظر: الجنزوري، عليّة عبد السمیع، المرجع السابق، ص ٢٨.

[6]- Debevoise . N. C, A political history of Parthia, The university of chicago, 1938. P227.

إلى الإمبراطورية الرومانية، وخلال هذه الفترة احتل القائد لوسيوس كويتوس ماردي، وتابع جنوباً إلى مملكة اديابين (حدياب، مملكة قديمة شبه مستقلة موالية للفرثيين تقع شمال بلاد الرافدين)، حيث قاتل وهزم الملك ميبارسابيس Mebarsapes، وبعد ذلك زحف تراجان إلى جنوبي بلاد الرافدين<sup>[١]</sup>.

وفي طريقه أرسل إليه مانوس Mannus ملك قبائل الجزيرة العربية رسلاً للترحيب به وعرض السلام عليه، لكنّ عروضه كان فيها بعض الشك؛ لأنّه كان قد ساعد ودعم ميبارسابيس ضدّ لوسيوس كويتوس، وقد اقترح مانوس على تراجان ضرورة الوقوف معاً ضدّ عدوهم المشترك اوزرويس، الذي استولى على أجزاء من أرمينيا وبلاد الرافدين، لكنّ تراجان رفض التفاوض مع مانوس حتّى يأتي إليه شخصياً، ولكنّ الأخير رفض ذلك أيضاً خوفاً من غدر تراجان، بعد ذلك ترك الأمر إلى لوسيوس كويتوس في أديابين، الذي اقترح على مانوس أن يقابله هناك، وفي النهاية توصّلوا إلى نتيجة يبدو أنّها كانت مرضية للجميع، وقد سمح له لوسيوس أن يمتلك بسلام مدينة القبائل العربية سنجارا ومدناً أخرى، ومن المحتمل أنّها شملت مدينة دورا أوروبس<sup>[٢]</sup>، وهكذا أكمل تراجان احتلال بلاد الرافدين<sup>[٣]</sup>.

وعند نهاية صيف عام (١١٥م) ترك تراجان في مدينة نصيبين مجموعة من المهندسين لبناء سفن لعبور نهر دجلة، وعاد إلى أنطاكية لقضاء فصل الشتاء فيها، وخلال إقامته فيها حدث زلزال مدمر في شهر كانون الثاني من السنة نفسها، ويقال إنّه أهلك نصف أهلها، وكاد تراجان أن يفقد حياته فيه، واضطّر أن يخرج منها ويعسكر في ساحة في الهواء الطلق<sup>[٤]</sup>.

لكنّ تلك الكارثة لم تمنعه من متابعة غزوته باتجاه العاصمة طيسفون، ولذا سار في عام (١١٦م) إلى نصيبين، وأمر أن تحمّل القوارب التي صنّعت فيها على عربات إلى جزيرة بازبدي، وقد مكّنته تلك القوارب من عبور نهر دجلة والوصول إلى كوكملا التي لم تقو على مقاومتها، فاستسلمت

[1]- Ibid, p226.

[٢]- دورا أوروبس: تقع أطلالها اليوم التي تعرف باسم آثار الصالحية على الضفة اليمنى لنهر الفرات، على بعد نحو ٣٠ كم غربي مدينة البوكمال السورية. بناها الملك السلوقي سلوقس الأول (٣٢٣-٢٨٠ ق.م). استولى عليها الفرثيون في سنة ١٠٠ ق.م وصارت في عهدهم مدينة قوافل مزدهرة. وفي عام ١٦٥م استولى عليها الرومان وأصبحت حصناً حدودياً. وبعد عام (٢٥٦م) استولى عليها الملك الساساني سابور الأول (٢٤١-٢٧٢م) ودمرها. وفي الوقت الحاضر تعرّضت للتخريب والتدمير على يد العصابات الإرهابية. انظر: سلهب، زياد، آثار العصور الكلاسيكية الإغريقية، منشورات جامعة دمشق ١٩٩٨م، ص ٩١.

[3]- Bennett . J, op . cit, p 199.

[4]- Debevoise . N. C, op. cit, p 230.

له كما استسلمت له مملكة أديابين (حدياب) التي هرب عنها ملكها، وبدلاً من أن يزحف مباشرة إلى العاصمة طيسفون عبر نهر دجلة واتّجه غرباً قاطعاً الصّحراء التي تفصل بين النهرين جنوبي الموصل ماراً بمدينة الحضّر<sup>[١]</sup>، وبعد أن قدّمت ولاءها واعترفت بسيطرتها، تركها ووصل إلى نهر الفرات، فاتّصل بأسطول ثان كان قد انحدر في النهر، ثمّ أقلع به إلى مدينة بابل<sup>[٢]</sup>.

وقد بقي الملك الفرثي باكور يراقب الأحداث عن كثب، ودخل تراجان طيسفون في ٢٠ شباط عام (١١٦م)، فهرب الملك الفرثي باكور عنها تاركاً عرشه وكنوزه وأفراداً من عائلته، ومنهم ابنته التي أرسلها تراجان مع التاج الفرثي الذهبي وغيره من الكنوز التي نهبها إلى أنطاكية، وفرض تراجان جزية من جديد على المنطقة التي احتلها، وأصدر عملة حوالي هذا الزّمن تحمل عبارة (ARTHIA CAPTA)، وبعد احتلال طيسفون أبحر الإمبراطور تراجان إلى أسفل دجلة باتّجاه خليج فارس بأسطول يتألّف من خمسين سفينة<sup>[٣]</sup>. وكان الإمبراطور تراجان أوّل وآخر إمبراطور روماني يصل إلى خليج فارس، وبذلك حقّق هدفه في جعل الطريق من البحر المتوسط نحو الشّرق الأدنى مفتوحاً.

إلّا أنّه لم يلبث أن يلتقط أنفاسه بعد هذه الغزوة الطويلة ويقطف ثمارها، حتّى سمع في السّنة نفسها بأخبار عن هجوم جيش الملك الفرثي خسرو على القوّات الرومانيّة في جميع المناطق التي كانوا قد احتلوها. ويذكر أنّ خطّة الملك الفرثي خسرو قامت على تقسيم جيشه إلى ثلاث فرق تهاجم القوّات الرومانيّة من ثلاث جهات؛ الفرقة الأولى كانت بقيادة ابنه بارتامازيريس، ومهمّتها مهاجمة القوّات الرومانيّة الموجودة في ميديا وأرمينيا وأديابين، والفرقة الثّانية أوكل قيادتها إلى أخيه مهردار، ومهمّتها مهاجمة القوّات الموجودة على طريق الفرات، وقطع الاتّصال بينها وبين القوّات الموجودة في سورية، أمّا الفرقة الثّالثة فكانت بقيادة خسرو نفسه، ومهمّتها الهجوم على طيسفون العاصمة، ويبدو أنّ الهجمات الفرثيّة قد أوقعت خسائر فادحة في صفوف الجيش

[١]- مدينة الحضّر: (الحضّر مدينة الشمس) كتبت هذه العبارة على أحد أوجه العملة الحضريّة مع صورة نسر رمز إله الشمس الذي نسبت إليه هذه المدينة، وعلى الوجه الآخر من العملة صورة الإله شمس بهيئة شاب حوله هالة مشعّة. وهي مدينة عربيّة النشأة وحاضرة مملكة عربايا (العرب). برزت أهميّة هذه المدينة من موقعها الاستراتيجي على الطريق بين العاصمتين سلوقية على نهر دجلة وأنطاكية في لواء إسكندرون على البحر المتوسط شمال سورية. ونظراً لموقعها الاستراتيجي المهم فقد سيطرت على قوافل التجارة العالميّة التي تمرّ بأرض الجزيرة العربيّة. كما تعدّ مركزاً دينياً رئيساً يضم أكبر المعابد والمزارات الدينيّة. بالإضافة إلى ذلك كانت تمتلك قوّة عسكريّة وسياسيّة ممّا جعلها تقف سدّاً منيعاً في هذه الفترة الفرثيّة الرومانيّة، وكانت مصدر قلق لكلّ قائد روماني يحاول الوصول إلى العاصمة طيسفون. انظر: القيسي، منى عبد الكريم حسين، أسوار المدن والقلاع في بادية الجزيرة في عصر ما قبل الإسلام، دراسة عماريّة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب ٢٠٠٧م. ص ٤٥-٤٧.

[٢]- جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ١٩٤.

[3]- Debevoise, N. C, op. cit, pp233- 234.

الرومانيّ وأخذت منهم الأسلاب والغنائم التي كانوا قد نهبوا في غزوتهم. وقد أسرع تراجان بالعودة إلى طيسفون، واستفاد من وفاة مهرداد أخي الملك خسرو والخلاف الذي دار بين ابنه سنتروك الذي تولّى قيادة الجيش بدلاً منه وبين ابن الملك خسرو المدعو بارتامازيريس، فأوعز إلى قائديه كلاروس ولوسيسوس كويتوس بإعادة احتلال المناطق التي حررها القائدان الفرثيان فتمكّنّا من إعادة أرمينيا إلى تبعيّة الرومان، وتعرّضت سلوكية<sup>[١]</sup> ونصيبين والرها للنهب والحرق والتدمير على يد القوات الرومانية<sup>[٢]</sup>.

وبعد ذلك الانتصار قرّر تراجان العودة إلى بلاده خوفاً من أن يتعرّض إلى هجوم جديد من قبل الفرثيين، إلّا أنّه أراد تأكيد تبعيّة ملك الفرثيين له، فاستمال إلى جانبه بارتامازيريس ابن الملك خسرو ونصّبّه على العرش في طيسفون، وتأكيداً لتلك التبعية سكّ نقوداً نقش عليها عبارة (Rex Parthis Dtus بادشاهي اعطائي به بارث) أي حكومة بارت العطائية، ومنح لقب بارثيكوس (أي فاتح بارثيا) من قبل مجلس الشيوخ، وقدم الابتهاالات لأجل سلامته، وبعد ذلك عاد تراجان إلى سورية، وقبل وصوله إليها عرّج على مدينة الحضر فضرب عليها حصاره محاولاً احتلالها، فاستغلّ الملك الفرثي خسرو ذلك، وعاد في ربيع عام (١١٦ م) إلى طيسفون، وتمكّن من استعادة سلطته عليها بعد أن فرّ عنها ابنه بارتامازيريس إلى الرومان، واستطاع استعادة سيطرته على المناطق الجنوبية من أرض الجزيرة الفراتية، أمّا المناطق الشمالية منها، وكذلك إقليما اديابين وأرمينيا، فلم يتمكّن من استعادتها إلّا بعد وفاة تراجان عام (١١٧ م)<sup>[٣]</sup>.

لقد كان تراجان طموحاً إذ اندفع في غزواته التوسّعية الاستعمارية، لكنّ هذا التوسّع كلّفه حياته وكلف الإمبراطورية شللاً عسكرياً بعد أن اتّسعت كثيراً، وأصبحت بحاجة إلى طاقة عسكرية لتدافع بها عن ممتلكاتها تلك<sup>[٤]</sup>، وعلى الرغم من فشل حملة تراجان في السيطرة على أرض بلاد الرافدين إلّا أنّها أثمرت نتائج مهمّة، منها تحقيق حلم الرومان في السيطرة والإشراف على طرق التجارة المارّة بمناطق نفوذ الفرثيين، ومن جانب آخر كشفت عن ضعف الدولة الفرثية، وولّدت فكرة غزو

[١]- سلوكية: تقع مدينة سلوكية على الضفة اليسرى لنهر دجلة مقابل مدينة طيسفون، أسسها السلوقيون لتكون عاصمة لهم وأسموها سلوكية نسبة إلى الإمبراطور سلوقس الأول الذي خلف ألكسندر المقدوني. وتعدّ مركزاً رئيساً للتجارة في المنطقة آنذاك. انظر: القيسي، منى عبد الكريم حسين، المرجع السابق، ص ٤٢.

[٢]- جواد النوري، ميشم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ١٩٥.

[3]- Bennett. J, op.cit, p199.

[٤]- حافظ، احمد غانم، المرجع السابق، ص ٦٦-٦٧.

بلاد الرافدين عند الأباطرة الرومان بوصفها المركز الرئيس لتوزيع منتجات التجارة الشرقيّة، وهذا ما حاول القيام به الإمبراطور ماركوس أورليوس ثمّ الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس<sup>[١]</sup>.

## ثانياً: الإمبراطور ماركوس أورليوس (١٦١-١٨٠م)

### نشأته ووصوله إلى العرش

هو ماركوس اينوس فيروس من أصل إسبانيّ ولد في روما، وينحدر من أصول ملكيّة، فجدهّته لأبيه روبيلة فاوستينا كانت الإمبراطورة الرومانيّة وزوجة الإمبراطور هادريان (١١٧-١٣٨م)، وعمّته فاوستينا الكبرى كانت زوجة الإمبراطور أنطونيوس بيوس، الذي تبناه وزوّجه من ابنته وصار يعرف بماركوس إيليويس أورليوس<sup>[٢]</sup>.

في عام (١٣٩م) أنعم أنطونيوس بيوس على ماركوس أورليوس بلقب قيصر، فكان ذلك بمنزلة إعلانه خليفة له رسمياً، وكان ماركوس مريداً مخلصاً للرواقية التي كان قد تلقى دروسها في شبابه ورغم فكره الرواقي، إلا أن ممارسته للسلطة لم تنسجم مع هذا الفكر، فقد كان شديد التعلق بالحكم، مستبدّاً براهيه، متعتّاً في توريث ولده للجكم رغم عدم صلاحيته.

بعد وفاة الإمبراطور أنطونيوس بيوس عام (١٦١م) تولّى ماركوس أورليوس عرش الإمبراطوريّة، وخلال السّنوات الأولى من حكمه أشرك معه في الحكم أخاه بالتبنيّ لوكيوس أورليوس فيروس الذي كان قد تبناه الإمبراطور أنطونيوس بيوس أيضاً، وقد حكما بصورة مشتركة وبالتعاون خلال السّنوات (١٦١-١٦٩م)<sup>[٣]</sup>.

### حملة ماركوس أورليوس إلى الشرق (١٦٢-١٧٠م)

في شتاء عام (١٦١م) وصلت إلى روما أخبار عن ثورة في الشرق ضد الاحتلال الروماني، فقد أعلن الملك الفرثي بلاش الثالث (vologese III ١٤٨-١٩١م) الحرب على الرومان، فأوعز إلى قائده خسروف لمهاجمة أرمينيا وتحريرها من يد الرومان، فاستولى على عاصمتها أرتاكساتا، وطرد منها ملكها سوهيموس (١٤٠-١٧٨م) وعيّن بدلاً منه الأمير الفرثي باكور (١٦١-١٦٤م)، وسار حاكم كبدوكيا الرّوماني سفريانوس للتصدي للثوّار، ولكنّه هُزم عند أليكيّا القرية من أرضروم،

[١]- جواد النوري، ميشم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ١٩٦.

[٢]- جواد النوري، ميشم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، ص ١٩٦.

[٣]- حافظ، احمد غانم، المرجع السابق، ص ٧١-٧٢.

وبعد هذا النصر وفي عام (١٦٢م) عبرت القوّات الفرثيّة نهر الفرات غرباً واندفعت نحو سورية، وأجبرت حاكمها الرومانيّ أتيديوس كورنيلينوس (١٥٦-١٦٢م) على التّفهقر والهرب من أمامهم<sup>[١]</sup>. وقرّر الأخوان ماركوس ولوسيويس أنّ واحداً منهما يجب أن يذهب في حملة إلى الشرق شخصياً، وقد وافق مجلس الشيوخ على ذهاب لوسيويس إلى الشرق وأن يبقى ماركوس في روما.

بدأ لوسيويس الغزوة إلى الشرق في صيف عام (١٦٢م) على رأس جيش بلغ تعداداه (٧٥) ألف جنديّ، وكانت الرّحلة إلى الشرق عن طريق كورينثة وأثينا، بعد ذلك أخذ لوسيويس سفينة عبر بحر إيجه وأخيراً وصل إلى أنطاكية عن طريق المدن الساحليّة في آسيا، ويبدو أنّ لوسيويس أورليوس لم يكن أهلاً لتلك القيادة، فقد كان ماجناً لاهياً ينجرف وراء شهواته ومداعبة النّساء، فأرسل ماركوس أورليوس بدلاً منه ستاتيويس بريسكوس ليأخذ قيادة الغزوة إلى الشرق، إذ وصل إلى كابدوكيا في عام (١٦٣م) وتمكّن في طريقه من تحقيق مكاسب للجيش الرومانيّ، فبينما كان ستاتيويس بريسكوس يحتلّ أرمينيا قام الفرثيون بنخلع مانوس، الحاكم الروماني على أوسروين، الإمارة الشماليّة الغربيّة لبلاد الرّافدين مع عاصمتها الرها، وكان الرّد الرومانيّ الأوّل أن تتحرّك القوّات عبر الفرات باتجاه أسفل المجرى، وقد دخلت قوّات رومانيّة أخرى إلى أوسروين من أرمينيا، واحتلّت أنثيموسيا Anthemusia، جنوب غرب الرها، وكانت هذه القوات بقيادة م. كلاوديوس فرونتو وقائد آخر يدعى ب. مارتيويس فيروس الذي خدم تحت إمرة بريسكوس. وكان بريسكوس في الوقت نفسه يقود إحدى القوّات السوريّة.

وقد شهدت العمليّات العسكريّة بعض الهدوء في عام (١٦٤م)، فقد كانت القوّات الرومانيّة تستعدّ للهجوم على أرض الفرثيين، وكانت أرمينيا تحت السّيطة الرومانيّة، إذ أسّسوا فيها عاصمة جديدة تُدعى كاني بوليس لتحلّ محلّ القديمة أرتاكساتا التي تبعد عنها نحو (٣٠ ميلاً)، وقد كان موقعها أكثر استراتيجيّة، وتمكّنت القوّات الرومانيّة من أسر ملكها الفرثي، وأعادوا إلى عرشها حاكمها السّابق سوهيموس، الذي توجّ ملكاً على أرمينيا من قبل الرومان<sup>[٢]</sup>.

وفي عام (١٦٤م) هاجم بريكسوس منطقة أديابين، وبعد أن تمكّن من احتلالها هاجم مملكة أوسروين واحتلّها أيضاً، فأصبح شمال غرب الجزيرة الفراتيّة تابعاً للرومان، وأصبحت حدودهم

[١]- جواد النوري، ميشم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ١٩٦.

[2]- Birley . A, Marcus Aurelius A biography, Routledge, Taylor- francis e - library, 2000. Pp123-131.

تصل إلى نهر الخابور، وحقّق الرومان انتصارات أخرى على الفرثيين في سورية، إذ تمكّن القائد الرومانيّ الذي أصبح حاكماً على سورية فيما بعد أفيدوس كاسيوس عام (١٦٤م) من التّصدي للفرثيين في سورية، وأجبرهم على الانسحاب منها إلى مدينة دورا أوروبس على نهر الفرات، وهم في حالة من الفوضى والإرباك في الصّفوف، فاستغلّ القائد الرومانيّ ذلك، واستمر في ملاحقتهم، وبعد عدّة معارك معهم تمكّن من احتلال المدينة<sup>[١]</sup>.

وفي عام (١٦٥م) اندفع الرومان نحو بلاد الرافدين، وكانت الرها في الشمال محتلة، وأعاد الحاكم الرومانيّ مانوس احتلال إمارة أوسروين، وطارد جيش رومانيّ الفرثيين شرقاً إلى نصيبين التي كانت محتلة أيضاً، وعندما انسحب الفرثيون وصل إلى دجلة قائدهم خسرو Chosrhoes الذي تمكّن من الهرب بالسباحة في النهر والتجأ إلى كهف، وكان هذا القسم من الحملة بقيادة مارتوس فيروس، وفي هذه الأثناء زحف أفيدوس كاسيوس إلى الفرات الأوسط، وحدثت المعركة الرئيسة في دورا أوروبس، المدينة الإغريقية الأصل التي أعيد تحصينها من قبل الفرثيين، وخلال نهاية السنة جلب كاسيوس رجاله إلى الجنوب وتحرك عبر بلاد الرافدين عند نقطة ضيقة غرباً للهجوم على المدينتين التوأمتين على دجلة، سلوقية على الضفة اليمنى والعاصمة الفرثية طيسفون على الضفة اليسرى، وقد رحبت سلوقية بالرومان وفتحت لهم أبوابها، ما جعل الطريق مفتوحاً أمام أفيدوس كاسيوس الذي تمكّن من احتلال طيسفون ونهب وإحراق قصر ملكها بلاش الثالث، لكنّ كاسيوس سمح للجيش الرومانيّ بتدمير سلوقية ونهبها<sup>[٢]</sup>.

وفي هذا دليل على أن الرومان انتهجوا في سياستهم ضدّ الشّرق سياسة الكذب والخداع والغدر من أجل تحقيق سياستهم الاستعماريّة في التوسّع على حساب الشعوب الأخرى، كما فعل تراجان من قبل عندما أعطى الأمان لملك أرمينيا الفرثي بارتامازيريس، وبعد ذلك أمر بقتله، واحتلّ أرمينيا وأعلنها ولاية رومانيّة.

في عام (١٦٦م) اقتحم الرومان المملكة الفرثية للمرّة الثّانية، وهذه المرّة كان الهجوم عبر شمالي دجلة إلى داخل ميديا، وقد حقّقوا عدّة انتصارات لجيوش كاسيوس بقيادة لوسيوس لتأخذ عنواناً آخر ميديكوس، وأرسل الرّسل إلى روما لإعلان النّصر، وقد لُقّب ماركوس أورليوس من قبل

[١]- جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ١٩٧.

[2]- Birley . A, op.cit, p140.

مجلس الشيوخ (بارثيكوس ماكسيموس) أي أعظم منتصر على الفرثيين أو سيّد الفرثيين<sup>[١]</sup>.

في هذه الأثناء بدأ جيش أفيدوس كاسيوس يعاني من نقص في المؤونة والتجهيزات ومن ولاء الطاعون الذي فتك بالجيش الروماني في سلوقية، وقد حاول ماركوس أورليوس الذهاب إلى الشمال شخصياً في عام (١٦٧م)، لكنّه توقّف عن ذلك بسبب انتشار ولاء الطاعون في جميع أنحاء بلاد الرافدين، فاضطرّ كاسيوس إلى إنهاء عمليّاته العسكريّة والانسحاب من العاصمة طيسفون، ويقال إنّ كاسيوس جلب ولاء الطاعون معه إلى تلك المناطق التي مرّ فيها في طريق عودته حتّى إلى روما.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أنّ هذا الوباء كان عقوبة إلهيّة للجيش الرومانيّة، الذين انتهكوا الاتفاقية مع سلوقية بعد أن كانت المدينة قد فتحت أبوابها للجند الرومان كأصدقاء، فقد قام كاسيوس وجنوده بسلب ونهب سلوقية. وبعد فشل حملة ماركوس أورليوس إلى الشرق وعودة الجنود الرومان إلى روما، بعد بضع سنين توفيّ ماركوس أورليوس في روما عام (١٧٥م)<sup>[٢]</sup>.

وعلى الرغم من ذلك لم يحاول الفرثيون استعادة أراضيهم، فقد اكتفى الملك بلاش الثالث باستعادة عرشه في طيسفون، وبقيت أرمينيا والمناطق الشماليّة الغربيّة من أرض الجزيرة الفراتيّة خاضعة لسيطرة الرومان حتّى عام (١٩١م) وهي سنة وفاة بلاش الثالث<sup>[٣]</sup>.

### ثالثاً: الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس (١٩٣-٢١١م)

#### نشأته ووصوله إلى العرش:

هو مواطن رومانيٌّ من أصل فينيقيٍّ من طبقة الفرسان، ولد عام (١٤٥م) في مدينة لبيتس ماجنا (مدينة لبدة في طرابلس حالياً) التي كانت جزءاً من ولاية إفريقيّة الرومانيّة، وبالرغم من أصله الفينيقيّ إلّا أنّه تلقى تعليماً رومانياً وثقافة لاتينيّة، فقد درس الفلسفة في أثينا والقانون في روما، وكان طموحاً متعطّشاً للجاه والسلطان، وكان كذلك شديد الإعجاب بماركوس أورليوس، تولى عرش الإمبراطوريّة وعمره ثمان وأربعون سنة، على إثر الفوضى التي عمّت أرجاء الإمبراطوريّة الرومانيّة بعد مقتل الإمبراطور كومودوس (١٨٠-١٩٢م) على يد الحرس البريتوري، إذ تنافس

[1]- Birley . A, op.cit, p144.

[2]- Ibid, pp144- 149.

[٣]- جواد النوري، ميشم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ١٩٧.

القادة العسكريون جوليانوس وجايوس وكلاوديوس بينوس وسبتيميوس سيفيروس فيما بينهم على عرش الإمبراطورية، وأخذ جنود كل إقليم بمبايعة قائدهم إمبراطورًا، فأعلن جيش الشرق قائدهم نيجر (١٩٣-١٩٤م) المقيم في سورية إمبراطورًا، في حين وقف الجيش المرابط في إقليم بانونيا إلى جانب قائدهم سبتيميوس سيفيروس، ونادوا به وريثًا على العرش الروماني، وقد حسم الأخير الأمر عندما دخل بجيشه إلى روما، وأعلن نفسه إمبراطورًا وعُرف هذا العام باسم عام الأباطرة الأربعة<sup>[١]</sup>.

رأى سيفيروس أن الجيش هو جوهر السُّلطة والحكم، وبناء على ذلك أعطى الجنود وضعًا متميزًا، وقد حصل الجنود في عهده على مزايا كثيرة منها زيادة رواتبهم ومنحهم الوظائف العليا المدنية والعسكرية ومنحهم أراضي زراعية... وغيرها<sup>[٢]</sup>.

### حملة الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس إلى الشرق (١٩٥-١٩٩م)

في عام (١٩١م) تولى عرش الدولة الفرثية بلاش الرابع (١٩١-٢٠٨م)، التي كانت تعاني من ضعف شديد، وقد حاول بلاش الرابع استغلال الظروف والحرب الأهلية التي كانت تشغل الرومان بطريقة دبلوماسية، فقد أرسل بلاش الرابع إلى الإمبراطور نيجر الذي أعلن نفسه إمبراطورًا في سورية عام (١٩٣م) رسله محمّلين بالهدايا، وعرضوا عليه تقديم المساعدة ضد منافسيه على أن يتخلّى عن سورية للفرثيين، ويبدو أن السبب في حملة سبتيميوس سيفيروس العسكرية إلى الشرق هو وقوف الفرثيين إلى جانب خصمه نيجر<sup>[٣]</sup>.

بعد أن تمكّن سيفيروس من إنهاء الحرب الأهلية في روما والقضاء على منافسيه وخصوصًا القائد نيجر عام (١٩٤م)، قرّر في ربيع عام (١٩٥م) التوجّه إلى الشرق للقضاء على الثوار وإعادة احتلال مناطق شمال غرب الجزيرة الفراتية ووضعها تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية، فعبر سيفيروس الفرات وزحف إلى منطقة الفرثيين، وعندما علم حكام تلك المناطق بذلك سارعوا إلى إرسال رسلهم إليه ليعلموا الولاء، وأن ثورتهم كانت ضد نيجر، وسيعيدون الغنائم والأسرى الرومان بشرط خروج الحامية الرومانية من أراضيهم، لكنّ العروض رُفضت؛ لأنّ الحكام لم يأتوا بأنفسهم، وعندما وصل الإمبراطور إلى الرها انضم حاكمها أبجر التاسع إلى سيفيروس، وأعطى أبناءه رهائن،

[١]- حافظ، أحمد غانم، المرجع السابق، ص ٧٣.

[٢]- م.ن، ص ٧٤.

[3]- Debevoise . N. C, op. cit, p256.

وكان المسير التالي للحملة إلى نصيبين، حيث أسس سيفيروس مراكزه الرئيسية.

بعد أن تمكن سيفيروس من احتلال نصيبين وضع فيها حامية عسكرية رومانية، وبقي في نصيبين، وقسم جيشه إلى عدة فرق لإخضاع بقية المناطق الثائرة تحت إمرة القادة ت. سيكستوس لايرانوس وتيب كلاوديوس كانديوس وب. كورنيليوس أنوليوس وبروبوس ولاتيوس. وكانت ثلاث فرق عسكرية من تلك تحت إمرة أنوليوس وبروبوس ولاتيوس، أرسلوا إلى مناطق بلاد الرافدين، فتمكّنوا من الاستيلاء على منطقة أديابين ومملكة أوسروين وجعلهما ملحقين بالإمبراطورية الرومانية، وبذلك عادت مناطق شمال غرب الجزيرة الفراتية إلى الاحتلال الروماني مرة أخرى، وقد منح سيفيروس عدة ألقاب إمبراطورية من قبل مجلس الشيوخ (Parthicus Arabicus - Parthicus Adiabenicus) بسبب هذه الانتصارات التي حقّقها في منطقة الفرات الأوسط وأديابين<sup>[1]</sup>.

وما كاد سيفيروس ينهي غزوته في الشرق حتّى اضطرّ إلى العودة إلى بلاده لمحاربة منافسه الثاني كلاوديوس البينوس، الذي استغلّ غياب سيفيروس وأعلن نفسه امبراطوراً عام (١٩٦م)، فقد تمكن سيفيروس من هزيمته وقتله في عام (١٩٧م)، وانتهز الملك الفرثي بلاش الرابع ذلك فعاود مهاجمة الحاميات الرومانية الموجودة في أديابين ومملكة أوسروين وتمكّن من استعادتهما وتحريرهما من الاحتلال الروماني<sup>[2]</sup>، ولكنّ بلاش الرابع لم يستطع تحرير نصيبين بسبب دفاع لاتيوس المستميت عنها، الذي حوَصر داخل المدينة، ولكن بلاش الرابع تمكّن من استعادة أرمينيا مرة ثانية، ثمّ تابع بلاش الرابع زحفه بجيش كبير ضدّ العدو الروماني الغادر والتقى به في خراسان، ولكنّ قواته حوصرت من جميع الجهات، وأخذوا على حين غرّة وأجبروا على ترك خيولهم وانسحبوا، لكنّ القوات الرومانية حاصرتهم في الجبال وقتلت عدداً كبيراً منهم، وعندئذ قام الجنود الفرثيون المخلصون بإعادة تنظيم الجيوش، والتفّوا على العدو وواجهوه بهجوم ساحق وأجبروه على الانسحاب إلى حدود بحر قزوين، وعاد الفرثيون إلى طيسفون بعد هذا الانتصار<sup>[3]</sup>.

بعد ذلك توجه بلاش الرابع لمعاوية ملك أديابين المدعوّ نارسيس Narses، الذي رفض الانضمام إلى بلاش الرابع في حملته على الجبهة الشرقية، ووقف إلى جانب القوات الرومانية المعادية، إذ اقتحم بلاش الرابع أديابين وأغرق نارسيس في نهر الزاب العظيم، وبعد إنهاء الإمبراطور سبتيميوس

[1]- Debevoise . N. C, op. cit, pp256-257.

[2]- جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ١٩٨.

[3]- Debevoise . N. C, op. cit, p258.

سيفيروس المشاكل في روما، ونتيجة لهذه التطورات في الشرق، بدأ في عام (١٩٧م) التجهيز للهجوم على الفرثيين أنفسهم، وعندما سمع الفرثيون بذلك استعدوا للتصدي لهذه الحملة، وشكلوا ثلاث فرق عسكريّة، وفي نهاية عام (١٩٧م) غادر سيفيروس مع جيشه ميناء برونديسيوم Prundisium وأبحر مباشرة إلى سورية<sup>[١]</sup>.

وما إن سمع ملك أرمينيا ساناترويوكس بذلك حتّى سارع إلى الخروج لمصالحته معلناً خضوعه ودولته للرومان، ثمّ توجه سيفيروس جنوباً في طريقه إلى مملكة أوسروين التي ما إن علم ملكها أبجر التّاسع (١٧٩-٢١٦م) بزحف الإمبراطور نحوه حتّى خرج لاستقباله تعبيراً عن خضوعه وتبعيّه له، ولتأكيد تلك التبعيّة أبقى أولاده رهائن عند الإمبراطور، وبعد أن أصبحت أوسروين ولاية رومانيّة تقدّم واستولى على مملكة أديابين<sup>[٢]</sup>، وسار لإعادة احتلال نصيبين، وعندما سمع الفرثيون بوصوله انسحبوا أمامه دون مقاومة، وكان برفقة سيفيروس أخو الملك الفرثي بلاش الرّابع الذي كان يطمح بالعرش الفرثي بمساعدة الرّومان، وعاد إلى الفرات، وهناك جهّز سيفيروس القوارب لعبور دجلة إلى العاصمة طيسفون<sup>[٣]</sup>.

وبعد أن جعل سيفيروس شمال بلاد الرّافدين الغربي مقاطعة رومانية للمرّة الثالثة بدأ بتجهيز نفسه لاحتلال طيسفون، وفي عام (١٩٨م) قاد جيشاً نزل به في وادي دجلة وأسطولاً نزل به في وادي الفرات، وتمكّن من احتلال مدينتي بابل وسلوقية، ثمّ اقترب من طيسفون وفرض عليها حصاراً، وقد حدثت معركة حامية الوطيس بين سيفيروس وبلاش الرّابع، وسقطت العاصمة في النهاية بأيدي الرومان عام (١٩٨م)، وقد نكل الإمبراطور بسكان المدينة بكل وحشية، ولم يسلم منه حتى الأطفال والنساء والشيوخ الطاعنين في السن، فبعد أن نهبها أسر وقتل الكثير من رجالها، ويقال إنّ القتلى والأسرى من الرّجال والأطفال والنساء وصل إلى نحو (١٠٠) ألف شخص، وهكذا خلال قرن واحد تمكّن الرومان من أن يشقّوا طريقهم إلى داخل العاصمة طيسفون ثلاث مرّات<sup>[٤]</sup>.

وبسبب عمليّات النهب والتدمير الوحشي التي ألحقها الجنود الرّومان بمدينة طيسفون أصبحت المنطقة مهجورة وفقدت المنطقة مواردها الاقتصاديّة ومؤونتها، ولذلك فضّل الإمبراطور سبتيميوس

[1]-Debevoise . N. C, op. cit, p259.

[٢]- جواد النوري، ميشم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ١٩٩.

[3]- Debevoise . N. C, op. cit, p260.

[٤]- جواد النوري، ميشم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ١٩٩.

سيفيروس ترك العاصمة طيسفون والانسحاب عن طريق نهر دجلة إلى أنطاكية عاصمة سورية، وقد سار الجيش الروماني مرةً بالقوارب ومرةً على الأقدام على طول دجلة، وحاول سيفيروس في عام (١٩٩م) احتلال مدينة حاترا في طريقه ولكنه فشل، وقد خسر الإمبراطور العديد من الجنود ودُمّرت أدوات الحصار، لذلك انسحب سيفيروس إلى نصيبين لاستئناف الهجوم مرةً أخرى في السنة التالية بمخازن طعام أفضل وآلات حصار إضافية، ولكن الحملة الثانية لم تكن أكثر نجاحًا من الأولى، فقد استطاعت القوّات الرومانيّة في البداية تدمير سور حاترا، ولكنهم تشبّثوا بسبب هجوم معاكس من قبل شعب حاترا، ودُمّرت جميع أدوات الحصار الجديدة، وهُدّدت حياة الإمبراطور نفسه، وأعاد شعب حاترا بناء السور في الليل، وكان الجنود الرُّومان غاضبين بسبب الخسائر التي لحقت بهم في اليوم السّابق، ورفضوا الاستمرار في حصار حاترا، وقتل عدد كبير من القوّات السورّيّة الرومانيّة التي شاركت في الهجوم على حاترا، وبعد عشرين يومًا من النكسات قرّر سيفيروس ترك حاترا والعودة إلى أنطاكية<sup>[١]</sup>.

وقد تزامنت عودة سيفيروس إلى أنطاكية مع الاحتفال بالذكرى المئويّة لدخول تراجان إلى هذه المدينة، فأعلن أمام جنوده منح ابنه باسيانوس انتونينوس لقب أغسطس ليكون شريكه في الحكم وهو في سنّ الثالثة عشر، وألبسه العباءة الإمبراطوريّة، ومنح أخاه الأصغر جيتا لقب قيصر، وأغدق بهذه الاحتفالات المنح والعطايا على جنوده، ونادوا به لقب بارثيكوس ماكسيموس (أي الفاتح العظيم لمدن بارثيا وفتح بارت الكبير)، وسكّ نقودًا عليها صورته واسمه<sup>[٢]</sup>.

### نتائج حملة سبتيميوس سيفيروس إلى الشرق

لا يمكن أن ترضي حملة سيفيروس إلى الشرق أيّة وجهة نظر سياسيّة أو شخصيّة، فلم تضيف أيّة منطقة جديدة إلى الجانب الرومانيّ، وخسرت روما الكثير من الرجال والعتاد، وانتهت الحملة بفشل ذريع عند حاترا، وعانى الفرثيون الكثير من المتاعب، وتكبّدوا خسائر فادحة، وقد كانت العواصم الغربيّة والمناطق المحيطة بها أكثر تعرّضًا لغارات الجيش الرومانيّ، فقد شهدت تلك المناطق الكثير من الدمار والخراب الذي أدّى إلى انهيارها وسقوطها بأيدي الرُّومان بسهولة<sup>[٣]</sup>.

[1]-Debevoise . N. C, op. cit, pp260-261.

[٢]- جواد النوري، ميثم عبد الكاظم، حملات الأباطرة، المرجع السابق، ص ٢٠٠.

[3]- Debevoise . N. C, op. cit, p262.

ومن النتائج الأخرى التي أظهرتها هذه الحملة أنّ العلاقات الرومانيّة مع الشعوب الشرقيّة كانت مشحونة دائماً بالعداوات الخطيرة، وقد اعتمد الرومان في سياستهم على دويلات أساسيّة تابعة لهم، كان أكبرها أرمينيا، فقد حاول الرومان جاهدين الحفاظ على طرق التجارة بين آسيا الوسطى والفرثيين في الشرق، واعتمدوا على المدينة التجاريّة العظيمة تدمر التي تقع على الحدود الشرقيّة لمنطقة سورية، والتي حافظت على مكانتها وتنظيمها على طريق التجارة البريّة بين سورية وبابل، وقد وُضعت تحت حكم فولفيوس تيتانوس الرومانيّ، وهو أحد الرجال الذين أدّوا دوراً مميّزاً في الحرب الشرقيّة<sup>[١]</sup>.

ومنذ احتلال الإمبراطور الروماني بومبي لسورية جعلها ولاية رومانيّة في سنة (٦٤ ق.م)، لكنّ المناطق الجنوبيّة الشرقيّة ومنطقة تدمر بقيت بعيدة عن متناول السّلطة الرومانيّة، فالعرب الأنباط الذين امتدّ سلطانهم من عاصمتهم البتراء إلى حوران، وصل نفوذهم إلى دمشق لفترة محدّدة من الزّمن، إلّا أنّ الرومان استطاعوا القضاء على تلك الأسر المحليّة تدريجيّاً، وجرّدوا مناطقهم من السّلاح وجعلوا القبائل البدويّة حرّاًساً عليها.

وفي عام (١٠٦ م) حوّل الحاكم الرومانيّ على سورية كورنيليوس بالما المناطق الشماليّة للأنباط إلى ولاية عربيّة خاضعة لسّلطة روما، وجعل من بصرى الشّام في جنوبي حوران عاصمة للولاية الجديدة، أمّا الأراضي التي سلبها الرومان من الفرثيين إلى الشرق من نهر الفرات فقد ضُمَّت إلى ولاية ما بين النهرين. وقد طرأ تعديل جديد على نظام الولايات الشرقيّة في عهد القيصر سبتيميوس سيفيروس عام (١٩٥ م)، إذ أراد هذا الإمبراطور تقليص الصّلاحيات الواسعة التي منحها أسلافه من الأباطرة لحكّام الولاية السوريّة الغنيّة، فقسّم تلك الولاية إلى ولايتين، سمّى الأولى ولاية سوريّة الداخليّة، وتمتدّ من جبال لبنان إلى تدمر التي قضى على استقلالها، وسمّى الثانية ولاية سورية الفينيقيّة، ثمّ قام بتوسيع الولاية العربيّة بأن ضمّ إليها فلسطين وأقصى جنوب بلاد الشّام<sup>[٢]</sup>.

[1]- Birley, A., op.cit, p148.

[٢]- كلينغل، هورست، آثار سورية القديمة، آثار ما قبل الإسلام في الجمهوريّة العربيّة السوريّة، ترجمة قاسم طوير، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٥ م. ص ٦٢.

## الخاتمة

من خلال هذا الاستعراض لحملات الأباطرة الرومان الثلاث إلى الشرق، نجد أن جميع هذه الحملات باءت بالفشل، فلم تستطع إضافة أية مناطق جديدة للسيطرة الرومانية، بل كبّدت الرومان خسائر فادحة في العتاد والرجال، وأنهكت قوتهم في الشرق.

سعى الرومان من خلال هذه الغزوات إلى احتلال مناطق واسعة في الشرق، وذلك يندرج ضمن سياستهم الاستعمارية التوسعية على حساب الدول والشعوب الأخرى. وقد فرضوا الضرائب والجزى الباهظة على المناطق التي احتلوها، وحاولوا استنفاذ خيرات تلك البلاد وإهلاكها اقتصادياً مما يؤدي إلى ضعفها العسكري حتى تصبح لقمة سهلة، وغير قادرة على التصدي لهم أو الثورة عليهم. بالإضافة إلى تجنيدهم للشباب من المناطق التي احتلوها، وخصوصاً في سورية ليكونوا وقوداً لغزواتهم وزجهم في معارك كبيرة.

ونلاحظ أن الرومان انتهجوا سياسات مختلفة في تعاملهم مع الدول الشرقية، فقد اتبعوا سياسة الحزم والعنف تارة، وأحياناً السلم، كما عمدوا إلى أسلوب المراوغة والخداع والغدر، إذ قاموا بعقد المعاهدات والاتفاقيات مع هذه الدولة ليتفرغوا لضرب تلك الدولة، وما إن ينتهوا من تلك الدولة حتى يعودوا لضرب الدولة التي عقدت معهم اتفاقية السلام. وهذا هو الأسلوب الذي يعتمده المحتل في سياسته، فالرومان لا يمكن الوثوق بهم أو بمعاهداتهم، لأنهم لا ذمة لهم ولا عهد.

ومن الأساليب الأخرى التي اتبعوها لإرهاب المنطقة وبث الذعر في قلوبهم، هي القتل والنهب والتنكيل بالمدن المغلوبة، ولم يسلم منهم لا الأطفال ولا الشيوخ ولا النساء.

كما اتبع الرومان سياسة (فرق تسد) بين حكام الدولة الواحدة أو بين الدول المختلفة في الشرق، إذ اعتمدوا على إثارة الفتن بين الحكام والدول والمساعدة في إشعال فتيل الحرب بينهم لإنهاكهم عسكرياً واقتصادياً، ليصبحوا فريسة سهلة.

## لائحة المصادر والمراجع

## المراجع العربية والمعربة:

١. الجنزوري، عليّة عبد السميع، إمارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة ٢٠٠١م.
٢. جواد النوري، ميشم عبد الكاظم، حملات الأباطرة الرومان (تراجان، ماركوس أورليوس، سبتيميوس سيفيروس) على العراق، مجلة الأستاذ، ملحق العدد الخاص بالمؤتمر العلمي الثالث، جامعة بغداد- كلية التربية ٢٠١٥.
٣. جواد النوري، ميشم عبد الكاظم، العلاقات الفرثية - الرومانية ٢٤٧ق.م - ٢٢٦م، ط١، دار عدنان للطباعة والنشر، بغداد ٢٠١٧م.
٤. حافظ، أحمد غانم، الإمبراطورية الرومانية من النشأة إلى الانهيار، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٧م.
٥. حتّي، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ط٢، ترجمة د. جورج حداد و د. عبد الكريم رافق، دار الثقافة - بيروت ١٩٥٨م.
٦. سلهب، زياد، آثار العصور الكلاسيكية الإغريقية، منشورات جامعة دمشق ١٩٩٨م.
٧. القيسي، منى عبد الكريم حسين، أسوار المدن والقلاع في بادية الجزيرة في عصر ما قبل الإسلام، دراسة عمارية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب ٢٠٠٧م.
٨. كلينغل، هورست، آثار سورية القديمة، آثار ما قبل الإسلام في الجمهورية العربية السورية، ترجمة قاسم طوير، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٥م.
٩. مرعي، عيد، رحلة في عالم الآثار «آثار يون ومدن أثرية»، ط١، دار روافد للثقافة والفنون، دمشق ٢٠١٠م.
١٠. مظلوم، طارق عبد الوهاب: المدائن (طيسفون)، مجلة سومر - مج ٢٧، الجزء ١ - ٢، منشورات مديرية الآثار العامة العراقية - بغداد ١٩٧١.

## المصادر والمراجع الأجنبية

1. Bennett . J., Trajan Optimus Princeps, A life and times, Routledge, London and New York, 1997.
2. Birley . A., Marcus Aurelius A biography, Routledge, Taylor- francis e - library, 2000.
3. Campbell . B., The roman army 31 B.C - 337 A.D, A sourcebook, Routledge, taylor francis group, London and New York 1994.
4. Debevoise . N. C., A political history of Parthia, The university of chicago, 1938.
5. Frye, R.N., The heritage of persia, London, 1966.
6. Griffin . M., Nerva to Hadrian, the Cambridge ancient history, second edition, volum XI, Cambridge university press 2008.

## الاحتلال الروماني لمصر والمغرب العربي القديم وتداعياته

أ. عقيل نمير [\*]

### الملخص

لقد خاضت الدولة الرومانية على مدى قرون ممتدة العديد من الحروب والصراعات، ومن الطبيعي أن تغلب السلبيات والسلوك القبيح للمستعمر على أهل وموارد البلدان المستعمرة، وهو بالفعل ما ظهر بشكل جليّ في حروب الرومان وإن حالوا تقديم صورة واحدة وجميلة للحضارة الرومانية تجمع في مشهديتها صورة الحضارة المتقدمة والمتطورة في مجال الفن والعمارة والإدارة، وغيّبوا الوجه الآخر لهذه الصورة والمتمثل بالأعمال السلبية التي وقع بها رجال السياسة والإدارة الرومان في حكم البلاد التي احتلّوها، وفي الأسلوب الوحشي والقمعي الذي اعتمده في قمع الثورات التي قامت في مصر وشمال أفريقيا أثر مصادرة الأراضي الزراعية، والقضاء عليها بوحشية...، وغيرها من السلبيات الكثيرة التي رافقت الاحتلال الروماني. وكانت هذه السلبيات المحور الرئيس في هذا البحث، إلى جانب تركيز البحث على سلبيات الحياة الاقتصادية، وخاصة الجانب الزراعي؛ لأنّ الزراعة كانت تشكّل الركن الأساس في الحياة في تلك الفترة. ولم يغيب عن البحث الحديث عن أهداف الاحتلال الروماني لمصر وشمال أفريقيا (المغرب العربي القديم) وخلفياته. وما نتج عنه من آثار سياسية واقتصادية، ولا سيما الحروب التي عُرفت بـ«الحروب البونوية»، وتوسيع المعارك والحروب إلى مناطق شمال أفريقيا، والقضاء على دولة قرطاجة وتدمير معالمها، وإلغاء دور حلفائها النوميديين، الذين ساعدوها على إسقاط قرطاجة والتوسّع على حساب موريتانيا.

كلمات مفتاحية: الدولة الرومانية، الحروب البونوية، مصر البطلمية، قرطاجة، المغرب العربي القديم، جهاز الأنونا الروماني، نوميديا.

## مقدمة

لكلّ دولة- على مرّ العصور- ما لها وما عليها، والدولة الرومانيّة لم تشذ عن هذه القاعدة، فعلى الرغم ممّا قد يزعمه البعض عن تقديم الحضارة الرومانيّة في البلاد التي سيطرت عليها وعلى مدى قرون عديدة، انجازات في مجال الفن والعمارة والإدارة، إلا أن المآخذ التي تسجّل على الدولة الرومانيّة أكبر بكثير مما قدمته، والتي كانت بمثابة سلبيّات وقع بها رجال السياسة والإدارة الرومان في حكم البلاد التي احتلّوها، وكانت هذه السلبيّات المحور الرئيس في هذا البحث، وتتناول السلبيّات الحياة الاقتصاديّة، وخاصّة الجانب الزراعي، والقليل عن الجانب الاجتماعي، لأننا لا نستطيع في هذه الصفحات القليلة أن نغطّي ما تركه الرومان من سلبيّات في جميع مناحي الحياة، وكان تركيزنا على الجانب الاقتصادي الزراعي؛ لأنّ الزراعة كانت تشكّل الركن الأساس في الحياة في تلك الفترة، ومن هنا عمل الرومان على مصادرة الأراضي الخصبة من أصحابها في مصر وشمال أفريقيا (محور الدراسة)، وشجّعوا المستثمرين الرومان على استغلال الأراضي الخصبة في كلا الولايتين، وخاصّة المنتجة للحبوب، وبصورة خاصّة القمح والشعير، ولم تمر عمليّات مصادرة الأراضي من أصحابها بسلام، إذ نتج عنها قيام الثورات في مصر وشمال أفريقيا، ولكنّ سلطات الاحتلال الروماني قضت عليها بوحشيّة تامّة، وخضع من تبقى من الفلاحين على أراضيهم للأمر الواقع.

وقبل الحديث عن السلبيّات التي رافقت الاحتلال الروماني، بدأنا بحثنا بالحديث عن الاحتلال الروماني لمصر، وقدّمنا له بلمحة عن العلاقات التي كانت تربط روما بدولة البطالمة الحاكمة في مصر، وكيف تطوّرت هذه العلاقات من اقتصاديّة وتحوّلت إلى سياسيّة، وبالنتيجة التداخل في السياسة الداخليّة والمنازعات الأسيّريّة للبطالمة، وانتهى هذا التداخل إلى احتلال مصر بعد هزيمة البطالمة في معركة أكتيوم البحريّة سنة ٣١ ق.م، وعلى أثرها تمكّن الرومان من احتلال مصر، وقضوا على أسرة البطالمة الحاكمة فيها.

أمّا فيما يتعلّق بالمغرب العربي القديم -شمال أفريقيا- فقد تحدّثنا عن تنبّه الرومان لدولة قرطاج في تونس، ومنافستها للرومان في الحوض الغربي للمتوسّط وعلى القارة الأوروبيّة نفسها، الأمر الذي دفع الرومان إلى الدخول مع القرطاجيين في حروب أطلق عليها المؤرّخون اسم الحروب البونيّة، وعددها ثلاثة حروب، ولكن لما شعرت روما بقوة قرطاج بزعامة القائد العسكري هانيبال الذي هزم روما في عقر دارها، هنا تنبّهت روما ولجأت إلى الحيلة والفتنة بين دولة قرطاج

ودولة نوميديا (في الجزائر الحالية) وتمكّنت من نقل المعارك إلى شمال أفريقيا، واستطاعت في النهاية القضاء على دولة قرطاجة وتدمير معالمها، ثم مدّت نفوذها على حساب حلفائها النوميديين، الذين ساعدوها على إسقاط قرطاجة وضمّوا دولتهم إلى النفوذ الروماني، ثمّ توسّعوا على حساب موريتانيا، وشكّلوا من هذه البقاع ولاية شمال أفريقيا الرومانيّة، وقاموا بمصادرة الأراضي الزراعيّة وتهجير الأهالي ونقل منتجات هذه الأراضي إلى روما ضاربين عرض الحائط بحاجة الفلاحين والسكّان المغاربة من الاستفادة من إنتاج أراضيهم وما تدرّه من غلال، ولم ترع السلطات الحاكمة الرومانيّة سنوات القحط والأوبئة التي تعرّضت لها الولاية.

## أولاً: لمحة عن تطوّر العلاقات بين الرومان ومصر البطلميّة قبيل الاحتلال الروماني لمصر سنة ٣٠ ق.م

خرجت العلاقات بين مصر البطلميّة وروما عن مظهرها الاقتصادي، وبدأت تأخذ مظهرًا سياسيًا، وذلك منذ نهاية القرن الثالث قبل الميلاد. فبعد انتهاء الحرب البونيّة الأولى سنة ٢٤١ ق.م (التي دارت رحاها بين الرومان وقرطاجة والتي بدأت سنة ٢٦٤ ق.م، والتي ستحدّث عنها بالتفصيل عندما نتناول الاحتلال الروماني للمغرب القديم).

عرضت روما مساعدتها على مصر في حربها ضدّ الدولة السلوقيّة الحاكمة في سورية إلّا أنّ الملك بطليموس الثالث رفض المساعدة متدرّعًا بأنّ الحرب بينه وبين السلوقيين في سورية قد انتهت<sup>[١]</sup>.

أرسلت روما إلى البطالمة في مصر سفارة بعد انتهاء الحرب البونيّة الثانية مع دولة قرطاجة سنة ٢٠١ ق.م، تطلب من الملك بطليموس الخامس الوقوف على الحياد في حال إعلان روما الحرب على الملك المقدوني فيليب الخامس الذي وقف ضدّ روما في حربها مع قرطاجة (الحرب البونيّة الثانية)<sup>[٢]</sup>.

هنا أرادت روما من طلبها هذا أن تبقي على الوضع الراهن في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، والقضاء على أيّ محاولة لإيجاد دول قويّة جديدة قد يشكّل وجودها خطرًا بشكل أو

[١]- أحمد، عبد اللطيف: مصر والإمبراطوريّة الرومانيّة في ظلّ الأوراق البرديّة، ص ١-٣.

[٢]- الشيخ، حسين: مصر تحت حكم اليونان والرومان، دراسات في تاريخ الحضارة القديمة، جمهورية مصر العربيّة، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب، ١٩٩٧، ص ٥٤.

بآخر على الدولة الرومانيّة، التي بدأت تتوسّع في هذه المنطقة؛ أي الحوض الشرقي للمتوسّط<sup>[١]</sup>، أو محاولة جعل الأوضاع السياسيّة القائمة لمصلحة روما أولاً وقبل كلّ شيء، والدليل على ذلك لم يأت القرن الثاني قبل الميلاد حتّى كانت العلاقات بين روما ومصر قد دخلت مرحلة جديدة من التداخل السياسي من جانب الرومان في الأوضاع الداخليّة لأسرة البطالمة الحاكمة في مصر، بالمقابل كانت دولة البطالمة في مصر تزداد ضعفاً بينما كان الرومان يزدادون قوّة<sup>[٢]</sup>، وخير دليل على ضعف مصر البطلميّة في هذه الفترة (بسبب المنازعات الأسيّية) قيام الممالك المجاورة لمصر بالتنافس على ممتلكاتها الخارجيّة، وخاصّة التفاهمات التي حدثت بين ملك مقدونية فيليب الخامس وأنطيوخس الثالث ملك الدولة السلوقيّة في سورية، حيث كان هناك حديث عن معاهدة عقدت بن الملكين لاقتسام ممتلكات الدولة البطلميّة<sup>[٣]</sup>.

أعطى هذا التحوّل -في سياسة المنطقة- للرومان الفرصة الذهبيّة للتدخل في شؤون أسرة البطالمة الحاكمة في مصر بحجّة حمايتها من أطماع الملكين المقدوني والسلوقي، وكان الهدف الحقيقي من هذا التدخل منع قيام أيّ دولة جديدة تهدّد خطط روما في التوسّع، سواء في الحوض الشرقي أو الغربي للمتوسّط، إذ إنّ قيام أيّ دولة مثل مقدونية أو سورية السلوقيّة بغزو مصر والسيطرة عليها سيؤدّي إلى اختلال التوازن، وإلى قيام دولة قويّة تكون ندّاً للرومان أو تتفوق عليهم، وهذا يدفعنا إلى فهم موقف روما إلى جانب دولة البطالمة عندما غزاها الملك السلوقي أنطوخوس الرابع وحاصر مدينة الإسكندريّة، حيث وقفت روما إلى جانب مصر في هذه الحرب، وأجبرت الملك السلوقي للانسحاب والعودة إلى سورية<sup>[٤]</sup>.

ودخلت العلاقات -على إثر ذلك- بين دولة البطالمة وروما مرحلة جديدة، إذ بدأت روما تعمل على استغلال المنازعات التي حدثت بين أفراد أسرة البطالمة؛ وذلك لإضعاف مصر والسيطرة على ممتلكاتها في برقة وقبرص، وبلغ نفوذ روما درجة كبيرة من السيطرة على ملك البطالمة بطليموس الثامن لدرجة أنّ الأخير طلب (أثناء صراعه على العرش مع أخيه بطليموس السادس) أن تؤوّل مملكة البطالمة في مصر إلى روما إذا مات دون وريث حتّى لا يعتلي عرش المملكة شقيقه بطليموس السادس<sup>[٥]</sup>.

[١]- الشيخ: المرجع السابق، ص ٥٥.

[٢]- عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٥.

[٣]- الشيخ: المرجع السابق، ص ٥٥.

[٤]- عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٧.

[٥]- الشيخ: المرجع السابق، ص ٥٦.

بالنتيجة، إنّ تدخّل روما في الحياة الخاصّة لملوك البطالمة في مصر ساعدها في الاطلاع عن قرب على المشكلات التي وقعت فيها هذه الأسرة ونقاط ضعفها، ممّا أدّى بالنهاية إلى دخولهم إلى مصر واحتلالها سنة ٣١ ق.م بعد خوضهم معركة أكتيوم البحرية مع كليوباترا، والتي تمكّن فيها القائد الروماني أوكتافيانوس (أوغسطس) من شلّ حركة جيوش الملكة كليوباترا السابعة وصدّقها الروماني أنطونيوس، واضعاً بذلك نهاية لآخر ملوك البطالمة في مصر (بعد أن فضّلت الانتحار على أن تقع أسيرة في يد الرومان)، حيث كانت الشخصية السياسيّة والعسكريّة التي تركت أثرها في نفوس الرومان بعد هانيبال القرطاجي، وتغنّى ببطولاتها بعض الشعراء الرومان.

أضيفت مصر -بسقوط دولة البطالمة- إلى سلطان «الشعب الروماني»، وهذه الجملة كانت للقائد أوكتافيانوس الذي سجّلها في سجلّ أعماله (المعروف: بأثر أنقرة) بعد دخوله إلى مصر سنة ٣٠ ق.م على إثر معركة أكتيوم البحريّة<sup>[١]</sup>.

ولتثبيت الوجود الروماني في مصر تنبّه أوغسطس لتأمين حدودها المشتركة مع جيرانها، وذلك لكي يتمكّن الرومان من استغلال مصر اقتصادياً، وكان ممّا ساعد القائد الروماني أوغسطس على ذلك، الطبيعة الجغرافيّة لمصر بسبب عدم وعورة أراضيها، الأمر الذي سهّل على القوّات الرومانيّة أن تتحرّك بسرعة لضرب أيّ ثورة داخلية تندلع ضدّ الحكم الروماني للبلاد، بالإضافة إلى طبيعة الحدود المصريّة التي تجعل من الصعب مهاجمتها، إذ يحدها من الشرق البحر الأحمر وصحراء سيناء، والصحراء الغربيّة من جهة الغرب، والبحر الأبيض المتوسط من جهة الشمال، وتوجد في الجنوب بعض العوائق الطبيعيّة لصحراء النوبة<sup>[٢]</sup>.

وفي الداخل استطاع كورنيليوس جالوس أوّل والٍ روماني أن يقمع بعض الثورات التي اشتعلت في منطقة شرق الدلتا المصريّة والإسكندريّة وصعيد مصر، وذلك في سنة ٢٩ ق.م مباشرة بعد مغادرة القائد الروماني أوكتافيانوس (أوغسطس) لمصر، كما استطاع الوالي الأوّل أن يسيطر على حدود مصر الجنوبيّة، وأن يجعل منطقة جنوب أسوان تحت حماية الدولة الرومانيّة<sup>[٣]</sup>.

في الوقت نفسه، خصّص القائد الروماني أوغسطس عدداً من قطع الأسطول الروماني في مدينة الإسكندريّة لحمايتها على اعتبارها ميناء أساسياً ومهماً يمكن عن طريقه غزو مصر، كما أدّى هذا

[1]- Chapot, Victor: L'Égypte romaine, histoire, De la nation égyptienne, tome 3, pp. 242- 243.

[٢]- الشيخ: المرجع السابق، ص ٦٠.

[٣]- الشيخ: المرجع السابق، ص ٦١-٦٢.

الأسطول دوراً مهماً في حماية الساحل الجنوبي للمتوسط، وتأمين السفن المحملة بقمح مصر والمتجهة إلى روما.

ترك أوغسطس -بالإضافة إلى قطع الأسطول الروماني- اثنين وعشرين ألفاً من الجنود والفرسان لحماية ولاية مصر الرومانية، مع العلم أنّ هذا العدد ليس بالقليل بالنسبة لتلك الفترة هذا من جهة، ومن جهة ثانية يقدم لنا هذا العدد من الجنود والفرسان الرومان الدليل على أهمية ولاية مصر كإهراء من إهراءات روما؛ لذلك يتوجب على الدولة الرومانية حمايته وتأمينه ضد الثورات الداخلية، وأي تحركات غزو خارجي قد يؤثر على الوجود الروماني في مصر<sup>[١]</sup>.

ثانياً: الاحتلال الروماني للمغرب العربي القديم وسقوط دولة قرطاجة<sup>[٢]</sup>

كان من بين الأسباب التي دفعت روما إلى احتلال المغرب القديم هو الوجود الفينيقي ممثلاً بدولة قرطاجة، والذي كان ينافسها في الحوض الغربي للمتوسط، فبعد أن تمكنت روما من القضاء على النفوذ الإغريقي في الجنوب الإيطالي، واستطاعت بسط نفوذها على كامل التراب الإيطالي، فقد أصبحت دولة قرطاجة هي العائق الوحيد أمام روما لبسط نفوذها على الجزء الجنوبي من البحر المتوسط، هذا بالإضافة إلى أطماع روما بالسيطرة على أراضي المغرب القديم وثروته الزراعية الغنية بمختلف أنواع المنتجات الخام بالنسبة لروما، وخاصة القمح والشعير<sup>[٣]</sup>.

### مراحل الاحتلال الروماني لبلاد المغرب العربي القديم

كانت قرطاجة من ألد أعداء روما، المدينة المنيعّة الواقعة في شمال أفريقيا بالقرب من مدينة تونس الحالية، لذلك شنت روما سلسلة من الحروب ضدّ قرطاجة، والتي عرفت في التاريخ باسم الحروب البونوية، وتمت على ثلاث مراحل هي:

#### الحرب البونوية الأولى عام ٢٦٤ ق.م

برز في هذه الحرب القائد القرطاجي هملقار واستمرت هذه الحرب ٢٢ سنة، وكانت أغلب المعارك التي جرت بين الدولتين في هذه الحرب برية، وقد انتصرت روما على قرطاجة فيها وفرضت شروطاً قاسية أهمّها:

[١]- زغري، أحمد: المقاومات المغاربية القديمة ضدّ الاحتلال الروماني في نويميا، المغرب ٢٠٢٠-٢٠٢١ م، ص ٤٠.  
[٢]- قرطاجة: مدينة فينيقية بناها بحارة من مدينة صور اللبنانية عام ٨١٤ ق. م، وقويت هذه المدينة وأسست إمبراطورية شملت شمال أفريقيا الحالية وإسبانيا والحوض الغربي للمتوسط، لمزيد من المعلومات، انظر وهيب أبي فاضل موسوعة التاريخ والحضارة.  
[٣]- زيدان، جرجي: خلاصة تاريخ اليونان والرومان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر ٢٠٢١، ص ٢٠.

١. إجبار دولة قرطاجة على تحديد قطع أسطولها البحري.

٢. التخلي عن جزيرة صقلية بأكملها وبشكل نهائي.

٣. انسحاب قرطاجة من جميع الجزر القريبة من جزيرة صقلية.

٤. دفع ضريبة حربية ضخمة لخزينة روما.

ولكن استطاعت دولة قرطاجة - بالرغم من هزيمتها وخسارتها في الحرب الأولى - أن تستعيد قوتها وتلتف حول القائد الجديد هانيبال الذي خلف هملقار وذلك عام ٢٢١ ق.م لتبدأ الحرب البونية الثانية.

### الحرب البونية الثانية ٢١٩-٢٠٢ ق.م

كان القرطاجيون في الحرب البونية الثانية تحت قيادة زعيمهم هانيبال، والذي كان من أشهر قادة العالم في ذلك الوقت.

سار هانيبال بجيشه وقطع البحر المتوسط حيث وصل إلى إسبانيا وعبرها باتجاه إيطاليا، واستطاع قطع جبال الألب بالرغم من صعوبتها، واشتكت قواته مع قوات الرومان بعدة معارك كان الفوز بها لصالحه، وتمكّن الرومان من جمع جيوشهم بقيادة قنصلين، ولكن هانيبال انتصر عليهم في معركة كاناي، وقتل منهم حوالي سبعين ألف جندي وضابط، هنا تنبّه الرومان إلى صعوبة الانتصار على القائد القرطاجي هانيبال، فلجؤوا إلى الحيلة ونجحوا في إثارة الفتنة والعمل على توتر العلاقات بن قرطاجة ونوميديا<sup>[١]</sup> (في الجزائر اليوم)، وتمكّنوا بالتالي من إشعال الحرب بين قرطاجة من جهة والقادة المغاربة في نوميديا، وتحالف الرومان مع القائد النوميدي ماسينا ضد القرطاجيين، وتمكّنوا بالتالي من نقل الحرب إلى شمال أفريقيا<sup>[٢]</sup>، وحسموا الحرب لصالحهم في معركة زاما<sup>[٣]</sup> التي جرت سنة ٢٠٢ ق.م، والتي ألحقت الهزيمة بالقرطاجيين وخضوعهم لشروط الرومان<sup>[٤]</sup>.

[١]- نوميديا: دولة بربرية قامت في الجزائر الحالية والمغرب العربي وكانت تنافس قرطاجة وروما في الحوض الغربي للمتوسط، استطاع الرومان استئصالها في حربهم ضد دولة قرطاجة فقدّمت لهم المساعدة، ولكن الرومان لم يحفظوا لهم الجميل فكانت الدولة النوميديّة هدفهم الثاني في شمال أفريقيا بعد قضائهم على دولة قرطاجة عام ١٤٦ ق.م.

[٢]- محمّد الهادي، الشريف: تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، الطبعة الثالثة، تعريب الشاوش محمّد وعجينة محمّد، تونس، دار السراس للنشر والطباعة، د.ت.

[٣]- زاما: مدينة نوميديّة هُزم فيها القائد الروماني سيبيونال إميلي القائد القرطاجي هانيبال وأجبر دولة قرطاجة على الاعتراف بهزيمتها، لمزيد من المعلومات، انظر عبد القادر بن جغلول، مقدّمات في تاريخ المغرب العربي القديم، الجزائر، دار الحداثة ١٩٨٦ م.

[٤]- زغيري: المرجع السابق، ٤٦.

### الحرب البونوية الثالثة (١٤٩-١٤٦ ق.م)

انفجرت هذه الحرب بعد حوالي خمسين عاماً تقريباً على انتهاء الحرب الثانية، فقد صمّمت روما على القضاء على دولة قرطاجة بعدما بثّت النزاعات في المغرب القديم، ووجدت لها حلفاء في دولة نوميديا - كما ذكرنا سابقاً - وتمكّنت روما من سحق الجيش القرطاجي، ودخل جيشها إلى مدينة قرطاجة منتصراً، وانتهت الحرب بتدمير وتخريب قرطاجة على يد القوات الرومانية، واستمرت النار تأكل بها ما يقارب من الشهرين ونيف وذلك عام ١٤٦ ق.م<sup>[١]</sup>، وأمر الرومان بإعطاء أراضيها لحلفاء روما، ثم استولى الرومان على جميع المناطق الساحلية لقرطاجة، وضمّوا المنطقة لهم وسمّوها ولاية أفريقيا<sup>[٢]</sup>. وهكذا استطاعت روما القضاء على قرطاجة الدولة والحضارة، والتي كانت ترى فيها العائق في وجه توسّعها الاستعماري في الحوض الغربي للمتوسط، ولكن لم يكتف الرومان بعد سقوط قرطاجة بممتلكاتها في المغرب العربي القديم بل توجهوا نحو حلفائهم النوميديين الذين ساعدوهم في القضاء على دولة قرطاجة، ووجدوا فيهم العائق الأكبر في وجه التوسّع الروماني في المغرب العربي القديم، فبعد أن أصبحت روما ونوميديا (الجزائر الحالية) متجاورتين في الحدود، بدأت روما بالتدخل في الشؤون الداخلية لنوميديا لإسقاط عرشها واحتلال أراضيها، حيث بدأت روما باتباع سياسة الاحتلال التدريجي لنوميديا، وذلك باتخاذ الوصاية على العرش النوميدي<sup>[٣]</sup>. هذا يقدّم لنا الدليل على أنّ التحالف الذي حدث أثناء الحرب البونوية الثانية قد مكّن روما من السيطرة على الدولة النوميديّة الحاكمة.

ثمّ تبع ذلك تدخل عسكري لروما للسيطرة على نوميديا، وإزالة الدولة من خريطة أفريقيا وإقامة مقاطعة رومانية على ترابها سمّيت أفريقيا الجديدة.

وأنتهى الاحتلال الروماني تدخله في المغرب العربي القديم بالقضاء على دولة موريتانيا، التي كان ملوكها أوفياء لروما من خلال تحالفهم مع الرومان على أمل أن تبقى دولة مستقلة، لكنّ قادة الرومان لم يفوا بعهودهم، حيث قضوا على مملكة موريتانيا لتكتمل بذلك سيطرتهم على كامل تراب المغرب العربي القديم، ما عدا المناطق الجنوبية، التي بقيت مستعصية على الرومان، وقاد سكانها معارك شرسة أفضت مضاجع الرومان على مدى تواجدهم في بلاد المغرب العربي القديم<sup>[٤]</sup>.

[١] - زيدان: المرجع السابق، ٤٢-٤٣.

[٢] - سيد أحمد علي الناصري: تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، مصر ١٩٦٣، ص ٦٧-٦٨.

[٣] - جفلول، عبد القادر: مقدّمات في تاريخ المغرب القديم والوسيط، الجزائر، دار الحداثة ١٩٨٦، ص ١٣.

[٤] - شنتيتي، محمد البشير: أضواء على تاريخ الجزائر القديم، بحوث ودراسات، الجزائر دار الحكمة ٢٠١٣، ص ٧٠-٧١.

### ثالثاً: سلبيات الحكم الروماني لمصر في الحياة الاقتصادية والاجتماعية

لم يمر الاحتلال الروماني لمصر من دون معارضة حقيقية له، فقد اشتعلت الثورات المصرية ضده في كل من شرق الدلتا والإسكندرية والصعيد وذلك عام ٢٩ ق.م مباشرة بعد مغادرة القائد الروماني أوكتافيانوس لمصر، لكنّ الوالي الروماني الجديد لمصر استطاع أن يقمع هذه الثورات بوحشية، ويثبت سيطرة الرومان على حدود مصر الجنوبية، وكذلك على المنطقة الواقعة جنوب مدينة أسوان<sup>[١]</sup>.

وترتب على احتلال الرومان لمصر وتحويلها إلى ولاية رومانية فقدان مصر استقلالها السياسي، وذلك على عكس ما كانت عليها خلال الحكم البطلمي، حيث كانت مصر دولة مستقلة لها سياستها الخاصة<sup>[٢]</sup>.

لقد وضع احتلال مصر بيد الرومان أكبر مركز لإنتاج القمح، وكان القمح الذي يشكّل الجزء الأساسي من غذاء الشعب محور مزايدات فيما يتعلق بأغلب الإجراءات السياسية في روما<sup>[٣]</sup>.

ويمكننا هنا أن نستعرض أهمّ سلبيات الحكم الروماني لمصر في الجانبين الاقتصادي والاجتماعي وإلى حدّ ما الإداري في النقاط الآتية:

١- فرض القائد الروماني أوكتافيانوس ضريبة الرؤوس على معظم مكونات الشعب المصري، وبشكل خاصّ الذكور ما بين سن الرابعة عشر والستين، وكان هذا القرار هو السبب الرئيس في اشتعال ثورة ٢٩ ق.م ضدّ سلطات الاحتلال الروماني<sup>[٤]</sup>.

٢- كانت الأراضي الزراعية في مصر في عهد البطالمة تقسم إلى قسمين: أراض تعود ملكيتها للدولة، وأراض تعود ملكيتها للشعب، ولكن بدأ البطالمة في أواخر حكمهم يقلصون الأراضي التي تعود ملكيتها للشعب، ولكن عندما جاء الاحتلال الروماني توسّعت مساحة الأراضي التابعة للدولة وجيشها بشكل ملحوظ، ولم يبق بيد الشعب المصري سوى مساحات قليلة من الأراضي الزراعية. هنا وضحت الفكرة عن سبب احتلال مصر وبعدها سورية، وذلك لاستغلال الأراضي الزراعية الخصبة ومنتجاتها ونقلها إلى عاصمة الإمبراطورية الرومانية روما على حساب سكّان البلاد الأصليين.

[١]- الشيخ: المرجع السابق، ص ٦١.

[٢]- الشيخ: المرجع السابق، ص ٦٣.

[٣]- الشيخ: المرجع السابق، ص ٦٤.

[4]- Chapot, Op. Cit, p.240

٣- قيام سلطات الاحتلال الروماني في مصر بمصادرة الأراضي الزراعية الموقوفة على المعابد المصرية، وكان الهدف الرئيس من ذلك القضاء على الدعامة الاقتصادية والإستراتيجية التي يستمد منها الكهنة المصريون قوتهم، والمتمثلة في أراضيهم الزراعية الموقوفة على معابدهم.

٤- توزيع الأراضي الزراعية التابعة للدولة ومنذ بداية عصر الاحتلال الروماني -عهد أوغسطس- على الجنود الرومان، ويبدو لنا أنّ الهدف من ذلك هو ترسيخ وتثبيت أقدام الجنود الرومان في مصر ولإغرائهم بهذه الامتيازات ليقبوا فيها<sup>[١]</sup>.

٥- السماح للجنود الرومان بشراء الأراضي الزراعية الخاصة والعامّة بأسعار زهيدة واستغلالها، وذلك في محاولة من سلطات الاحتلال في إنقاذ الاقتصاد الروماني المغتصب من مصر من الانهيار.

٦- أدت هذه السياسة الرومانية والإجراءات الجائرة التي اتبعتها أدواتها إلى تضخّم في الملكية الخاصة حتّى ظهر ما يعرف في تلك الفترة باسم الوسية.

٧- أدت السياسة الاقتصادية الرومانية في مصر إلى هبوط قيمة العملة وارتفاع الأسعار بالتدريج، وأصبح التعامل على أساس عيني، وكان وقع هذه الأزمة الاقتصادية أكثر أثراً على سكّان المدن من سكّان الأرياف؛ لأنّ هؤلاء قد اعتادوا من قديم الزمان على التعامل بشكل عيني، وما حدث في ولاية مصر كان مثلاً لما أصاب غيرها من الولايات الرومانية الأخرى، وذلك بسبب الإجراءات الإدارية التي اتبعتها حكّام الإمبراطورية الرومانية<sup>[٢]</sup>.

٨- قيام الحكام الرومان في مصر- بناءً على توجيهات من قياداتهم في روما- بفرض ضرائب باهظة على العديد من الحرف المصرية، وكان لهذه الضرائب نتائج سلبية على أصحاب هذه الحرف.

٩- ترك عدد كبير من الفلاحين المصريين -بسبب الضرائب الباهظة والمجحفة من قبل سلطات الاحتلال الروماني - أراضيهم الزراعية، وذلك للاختفاء من جباة الضرائب الرومان الذين كانوا يتبعون أساليب وحشية أحياناً في طريقة تحصيل الضرائب المفروضة على الفلاحين المصريين.

١٠- احتفظ الرومان بالعديد من الضرائب التي كانت تطبّق في مصر أثناء حكم البطالمة، والتي كانت أساليب جبايتها أقلّ قسوة وشدّة من أيام الرومان<sup>[٣]</sup>.

[١]- الشيخ: المرجع السابق، ص ٦٥.

[2]- Chapot, Op. Cit, pp.312, 313.

[٣]- الشيخ: المرجع السابق، ص ٦٦.

١١- من اللافت للنظر، أنّ جميع الضرائب التي كانت تجبى من قبل سلطات الاحتلال الروماني في مصر ترسل مباشرة إلى روما عاصمة الإمبراطورية، ولا يستفيد منها أبداً الشعب المصري المحكوم والمظلوم، في حين كانت دولة البطالمة تنفق هذه الضرائب داخل مصر، الأمر الذي كان يعود بالفائدة منها على البلاد والعباد<sup>[١]</sup>.

١٢- دفعت الإجراءات الإدارية الرومانية المجحفة بحق الرعية المصرية، وبشكل خاصّ الفلاحين، إلى ترك عدد من هؤلاء لأراضيهم؛ لعدم قدرتهم على دفع الضرائب الثقيلة للدولة الرومانية، ممّا شكّل خطراً على الاقتصاد المصري في العصر الروماني، وبلغ الخطر ذروته من خلال توجيه الأباطرة الرومان عن طريق حكّامهم في مصر الدعوة للفلاحين بالعودة إلى أراضيهم والعمل فيها.

١٣- أصدر الإمبراطور الروماني كاركلا الحمصي أثناء زيارته إلى مصر قراراً يقضي بترحيل المصريين سكّان البلاد الأصليين من مدينة الإسكندرية، ماعدا ما تحتاجه المدينة منهم مثل: تجّار اللحوم، العاملين في السفن وخاصة الكبيرة منها، ومتعهدي وقود الحمامات.

١٤- من مساوئ الحكم الروماني في مصر اجتماعياً قيام السلطات الحاكمة بتقسيم المجتمع المصري إلى ثلاثة أقسام وهي:

#### أ- الرومان ب- الإسكندرانيون - المصريون

وقيامها بفرض ضريبة الرأس فقط على المصريين (كما بيّنا سابقاً) بعد أن أعفي منها سكّان مدينة الإسكندرية من الإغريق الذين كانوا يدعونها في السنوات الأولى للاحتلال الروماني، الأمر الذي يؤكّد السياسة العنصرية للسلطات الرومانية في فرض الضريبة على سكّان المدن من المصريين كما هو الحال في الأرياف<sup>[٢]</sup>.

١٥- استمرّت أحوال المزارعين المصريين - كما هو الحال في جميع الولايات الرومانية الأخرى- دون تغيير جوهري في إصلاح أحوال الفلاحين فيما عدا زيادة الضرائب عليهم، وكان الجباة الرومان أكثر كفاءة من أسلافهم السلوقيين في عملية فرض وجباة هذه الضرائب<sup>[٣]</sup>.

[1]- Chapot, Op. Cit, p.318.

[٢]- نافثالي، لويس: الحياة في مصر في العصر الروماني، ترجمة أمال الروبي، مراجعة محمّد حمدي إبراهيم، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، ط ١، مصر ١٩٩٧م، ص ٤٩.

[٣]- نافثالي، لويس: مرجع سابق، ص ٤٩.

١٦- تمتّع جميع المواطنين الرومان المقيمين في عواصم الأقاليم الإدارية المصرية، وكان عددها ثلاثين إقليمًا<sup>[١]</sup>، برغد العيش، فقد كانت كلّ أسرة تمتلك منزلًا في المدينة ومزرعة في الريف على الأقل، وازدهرت مشروعاتهم الاستثمارية، وقد بلغت الضرائب الزراعية لأحد ضياع مواطني أحد عواصم الأقاليم ١٥٪ من مجموع ضرائب القرية بأكملها<sup>[٢]</sup>.

١٧- استمرت الدولة الرومانية في شراء العبيد وجلبهم إلى مصر للعمل في الأراضي الزراعية وذلك من جميع أنحاء الإمبراطورية، حيث بيّنت لنا أوراق البردي أسماء المناطق التي كانت الدولة الرومانية تشتري العبيد منها وهي: تراقيا- فريجيا- أووسيرويا- بامفيليا- بلاد العرب- أثيوبيا وموريتانيا<sup>[٣]</sup>.

١٨- قامت السلطات الإدارية الرومانية في مصر بتشجيع الأشخاص الذين التقطوا المواليد الذين كان أهلهم يرمونهم في أكوام السماد، وأصدرت أوامرها بتحويلهم إلى عبيد -أي سياسة جائزة بحق البشر- وفرضت عقوبات رادعة بحق من يقوم بتبنيهم وتحويلهم إلى أبناء وبنات<sup>[٤]</sup>.

### رابعًا: سلبات الحكم الروماني لشمال أفريقيا اقتصاديًا واجتماعيًا

اضطهد الرومان سكّان شمال أفريقيا بقراراتهم المجحفة بحق الأهالي منذ سقوط دولة قرطاجة ونوميديا، ولكن ظهرت هذه الإجراءات بشكل أسوأ مع أزمة القرن الثالث الميلادي الاقتصادية، فقد احتفظت لنا كتب المعاصرين للقرن أو شهود هذا القرن والمؤرخين الرومان أمثال: هيروديان وديوكاسيوس صورة حقيقية عن الاضطهاد الذي ذاق الناس مرّه، وبشكل خاص في شمال أفريقيا ومصر، الممولين الرئيسيين لروما في الحبوب المختلفة، وخاصة القمح والشعير.

وتميّزت سنوات كثيرة من القرن الثالث الميلادي بانتشار الأوبئة الفتاكة والحروب الطاحنة، وسوء التغذية والأعمال المرهقة، وهلاك خلق كثير من جراء الطاعون وغيره، وهروب الكثير من الناس من المدن والقرى طلبًا للنجاة بأنفسهم من اضطهاد الحكام الرومان والأوبئة الفتاكة،

[١]- جفلول، عبد القادر: التغيرات الاجتماعية والاقتصادية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤م، ص ٣٣-٣٤.

[٢]- فترف، دوستو: تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، الجزء الأول، ترجمة زكي علي ومحمد سليم سالم، مكتبة النهضة المصرية بدون تاريخ، ص ٤٧٦.

[٣]- جفلول، مرجع سابق، ص ٣٨.

[4]- Julien, Charles André: Histoire de l'Afrique du Nord, tome 1 des origine à la conquete arabe, payot, Paris 1986, p.104.

فتزايدت مساحات الأراضي المجدبة يوماً بعد يوم، وأهملت أعمال الريّ والصيانة، وتقلّصت القدرة الإنتاجية للأراضي الزراعيّة، وحدث القحط، وحاولت السلطات الحاكمة في شمال أفريقيا تفادي هذه الكوارث بإجراءات وقائيّة مثل: وضع أسرى الحرب في المؤسّسات الإنتاجيّة، فلاحية كانت أم حرفيّة، ومنع الفرار من المؤسّسات الزراعيّة وغيرها، واعتبار الفرار جريمة يعاقب عليها القانون<sup>[1]</sup>.

كان جهاز الأنونا الروماني (المؤونة) يملك أسطولاً بحريّاً يضمن نقل احتياجاته من ولايات ما وراء البحر، وخاصّة من ولايتي شمال أفريقيا ومصر، وجاهرت الدولة الرومانيّة في زيادة الضرائب المرهقة على الفلاحين في شمال أفريقيا، وتعسّف موظفيها، ومبالغتهم في جبايتها، ممّا أرق كاهل الفلاح المغربي ودفعه إلى ترك أراضيه والالتجاء إلى الجبال والصحارى، وعلى مرأى ومسمع الحكّام الرومان الذين لم يرق قلبهم إلى وضع الفلاح المغربي، ومطالبة حكومتهم بتخفيف الضرائب<sup>[2]</sup>.

ويبدو لنا أنّ هذا الضغط الكبير على صغار الفلاحين المغاربة ساهم به كبار الملاكين الذين استغلّوا الظروف الطبيعيّة التي تعاني منها منطقة شمال أفريقيا، وذلك في محاولة لزيادة ثرائهم على حساب الفلاحين عن طريق ضمّ أراضيتهم؛ لعجزهم عن دفع ضرائبهم بسبب سنوات القحط والكوارث الطبيعيّة، والأوبئة القاتلة، وخاصّة الطاعون والملاريا. ولعلّ الأسقف الأفريقي فيريانوس قد أحسن التعبير عن هذه الظاهرة بقوله: «... يضيف الأغنياء أملاكاً لأملاكهم، ويطاردون الفقراء على حدودهم، وتتسع أراضيتهم بلا قياسات ولا حدود...»<sup>[3]</sup>. وأضاف الأسقف الأفريقي الورع الذي كان مندهشاً ممّا آلت إليه الأمور فأضاف قائلاً: «نضبت مناجم الفضة والذهب..... أصبحت الأراضي أقلّ خصوبة والمنتجات الفلاحيّة في تناقص...»<sup>[4]</sup>.

فقد ارتفع سعر القمح بشكل كبير في شمال أفريقيا، حيث اعتبر الرومان شمال أفريقيا -بغيرها من المستعمرات مثل مصر وسورية- كمستعمرة للاستغلال والعمران، فقد كان التنافس واضحاً على الأراضي الزراعيّة الأفريقيّة من قبل الراغبين في استثمارها من أصحاب الرأس المال الرومان، وذلك منذ القضاء على دولة قرطاجة عام ١٤٦ ق.م<sup>[5]</sup>. وقد تمكّنت هذه المجموعة من المستثمرين

[1]- Julien., Op. Cit, p.184.

[2]- جغلول، مرجع سابق، ص ٣٧.

[3]- Julien., Op. Cit, p.108.

[4]- جغلول، مرجع سابق، ص ٥٢.

[5]- جغلول، مرجع سابق، ص ٥٥.

الرومان من امتصاص ثروات شمال أفريقيا الزراعية دون رقيب أو حسيب وعلى مدى قرن من الزمن، وعارض هؤلاء المستثمرون الرومان وبوسائل متعدّدة سياسة الدولة الرامية إلى استيطان أفريقيا استيطاناً رسمياً منظّماً، فقد تمكّنوا من إفشال حملة الاستيطان الكبرى التي تزعمها نائب العوام كيوسغراكوس عام ١٢٢ ق.م، وهكذا صفا لهم الجوّ، وتابعوا استثماراتهم في أراضي ولاية أفريقيا الشماليّة وخارجها دون عائق ومراقبة<sup>[١]</sup>.

قدّر عدد الرومان الإيطاليين في الولاية الأفريقيّة وحدها في عام ٤٦ ق.م باثني عشر ألف شخص، كانوا جميعاً تقريباً يمارسون مهمّة الإشراف على استغلال الأراضي وجمع محاصيلها، وتنظيم عمليّات شحنها وتصديرها إلى أسواق روما كي تصل عائداتها إلى جيوب أسياد روما المقيمين فيها<sup>[٢]</sup>، وكان كلّ ذلك على حساب فقر ومعيشة الفلاحين المغاربة المسحوقين من هذه السياسة الاستعماريّة الجائرة. ودفع هذا التنافس المستمرّ بين المستثمرين الرومان الإمبراطور الروماني تيريوس إلى توسيع حدود الولاية الرومانيّة الأفريقية نحو الجنوب، وذلك بضمّ أراضي القبائل النوميديّة المنتشرة إلى الشرق من جبال الأوراس، وهذا ما أثبتته مقاومة تلك القبائل للتوسّع الروماني على حساب أراضيها، وأعلنت المقاومة بقيادة تاكفاريناس الذي اشترط على الإمبراطور الروماني إمكانيّة وقف المقاومة في حال أعاد الإمبراطور الأراضي التي احتلّها جيشه، ولكنّ الإمبراطور الروماني رفض إعادة الأراضي التي استولى عليها جيشه، وفضل الاستجابة لرغبات الطامعين الرومان في توسيع رقعة استغلال واستثمار الأراضي الأفريقيّة مهما كانت الظروف ومهما كلفت من ثمن<sup>[٣]</sup>.

واعتمدت السلطات الإداريّة الرومانيّة في الولاية الأفريقيّة أسلوباً استعماريّاً جديداً وفعالاً يقوم على مسح الأراضي وتنظيمها واستثمارها واستعمارها؛ وذلك من أجل الاحتفاظ بهذا الأراضي وإلى الأبد، ضاربة عرض الحائط بالمقاومة الأفريقيّة التي طالبت باستعادة أراضيها المغتصبة بقوة السلاح .

وكان المكلفون بمساحة هذه الأراضي -من موظفي الإدارة الاستعماريّة الرومانيّة- يسيرون خلف جيش احتلالهم، ويقومون بمسح الأراضي التي يستولي عليها الجيش من أصحابها بالقوّة، ويقومون بتقسيمها إلى قطع متساوية كي يسهل توزيعها على المستثمرين وتأجيرها، مضيفين

[١]- دستو، مرجع سابق، ص ٤٨٢.

[٢]- جفلول، مرجع سابق، ص ٦٢.

[٣]- الشيخ، مرجع سابق، ص ٧٧.

بذلك طابعاً قانونياً على الأراضي المحتلة وتجزئتها، وكان المستفيدون الأوائل من سياسة التقسيم الجنود الرومان المتقاعدين الذين كان الإمبراطور يمنحهم الأراضي القريبة من المدن ذات الموقع الاستراتيجي وفقاً للضرورة العسكرية<sup>[١]</sup>. كما أطلقت الدولة الرومانية أيدي كبار الممولين في أراضي الولاية الأفريقية المعروفة بخصوصيتها النادرة وبمردودها الكبير بقصد استثمارها والإكثار من إنتاجها، وهذا ما ساهم في انخفاض سعر الغلال عند إرسال المحصول الأفريقي إلى أسواق روما وإيطاليا<sup>[٢]</sup>.

يرى بعض المؤرخين أنّ السرّ في احتلال نوميديا عام ٤٦ ق.م من قبل الرومان ثمّ موريتانيا يكمن في الاعتبارات السالفة الذكر، إذ كان على الرومان التوسّع في الاستيلاء على الأراضي الأفريقية ووضعها أمام الاستثمارات الرومانية بدون أدنى تحفّظ، كما كان من واجب الدولة الرومانية أن تعمل على توفير الأمن في هذه الأراضي، وتسهّل على المؤسسات الرومانية عملية الاستثمار وإنجاز مهامها على أكمل وجه وبشكل مرض للحكومة الرومانية<sup>[٣]</sup>.

كما اتّبعَت سلطات الاحتلال الروماني مع أصحاب الأراضي الشرعيين سياسة تتوافق ومتطلّبات فكرها الاستعماري، فانتزعت منهم الأراضي عنوة، وقامت بترحيل القبائل الكثيرة من الأراضي الخصبة التي ترنو عين المستعمرين إليها، وهذا ما حدث مع قبائل كثيرة في الجنوب النوميدي مثل قبيلة موزولاملي، والتي قام الجيش الروماني بتشتيت أفرادها إلى أقاليم سهبية فقيرة، وكذلك فعل مع قبيلة نوميديا بإقليم مداوروش وحيدره التي نقلت وطردت من أراضيها إلى مناطق أخرى في جنوب الولاية الأفريقية، وكذلك قبيلة النبعجي التي كانت تقطن جنوب الولاية الأفريقية فقام الاستعمار الروماني بتشتيت شملها وتوزيع أراضيها على المستثمرين الرومان<sup>[٤]</sup>.

وقام الاستعمار الروماني في ولاية أفريقيا بتقسيم الأراضي التي استولى عليها من القبائل عنوة إلى قسمين:

القسم الأول: بقي بيد القبائل الأفريقية (وهي الأراضي الأقل جودة في إنتاجها) التي كانت تقيم عليها كيائها المتداعي، ذلك الكيان الذي ما لبث أن انهيار بفعل ابتلاع المؤسسات الزراعية الاستعمارية لليد العاملة الموجودة داخل الحدود.

[١]- نافثالي، مرجع سابق، ص ٧٥.

[٢]- جفلول، مرجع سابق، ص ٦٦.

[٣]- شنتيني، مرجع سابق، ص ١٣٧، ١٣٨.

[٤]- روستوف، مرجع سابق، ص ٣٧٥.

القسم الثاني : وهو من أخصب وأوسع الأراضي الأفريقيّة حيث قسم إلى مساحات كبيرة، وأخذت عائلة الإمبراطور منها ما رغبت، باعتبار هذه الأراضي أخذت بقوة السلاح من أصحابها وتحت لواء الإمبراطور، كما أخذت العائلات الأرستقراطيّة من طبقة الشيوخ ما طاب لها من هذه الأراضي الخصبة لاستغلالها تحت نظام الحيازة، بالإضافة إلى ذلك قام الإمبراطور الروماني بمنح جزء من هذه الأراضي إلى جنوده القدماء ليقيموا عليها مستعمراتهم الخاصّة، وربّما تمكّن قسم من أعيان الأهالي من أخذ قسم من هذه الأراضي واستثمارها نيابةً عن الإمبراطور الروماني<sup>[1]</sup>.

وكانت الصفة القانونيّة للأراضي الرومانيّة الواقعة خارج إيطاليا تتمثّل في كونها ملكاً للشعب الروماني، ويحدّد القانون الروماني هذه الأراضي بأنّها أراضي الأعداء المهزومين<sup>[2]</sup>. بهذا الوصف تدخل الأراضي في المغرب القديم ضمن أملاك الدولة الرومانيّة، وهي عبارة مرادفة لأملاك الشعب مع بعض الاستثناءات القليلة، كأراضي المدن الحرّة التي تحالفت مع الرومان أثناء حربها ضدّ دولة قرطاج وخصّة في الحرب البونيّة الثالثة التي أسقطت الدولة.

ونختم هذه السياسة الزراعيّة الرومانيّة الاستعماريّة، أنّه بمصادرة هذه الأراضي من أصحابها الأصليين أصبحت أراضي الولاية الأفريقيّة -التابعة لروما- عنصراً مهماً من عناصر الاستثمارات التي نشطت بالقيام فيها طبقة من الأثرياء الرومان الكبار، الذين وصفهم المؤرّخ ليون هومو بالإمبرياليين<sup>[3]</sup>.

[1]- Julien., Op. Cit, p.247.

[2]- Picord: La civilisation de là l'Afrique romaine, Paris 1959, p.66.

[3]- L, Homo: L'Italie primitive et le début de l'impérialisme romaine, Paris 1953, p.318.

## خاتمة

قامت سلطات الاحتلال الروماني في كلِّ من ولايتي مصر والمغرب العربي (شمال أفريقيا) باتباع سياسة زراعية جائرة في مصادرة أراضي الفلاحين الخصبة الصالحة للزراعة، وخاصة القمح، لتغذية عاصمة الإمبراطورية الرومانية روما، ممَّا انعكس سلبيًّا على حياتهم المعيشية، فأمسوا غرباء في بلادهم.

ولم تسلم الأراضي التابعة للمعابد المصرية من السياسة الرومانية الجائرة في المصادرة لصالح السلطات الرومانية الحاكمة.

لقد دفعت هذه السياسة الزراعية الرومانية إلى فرض ضرائب ثقيلة أرهقت كاهل المواطنين، فتمردوا في ثورات عارمة قمعت بالحديد والنار بوحشية تامة.

ولم يراع الرومان سنوات الجفاف والأزمات المالية من أجل التخفيف عن كاهل المواطنين في هاتين الولايتين، بل اتبعوا معهم أساليب قاسية في جمع الضرائب.

كانت السفن الرومانية تمخر موانئ مصر والمغرب العربي محملة بالقمح لإطعام سكان العاصمة الرومانية، على حساب سكان هاتين الولايتين، دون مراعاة سنوات الجفاف والقحط والكوارث التي قد تتعرض لها.

بالتأكيد كانت السلطات الرومانية الحاكمة تعتمد على بعض المواطنين الأصليين في هاتين الولايتين وتسخيرهم في خدمتها (وهم قلة قليلة)، حيث كانوا عملاء وأذنانًا للمستعمر على أبناء بلادهم، وضدَّ مصالح أوطانهم.

## لائحة المصادر والمراجع

١. أحمد، عبد اللطيف: مصر والإمبراطورية الرومانية في ظل الأوراق البردية.
٢. الشيخ، حسين: مصر تحت حكم اليونان والرومان، دراسات في تاريخ الحضارة القديمة، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب ١٩٩٧.
٣. جلغول، عبد القادر: مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط، الجزائر، دار الحدائق ١٩٨٦.
٤. جلغول، عبد القادر: التغيرات الاجتماعية والاقتصادية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٤.
٥. زغيري، أحمد: المقاومات المغاربية القديمة ضد الاحتلال الروماني في نوميديا، المغرب ٢٠٢٠-٢٠٢١.
٦. زيدان، جرجي: خلاصة تاريخ اليونان والرومان، مصر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، بون تاريخ.
٧. سيد أحمد علي، الناصري: تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية مصر ١٩٦٣.
٨. شنتيني، محمد البشير: أضواء على تاريخ الجزائر القديم، بحث ودراسات، الجزائر، دار الحكمة ٢٠١٣.
٩. فترف، دوستو: تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، الجزء الأول، ترجمة زكي علي، محمد سليم سالم، مصر، مكتبة النهضة المصرية، بدون تاريخ.
١٠. نافتالي، لويس: الحياة في مصر في العصر الروماني، ترجمة الدكتورة آمال الروبي، مراجعة محمد حمدي إبراهيم، الطبعة الأولى ١٩٩٧، مصر، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية.
١١. محمد الهادي، الشريف: تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، الطبعة الثالثة، تعريب الشاوش محمد وعجبية محمد، تونس، مؤسسة دار السراس، بدون تاريخ.

## المراجع الأجنبية

1. Chapot, Victor: L'Égypte Romaine, histoire de la nation égyptienne, tome 3, Paris, sans date.
2. Julien, Charles André: Histoire de l'Afrique du Nord des origines à la conquête arabe, Tome 1, Payot Paris 1986.
3. L, Hamo: L'Italie primitive et le début de l'impérialisme romain, Paris 1953.
4. Picard: La civilisation de l'Afrique romaine, Paris 1959.

# نظرة نقدية لحقيقة بطش الإمبراطورين نيرون ودوميتريان

رفاه البوشي الدباغ<sup>[\*\*]</sup>

## الملخص

تولّى نيرون الحكم، وأصبح يسمّى نيرون كلوديوس قيصر، وتقدّم للجيش والشعب على أنه خليفة شرعي للإمبراطور الراحل، وتخلّص من كل من ظنّ أنه يعيق حكمه وسلطته أو يقف في طريق تحققيق أهدافه حتى وإن كان من أقرب المقرّبين إليه كأمّه وآخرين. عُرف نيرون باهتمامه وولعه ببعض الفنون كالرقص والموسيقى، ولذا فقد انغرق في اللهو والبذخ الخرافي، وأهمّل الحكم وإدارة السلطة إلى جانب سياسات فاشلة، وجعل موظّفيه، وقسوة جنوده، وجشع جامعي الضرائب، وسياسة، والأزمات السياسيّة، ما أدّى إلى اضطراب سياسي كبير وواسع في أطراف امبراطوريته، وتدهور في الإدارة العامّة للولايات الرومانيّة، كما شهدت تدهوراً في علاقة روما مع الولايات العميلة الموالية لها في الشرق، فلم يهتم نيرون بأيّ شعب من شعوب إمبراطوريته سوى الإغريق، لتكون النتيجة إفلاس الخزينة العامّة في البلاد، وحريق روما الشهير. لينتهي ظلمه واستبداهه بانتحاره.

ولم يدم الأمر طويلاً حتى سيطر دوميتيان على الحكم في روما باسترضاء الجيش وبعض عناصر القوّة آنذاك، و كانت فترة حكم دوميتيان استبداديّة سافرة. ونتيجة لسياسة دوميتيان الوحشيّة وأسلوبه المتسلّط، سارع أقرب مواليه للتخلّص منه.

يعالج هذا البحث جانباً من الظلم والاستبداد عند شخصيات ذكرها التاريخ بقوّة وتحدّثوا عن بنیان الحضارة التي تفوق كل الحضارات على أيدي أجيال من هؤلاء الحكام، مع تركيز جنوبي التحليل والنقد.

الكلمات المفتاحية: نيرون، دوميتيان، حريق روما، الإغريق.

## مقدمة

مهما كان الجبروت يسكن روح وعقل الإنسان، لا بدّ من يقول له قف لا تفعل، فإنّ كان كلّ من حول الطاغية يقول له افعل لقد أصبت، فحتمًا قد أصاب. إنّ الطغاة يحتاجون من يدعمهم ويساعدتهم على الطغيان، فهم لا يصنعون هباء، لا بدّ لهم من صانعين، تصنع البداية بتراخي وإهمال المحكومين في مراقبة حكّامهم وصدّهم عن الملهيات والمسكرات، عندها يتحوّل الحاكم إلى دكتاتور يرى كلّ ما يفعله صحيحًا ولا يهتمّ سوى ما يريد. وهنا يظهر خطر المنافقين، الذين يهيئون لأسيادهم كلّ الأفعال ويتخذون كلّ القرارات ويستنون التشريعات، فهم آفة المجتمعات التي توشك على الانهيار.

أضف إلى ذلك لا بدّ من القول إنّ الظروف الأسريّة والنشأة الأولى لأيّ شخص تلعب دورًا كبيرًا في تكوين شخصيّة وسلوك أيّ إنسان، فالأسر المبنية على التفاهم والمحبة والأخلاق لا بدّ من أن تنشئ جيلًا مشبعًا بروح المحبة والعدل والأخوة، والأسر القائمة على الشرّ والكره والعدوانية تكون نتيجتها جيلًا متفككًا، يحمل الكره والبغضاء.

وهذا ما ظهر جليًا في روما التي رزحت تقريبًا حوالي ثمانين عامًا تحت نير الطغاة، من تيريوس الجبار الغامض وكاليجولا الشرس وكلوديوس الضعيف وصولاً إلى نيرون المبدّر الغاشم ودوميتيان الجبان الغليظ القلب.

## أولاً: الإمبراطور نيرون وحكمه لروما

### نشأة نيرون وأثرها في تكوين شخصيته

حياة نيرون جزء من المنظومة البشريّة التي كانت سائدة في روما، فقد أثّرت الظروف والأحوال المتلازمة، التي تعاظمت فيها الأهواء قبل ميلاده وبعدها، على تكوين شخصيته، فالروايات التي نمت إلى مسامعه أثّرت على حياته تأثيرًا سلبيًا، وغدت محرّكًا ودافعًا خفيًا للكثير من تصرفاته، التي اتصفت بالمجون وارتكاب الجرائم<sup>[١]</sup>.

نشأ نيرون في أسرة تتمتع بمرتبة عالية من الجاه والامتياز بين طبقة النبلاء الرومان، وكانت الأسر الغنيّة في تلك الفترة تقتني، إضافة إلى قصورها في المدينة، قصورًا ريفيّة كأمكنة للاستجمام، ومن أجمل المناطق كانت أنتيوم، وهي تقع على شاطئ البحر، تبعد ثلاثين ميلًا إلى الجنوب من نهر

[١]- محمد عصمت: الطاغية نيرون، دار مشارق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م، ص٤.

التيير. ولد نيرون بأحد هذه القصور، وكان والده ينتسب لعائلة غنيّة من النبلاء الرومان، لكنّه كان شريراً فاسداً أشدّ الفساد، ولم تكن زوجته -أغريينا- والدة نيرون أقلّ منه شرّاً<sup>[١]</sup>. ومن هنا لنا أن نتوقّع نشأة وشخصيّة نيرون.

وقد قيل إنّّه عندما جاء الرسول ليخبر والد نيرون بولادة طفله تفوّه مستغرباً بشيء من التجهّم وقال ما ينجبه هو وأغريينا لا يمكن أن يجلب لروما إلّا الدمار والخراب<sup>[٢]</sup>.

وكانت أغريينا أعلى مرتبة من زوجها، فهي شقيقة الإمبراطور كاليجولا، الذي اتسم بانصرافه إلى ملذّاته الخاصّة، وكان يكره الناس ويتلذذ في تعذيبهم.

وقد اتهم كاليجولا أغريينا بالتآمر عليه مع شقيقتها، فنفي شقيقتها، وأمر بسجن أغريينا، ولم يطلق سراحها إلّا بعد اغتيال كاليجولا<sup>[٣]</sup>. وتمّ بعدها تصيب كلوديوس عمّ أغريينا إمبراطوراً، وعاشت أغريينا عنده في القصر. وكان في ذلك الوقت قد مات والد نيرون، وكان عمر نيرون ثلاث سنوات، أما كلوديوس فقد تزوّج ابنة أخيه علماً أنّ القوانين الرومانيّة تمنع ذلك، لكنّه استطاع أن يقنع مجلس الشيوخ أن يحوّر القوانين لصالحه، فتزوّجها وتبّى ابنها، وهذا ما أثار نقمة زوجة كلوديوس ميسالينا<sup>[٤]</sup>.

وفيما كانت أغريينا تتخبّط في ألوان العذاب والألم وصروف الدهر، كان ابنها نيرون شاباً نشيطاً ذكياً، رغم أنّه كان فوضوي الطباع شاذّ العادات، فعندما نفيت أمّه لم يذهب معها بل بقي تحت رعاية خالته، وعاش معها فترة من الوقت مهملاً مغموراً ومحتقراً، ولم يهتم أحد بتثقيفه، فماذا نتوقّع من كلّ هذا التضارب في التأثير على شخصيّة غلام لم يكتمل نضجه، وليس لديه خبرة؟. وعندما عادت أمّه من المنفى، خرج نيرون من غمرته، وشرع يعيش مع أمّه في ترف، واختارت له أمّه خيرة الأساتذة لتعليمه<sup>[٥]</sup>، منهم كرمون الرواقي الذي علّمه اللغة اليونانيّة، وسينيكا الذي علّمه الأدب والأخلاق، لكنّه لم يعلمه الفلسفة بناء على طلب والدته؛ لأنّها كانت تزعم أنّ الفلسفة تجعل من نيرون غير صالح لتوليّ عرش الإمبراطوريّة<sup>[٦]</sup>.

[١]- جاكوب أبوت، نيرون، دار الروائع، بيروت، ١٩٧٠م، ص ٧.

[٢]- سيّد أحمد علي الناصري: تاريخ الإمبراطوريّة الرومانيّة السياسي والحضاري، دار النهضة العربيّة، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ١٥٩ انظر أيضاً: إتين دي لا بويسيه: مقال في العبوديّة المختارة، ترجمة مصطفى صفوان، دار العلم للطباعة، بيروت ط ١، ٢٠٠٢م، ص ١٦٠.

[3]- MARIO. Levi; Neroneisuoi tempi, Milano 1949, P69.

[4]- B. Baldwin, Executions under Claudius; Seneca 'S Ludus de morte claudii phoenix vol, 18, 1964. p42.

[٥]- جاكوب أبوت: نيرون، ص ٧٠.

[٦]- ول ديورانت: قصّة الحضارة، ترجمة: محمّد بدران، ج ١، ص ٣، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م، ص ١٢٥.

وفيما بعد أصبح نيرون محط إعجاب القوم، وكان خصمه في تلك الفترة بريتانيكوس، وهو ابن كلاوديوس وميسالينا، وكانت دائماً أغريبيينا تقلل من شأنه، وفي ذات الوقت لكلوديوس ابنة تدعى أوكتافيا، وهي أصغر من نيرون، وأغريبيينا تحبها وقامت بخطبتها لابنها نيرون ليتمكن من خلالها الوصول للحكم<sup>[١]</sup>، وفعلاً تزوجها، وكان في السادسة عشرة من عمره، وهي كانت في الحادية عشرة، وبعد زواجه بسنة مرض كلوديوس، وشعر بالندم لتبني نيرون وحرمان ابنه من الحكم، فخشيت أغريبيينا من أن يتنازل عن الحكم لابنه، فدبرت مؤامرة مع أحد أطباء كلوديوس ودست له السم<sup>[٢]</sup>.

### وصول نيرون للحكم وصراعه مع والدته

بعد وفاة كلوديوس مسموماً تولّى نيرون الحكم، وأصبح يسمّى نيرون كلوديوس قيصر، وتقدم للجيش والشعب على أنه خليفة شرعي للإمبراطور الراحل، وكان قد وعد الجيش بمكافأة ضخمة<sup>[٣]</sup>. استطاعت أمّه بداية أن تسيطر على زمام الأمور لفترة قصيرة، ولكن سرعان ما نهض الابن نيرون بأعباء الحكم الإمبراطوري، وحاول القيام ببعض الإصلاحات، لكنّه انغمس في ملذاته الشخصية<sup>[٤]</sup>. بدأت علاقة نيرون بأمّه تسوء، وخاصة بعد أن اكتشفت أغريبيينا أنّ هناك علاقة بين نيرون وإحدى فتيات القصر اسمها آكتي، إذ إنّ نيرون لم يكن يحب زوجته أوكتافيا ابنة كلوديوس، وحاولت إبعاده عنها ففشلت، وأرادت أن تنتقم منه بأن تعيد للعرش الوريث الحقيقي بريتانيكوس الابن الحقيقي ل كلوديوس، وعندما علم نيرون بذلك غضب كثيراً، ودبر مؤامرة قتل من خلالها بريتانيكوس ودس له السم.

وزاد الكره بين نيرون وأمّه، وكل واحد منهما سعى للانتقام من الآخر، وهنا لنا أن نحكم على شخصية نيرون، ودور أمّه في تكوين هذه الشخصية، التي بنيت على الحقد والكره.

وقد جنّت أمّ نيرون نتيجة تربيته السيئة، حيث قام نيرون بالتآمر مع أنيكيوس، الذي كان مرافقاً شخصياً لنيرون منذ طفولته، وتميّز بكرهه لأمّ نيرون، وحاول الاثنان إغراقها في مركب لكنهما

[1]- V. M. Scramuzza, the Emper Claudius Harvard. university press, 1940, p92.

[2]- جاكوب أبوت: نيرون، ص ٧٤.

[3]- حسين الشيخ: الإمبراطورية الرومانية من النشأة إلى الانهيار، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٥٩.

[4]- محمود ابراهيم السعدني: حضارة الرومان منذ نشأتها وحتى نهاية القرن الأول الميلادي، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط ١، ص ١٩٩٨.

فشلا، فذهب أنيكييتوس ومعه فرقة من الجنود، وهاجموا قصر أغريينا وتمكّنوا من قتلها. ليس هناك ثمّة جريمة في الدنيا أفظع من أن يقتل الابن أمّه، الشعور الأوّل الذي أحسّ به نيرون هو الارتياح التام، وهذا يدلّ على الوحشيّة والحقد، ثمّ ما لبث أن تملّكه شعور الرعب والخوف، وبقي فترة في مدينة نابولي لا يجرؤ على العودة إلى روما؛ خوفاً من ردّة فعل الشعب ولكن لفترة قليلة، وعاد بعدها إلى روما ليكمل بطشه، وطلّق زوجته أوكتافيا البريئة، وتزوَّج من بوبايا السيّئة السمعة، والتي تأمرت على أوكتافيا واتهمتها بتهم باطلة، فأصدر نيرون الحكم عليها بالموت، وقتلت بطريقة وحشيّة، وبعدها ازداد انغماس نيرون في التهنّك والفجور، وازدادت جرائمه حتّى بوبايا لم تسلم منه، وقتلها وقتل عدد كبير من أقاربه وضباطه<sup>[١]</sup>.

### الأوضاع السياسيّة في عهد نيرون

شخصيّة تتمتع بكلّ هذه الصفات من الاستبداد والطغيان، لنا أن نتوقّع مسبقاً الأوضاع بشكل عامّ في البلاد.

شهدت فترة حكم نيرون تدهوراً في الإدارة العامّة للولايات الرومانيّة، كما شهدت تدهوراً في علاقة روما مع الولايات العميلة الموالية لها في الشرق، فلم يهتم نيرون بأيّ شعب من شعوب إمبراطوريّته سوى الإغريق، الذي ولع بهم وتيمّ بفتحهم، كما تافت نفسه لزيارة الإسكندريّة، التي ازدهرت فيها الحياة الثقافيّة والفنيّة، فأراد زيارتها ليعرض فيها مواهبه في الغناء والموسيقا - كما أعلن أثناء رحلته إلى بلاد اليونان قراراً بمنح الحرية لجميع اليونانيين، أي أنّ نيرون قد أعطاهم الاستقلال المحليّ والإعفاء من ضريبة الرأس، والتي كانت ترمز للخضوع والمذلّة<sup>[٢]</sup>.

يصعب على المرء أن يصدّق أنّ الإنسان الذي قتل أمّه، شاب في الثانية والعشرين من عمره مغرم بالشعر والموسيقا والفنون الجميلة والتمثيل والألعاب الرياضيّة، وقد أدخل العديد من المباريات اليونانيّة إلى روما، وأنشأ ما يسمّى بالألعاب النبرونيّة على نمط الاحتفال الذي يقام كلّ أربع سنوات في أولمبيا، وكان أهمّ ما يرغب فيه هو أن يكون فنّاناً عظيماً<sup>[٣]</sup>.

عندما تولّى نيرون الحكم، كان الناس يعتبرون أنّه لا يليق برجل روحاني ذي رتبة عالية أن يغني أو يمثّل، لكنّ نيرون آمن أنّ لديه مواهب عظيمة تؤهّله ليصبح مغنياً وشاعراً، ورضخ بصبر

[١]- جاكوب أبوت: نيرون، ص ١٦٥-١٦٧.

[٢]- عبد اللطيف أحمد علي: الناس والحياة في زمن الرومان، دار النهضة العربيّة، القاهرة، ١٠٧٣ م، ص ١٣٠.

[٣]- ول ديورانت: قصة الحضارة ج ١، مج ٣، ص ١٣٠.

عجيب لكل أنواع التدريب القاسي، وظهر في البدء في معارض ومسارح خاصة أقامها في الحدائق والقصور، ثم ظهر على المسرح العام، وطبيعي أن يهلل له الناس تهليلاً حاراً، وإن كان معظمها تافهاً، ويبدو أن غرور نيرون المضحك واعتداده بنفسه كانا يملأنه بالرضا التام وهو يتسلم الجوائز<sup>[١]</sup>.

وقد حرص نيرون على أن يكون له، في المسارح التي عليها جماهير تسانده تصفق وتهتف له، وكان يكلف ناساً معينين ليهتفوا ويصفقوا له ويدفع لهم رواتب. ولم يقف الأمر بنيرون عند هذا الحد بل اعتقد أنه متسابق لا يبارى، ودخل ساحات السباق وألعاب المصارعة بوصفه مبارزاً متحمساً، وكان طبيعياً أن يحصد كل الجوائز، فلا أحد يجروء أن يتقدم عليه<sup>[٢]</sup>.

ونتيجة لانغماس نيرون في ملذاته وإهماله للولايات، اندلعت عدة حركات تمرد في العديد من أرجاء الإمبراطورية، أخطرها الثورة التي قامت في إيطاليا عام ٦١ م تحت قيادة بوديكا، وكان المحرك لها هو جشع محصلي الضرائب الرومانيين، وقتلوا العديد من الجنود الرومان، إلى أن قام القائد الروماني باوليوس بإخضاع الثوار وهزيمتهم.

وفي الشرق اندلعت صراعات في مملكة أرمينيا انتهت بتتويج ملك بارثي لعرش روما، ثم تتويجه بعد موافقة نيرون، كما قامت في فلسطين ثورة شاملة على الرومان عام ٦٦ م.

إن سياسة نيرون الفاشلة، وجهل موظفيه، وقسوة جنوده، وجشع جامعي الضرائب<sup>[٣]</sup>، وسياسة اللهو والبذخ الخرافي، والأزمات السياسية، نتج عنه إفلاس الخزينة العامة، لهذا عمد نيرون إلى خفض قيمة العملة الذهبية والفضية<sup>[٤]</sup>، كما لجأ إلى عمليات المصادرة من أجل تعويض هذا الإفلاس<sup>[٥]</sup>.

وهذا نتيجة طبيعية لسياسة نيرون الفاشلة، ولما كان نيرون عسكرياً فاشلاً، فقد كان من الطبيعي أن يهمل كل أمور وشؤون إمبراطوريته، وبالتالي تتراجع الأحوال السياسية والاقتصادية في عهده.

فكلما كانت أحوال نيرون تزداد ظلماً وجوراً على الشعب الروماني، كانت نفوس الناس تزداد حنقاً وغضباً، لكنه لم يكن ليظهر في صورة عمل انقلابي؛ خوفاً من بطشه وطغيانه. ولما كان هذا الشعب ضعيف الحيلة، فطبيعي أن تكون الثورة أو الانقلاب ممن هم أكثر قدرة، ومقربون من الإمبراطور حتى تتمكن خططهم من النفاذ والوصول إلى أهدافها والإطاحة بنيرون. فقام انقلاب

[١]- جاكوب أبوت: نيرون، ص ١٧٥.

[٢]- محمد عصمت: الطاغية نيرون، ص ١٠٢-١٠٣.

[٣]- دونالد ررلي: حضارة روما، ترجمة جميل يواقيم الذهبي - فاروق فريد، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٢٦٥-٢٦٦.

[٤]- باتريك لورو: الإمبراطورية الرومانية، ترجمة: جورج كتوره، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت ١، ٢٠٠٨م، ص ٨١.

[5]- Levick Barbara; the Government of the Roman Empire, croomheln London,1985, p16.

كبير في روما بقيادة رجل ينتمي إلى أشهر العائلات، ويتمتع بصفات نبيلة، يدعى بيزو، وانضم إليه عدد كبير من ضباط الجيش وكبار رجالات البلاد، لكن تمّ كشف أمرهم، وقام نيرون بتنفيذ محاكمة دموية قتل فيها أكثر من خمسة آلاف قتيل، وكان من بينهم سينيك معلّم نيرون، الذي قطع شرايينه قبل أن تصل إليه جنود نيرون، وكذلك فعل بيزو<sup>[١]</sup>. وهكذا تمكّن من السيطرة على هذا الانقلاب.

### حقيقة إحراق نيرون لروما

من أشهر الحوادث المرعبة التي جرت خلال حكم نيرون ما يعرف بـ(حريق روما) حيث نشبت نار هائلة في المدينة التهمت قسماً كبيراً منها، وأحدث هذا الحريق رعباً وهلعاً بين النساء والأطفال، وهلك عدد كبير من الناس، وتنوّعت الأقاويل عن سبب هذا الحريق<sup>[٢]</sup>، وقد اعتقد الناس آنذاك اعتقاداً راسخاً أنّ ذلك الحريق، الذي دمّر روما وشوّهها، لم يكن إلاّ عملاً من أعمال نيرون، وثمرة من ثمرات طيشه وفجوره، ولا يستغرب عن شخص اتصف بتلك الصفات أن يقوم بهذا العمل المرعب. ويُجمع عدد من المؤرّخين من أمثال تاستسوس وتونيوس وديوكاسيوس على اتهام نيرون بأنّه هو من أشعل النار، وأعاد إشعالها لكي يستطيع بناء روما من جديد، وليس هناك أدلّة قاطعة على إثبات التهمة أو نفيها، لكنّ معظم الوقائع وتصرفات نيرون تثبت تورّطه، فنيرون يزعم أنّه فنان، وكان يضايقه ما في القصور التي ورثها من عيوب، ولذلك صمّم على بناء قصر جديد لنفسه<sup>[٣]</sup>.

وعندما شبّت النيران في روما عام ٦٤م، والتي استمرّت لمدة ستّة أيام، كان نيرون حينها في أنتيوم، ولم يأت إلى روما إلاّ بعد مضيّ عدّة أيام، وعندما وصل إلى روما والنار تضرّم فيها، وأنين المحترقين وعويل الأمّهات يشقّ عنان السماء<sup>[٤]</sup>، أعجب نيرون بالمنظر وذهب إلى إحدى المسارح وراح يرقص طرباً، ونظم قصيدة تعبر عن طغيانه يقول فيها:

أنا نيرون الجبّار!

أقتل من أشاء، وأملك ما أريد.

وأقطع الأعناق وأسفك الدماء

ولا يجرؤ أحد على أن يرفع في وجهي سيفاً

[١]- محمّد عصمت: الطاغية نيرون، ص ١٠٩-١٢٥.

[٢]- نيرون الطاغية: مجموعة من المؤلّفين، تعريب محمّد حبيب مصطفى، المكتبة الملوكية، القاهرة، ١٩٣٠م، ص ٤.

[٣]- ول ديورانت: قصّة الحضارة، ج ١، مج ٣، ص ١٣٥-١٣٦.

[٤]- نيرون الطاغية: تعريب محمّد حبيب مصطفى، ص ٩٨.

والأرض التي أحبها لا تغيب عنها الشمس

والناس جميعاً يخضعون لمشيئتي

لأنني سيف حادّ يقصم ظهورهم قصماً

ونار هائلة تحرق أجسادهم حرقاً!

أنا نيرون الجبّار

أنا نيرون الجبّار

أنا نيرون الجبّار

كلمات هذه القصيدة تعبر عن إنسان مستبدّ وحاقد، ونتيجة لهذا أصبح هدفاً لكره ومقت يتأججان في صدور أبناء الإمبراطورية الرومانية كلّها<sup>[١]</sup>. وبعدها قام نيرون بمشروعه الخرافي في استغلال الأرض الخالية في بناء عدد من القصور والحدائق الغناء المزينة بالبحيرات الصناعية، وبالفعل بنى نيرون قصره الكبير المسمّى بالبيت الذهبي، وأقام في حديقته الغناء تماثيله الكثيرة، التي كان من بينها تمثال عملاق بلغ طوله مئة وعشرين قدماً، بالإضافة إلى «روائع» النحت الإغريقي، التي جلبها الإمبراطور من بلاد الإغريق<sup>[٢]</sup>.

### اضطهاد نيرون للمسيحية

لم تأخذ السلطات الرومانية المحليّة أمر المسيحيين على محمل الجدّ في بادئ الأمر، إلاّ أنّها أخذت تبدّل موقفها، ومع ذلك كانت ترى في المسيحيين فريقاً من اليهود المتدّمّرين وحسب، ولكنّ بدلاً جذرياً حصل على الوضع عام ٦٤م بعد الحريق الكبير الذي نشب في روما. وذكر المؤرّخ تاسيت: لقد كان من غير الممكن قطع دابر الإشاعات التي اتهمت الإمبراطور نيرون بإشعال الحريق، عندئذ عزم نيرون أن يجد كبش الفداء، وكان طبيعياً أن يكون المذنبون أجنب غرباء، أي المسيحيّون، الذين كانوا خارج العلاقات والمعتقدات التقليدية. على أيّ حال لم يكن نيرون مناهضاً للمسيحية من حيث المبدأ، وإنّما اعتبرهم كبش فداء ملائم<sup>[٣]</sup>.

فوجّه لهم تهمة إحراق روما، وأخذ يتفنّن في اضطهادهم حتّى إنّهم لم يدع وسيلة من وسائل

[١]- جاكوب أبوت: نيرون، ص ١٨٥-١٨٦.

[2]- Jerard Perkins, Antiquity, Roma, 1956, p209.

[٣]- إ.س. سفينيسكايا: المسيحيّون الأوائل والإمبراطورية الرومانية، ترجمة: حسان مخائيل إسحق، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ١١٦، ٢٠٠٦م، ١١٧.

القسوة والتعذيب إلا وارتكبتها، وقد قرّر اعتبار كل من يعتنق المسيحية جنائية تستوجب الموت، وقد أصدر هذا المرسوم استناداً إلى الجريمة التي ألصقها بهم، وهي حريق روما<sup>[١]</sup>.

وزيادة في التنكيل برعيته، وغلوًا في القسوة والظلم، أمر بقتل الكثير من أقطاب المسيحية في عصره، من بينهم بولس وبطرس الرسوليان المسيحيان وغيرهما، وقد أثارت هذه الوحشية رد فعل معاكس، فتحوّل عدد كبير من الرومان للتعاطف مع المسيحيين.<sup>[٢]</sup>

### نهاية الإمبراطور نيرون

استمراراً لانغماس نيرون في ملذّاته الشخصية، سافر إلى بلاد اليونان؛ ليمارس هوايته المفضّلة في المشاركة في الألعاب الأولمبية والغناء في ربوع مدنها، وترك أمور الحكم في روما إلى أحد رفاقه المكروهين ويدعى هيلْيوس، الذي عكف على نهب الثروات، وأرهب السكّان بشتى الوسائل، فامتلاً الناس سخطاً، وبدأت بوادر ثورة شعر بها هيلْيوس، فأخبر مباشرة نيرون، الذي لم يكتث في البداية، ثم قرّر العودة إلى روما عائداً بجيش من الراقصين والممثلين وثمانمئة جائزة، وأخذت أحوال روما تزداد سوءاً، ووسط هذه الأحوال أرسل فيندكس Vindex أحد زعماء فرنسا إلى غالبا Galba أحد أبناء العائلات الرومانية الشهيرة في إسبانيا، وكان يكبر نيرون بأربعين سنة، وكان نيرون قد عينه قائداً لإحدى المقاطعات المهمة في إسبانيا، فظلّ له خادماً ومطيعاً إلى أن قام برحلته الماجنة إلى بلاد اليونان وما تبعها من انحطاط كبير في البلاد، فأرسل له فيندكس يدعوه للثورة، في البداية رفض غالبا، لكن فيما بعد وافق الانضمام إليه، وعندما علم نيرون بالثورة، قابلها بداية بالاستهتار والاستهزاء، لكن بعد تقدّم الثورة، وخاصة بعد أن أعلن فيندكس نفسه سيّداً على بلاد الغال وانضمام غالبا إلى جانبه بكامل فرقه العسكرية وإعلان اتجاهه نحو روما، عندها أيقن نيرون أنّ هلاكه آت لا محالة، فقرّر الفرار من قصره، وقد تخلّى عنه كلّ رفاقه وحاشيته، فحاول الهرب مع بعض خدمه الذين حاولوا إنقاذه، واصطحب معه السمّ الذي اعتاد على استخدامه لقتل كلّ من يريد، لكنّه لم يجرؤ على استخدامه لنفسه، فشخص كنيرون يعشق الحياة، لا يقوى على قتل نفسه بالسمّ أو بغيره، وأصيب نيرون بحالة من الهذيان، فأخذ الخدم يهدّون من روعه، وعندما شعر أنّ الخطر يحدق به، نصحوه أن يقتل نفسه، فشرع نيرون أن لا مفرّ له، وخاصة بعد أن نادى المجلس التشريعي بغالبا إمبراطوراً على روما، وأصدر أولى قراراته باعتبار نيرون عدواً للإمبراطورية والحكم عليه بالإعدام، عندها طلب من أحد خدمه ويدعى فاون أن يعطيه خنجرًا ليقتل نفسه، وعندما لم

[١]- أندريه إيمار - جاين أو بوايه: تاريخ الحضارات العام، روما وإمبراطوريتها، ترجمة: فريد م. داغر - فؤاد أبو ريحان، عويدات للطباعة والنشر، بيروت، ط ٢٠٠٦م، ص ٤٢١.

[٢]- إس. سفينيسكايا: المسيحيون الأوائل والإمبراطورية الرومانية، ص ١١٨.

يجرؤ نبيرون على ذلك، وسمع صوت حوافر الخيول تقترب من مكانه، قام أحد الخدم والتقط الخنجر وطعن نبيرون طعنة الموت القاضية، وما كادت تصل تفاصيل الساعات الأخيرة إلى مسامع العامة حتى ساد الابتهاج والسرور روما، وهللوا لمجيء الإمبراطور الجديد<sup>[١]</sup>. فكان انتحار نبيرون نهاية لسلالة أغسطس، ونهاية لظلمه واستبداده<sup>[٢]</sup>.

## ثانياً: الإمبراطور دوميتيان وحكمه لروما

### نشأته وشخصيته

والده فسباسيان الذي انحدر من أصل ريفي عريق، وكان ميّالاً للبساطة، نزاعاً للفكاهة. تمّ وصوله للحكم بعد نهاية الحرب الأهلية، التي نتجت عن انتحار نبيرون. بدأ عهده بالتعمير والتدعيم، وتمكّن من إعادة السلام والهدوء للإمبراطورية<sup>[٣]</sup>، وبثّ في المجتمع الروماني روحاً جديدة، وخلفه ابنه تيتوس، الذي تميّز بأنّه كان إدارياً حازماً. اعتبره المؤرّخون نموذجاً لما يجب أن يكون عليه الحاكم. اهتم أيضاً بالمشاريع العمرانية، ولكن فترة حكمه كانت قصيرة لا تتعدّى العامين ٧٩-٨٠م.

ورغم الجهود التي بذلها فسباسيان وتيتوس في تنظيم الإمبراطورية على نحو جديد، جاء دوميتيان ابن فسباسيان ليقرب أوضاع الإمبراطورية رأساً على عقب، جالباً على نفسه السخط والكرهية لاستبداده<sup>[٤]</sup>.

تميّز دوميتيان في صغره بأنّه كان شاباً متواضعاً لطيفاً، ولكن فيما بعد أصبح محبباً للسلطة والنفوذ، متعطشاً للقوة والجبروت، وكان أبوه وأخوه قد أدركا ذلك من قبل، فحاولوا الحدّ من نهمه بتحديد سلطاته، وإبعاده عن المناصب العسكرية بالذات؛ وذلك لما أظهره منذ الوهلة الأولى لتأسيس أبيه لحكم الأسرة، فقبل أن يصل أبوه من الشرق لتوليّ عرش الإمبراطورية رسمياً، بدأ باستخدام السلطة باندفاع الشباب وطموحه المجنون، وفي هذا الوقت حاول فسباسيان ومن بعده تيتوس كبح جماحه قدر الإمكان، فقد تمّ منحه سلطات مدنيّة لا تتعدّى القنصليّة<sup>[٥]</sup>. وخلال فترة العزل وجّه دوميتيان كلّ طاقته وجهوده إلى ميدان الدراسة، وانكبّ على دراسة أعمال وسيرة تيريوس، الذي كان يقارن نفسه به، كما شغل نفسه بالشعر والقراءة، وخاصّة في مجال الحضارة الإغريقيّة، حتى خرج وهو

[١]- محمّد عصمت: الطاغية نبيرون، ١٥٥-١٦٠ انظر أيضاً: ول ديورانت: قصّة الحضارة، ج١، مج٣، ص١٤١.

[٢]- أ. ب. تشارلز ورث: الإمبراطورية الرومانية، ترجمة: رمزي عبده جرجس، القاهرة ٢٠٠٣م، ص١٣.

[٣]- م. رستوقنزف: تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ج١، ترجمة: زكي علي، محمد سليم سالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٣٠.

[٤]- تشارلز ورث: الإمبراطورية الرومانية، ص١٤.

[٥]- سيد أحمد علي الناصري: تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، ص٢١٤.

يرى الحياة الرومانية من منظار إغريقي<sup>[١]</sup>.

ربما كان سبب التحوّل في شخصيته من إنسان لطيف خجول إلى إنسان مستبدّ ووحشي، هو غيرته من أخيه، حيث كان يحاول دائماً أن يدبّر المكائد له سرّاً لإسقاطه، وعندما مرض أخوه عجل له منيته، فهناك من يذكر أنه أحاط جسم أخيه المريض بالثلج<sup>[٢]</sup>

### وصوله للحكم وعلاقته بمجلس الشيوخ

بعد وفاة تيتوس هرع دوميتيان مباشرة إلى ثكنات الحرس الإمبراطوري، وحصل من الجنود على موافقتهم في ترشيح نفسه كإمبراطور حتّى قبل أن يبدي مجلس الشيوخ رأيه في ذلك، وربما كان هدفه في ذلك وضع مجلس الشيوخ أمام الأمر الواقع، وقطع خطّ الرجعة على المعترضين على فكرة الخلافة بالتوريث، وربما أراد تقليد أبيه. إنّ فسباسيان اعتبر انتخاب قوآت الشرق له هو التاريخ الرسمي لتوليّه الإمبراطورية، وبالفعل لم يجد مجلس الشيوخ بداً من الموافقة على هذا الترشيح، والإنعام على دوميتيان بالسلطات اللازمة والألقاب التقليدية عام ٨١م<sup>[٣]</sup>.

كانت فترة حكم دوميتيان استبدادية سافرة، ولم يكن الجيش موالياً له قلباً وقالباً بالرغم ممّا أسبغ عليه دوميتيان من إعطيات<sup>[٤]</sup>. لم يخف دوميتيان منذ الوهلة الأولى نواياه في التحكم والتسلّط الأوتوقراطي، فحرص على أن يتولّى منصب القنصل في كلّ مرة، بل غير منصب الرقيب إلى الرقيب الأبدي منذ عام ٨٥م، وكذلك حرص على أن ينادى عرفياً بلقب المولى والربّ Dominus et Deus، خاصّة من جانب موظّفيه وكتّاب عصره، وجعل القسم بعقريّة الإمبراطور شرطاً في كلّ عقد أو وثيقة، كما أنّه قلّد خلفاء أغسطس في تأسيس كهنة لعبادة أبيه وأخيه على غرار الهيئة الأوغسطيّة، إذ أسّس الهيئة الفلافية.

وبالرغم من أنّه نظر إلى مجلس الشيوخ نظرة وقار واحترام، إلّا أنّه لم يترك له الفرصة في التلاعب أو الخروج عن الحجم الذي أراده له مستغلاً في ذلك سلطته كرقيب<sup>[٥]</sup>. ففي عهده فقد مجلس الشيوخ سلطته، فبثّ روح الحقد والانتقام لدى أعضاء مجلس الشيوخ، هذا إلى أنّ غرور دوميتيان لم يقف عند حدّ، فالغرور هو صفة من صفات الوضيعين، ومن مظاهر غروره أنّه ملأ

[1]-Ronald Syme, The Roman Rrvolution Oxford ciarendon, press,1939, p509.

[٢]- دونالد ررلي: حضارة روما، ص ٢٧٣ انظر أيضاً ول ديورانت: قصّة الحضارة، ج ١ مج ٣، ص ١٥٤.

[٣]- سيد أحمد علي الناصري: تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، ص ٢١٧.

[٤]- رستوقنزف: تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ج ١، ص ١٧٥.

[٥]- سيد أحمد علي الناصري: تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، ص ٢١٨.

الكابيتول بتماثيله، ونادى بتأليه أبيه وأخيه وزوجته وأخته، كما نادى بتأليه نفسه<sup>[١]</sup>.  
ومعلوم أنّ مجلس الشيوخ الروماني يرفض تأليه الأباطرة، وهذا هو السبب في السخط والنفور  
اللذين لقيهما نيرون ودوميتيان لمحاولة كلّ واحد منهما الخروج على هذا التقليد<sup>[٢]</sup>.

### اضطهاده للمسيحية

عند أواخر القرن الأوّل الميلادي، وعلى امتداد القرن الثاني، أخذت تتزايد أعداد معتنقي  
المسيحية في أوساط المجتمع الروماني العليا، فاضطهد دوميتيان أعداداً كبيرة منهم بتوجيه تهم  
الكفر بالهة روما، فعلى سبيل المثال أعدم قريبه كليمنت وغيره الكثير<sup>[٣]</sup>.

أبى اليهود والمسيحيّون أن يعبدوا دوميتيان ويتخذوه إلهاً، وأقسم الفلاسفة الرواقيون ليقاوم  
كلّ مستبد جبار، ويكرّم قتلّة المستبدين.

وفي عام ٨٩م طرد دوميتيان الفلاسفة من روما، ثمّ أخرجهم من إيطاليا كلّها عام ٩٥م، وكان  
قرار طردهم يشمل معهم المنجّمين؛ لأنّهم تنبؤوا بموت الإمبراطور، فوقع الرعب في قلب رجل  
خال من الإيمان ومستعدّ لقبول الخرافات والأوهام.

وفي عام ٩٣م أعدم دوميتيان بعض المسيحيين؛ لأنّهم أبوا أن يقربوا القرابين بين يدي تمثاله،  
وكان دوميتيان قد تأثر بمرسوم نيرون الذي اعتبر فيه أنّ كلّ من يعتنق المسيحية جناية تستوجب  
الموت<sup>[٤]</sup>.

من جهة أخرى يذكر أنّ دوميتيان أنشأ معابد في روما لكلّ من إيزيس وسرايس، ورغم أنّ هذه  
الآلهة، وخاصة إيزيس، معروفة ومعبودة من قبل في روما وإيطاليا، إلّا أنّه أنشأ معابد خاصّة بها،  
وذلك بمثابة اعتراف رسمي بها<sup>[٥]</sup>.

### نهاية دوميتيان

كان من الأخطاء التي وقع فيها دوميتيان أن قذف الرعب في قلوب آل بيته أنفسهم، من ذلك أنّه  
أمر عام ٩٦م بإعدام إيفرديتس Epaphraïdus أمين سرّه؛ لأنّه أعان نيرون على الانتحار قبل ذلك

[١]- ول ديورانت: قصّة الحضارة، ج ١ مع ٣، ص ١٥٧.

[٢]- تشارلز ورت: الإمبراطورية الرومانية، ص ٢٢.

[٣]- إس. سفينسيسكايا: المسيحيّون الأوائل والإمبراطورية الرومانية، ص ١٥٤.

[٤]- أندريه إيمار - جانين أوبويه: تاريخ الحضارات العام، روما وإمبراطوريتها، ص ٤٢١.

[٥]- مصطفى العبادي: الإمبراطورية الرومانية، دار المعرفة الجامعية، بيروت، ١٩٩٩م، ص ١٣٦.

بسبع وعشرين سنة، وشعر كل من في بيته بالخطر، فاعتزموا أن يتقوا شره بقتله.

ونتيجة لسياسة دوميتيان الوحشية وأسلوبه المتسلط، سارع أقرب مواليه للتخلص منه، وانضمت إليهم زوجته بعد أن اقتنعوا جميعهم أنّ خطره واحد على من يواليه وعلى من يعاديه، إذ كان يخشى الجميع ويتهم الجميع، وقبل أن ينفذوا مشروعهم بحثوا عن خلف له، فوقع اختيارهم على شيخ جليلي يدعى برنا<sup>[١]</sup>.

وفي الليلة السابقة ليلته مقتله، قفز من فراشه مذعوراً، ولما حلت الساعة المتفق عليها، وجّه أحد الخدم الضربة الأولى، واشترك معه أربعة عشر غيره في الهجوم.

قاوم دوميتيان هذا الهجوم مقاومة المجنون، ثم خرّ صريعاً، وكان ذلك في السنة الخامسة والأربعين من عمره، والخامسة عشرة من حكمه عام ٩٦م، وعندما علم مجلس الشيوخ بالنبأ، مزقوا ما كان له في قاعة المجلس من صور، وحطّموا ما وضع له فيها من تماثيل، وأمروا أن يحطّم كل ما في الإمبراطورية بأجمعها من تماثيل له، ومن نقوش يذكر فيها اسمه<sup>[٢]</sup>.

### ثالثاً: تعليق على حقيقة بطش الإمبراطورين نيرون ودوميتيان

خلاصة القول نجد أنّه مهما حاول المستبد أن يفرض هيمنته وسلطته لا بدّ لجبروته من الزوال، فلا ظلم يدوم.

من جهة أخرى لا يوجد إنسان يخلق مستبداً بالفطرة، لكنّ ظروف نشأته الأولى والمحيط الاجتماعي الذي عاش فيه، هو السبب الرئيس في تكوين شخصيته.

فنشأة نيرون في جوّ من المؤامرات والطغيان والمكائد، وكذلك دوميتيان وغيرته العمياء من أخيه، هذه الظروف جعلت منهما شخصيات مستبدة تبطش كيفما اتجهت، وهذا لا يعني أنّهما مجردان من كلّ خير، فنيرون كان مرهف الحسّ بالجمال، ودوميتيان في بداية حكمه كان قديراً في حكمه، صارماً فيه، وقام من خلف مظاهر الفجور والتقتيل نظام إداري حفظ للولايات قسطاً كبيراً من النظام ربّما لفترة من الزمن. لكن مهما كان للإنسان من أعمال نيّرة إيجابية، جميعها تمحى بمجرد قيامه بظلم أو بطش بالعباد وقتل للأبرياء، فلا يجتمع سلام وطغيان، خير وشر. ونرى أنّ الغباء صفة ملازمة دائماً للطغاة حتّى حين يريدون إسداء الحسن، إذا أرادوا إسداءه.

فنيرون ودوميتيان قرّب إليهما المتملقين الذين لا يراعون أيّاً من قيم الأخلاق، واستبعدوا كلّ

[١]- مونتسكيو: تأملات في تاريخ الرومان، ترجمة: عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠١م، ص١٤٢.

[٢]- ول ديورانت: قصة الحضارة، ج١، مج٣، ص١٥٨.

من سعى للمجد والحرية، تميّزوا بغرورهما وعدم قبول النصيحة واستقلالهما في الرأي، وهذه هي صفات الإنسان المستبدّ، الذي يتحكّم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكمهم بهواه، ويحوّل المجتمع إلى جثّة هامدة.

## الخاتمة

إنّ الاستبداد داء تبتلى به الشعوب في بعض مراحل التاريخ، وهو أسوأ أنواع السياسة، وأكثرها فتكاً بالإنسان، وينتج عنه مجتمع محكوم بالظلم والطغيان، ممّا يؤديّ إلى التراجع في مرافق الحياة ووجوهها كافة، وإلى تعطيل الطاقات وهدرها، وإلى سيادة النفاق والرياء بين مختلف فئات الشعب.

ونجد أنّ معظم الطغاة يلاقون حتفهم على أيدي المقرّبين إليهم، الذين إذا عرفوا طبيعة الطغيان، لم يستطيعوا الاطمئنان إلى إرادة الطاغية بقدر ما حذروا قوّته.

فنيرون قام بالثورة ضدّه غالباً Galba، أحد أبناء العائلات الرومانية الشهيرة في إسبانيا، وكان خادماً ومطيئاً لنيرون، عندها قرّر نيرون الفرار من قصره، فتخلّى عنه كلّ رفاقه وحاشيته.

ودوميتيان سارع للتخلّص منه أقرب مواليه، وانضمت إليهم زوجته بعد أن اقتنعوا جميعهم أنّ خطره واحد على من يواليه وعلى من يعاديه.

وهنا يظهر خطر المنافقين الذين يهيئون لأسيادهم كلّ الأفعال، ويتخذون كلّ القرارات ويستنون التشريعات، حتّى يجعلوا منهم طغاة مستبدّين، ثمّ يسعون للتخلّص منهم.

أضف إلى ذلك، كما ذكر سابقاً، أنّ الظروف الأسرية والنشأة الأولى لأيّ شخص تلعب دوراً كبيراً في تكوين شخصيته وسلوكه هؤلاء الطغاة.

## لائحة المصادر والمراجع

### - العربية

- ١- السعدني: محمود ابراهيم: حضارة الرومان منذ نشأتها وحتى نهاية القرن الأول الميلادي، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط ١ ١٩٩٨ م.
- ٢- الشيخ: حسين: الإمبراطورية الرومانية من النشأة إلى الانهيار، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ٢٠٠٧ م.
- ٣- العبادي: مصطفى: الإمبراطورية الرومانية، دار المعرفة الجامعية، بيروت، ١٩٩٩ م.
- ٤- عبد اللطيف أحمد علي: الناس والحياة في زمن الرومان، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٠٧٣ م.
- ٥- عصمت: محمد: الطاغية نيرون، دار مشارق، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٩ م.
- ٦- الناصري: سيد أحمد علي: تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٨ م.

### - المعربة

- ١- أبوت، جاكوب: نيرون، دار الروائع، بيروت، ١٩٧٠ م.
- ٢- إيمار، اندريه-أوبوايه: جانين، تاريخ الحضارات العام، روما وإمبراطوريتها، ترجمة: فريد م. داغر - فؤاد أبو ريحان، عويدات للطباعة والنشر، بيروت، ط ١ ٢٠٠٦ م.
- ٣- ديورانت، ول: قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، ج ١، مج ٣، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨ م.
- ٤- ررلي، دونالد: حضارة روما، ترجمة: جميل يواقيم الذهبي - فاروق فريد، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٩ م.
- ٥- سفينسيسكايا: إ.س. المسيحيون الأوائل والإمبراطورية الرومانية، ترجمة: حسّان مخائيل إسحق، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط ١، ٢٠٠٦ م.
- ٦- قنزف: مرستو، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ج ١، ترجمة: زكي

- علي، محمّد سليم سالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧ م
- ٧- لابويسيه: إتين دي: مقال في العبوديّة المختارة، ترجمة: مصطفى صفوان، دار العلم للطباعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٢ م.
- ٨- لورو، باتريك: الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة: جورج كتّوره، دار الكتاب الجديدة المتّحدة، بيروت ط١، ٢٠٠٨ م.
- ٩- ورث: أ. ب. تشارلز، الإمبراطوريّة الرومانيّة، ترجمة: رمزي عبده جرجس، القاهرة ٢٠٠٣ م.
- ١٠- مونتيكيو: تأملات في تاريخ الرومان، ترجمة: عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠١ م.
- ١١- نيرون الطاغية: مجموعة من المؤلّفين، تعريب: محمّد حبيب مصطفى، المكتبة الملوكيّة، القاهرة، ١٩٣٠ م.
- المراجع الأجنبيّة

1. **Baldwin, B**; Executions under Claudius; Seneca 'S Ludus de morte claudii phoenix vol 18, 1964.
2. **Barbara, Levick**; the Governement of the Roman Empire, croomheln London, 1985.
3. **Levi; Mario**; Neronee isuoi tempi, Milano.
4. **Perkins, Jerard**; Antiquity, Roma, 1956.
5. **Scramuzza, V.M** the Emper Claudius Harvard. university press, 1940.
6. **Syme, Ronald** The Roman Rrvolution Oxford ciarendon, press, 1939.

# الحروب والصراعات الغربية (صراع الأباطرة)

د. عباس مرهج فرج [\*\*]

## الملخص

لقد شهدت أوروبا في العصور الوسطى، التي امتدت من القرن الخامس حتى القرن الخامس عشر الميلادي، تطورات عدّة في المجالات كافة، فمن الطبيعي خلال هذه المدّة الطويلة التي فصلت بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث أن تجري تحولات تاريخية أدت إلى تغيير الكثير من المبادئ والمفاهيم السياسيّة، وإلى تبدّل في العلاقات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والفكريّة، ومن جملة ذلك ما حدث من صراعات وحروب دامية بين ملوك أوروبا وحكامها، جعلت أرض أوروبا ساحة لتنافس الممالك وللصراع الإيديولوجي والإقطاعي، وقد أسفر ذلك عن تحرك القبائل من أقصى الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، فأُسست دول، وسقطت أخرى، وحافظت أخرى على نفسها، وكذلك تغيّر النظام الاقتصادي نتيجة ظهور الإقطاعيين وكبار الملاكين.

يعالج هذا البحث بالعرض والتحليل جانبًا مما استفاضت به المصادر التاريخية في قضيتي الكنيسة والحرب في القرون الوسطى، فالكنيسة هي صاحبة السيادة من دون منازع، وفكرة الحروب لا يمكن فصلها عن أية حركة من حركات العصور الوسطى الأوروبية، وما نتج عن هذه الحروب والصراعات من تصدّع داخلي وآثار سلبية في كل المجالات.

كلمات مفتاحية: الصراعات الغربية، حروب الجرمان، الأباطرة، مملكة القوط، مملكة البرجنديين، مملكة الألان والوندال، مملكة القوط الشرقيين، مملكة اللومبارديين، مملكة الأنغلو-ساكسون، مملكة الفرنجة.

## مقدمة

شهدت أوروبا خلال عشرة قرون (من القرن الخامس حتى القرن الخامس عشر الميلادي) تحولات جذرية وتقلبات سياسية واقتصادية، وكذلك اجتماعية ودينية، وعاشت عصرًا مظلمًا؛ إذ كان مستوى الثقافة والتعليم في غاية الانحطاط، وكانت كثير من المعتقدات تعتمد على الأساطير والروايات الخالية والخرافات، لذلك نتبع في هذا البحث أن نلقي الضوء عن كثر على الآثار التي خلقتها الحروب التي شهدتها أوروبا في هذه المدّة، والتغيّرات التي طالت مختلف جوانب الحياة على إثرها.

عقب سقوط الإمبراطورية الرومانية بأيدي البرابرة الجرمانيين سنة ٤٧٦م، تكوّنت ممالك بربرية جديدة، مثل مملكة الفرنجة في فرنسا، ومملكة القوط الغربيين في إسبانيا، ومملكة القوط الشرقيين في إيطاليا، ومملكة الوندال في شمال أفريقيا، لكن لم تشهد أوروبا قيام إمبراطورية كبرى ذات صفة عالمية، فإمبراطورية شارلمان الكارولنجية، وإن كانت ذات سيادة، إلا أنها لم تمثل دولة اقتصادية، ولم تستطع أن تمثل التطور الإقطاعي وتسايهه، وسرعان ما تجزأت إلى ممالك صغيرة تتناحر وتتصارع فيما بينها، وهذه حال أوروبا عامّة في عصورها الوسطى.

من المعروف أن تاريخ أوروبا في هذه الحقبة قد اشتهر بسيادة مكونين اثنين هما: الدين والحرب، بل نكاد لا نجد شيئًا ذا بال في مرحلة القرون الوسطى إلا سيطرة هذين الجانبين، فالكنيسة هي صاحبة السيادة من دون منازع، وفكرة الحروب لا يمكن فصلها عن أية حركة من حركات العصور الوسطى الأوروبية، فها هي حروب الجرمان، وتلك المرتبطة بالفروسية والإقطاع الذي كانت ركيزته الأساسية الأرض، وعلى إثره انقسم المجتمع إلى طبقات وفتات، ومن هنا كان الأسياد وكبار الملاك هم من الملوك والأباطرة، في مقابل طبقة الفلاحين والأقنان والعيبد، وأصبحت طبقة الفقراء تشمل الذين يعملون في أراضي الإقطاعيين وممتلكاتهم، وهي الطبقة الرئيسة المنتجة في أوروبا في عصورها الوسطى.

أولاً: الممالك التي شكّلت في أوروبا

قبل الحديث عن الحروب والصراعات التي شهدتها أوروبا بين ملوكها وحكامها، لا بدّ من التعريف بالممالك التي شكّلت على أراضيها، والتي سُنك فيها الكثير من الدماء، وأزهقت أثناءها الكثير من الأرواح، وكان نتيجتها تشكّل هذه الممالك على دماء الكثير من الأبرياء في أعقاب سقوط الإمبراطورية الرومانية وعلى أنقاضها، والبداية بـ:

## مملكة القوط الغربيين<sup>[١]</sup>:

تألّفت هذه المملكة من مجموعة من القبائل البربرية التي استقرت في جنوب غاليا، وقد ظهرت هذه القبائل على مسرح الأحداث حين استخدمهم الإمبراطور البيزنطي فالانس كقوة تحمي حدود إمبراطوريته من خطر قبائل الهون، فسمح لهم بالإقامة جنوب نهر الدانوب الأدنى مقابل خدمة بلاده بحماية حدود أرضه والدفاع عنها ضد أعدائه، ثم أساء البيزنطيون معاملتهم وفرضوا عليهم الضرائب الباهظة، واضطروهم إلى بيع أولادهم ونسائهم عبيداً من أجل تسديد الضرائب. كل ذلك يعكس دناءة أخلاق البيزنطيين باستغلال القبائل الضعيفة واللاجئة لهم، وتسخيرها لخدمة مصالحهم وتأمين احتياجاتهم؛ لأنهم ينظرون إليهم بوصفهم عبيداً فحسب، والتصدي لأعدائهم بدروع بشرية لا تنتسب إليهم. هذا الوضع الاجتماعي المضطرب وغير المتوازن الذي لم يحفظ للبرابرة حقوقهم وأمانهم، جعل الأمر يزداد سوءاً، ودفعهم إلى الثورة على السلطات الرومانية (البيزنطية)، وانضم إلى ثورتهم عدد كبير من العبيد المضطهدين، وبعض أفراد الجيش البيزنطي الذين هم من أصل بربري، ونتيجة ذلك استطاع القوط الغربيون أن يوقعوا الهزيمة بالجيش البيزنطي، وأن يقتلوا الإمبراطور فالانس في معركة جرت بين الطرفين عند مدينة أدريانوبل سنة ٣٧٨م.

وقد اقترب القوط الغربيون من حدود العاصمة البيزنطية، وهددوا باحتلالها، فاضطر الإمبراطور البيزنطي إلى أن يسمح لهم بالإقامة في منطقة تراكيا، لكنهم استمروا في تهديد البيزنطيين، وزحفوا بقيادة زعيمهم ألاك من تراكيا إلى مكدونيا واليونان، وهم يدمرون وينهبون ما يجدونه في طريقهم. ولم يستطع البيزنطيون التصدي لهم إلا بعد الاستعانة بقوات عسكرية جاءت من روما بقيادة ستيليكو، فاضطر القوط الغربيون للانسحاب من اليونان، وتجمّعوا في شبه جزيرة المورة.

بعد احتلال روما زحف القوط الغربيون إلى جنوب إيطاليا، وأزعموا على احتلال صقلية وشمال أفريقيا، لكن سفنهم تعرّضت لعواصف بحرية، فاضطروا إلى التراجع، كما مات زعيمهم ألاك في أثناء هذه الحملة الفاشلة، ونصّب زعيم جديد اسمه أوتولف، ففاوض هذا الزعيم الإمبراطور البيزنطي أوپوريوس على السماح لشعبه القوطي بالاستيطان في جنوب غرب غاليا، فوافق الإمبراطور الروماني على طلب أوتولف. وهكذا أسس القوط الغربيون مملكة لهم في جنوب غرب غاليا وشمال إسبانيا، واتخذوا مدينة تولوز عاصمة لهذه المملكة. وقد ظلّ القوط الغربيون يحكمون إسبانيا (بعد أن استقروا في جنوب غرب غاليا، توسّعوا جنوباً فسيطروا على معظم إسبانيا)

[١]- طرخان إبراهيم علي، دولة القوط الغربيين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٣٢ وما بعد.

حتّى فتحها العرب المسلمون أوائل القرن الثامن الميلادي.

تدلّ الحروب التي نشأت بين البيزنطيين وشعوب القوط على الهوة الكبيرة التي كانت قائمة بين بيزنطة والشعوب التي كانت تحت سلطتها وافتقارها لمبادئ التسامح والمثل والقيم الإنسانيّة، وما استخدم القوّة إلّا وسيلة لإخضاع الشعوب واستعبادها ونهب ثرواتها.

### مملكة البرجنديين<sup>[١]</sup>

قامت هذه المملكة في الجنوب الشرقي من غاليا وشمال إسبانيا. والبرجنديون قبائل جرمانية كانوا يقطنون في القسم الشرقي من ألمانيا، وكانوا يعملون في القرن الرابع الميلادي بوصفهم جنوداً مرتزقة في الجيش الروماني، ثم تركوا موطنهم ورحلوا نحو الغرب تجنّباً للصدام مع قبائل الهون، فوصلوا إلى جنوب غاليا التي كانت تخضع للسيادة الرومانية. وقد خاضوا سنة ٤٥١م معركة السهول الكاتالونية ضدّ الهون، فسمح لهم الرومان بالإقامة في جنوب شرق غاليا، بعدها توسّع البرجنديون في شمال إسبانيا، وأسّسوا مملكتهم في هذه المنطقة.

مملكة الألان والوندال في شمال أفريقيا<sup>[٢]</sup>

اصطدم القوط الغربيون في أثناء سيطرتهم على إسبانيا بأقوام الألان والوندال، ممّا أجبرهم على الرحيل إلى شمال أفريقيا، وعندما وصلوا إلى شمال أفريقيا اصطدموا بثورة شعبية دعت لتطبيق المبادئ المسيحية الأساسية وتحقيق المساواة الاجتماعية بين جميع المسيحيين، لكنّ القوات الرومانية استطاعت بمساندة الكنيسة البابوية والطبقة الأرستقراطية في شمال أفريقيا أن تُخمد هذه الثورة بالقوّة. على إثر ذلك، صَفَّ الفقراء المتمردون في شمال أفريقيا إلى جانب الألان والوندال، وعدّوهم بمنزلة المنقذين لهم من تعسف الرومان واستغلال الأرستقراطيين. وهكذا سقطت قرطاجة بأيدي الألان والوندال سنة ٤٣٩، ولم تُقبل سنة ٤٥٥ إلّا وكانوا قد سيطروا على شمال أفريقيا وتمكّنوا من طرد آخر جندي روماني.

لقد كان استخدام القوّة المفرطة من قبل الرومان، وابتعادهم عن تحقيق قيم العدالة والمساواة، سبباً في سقوط إمبراطوريتهم واندثارها.

[١]- فرح نعيم، تاريخ أوروبا السياسي، منشورات جامعة دمشق، الطبعة السادسة، ٢٠٠٤، ص ٢٩.

[٢]- نفسه، ص ٣٠.

### مملكة القوط الشرقيين في إيطاليا<sup>[١]</sup>

تألّفت هذه المملكة من مجموعة قبائل بربرية جرمانية قطنت بداية في شمال البحر الأسود، ثمّ رحلت نحو الغرب إلى ضفاف الدانوب، وهاجمت إيطاليا سنة ٤٨٩ وخاضت معارك عسكرية طاحنة مع قوات آدواكر العسكرية، وانتصرت عليه عند أيسونزو Isonzo، واستولت على فيرونا، وسيطرت على معظم إيطاليا، ثمّ حاصرت هذه القبائل آدواكر في مدينة رافنا، واستدرجته إلى مفاوضة، وتمكّنت من قتله غدراً. بعد ذلك أسّس القوط الشرقيون مملكة لهم في إيطاليا، وحاولوا مدّ نفوذهم إلى الممالك البربرية المجاورة. وقد دخلت هذه المملكة في صراع مع البيزنطيين الذين خشوا من أن يؤسّس القوط الشرقيون إمبراطورية من تلك الممالك البربرية في غرب أوروبا، فأخذوا يعدّون العُدّة لإحباط هذا المشروع الذي يمثّل خطراً كبيراً على بيزنطة.

زحفت سنة ٥٣٦ الجيوش البيزنطية إلى إيطاليا، وخاضت مع القوط الشرقيين عدّة معارك في البرّ والبحر على مدار عشرين عاماً، تمكّن على إثرها البيزنطيون من القضاء على مملكة القوط الشرقيين بعد أن عاشت ما يقارب نصف قرن<sup>[٢]</sup>.

### مملكة اللومبارديين في إيطاليا<sup>[٣]</sup>

اللومبارديون هم مجموعة قبائل بربرية جرمانية، قطنوا عند وادي نهر الأودر والجزء الأدنى شمال مصب نهر الألب في القرن الأوّل الميلادي، وقد دخلوا في القرن السادس الميلادي في صراع مع جيرانهم من الشعوب الجرمانية، مثل الجبيدي، وانتصروا في ختام هذا الصراع سنة ٨٦٧ نتيجة تحالفهم مع عنصر الآفار الذي خلف الهون في الأجزاء الشرقية والوسطى من أوروبا<sup>[٤]</sup>. بعد ذلك سمح لهم الإمبراطور البيزنطي جستنيانوس الأوّل بالإقامة جنوب نهر الدانوب من أجل استثمارهم بوصفهم جنوداً مرتزقة في جيش الإمبراطورية البيزنطية؛ كي يراقبوا تحركات قبائل الجبيدي الذين أسّسوا مملكة شمال نهر الدانوب الأوسط، كما انضمت بعض الفرق اللومباردية إلى الجيوش البيزنطية التي حاربت القوط الشرقيين في إيطاليا.

[١]- فرح نعيم، المرجع السابق، ص: ٣٢.

[٢]- عاشور، سعيد عبد الفتاح، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٦، ص ٨٦-٨٩.

[٣]- الحريري، محمود محمّد، اللومبارديون في التاريخ والحضارة، ٥٦٨-٧٧٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦، صص ٤١ وما بعد.

[4]- Wallacr-Hadrill, the Barbarian Weal 400 -1000, 1996, p45.

## مملكة الأنغلو-ساكسون في بريطانيا<sup>[١]</sup>

بدأت القبائل الأنغلو-ساكسونية الجرمانية تغزو بريطانيا منذ منتصف القرن الخامس، وعلى الرغم من المقاومة العنيفة التي أبدتها الكلت، تمكّن الأنغلو-ساكسون من احتلال بريطانيا، فانسحب الكلت إلى بعض المناطق الشمالية والغربية، في حين خضع الآخرون لسلطة الغزاة وانصهروا في مجتمعهم. في البداية لم يستطع الغزاة الأنغلو-ساكسون توفير وحدة سياسية في بريطانيا، بل أقاموا فيها سبع ممالك كانت تتناحر فيما بينها، لكن فيما بعد تمكّن ملك مقاطعة كنت من أن يوحد هذه الممالك السبعة في مملكة واحدة تحت سلطته.

## مملكة الفرنجة<sup>[٢]</sup> في غاليا

الفرنجة هم مجموعة قبائل بربرية جرمانية أشهرها قبائل السالين، والريبوير، والشامات. بدأوا يغيرون من وراء نهر الراين على غاليا منذ القرن الثالث الميلادي، ثم استوطنوا في القسم الشرقي من غاليا في القرن الرابع ومطلع القرن الخامس، كانت غاليا آنذاك ولاية رومانية، لذلك حاول الرومان أن يمنعوا الفرنجة من الاستيلاء عليها، لكن الرومان عجزوا عن صدّ غزوات الفرنجة، فاضطروا فيما بعد إلى أن يسمحوا لهم بالاستيطان في القسم الشرقي من غاليا، شريطة أن يكونوا حلفاء للرومان يدافعون عن حدودهم في المناطق المجاورة لهم.

وبعد سقوط عرش روما بأيدي الجنود المرتزقة الجرمان، أخذ الفرنجة غاليا كلّها من الرومان، وأسّسوا فيها مملكة فرنجية تطوّرت إلى إمبراطورية في عهد شارلمان، ثمّ انقسمت إلى عدّة ممالك وإمارات في القرن التاسع.

يُعدُّ الملك كلوفس ٤٨٦-٥١١م المؤسس الحقيقي لدولة الفرنجة، فبعد أن تمكّن من القضاء على فلول الرومان، أخذ يعمل على مدّ نفوذه للسيطرة على المناطق الشمالية من غاليا، واستطاع أن يجبر البرجنديين سنة ٥٠٠م على دفع الجزية والاعتراف بالتبعية لمملكته<sup>[٣]</sup>.

كما خاض كلوفس حرباً في عام ٥٠٧م ضدّ القوط الغربيين، وقتل ملكهم ألك الثاني بعد أن هزمه في فوجليه vogle، كما استولى في عام ٥٠٨ على تولوز، ممّا أجبره على الاصطدام بالقوط

[١]- فرح نعيم، المرجع السابق، ص ٣٤.

[٢]- حاطوم نور الدين، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، الجزء الأول، دار الفكر، ١٩٨٢، دمشق، ص ١٥٠ وما بعد.

[3]- Dill, Roman Society in Gaul in the Merovingian age, london, 1926, p91 .

الشرقيين الذين تدخل ملكهم ثيودريك لنجدة أقربائه<sup>[1]</sup>. وتمّ إنهاء الخلاف بين الفرنجة والقوط بالاتفاق على أن يحتفظ كلوفس بجزء من مملكة القوط الغربيين، يمتدّ حتى نهر الجارون - بما فيه مدينة تولوز - في حين احتفظ ثيودريك بإقليم بروفانس و ناربونيس<sup>[2]</sup>.

قبل وفاة كلوفس عام ٥١١، قسّم مملكته الواسعة بين أبنائه الأربعة، وعلى الرغم من هذا التقسيم، إلا أن توسّع الفرنجة لم يتوقّف؛ ففي سنة ٥٣٠ استولى الفرنجة على ثورنجيا، كما استولوا على أقاليم ناربونيس (سبتمانيا) سنة ٥٣١، وأفرون سنة ٥٣٢، وبرجنديا سنة ٥٣٤، وبافاريا سنة ٥٥٤-٥٥٥، وجاسكوني سنة ٥٦٧، وممّا ساعد على تحقيق النصر في هذه الفتوحات وازدياد نفوذ الفرنجة، أن لوثر الأوّل استطاع توحيد مملكة الفرنجة سنة ٥٨٨ بعد وفاة أخوته الثلاثة؛ أي إنّه حكم جميع أقسام مملكة كلوفس فضلاً عن برجنديا وثورنجيا وبروفانس وبافاريا<sup>[3]</sup>.

بعد هذا الاستعراض السريع للممالك المختلفة التي غزت أوروبا وسيطرت على أجزاء مختلفة منها، زاهقة الكثير من الأرواح، لا بدّ لنا الآن من أن نتنقل للحديث عن نتائج هذا الغزو والاحتلال، وما خلف من آثار وتحولات طالت مختلف مناحي الحياة في أوروبا.

### نتائج غزوات القبائل والشعوب لأوروبا

لقد تمخّض عن سيطرة القبائل الجرمانية على أوروبا وتأسيس ممالك لها هناك عدّة نتائج مهمّة، نذكر منها:

تغيير معالم أوروبا سياسياً وحضارياً، ولا سيّما القضاء على الإمبراطورية الرومانية الواحدة، وقيام دويلات جرمانية متناحرة، تلك الدويلات التي انضوت تحت لواء النظام الروماني شكلياً، إلا أنّها افتقرت للانسجام والاتفاق من حيث المستوى الحضاري والثقافي، فكانت مجرد قبائل همجية بربرية تتصارع فيما بينها، ممّا خلق فوضى وخلافات حرمت الإمبراطورية نعمة الاستقرار ومقومات الاستمرار.

تردّي الأوضاع الاقتصادية، ولا سيّما أنّ هذه القبائل والشعوب قد اتّخذت السلب والنهب في أثناء غزواتها مصدر رزق لها ووسيلة للعيش، فقد كانت العلاقة بين تلك القبائل قائمة على تهديد بعضها بعضاً، ممّا حرم المجتمع الغربي من تكوين نظام اقتصادي موحد يرتكز على أسس متينة

[1]- Cam. Med. History. vol 1, p48.

[2]- Lot: the End of The Ancient World and the beginnings of the middle ages, London, 1931, pp318 -319.

[3]- عاشور، سعيد عبد الفتّاح، أوروبا العصور الوسطى، ص٨٦.

ومنطقيّة.

نشأ ما يُعرَف بنظام الإقطاع، الذي ارتبط بالحياة الأوروبيّة في العصور الوسطى من الناحية السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والدينيّة، وقد مهّد لظهور ملكيّات كبيرة بأيدي كبار القادة والحكّام مقابل ظهور طبقة فقيرة عبّدت الطريق لنشوء نظام العبوديّة في أوروبا.

انقسم المجتمع الأوروبي إلى طبقات: رجال الدين، وملاك الأراضي، وطبقة الفلاحين والعمال، ومارس ملاك الأراضي أسوأ أشكال الظلم والتسلّط على الفلاحين والعمال، حتّى أصبحوا عبيداً لهم، ممّا ساعد على تمزيق أوروبا إلى مناطق متناحرة، لتظهر فيما بعد طبقة الفرسان التي أقامها الإقطاعيون لحماية مصالحهم وتحصيل أموالهم. ومع بروز مساوئ النظام الإقطاعي، أخذ الناس يلجؤون للكنيسة لتخلّصهم من ظلم أصحاب الأراضي، وأصبحت الكنيسة تتحكّم بالحياة العامّة وفرضت قوانينها. لكنّ ما لبث أن انتشر الفساد في الكنائس والأديرة، ممّا مهّد لحالات تمرّد على سلطتها.

## ثانياً: الصراع والحروب بين ملوك الممالك الجرمانيّة وحكّامها

سنستعرض في هذا المقام تلك الحروب التي نشبت بين الممالك الجرمانيّة، وأحداثها، وكذلك الأسباب والدوافع التي قادت إليها، برؤية نقدية تحليليّة تلقي الضوء على آثار تلك الحروب في المعجم الأوروبي والبداية بـ:

حروب اللومبارديين مع البيزنطيين والفرنجة والبابويّة:

يمثّل الصراع اللومباردي مع البيزنطيين والفرنجة والبابويّة أحد أهمّ أوجه الصراع الذي شهدته أوروبا في بداية العصور الوسطى، وسوف نقوم بدراسة صراعمهم مع كل قوّة على حدة.

### الصراع اللومباردي البيزنطي

شكل اللومبارديون قوّة خطيرة تهدّد الإمبراطوريّة البيزنطيّة، ولا سيّما بعد أن اتّحدت قبائلهم تحت سلطة ملك واحد، وكان ذلك عندما اضطروا تحت ضغط الآفار إلى الجلاء عن بانونيا، فما وجدوا بلاداً أصحح لهم وأقرب من إيطاليا، فزحفوا إليها بقيادة زعيمهم ألبوين. أمّا الإمبراطوريّة البيزنطيّة، فكانت تحت حكم جستنيان الثاني، وكانت في حالة لا تسمح لها بإرسال جيوش لمواجهة هذا الخطر الداهم والتصدي له، لذلك اقتصر الدفاع عن إيطاليا ضدّ الخطر اللومباردي على المدن المحصّنة بالأسوار المنيعة فقط، لكنّ حتّى هذه المدن لم تستطع الصمود، وهكذا

استطاع اللومبارديون أن يستولوا على وسط إيطاليا وشمالها، ولا سيما مدن فيرنا وميلان، وأن ينتشروا على سهول نهر البو، واستطاعوا إخضاع بافيا بعد حصار دام ثلاث سنوات، ثم اتخذوها عاصمة لمملكتهم الجديدة، التي أخذت في ذلك الوقت تتسع وتتوطد أركانها سريعاً، ولا ننسى أن نذكر أن زعيمهم ألبوين قد قُتل أثناء توسعهم، ولكن ذلك لم يؤثر سلباً في موقفهم أو يُضعف قوتهم، بل استمر الصراع في إيطاليا نحو قرنين من الزمن بين اللومبارديين والبيزنطيين، وأخيراً وجد البيزنطيون أن مقاومة الغزو اللومباردي بالمواجهة العسكرية غير مجدٍ، فلجأوا إلى وسيلة أكثر نفعاً من الناحية العملية، وهي إعادة تنظيم الإدارة الإمبراطورية في إيطاليا على أساس إقامة نظام الدوقيات في روما وبيروجيا ونابلي وكاليريا وليجوريا، بحيث تخضع كلها للنائب الإمبراطوري في رافنا، حتى يتمكن الجميع من مواجهة تهديد اللومبارديين<sup>[1]</sup>. لكن في الحقيقة تمكن الملك اللومباردي من توسيع مملكته على حساب الإمبراطورية البيزنطية، وانتزع بادوا سنة ٦٠٢، ثم مانتو، وأجبر البيزنطيين على دفع جزية سنوية ضخمة مقابل إيقاف توسعه مستغلاً الصراع الدائر بين البيزنطيين والفرس.

وفي عهد الملك اللومباردي روثاري Rothari (٦٣٦-٦٥٢) تحققت السيطرة على كامل شمال إيطاليا، وانتزعت من البيزنطيين منطقتا ليجوريا والمنطقة المحيطة بمدينة أودرزو على شاطئ البندقية.

واستمر اللومبارديون في حروبهم مع البيزنطيين، وخاضوا العديد من المعارك ضد الحاميات البيزنطية، وانتهت بانتصار اللومبارديين، الذين استولوا أيضاً على تسكانيا والأجزاء الوسطى من إيطاليا، فضلاً عن السهول الشمالية التي ارتبط بها اسم اللومبارديين حتى اليوم<sup>[2]</sup>.

## الصراع اللومباردي الفرنجي

سعى الملك اللومباردي أوثاري Authari إلى توحيد القوى وتوجيهها بهدف مواجهة الفرنجة وصدّ خطرهم. وفي عهد خلفه أجيلولف Agilulf بعد موت بيان القصير، اقتسم ولداه كارلومان وشارلمان مملكة الفرنجة فيما بينهما، وفي سنة ٧٧١ مات كارلومان، فصار شارلمان ملكاً على المملكة الفرنجية بقسميها الاثنتين. لكن حين التجأت جيربريجا أرملة كارلومان مع طفلها إلى الملك اللومباردي ديزيديريوس، وجدها الأخير فرصة كي يستغل لجوء أرملة كارلومان وطفلها

[1]- Thompsn J. W, The Middle Ages, Vol: 1, London, 1931, P178.

[2]- Oman.C, The Dark Ages 476- 918 A.D, London, 1908, p187.

إليه من أجل تحقيق أطماعه وفرض سلطته على إيطاليا كلّها، فطلب من البابا ستيفان الثالث (٧٦٨-٧٧٢) تنويع الطفلين الصغيرين وريثين لعرش والدهما في مملكة الفرنجة.

ولا ننسى أن نذكر أن المشكلة بين شارلمان وديزديريوس تفاقمت أكثر حين وصلت إلى النطاق العائلي؛ ذلك أن شارلمان سبق أن تزوّج ابنة ديزديريوس، ثمّ سرعان ما طلقها، ممّا زاد الضغينة بينهما والرغبة في الانتقام، وصادف ذلك مع تعهد ديزديريوس بمساعدة أرملة كارلومان<sup>[١]</sup>. لكنّ البابا رفض الاستجابة لطلب ديزديريوس خشية غضب شارلمان واستيائه، ممّا دفع ديزديريوس إلى مهاجمة الأراضي والأملاك البابوية، فطلب البابا ستيفان الثالث المساعدة من شارلمان ملك الفرنجة، وقد حاول شارلمان مفاوضة ديزديريوس أوّل الأمر، حيث أرسل إليه يطلب تسليم جميع المدن التي استولى عليها من البابوية من دون وجه حقّ، لكنّ ديزديريوس غضب لتدخل شارلمان بينه وبين البابوية، وأصرّ على موقفه بعدم التنازل عن المدن للبابوية، فغزا شارلمان إيطاليا سنة ٧٧٣، وقامت قوّاته بمحاصرة ديزديريوس في بافيا. في أثناء ذلك قام ابن ديزديريوس بجمع قوّات اللومباردين قرب فيرونا، ممّا اضطرّ شارلمان لأنّ يترك جزءاً من قوّاته لمحاصرة بافيا، ويتّجه مسرعاً بالجزء الآخر المتبقّي معه لمطاردة هذا الابن الذي فرّ إلى القسطنطينية تاركاً الملك شارلمان يستولي على فيرونا وبرجامو وغيرها من المدن المهمة<sup>[٢]</sup>.

استمرّ حصار بافيا عشرة أشهر حتّى سقطت بيد شارلمان، ونُفي على إثرها ديزديريوس إلى دير كوربي في نستريا، حيث قضى بقية حياته هناك بعد أن قُسمت ثروته بين جنود الفرنجة. أمّا شارلمان، فقد اتخذ لنفسه لقب ملك اللومباردين، وتركهم يعيشون في ظلّ نظمهم الخاصّة، لكنّهم فيما بعد ثاروا من جديد، ودبروا مؤامرة لاستدعاء ابن ديزديريوس الهارب إلى القسطنطينية، وتنصيبه ملكاً عليهم، وقد عاد إليهم، ونجح في إخضاعهم سنة ٧٧٦، وأرغم اللومباردين على اتباع قوانين الفرنجة ونظمهم<sup>[٣]</sup>.

## الصراع اللومباردي البابوي

لقد نتج عن استقرار اللومباردين في إيطاليا مواجهتهم لصراع كبير مع السلطة البابوية التي ازداد نفوذها وسلطانها السياسي حتّى غدت تمثّل إحدى القوى الحاكمة في إيطاليا إلى جانب

[1]- Mos, H. C, The Birth of the Middle Age, Oxford, 1947, P218.

[2]- Oman. C, OP. Cit, p347.

[٣]- عاشور، سعيد عبد الفتّاح، المرجع السابق، ص ١٥٨.

اللومبارديين والدولة البيزنطية، وقد استغلت السلطة البابوية فرصة الفوضى السياسية والاجتماعية التي سادت في إيطاليا في ذلك العصر، فبدأ الأساقفة يمتلكون الأراضي ويتخذون لأنفسهم صفة الحاكم، فزادت ثروتهم وجمعوا الضرائب، وقد ساعدهم على تحقيق مطامعهم وأغراضهم أن صغار الملاك في إيطاليا بحثوا عن سلطة قوية ينضون تحت حمايتها، فلم يجدوا وسط الفوضى الناجمة عن النزاع بين البيزنطيين واللومبارديين سوى الكنيسة، فسلموها أراضيهم، وأصبحوا شبه مستأجرين مقابل حصولهم على نوع من الحماية والأمان<sup>[1]</sup>.

تعرضت البابوية في عهد البابا غريغوري العظيم (٥٩٠-٦٠٤) لخطر اللومبارديين الذين استولوا على الأملاك البابوية في شمال إيطاليا، كما أدى توسعهم في وسط إيطاليا إلى تهديد الأراضي البابوية في تلك الجهات، وربما كان الخطر اللومباردي هو الذي جعل البابوية تحافظ على علاقاتها الودية مع الدولة البيزنطية في ذلك الوقت، لكن ضعفهم وعدم قدرتهم على التصدي للخطر اللومباردي دفع البابا غريغوري العظيم للاستعانة بالفرنجة وقائدهم شارل مارتل رئيس البلاط الفرنجي وصاحب النفوذ الفعلي فيها، فأرسل إليه طالباً المساعدة ضد اللومبارديين<sup>[2]</sup>، لكن مارتل اعتذر بحجة انشغاله بحربه مع المسلمين في غاليا.

بعد تنصيب بيان القصير ملكاً على الفرنجة، ذهب البابا ستيفان الثاني إلى غاليا بعد أن فقد الأمل في تقديم البيزنطيين له أية مساعدة للوقوف في وجه اللومبارديين، الذين كانوا يسعون لاحتلال الأراضي التابعة للبابوية، مما دفعه لطلب المساعدة من الملك الفرنجي الجديد، وقد وعد الملك الفرنجي البابا بمساعدته، ومقابل هذا الوعد توج البابا ستيفان الثاني بيده بيان القصير ملكاً على الفرنجة، لإضفاء صفة الشرعية على حكمه، بسبب أنه اغتصب العرش من الأسرة الميروفنجية، التي كانت تحكم غالبا من قبل. أما أيستولف الملك اللومباردي، فقد أفرغه نبأ التحالف بين البابوية والفرنجة.

في سنة ٧٥٤ اجتاز بيان القصير بقواته جبال الألب، وحاصر الملك اللومباردي في بافيا، فأجبره أن يعيد للبابا مدينة رافنا وغيرها من المناطق التي احتلها، كما أجبر أيستولف على قبول الصلح في هذه المرحلة على أساس تقديم فروض التبعية الشخصية لملك الفرنجة، لكن الملك اللومباردي أيستولف ما لبث أن احتل فيما بعد المناطق التي أعادها للبابا<sup>[3]</sup>، فحاصره بيان القصير

[1]- Moss: Op.Cit, p132.

[2]- Orton. C.W.P, Out Lines Of Medieval History, Cambridge, 1924, p137.

[3]- عاشور، سعيد عبد الفتاح، المرجع السابق، ص ١٢٥.

مرّة ثانية في رافنا (في سنة ٧٥٧) وأجبره أن يعيد للبابا تلك المناطق، وأن يجدّد خضوعه من جديد للفرنجة، ويدفع لهم غرامة ماليّة، ففي هذه المرّة فُرضت شروط أكثر قسوة على أيستولف، حيث أُلزم بتقديم ثلث دخله الملكي بمنزلة جزية سنويّة فضلاً عن مدينة رافنا وعدد من المدن الأخرى التي أخلاها اللومبارديين.

في سنة ٧٧٢ احتلّ الملك اللومباردي ديزيديريوس الأراضي التابعة للبابوية في إيطاليا، فاستنجد البابا ستيفان الثالث (٧٦٨-٧٧٢) بملك الفرنجة شارلمان<sup>[١]</sup>، الذي خلف والده ببيان القصير على العرش، ولما رفض الملك اللومباردي طلب شارلمان بالتخلي عن الأراضي التابعة للبابوية، اتّجه شارلمان بجيشه نحو إيطاليا سنة ٧٧٣، فدحر القوّات اللومبارديّة، وأعلن نفسه ملكاً على اللومبارديين، بعد أن أسر الملك اللومباردي، ونفاه إلى دير في غاليا ليقضي فيه بقية حياته. أمّا البابا هديان الأوّل (٧٧٢-٧٩٥) الذي كان يأمل بالحصول على الأراضي الإيطاليّة التي كانت تحت سلطة اللومبارديين، فقد أصيب بخيبة أمل؛ لأنّ شارلمان لم يمنحه سوى المناطق التي كان قد منحها والده ببيان القصير للبابا ستيفان الثاني في سنة ٧٥٤.

فيما بعد تمردّ اللومبارديّون على سلطة شارلمان، فدعمت بيزنطة ذلك التمردّ، حيث لم تُرُق لها سيطرة الفرنجة على إيطاليا، لكنّ شارلمان جاء بقوّاته مرّة ثانية إلى إيطاليا (سنة ٧٨٠)، فأخضع اللومبارديين لسلطته، وفرض عليهم قوانين الفرنجة ونظمهم، لتنتهي بذلك المملكة اللومبارديّة على يديه إلى الأبد.

## نتائج الغزو اللومباردي لإيطاليا

انتزع اللومبارديّون كلّ الأراضي من أصحابها الأصليين، ووضعوا أيديهم عليها، وأنزلوا مَلَآكها الأصليين إلى مرتبة التبعيّة، كما أذاقوا الفلاحين كثيراً من الظلم والجور.

كان اللومبارديّون متعصّبين لنظمهم وتقاليدهم الجرمانية و متمسّكين بها، وربّما يعود السبب في ذلك إلى أنّهم دخلوا إيطاليا بصفتهم غزاة، إذ لم تكن هناك روابط تجمعهم بالرومان وبالحضارة الرومانيّة.

كان هؤلاء اللومبارديّون على المذهب الآريوسي، ممّا جعل عددهم قليلاً بالنسبة للشعب الروماني، وكان تعصّبهم واضحاً لأصلهم الجرمانى ونظمهم الجرمانية، ومن أمثلة هذا التعصّب

[١]- إينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة عادل زيتون، دار الإحسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٩، ص ٦٠-٦٤.

أنَّ الملكية اللومبارديَّة ظلَّت انتخابيَّة، في حين أصبحت وراثيَّة في جميع ماعداها من الممالك الجرمانية<sup>[١]</sup>.

## الصراع البيزنطي البابوي

بدأ الخلاف بين البيزنطيين والبابويَّة قبل ظهور مشكلة تقديس الأيقونات في عهد الأسرة الأيسوريَّة، فقد خشيت الدولة البيزنطيَّة من ازدياد النفوذ البابوي في إيطاليا، ممَّا أدَّى إلى ظهور التنافس فيما بينهم نتيجة اعتزاز كلِّ من الطرفين بسموِّ مركزه، وقد بدأ هذا التنافس جليًّا أكثر من مرَّة في العصور الوسطى، إذ بدأ الاحتكاك أوَّل مرَّة بين الإمبراطور قسطنطين الثالث (٦٤١-٦٦٨) والبابا مارتن الأوَّل (٦٤٩-٦٥٥)، بعد أن عقد البابا مجمعاً في روما سنة ٦٤٩ أعلن فيه بطلان المرسوم الذي أصدره الإمبراطور بخصوص تحريم أيِّ نقاش حول المونوفيزيتيَّة<sup>[٢]</sup>، في الوقت الذي كانت تطمح فيه البابويَّة إلى تحريم المونوفيزيتيَّة نفسها واضطهاد أتباعها، ولم يستطع الإمبراطور أن يغفر للبابا هذه اللطمة، فأمر نائبه في إيطاليا بانتهاز هذه الفرصة للقبض على البابا، وتمَّ ذلك؛ إذ قبض على البابا مارتن الأوَّل، وتمَّت محاكمته، ونُفي على إثرها إلى القرم حتَّى مات سنة ٦٥٥<sup>[٣]</sup>.

وقد أدَّى تصرّف البيزنطيين هذا إلى تحريض الإيطاليين ضدَّهم، إذ اعتبروا البابا مارتن الأوَّل شهيداً.

وكان الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثاني (٦١٠-٦٤١) قد قاد حملة إلى إيطاليا سنة ٦٣٣ نهب فيها البيزنطيُّون الكثير من التحف والآثار الثمينة التي وجودها في روما، ممَّا أضرَّ بمكانة الكرسي الإمبراطوري وسمعته.

ثمَّ ساءت العلاقات إلى حدِّ كبير بين روما والقسطنطينيَّة في عهد البابا غريغوري الثاني (٧١٥-٧٣١)، عندما قرَّر الأخير حذف اسم الإمبراطور من الصلوات وإسقاط اسمه من الوثائق والقوانين، كما رفض أن تُنقش صورة الإمبراطور على النقود في إيطاليا<sup>[٤]</sup>.

لكنَّ النزاع غداً أكثر شدَّة حين وصل إلى قضية تقديس الأيقونات، إذ فُتحت صفحة جديدة في

[1]- Wallce-Hadrill: Op.Cit, p45.

[2]- هي عقيدة مسيحيَّة بأنَّ ليسوع طبيعة واحدة إلهيَّة، وأنَّ طبيعته البشريَّة اتحدت بهذه الطبيعة. ويمكن اختصار هذه الطبيعة في: يسوع المسيح، الابن، هو شخص واحد بطبيعة واحدة: الإنسان الإله.

[3]- عاشور، سعيد عبد الفتاح، المرجع السابق، ص ١١٩.

[4]- فرح نعيم، تاريخ بيزنطة السياسي، منشورات جامعة دمشق، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥، ص ١٩١.

تاريخ الصراع العقائدي بين كنيسة القسطنطينية والكنيسة البابوية، حيث أصدر الإمبراطور البيزنطي ليون الثالث (مؤسس الأسرة الأيسورية) قراراً يقضي بتحطيم جميع الصور والأيقونات، ممّا فجرّ المعارضة في إيطاليا ضدّ السيادة البيزنطية، ولا سيّما أنّ البابا غريغوري الثاني لم يوافق على قرار الإمبراطور في موضوع تحريم تقديس الأيقونات وصور القديسين، ولكنه في الوقت نفسه تجنّب الشقاق مع الإمبراطور؛ لأنّه كان في أشدّ الحاجة إليه من أجل حمايته من الخطر اللومباردي.

كما كان البابا غريغوري الثاني يتفق مع اللومبارديين أحياناً ضدّ الإمبراطور البيزنطي، بغية التخلّص من السيطرة البيزنطية، ولا سيّما أنّ مصلحة اللومبارديين تلتقي مع مصالح البابا في فصل إيطاليا كلياً عن بيزنطة، وتارةً أخرى يتفق مع الإمبراطور البيزنطي ضدّ اللومبارديين كيلا تقع إيطاليا كلّها في قبضة هؤلاء البرابرة.

كذلك خشي الإمبراطور البيزنطي أن يتمّ التحالف بين اللومبارديين والبابا، فحاول التقرب من الشعب الإيطالي، واتخذ في سبيل ذلك العديد من الإجراءات، فألغى قراره الخاصّ بجمع الضرائب من روما.

ثمّ أعلن أنصار البابوية في رافنا تمردهم ورجبتهم بقتل الحاكم البيزنطي فيها، فاستغلّ الملك اللومباردي هذا الوضع المضطرب واحتلّ رافنا، وكي يرضى البابا عن هذا الاحتلال أعطاه الملك اللومباردي مدينة سوتري هدية لكنيسة القديس بطرس.

لكنّ البابا غريغوري الثاني لم يرضَ باحتلال اللومبارديين لمدينة رافنا، بل جهّز سكّان فينيسيا والأسطول البيزنطي الموجود في إيطاليا بالسلّاح، وأمرهم بتحرير رافنا من أيدي اللومبارديين، فحقّقوا له ذلك.

بعد وفاة البابا غريغوري الثاني تسلّم السُدّة الرسوليّة البابا غريغوري الثالث، وسرعان ما طلب من الإمبراطور البيزنطي ليون الثالث الكفّ عن سياسة معارضة تقديس الأيقونات، فرفض الإمبراطور طلب البابا، فعقد البابا غريغوري الثالث مجمعاً دينياً في روما سنة ٧٣٢، واتخذ قراراً يعدّ الإمبراطور وأنصاره خارجين عن الكنيسة، فأمر الإمبراطور البيزنطي ردّاً على ذلك بإلحاق كنائس صقلية وكالابريا وإيليرا بكنيسة القسطنطينية بعد أن كانت تابعة لكنيسة روما البابوية سابقاً، وترتّب على ذلك أنّ الأموال والضرائب التي كان يحصل عليها البابا من أملاكه البابوية في صقلية وجنوب إيطاليا، قد تحوّلت إلى الخزينة البيزنطية<sup>[١]</sup>.

[١]- فرح نعيم، تاريخ بيزنطة السياسي، ص ١٩٣.

أمّا في عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥)، فقد تعرّضت المصالح البيزنطية في إيطاليا لضربة قاصمة، حيث تدهورت العلاقات بين بيزنطة والبابوية أكثر فأكثر، بسبب استمرار سياسة الإمبراطور البيزنطي في معارضة تقديس الأيقونات، وظلت البابوية تداري السياسة البيزنطية على الرغم من معارضة الأخيرة تقديس الأيقونات، طالما شعرت أنّها بحاجة لحمايته لها من الخطر اللومباردي الذي كان يهددها. لكن بعد سقوط مدينة رافنا البيزنطية بيد اللومبارديين (سنة ٧٥١)، وتقاعس الإمبراطور البيزنطي عن إنقاذها، شعر البابا أنّ لا داعي للتساهل مع الإمبراطور؛ لأنّه لا فائدة تُرجى منه بعد اليوم، إلى جانب ذلك ظهر حليف جديد لدى السياسة البابوية، ألا وهو ظهور الفرنجة التي كوّنت دولة قويّة في أوروبا الغربية، ممّا جعل البابا يعلّق آمالاً عليها فيما يخصّ تقديم الحماية له، أكثر من آماله التي لم تتحقّق على يد إمبراطور القسطنطينية.

### الصراع البيزنطي الفرنجي

تحدّثنا فيما سبق كيف استنجد بابوات روما بالملك الفرنجي شارلمان لحسم أطماع اللومبارديين في الأراضي التابعة للبابوية في إيطاليا، ونجاحه في القضاء على المملكة اللومباردية وإخضاع اللومبارديين لسلطته، وكذلك تمكّنه من أن يخضع بافاريا (التي تقع في شرق مملكة الفرنجة) لسلطته، وكذلك ساكسونيا (التي تقع في شمال غاليا)، وفريزيا (التي تقع شمال غرب غاليا)، والمناطق التي يقطنها الآفار، إضافة إلى ذلك شنّ شارلمان عدّة حملات عسكرية ضدّ العرب المسلمين في إسبانيا، واحتلّ بعض المدن الإسبانية مثل: برشلونة وطركونة، كما استولى على جزيرتي كورسيكا وسردينيا وجزر البليار. كلّ هذه الحروب التوسعية التي خاضها شارلمان، أدّت إلى ازدياد مساحة مملكة الفرنجة، حتّى أصبحت مساحتها تقارب مساحة الإمبراطورية الرومانية الغربية القديمة.

لقد حقّق شارلمان لنفسه العظمة والمجد، فغدا في أعين المعاصرين صاحب أكبر قوّة سياسية في عصره، ولا سيّما أنّه لم يعد يرضى باللقب الملكي، بل بات ينتظر لقب الإمبراطور، وقد أُتيحت له الفرصة عندما اعتلى البابا ليون الثالث (٧٩٥-٨١٦) السُدّة الرسوليّة خلفاً للبابا هديان الأول؛ إذ كان البابا ليون الثالث ضعيف الشخصية، فتجرّأ عليه بعض الأرستقراطيين من الرومان، الذين كانوا يتمتّعون بالحظوة في عهد البابا الراحل وفقدوا امتيازاتهم في عهد البابا الجديد، فتمردّوا عليه واتّهموه بالكفر والزنا وشهادة الزور، وحاولوا قتله، ممّا دفعه إلى التوجّه لغاليا وطلب المساعدة والحماية من الملك شارلمان، فما كان من شارلمان إلّا أن أعاد ليون الثالث إلى روما بصحبة عدد من رجال

الدين، ثم لحق به سنة ٨٠٠، وعقد محكمة علنية في روما تمت فيها تبرئة البابا من التهم الموجهة إليه، وعُوقب خصومه بالنفي إلى غاليا. ورداً على هذه المساعدة الكبيرة التي قدمها ملك الفرنجة (الحليف المخلص للبابوية)، قام البابا بتتويجه إمبراطوراً على الرومان في كنيسة القديس بطرس في روما. بتتويج شارلمان إمبراطوراً على الرومان، كانت البابوية قد قطعت بذلك الرباط الواهن الذي كان يربطها بالإمبراطورية البيزنطية. في سنة ٨٠٠ أصبحت أوروبا مقسمة بين إمبراطوريتين: ١- الإمبراطورية الفرنجية الكارولنجية في الغرب، والإمبراطورية البيزنطية في الشرق، وهذا كان بداية النزاع والخلاف بين القوتين، ولا سيما أن البيزنطيين لن يسمحوا بوجود تاج إمبراطوري جديد ينافسهم على زعامة العالم الأوروبي، فقد كان العرف السائد قبل تتويج شارلمان إمبراطوراً هو أن تكون إمبراطورية واحدة وكنيسة واحدة، والبيزنطيون يعدون أنفسهم الورثة الوحيدين للإمبراطورية الرومانية القديمة، أو بالأحرى استمراراً لها، وبذلك عدوا قيام الإمبراطورية الفرنجية اغتصاباً لحقوق بيزنطة، وضربة لنفوذها في الغرب تحرمها من كل سلطة تدعيها على البابوية والعالم الروماني الغربي، كما أن تتويج شارلمان بيد بابا روما، لم يجعل منه إمبراطوراً فحسب، بل جعل منه الإمبراطور الأول ذا السلطة الراجحة في العالم الروماني؛ لأنه الإمبراطور التي توّجته كنيسة روما البابوية، التي تدعي لنفسها الزعامة على كنائس العالم جميعاً، بما في ذلك الكنيسة البيزنطية. أما روما، فكانت تؤمن بفكرة الإمبراطورية الواحدة، ومعنى ذلك أن تتويج شارلمان إمبراطوراً، إنما هو استبدال إمبراطورية فرنجية بالإمبراطورية البيزنطية، كما كانت تعدّ عرش القسطنطينية شاغراً؛ لأنّ امرأة تعتليه هي الإمبراطورة إيرين، التي خلعت ابنها قسطنطين السادس وتسلمت وحدها مقاليد الحكم.

كان تتويج شارلمان إمبراطوراً بمنزلة صدمة كبيرة للأباطرة البيزنطيين، الذين لم يعترفوا بإمبراطوريته مباشرة، بل بقوا رافضين ساخطين مدة اثني عشر عاماً، حتى اضطروا أن يعترفوا بالأمر الواقع، كذلك كان شارلمان يعلّق أهمية كبرى على اعتراف بيزنطة بلقبه الإمبراطوري، فهو من دون هذا الاعتراف يظلُّ لقبه ناقصاً من الناحية الشرعية، وفي سبيل ذلك أغدق على نفسه لقب حاكم الإمبراطورية الرومانية، وسعى إلى اتخاذ المواقف الودية تجاه الإمبراطورية البيزنطية، كي يحصل على اعترافها به إمبراطوراً على الغرب، ولم يحمل الألقاب التي لُقّب بها أباطرة بيزنطة، مثل لقب إمبراطور الرومان، وقد دفعه ذلك إلى طلب الزواج من إمبراطورة بيزنطة إيرين، وأرسل إليها مندوبين عنه وعن البابا ليون الثالث ليعرضوا عليها هذا الأمر، لكنّ هذا الزواج لم يتم بسبب ثورة نشبت ضدها أزاحتها عن العرش<sup>[١]</sup>.

[١]- فرح نعيم، تاريخ أوروبا السياسي، منشورات جامعة دمشق، الطبعة السادسة، ٢٠٠٤، صص ٦٢-٦٤.

## الصراع الفرنجي السكسوني

تعدُّ الحروب الفرنجية السكسونية من أعنف الحروب التي شهدتها أوروبا في عصورها الوسطى، إذ تقع ساكسونيا شمال غاليا، وتمتدُّ من جنوب بحر الشمال إلى بحر البلطيق شرقاً. سكنت فيها عدّة قبائل ساكسونية جرمانية مختلفة فيما بينها من حيث العادات والتقاليد ونمط المعيشة، وقد حارب شارل مارتل وبيبان القصير هذه القبائل السكسونية، لكنهما لم يستطيعا إخضاعها لسلطة الفرنجة. أما شارلمان، فقد خاض مع الساكسون حروباً طويلة الأمد (بدأت سنة ٧٧٢، وانتهت سنة ٨٠٤)، شنَّ خلال هذه السنوات عليهم ثماني عشرة حملة عسكرية حتى استطاع أخيراً إخضاعهم لسلطته، وكان غرضه الأوّل من وراء ذلك حماية حدود بلاده من خطرهم، ثمَّ ما لبث أن أصبح غرضه انضواءهم تحت لواء المسيحية وإخضاعهم بالقوة<sup>[١]</sup>.

علماً أنّ شارلمان واجه متاعب كبيرة في حروبه ضدّ الساكسون، منها صعوبة طبيعة بلادهم ذات الغابات والأحراش<sup>(٢)</sup>، وعدم وجود مدن أو معاقل محصّنة للساكسون يمكنه أن يحاصرها ويقضي على قوّة أعدائه بالاستيلاء عليها، فضلاً عن عدم وجود طرق ومسالك يمكن أن تسلكها الجيوش الغازية. وعلى الرغم من أنّ القوات الفرنجية كانت تحقّق نصراً على الساكسون في المعارك المكشوفة، ويتظاهرون بالخضوع للفرنجة، إلّا أنّهم لا يلبثون أن ينقلبوا على السلطات الفرنجية عندما تنسحب القوّة العسكرية إلى غاليا، وقد ساعدت الظروف الساكسون من جانب آخر، إذ أظهروا عناداً شديداً وتمسّكاً قوياً بعقائدهم وتقاليدهم ونظمهم، على الرغم من أنّه في كلّ مرّة كان يخضعهم فيها، يأخذ عدداً ضخماً من الأسرى والرهائن علاوة على غرامة مائية باهظة، فيضطرون عندئذ أن يتظاهروا بالخضوع واعتناق المسيحية بأعداد كبيرة، لكنهم ما يلبثون أن يرتدوا إلى دينهم وأسلوب حياتهم الأساسي بعد انسحاب الجيوش الفرنجية.

أمّا بالنسبة إلى ما فرضه شارلمان من قوانين صارمة على الساكسون، فقد قضى بالموت على كلّ من يتمرد على سلطة الفرنجة، أو يرتد عن الديانة المسيحية؛ ففي سنة ٨٧٣ أعدم أربعة آلاف وخمسمئة أسير من الساكسون في يوم واحد، ولم يترك شارلمان وسيلة من وسائل القسوة والقمع والإرهاب إلّا واستعملها مع الساكسون، فمن ذلك أنّه كان ينقل بعض القبائل السكسونية المتمردة إلى غاليا، ويحلّ محلّها بعض الفرنجة أو غيرهم من الشعوب الموالية لها، وعلى الرغم من هذه

[1]- Cam. Mecl, Hist, Vol: 2, p609- 611.

[٢]- إينهارد، المرجع السابق، ص ٦٧.

الإجراءات التي اتخذها الفرنجة، إلا أنّ المعارك لم تهدأ بينهم وبين الساكسون الذين استمروا بالمقاومة، فاتبع شارلمان سياسة جديدة معهم تقوم على شراء أمرائهم بمنحهم الأموال والهدايا والأراضي، فشرع الأمراء الساكسون يساندون الفرنجة المحتلين، ويتعاونون معهم على إخضاع القبائل الساكسونية، وبفضل هذه التدابير العسكرية والدبلوماسية، سيطر شارلمان على ساكسونيا سيطرة تامة، وتقاسم أمراء الفرنجة مع أمراء الساكسون وكبار رجال الدين أراضي الفلاحين الساكسون، وجعلوهم يشتغلون لحسابهم<sup>[١]</sup>، وهذا يمثل الدوافع الاقتصادية التي كانت وراء سيطرة الفرنجة على ساكسونيا إلى جانب الأسباب السياسية والدينية الأخرى.

### الصراع بين أفراد البيت الكارولنجي

قُسمت الإمبراطورية الكارولنجية بعد وفاة الملك شارلمان بين أبنائه الثلاثة، فحصل ابنه لويس الملقب بالتقي على جنوب غاليا وشمال إسبانيا، وحصل ابنه شارل على شمال غاليا وشمال ألمانيا، بينما حصل ابنه بيان على جنوب ألمانيا وشمال إيطاليا، لكن وفاة شارل وبيان في حياة والدهما وبقاء لويس التقي وحده، أحرَّ إلى حدٍّ ما تقسيم الإمبراطورية، فتوجَّه شارلمان إمبراطورًا على الفرنجة في سنة ٨١٣، لكن لويس لم يكن يتمتع بصفات القيادة الحربية، أو الزعامة السياسية، أو الكفاءة الإدارية، أو حتى قوة الشخصية التي تضمن له سيطرة كافية على الجيش والإدارة، في الوقت الذي ازداد فيه الخطر الخارجي بعد وفاة شارلمان، سواء من ناحية السلاف والآفار على حدود الإمبراطورية الشرقية، أم من ناحية الفيكنج على الحدود الشمالية الغربية. ومما زاد الأمر سوءًا، أنّ الإمبراطور الفرنجي قبل وفاته قسّم الإمبراطورية سنة ٨١٧ بين أبنائه الثلاثة، مما أفضى إلى نشوب فتنة وصراع بين الأخوة فيما بعد.

وفي سنة ٨٣٣ أعاد لويس التقي تقسيم الإمبراطورية الفرنجية بين أبنائه بعد أن رزق ابنًا جديدًا (من زوجته الثانية)، وهو شارل الملقب بالأصلع، فأعاد توزيع المملكة توزيعًا جديدًا يضمن لهذا الابن الرابع حقوقه أسوة بأخوته. يبدو أنّ هذا التصرف لم يُرضِ الأخوة الثلاثة، فثاروا على والدهم، ونتج عن ذلك حروب أهلية بين الأخوة من جهة، وبينهم وبين أبيهم من جهة أخرى<sup>[٢]</sup>، قد استمرت حتى سنة ٨٤٣، وكان أن توفّي بيان، ثم لحق به أبوه، فانحصر الخلاف بين الأخوة الثلاث، وانتهى

[١]- فرح نعيم، تاريخ أوروبا السياسي، ص ٥٥.

[٢]- عاشور، سعيد عبد الفتاح، المرجع السابق، ص ١٧٠.

بالإتفاق فيما بينهم على تقسيم الإمبراطورية تقسيماً يرضيهم جميعاً<sup>[١]</sup>، حيث اجتمع أبناء لويس الثاني في مدينة فردان، وعقدوا معاهدة بينهم سُميت معاهدة فردان، ونصّت على تقسيم الإمبراطورية الفرنجية على نحو يرضي الجميع؛ إذ نال شارل الأصلح معظم الأراضي الواقعة غرب نهر الراين، التي تشمل معظم غاليا وشمال إسبانيا، كما نال أخوه لويس الملقّب بالألماني الأراضي الواقعة شرق نهر الراين، وتشمل معظم ما يُسمّى بألمانيا، في حين نال أخوهما الأكبر لوثر شمال إيطاليا وشريطاً من الأرض يتوسّط مملكتي أخويه، ويمتدّ من البحر المتوسط إلى بحر الشمال، إضافة إلى حصوله على اللقب الإمبراطوري<sup>[٢]</sup>.

## حروب الفيكنج

تعني كلمة فيكنج سكّان الخلجان، حيث سكن الفيكنج في شبه جزيرة سكندناوة وشبه جزيرة الدانمارك، وقد أغاروا على أوروبا في القرن التاسع الميلادي، واتّخذت غاراتهم طابعاً خطيراً، وكانت نقلة نوعيّة في تاريخ الشعوب البربريّة الجرمانية، فقد كانت غاراتهم بحريّة أقرب إلى القرصنة منها إلى الزحف البرّي، وقد اتّصفوا بمهارتهم في القتال وقوّة تسليحهم، وكان كلّ محارب منهم مزوداً ببلطة وحرية طويلة زيادة على درع واقٍ وخوذة من الحديد<sup>[٣]</sup>.

أمّا الأسباب التي دفعتهم للقيام بهذه الحروب التوسعيّة الهائلة، فيمكن تفسيرها بأسباب سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة ونفسية، يمكننا أن نفصّل الحديث في كلّ منها على حدة:

أ- الأسباب السياسيّة: قام نظام الحكم عند الفيكنج على الملكيّة المطلقة، فالملك يجمع بيده جميع السلطات، وهو الأمر والنهي، وقد سعى ملوك الفيكنج إلى توسيع سطوتهم، وزيادة مساحة مملكتهم، وخاضوا الكثير من الحروب، ولا سيّما في عهد ملكهم هارولد الأشقر. وقد دفعت هذه السياسة الصارمة سكّان المناطق التي حكمها الفيكنج إلى الهجرة والبحث عن موطن جديد.

ب- الأسباب الاقتصاديّة: عمل الفيكنج بوصفهم عملاء تجاريين للفريزيين قبل أن يقوم الفرنجة بغزو فريزيا وساكسونيا، وقد نتج عن هذا الغزو شلّ النشاط التجاري، ومن ثمّ البحث عن عملاء وأسواق جديدة، وكذلك استخدام القوّة العسكريّة في سبيل تحقيق الاكتفاء الاقتصادي.

ج- الأسباب الاجتماعيّة: أدّت زيادة عدد سكّان الفيكنج في القرن التاسع إلى التعرّض لضائقة

[1]- Orman, OP.Cit, p409.

[2]- فرح نعيم، تاريخ أوروبا السياسي، ص ٦٦.

[3]- عاشور سعيد، المرجع نفسه، ص ١٧٥.

اقتصادية، ولا سيّما أنّ طبيعة بلادهم فقيرة، فلم تعد تتسع لهم الأشرطة الساحلية الضيقة الممتدة على شواطئ سكندناوة والدانمارك، ممّا دفعهم إلى الإغارة على البلاد القريبة؛ بغية الحصول على ما يسدّون به رمقهم، ويلبّي حاجاتهم.

د-السبب النفسي: أثبتت الدراسات الحديثة أنّ الشعوب المتأخّرة غالبًا ما تقع تحت وطأة مشاعر الحسد والطمع تجاه البلاد المتحضّرة القريبة منها، وهذا ما يدفعها إلى الإغارة عليها بهدف نهب ثروتها ومشاركتها حضارتها والتمتّع بخيراتها، وهذا مثلّ عاملاً مهمّاً من العوامل التي حرّكت الشعوب البربرية الجرمانية نحو الإمبراطورية الرومانية<sup>[1]</sup>.

بدأت غارات الفيكنج على الإمبراطورية الكارولنجية منذ عهد شارلمان، حيث أغاروا على شواطئ الإمبراطورية القريبة، وهاجموا القرى والمراكز الساحلية، ممّا دفع شارلمان إلى إنشاء أسطول قوويّ في موانئ نستريا لحماية شواطئ الإمبراطورية من هجمات الفيكنج.

كما حاول شارلمان مفاوضتهم والاتّفاق معهم على مدى خمسة أعوام من عام ٨٠٤ حتّى ٨٠٩ من أجل تفادي الاصطدام معهم، إلّا أنّهم استغلّوا الصراعات الداخلية والخلافات والحروب التي شهدتها الإمبراطورية بين أبناء شارلمان، فأنزلوا قوّاتهم على شواطئ فريزيا، ونهبوا أترخت مركز رئيس أساقفة فريزيا، ودورشتد أكبر موانئ الإقليم، وفي العام اللاحق أغاروا على فلاندرز، وأحرقوا مدينة أنتورب، ثمّ عادوا سنة ٨٣٧ إلى مهاجمة والشرن عند مصبّ نهر الراين، وأوغلوا حتّى وصلوا إلى نموجن، ولكنّهم ما لبثوا أنّ لاذوا بالفرار عندما توجّه إليهم لويس التقي على رأس جيوشه<sup>[2]</sup>.

حاول لويس التقي تحقيق السلام والصلح معهم عن طريق تقديم الهدايا والمال، وكذلك منحهم المنطقة المحيطة بدورشتد سنة ٨٣٩ ليقبّلوا فيها من أجل أن يحول ذلك دون وقوع معارك جديدة معهم، لكنّ ذلك أدّى، على عكس المتوقّع، إلى زيادة أطماعهم في أراضي الإمبراطورية<sup>[3]</sup>.

وهكذا واصل الفيكنج هجومهم على الإمبراطورية الكارولنجية، فتوغّلوا في نهر اللور حتّى تور، ونهبوا كاتدرائيتها، ودخلوا في الجارون حتّى تولوز، وقد ساعدهم في التوغّل النزاعات والحروب الأهلية الدائرة بين الأمراء والحكّام، التي شهدتها الإمبراطورية في القرن التاسع<sup>[4]</sup>.

[1]- Eyre. E, European Civilization, (vol 3, the middle ages) London, 1935, p106.

[2]- Oman. Op.Cit, p400.

[3]- Mawer. A, Vikings, Cambridge, 1930, p189- 190.

[4]- Thomposn, Op.Cit, Vol: 1, p312.

ثم اشتدت غارات الفيكنج على فرنسا على نحو خطير بعد وفاة شارل التقي سنة ٨٤٠، فتوغلوا في نهر السين سنة ٨٤١، واستولوا على روان، وتوغلوا في اللور قبل عقد اتفاقية فردون، وأحرقوا ميناء نانت، ولم تلبث أن زادت غارات الفيكنج شدة بعد تقسيم الإمبراطورية بين الأخوة الثلاثة سنة ٨٤٣، حتى أصبح هذا الخطر بمنزلة الشغل الشاغل للأخوة الثلاثة الذين اقتسموا الإمبراطورية، وكان لويس الألماني أوفر أخوته حظاً؛ لأن قبائل السكسون الموجودة على حدود دولته هيأت له درعاً قوياً يحمي هذه الدولة من خطر الفيكنج، وعلى الرغم من ذلك تعرضت بلاد لويس الألماني لإحراق مدينة هامبرج سنة ٨٤٥، وفر أسقفها منها إلى برمن<sup>[١]</sup>. وكذلك تمكن الفيكنج من التوغل في نهر الألب سنة ٨٥١، وهزموا أمراء السكسون، ثم عادوا ظافرين إلى الدانمارك بعد أن نهبوا جزءاً كبيراً من ساكسونيا.

وصل الفيكنج في غاراتهم إلى جنوب فرنسا، وأغاروا على بورديو كبرى مدن الجنوب ونهبوها سنة ٨٤٧، ثم استولوا عليها تماماً، وقد كسب الفيكنج من وراء السيطرة على هذه المدن مكاسب كبيرة تمثلت بالأرباح الضخمة والغنائم الوفيرة، وزادت من عزيمتهم في مواصلة غاراتهم التدميرية التي طالت الكثير من المدن الكارولنجية<sup>[٢]</sup>.

وقد أدّى عجز أفراد البيت الكارولنجي المالك عن مواجهة غزوات الفيكنج إلى محاولتهم شراء الصلح معهم بالمال، من ذلك ما فعله شارل الأصغر سنة ٦٨٠ حين عقد معاهدة مع ولاند أحد زعماء الفيكنج، تعهد فيها الملك الكارولنجي بدفع مبلغ كبير من المال مقابل قيام ولاند بإخلاء نستريا من الغزاة، وكى يحصل الملك الكارولنجي على هذا المبلغ الذي تعهد بدفعه للفيكنج، فرض على رعاياه ضريبة كبيرة وجائرة حتى الكنائس والأديرة والنبلاء والتجار وكذلك فقراء الفلاحين لم يُعفوا منها<sup>[٣]</sup>.

فكانت هذه الضريبة حملاً جديداً أضيف إلى الأثقال التي كان يحملها أهالي دولة الفرنجة، في الوقت الذي اتضح فيه عجز ملوكهم عن الدفاع عنهم.

لقد أثبتت الحوادث فيما بعد أن الاتفاقات التي عقدها ملوك الغرب مع الفيكنج لا قيمة لها، مادام هؤلاء الملوك لا يملكون القوة التي يجبرون بها أعداءهم على احترام كلمتهم، لذلك ما لبث أن عاد الفيكنج إلى تهديد ألمانيا وفرنسا، حتى اشتدت غاراتهم في السنوات العشر الأخيرة

[1]- Mawer, Ibid, p20.

[2]-Oman. The Dark Ages, p422.

[3]- Mawer, Op.Cit, p45.

من القرن التاسع، واستولوا على عدد كبير من المدن، وهددوا باريس وحاصروها، ونهبوا الكنائس والأديرة غير محترمين ولا مراعين حرمتها الدينيّة، بل كل ما عناهم هو غناها بالكنوز والأدوات الثمينة.

في المجمل كانت غزوات الفيكنج أحد أهم الأسباب التي أضعفت الإمبراطوريّة الكارولنجيّة وأدت إلى سقوطها.

### الصراع بين أباطرة الأسرة الكارولنجيّة وملوك الأسرة الكاييّة على الحكم

زاد نفوذ المُلّاك وكبار الإقطاعيين في أواخر العهد الكارولنجي، ولا سيّما أنّهم لعبوا دوراً كبيراً في دعم السلطة الملكيّة المركزيّة، التي كانت قد ساعدتهم في فرض سلطتهم على فلاحيهم، وفي الحصول على أراضٍ جديدة وفلاحين جدد، فأصبح هؤلاء الإقطاعيون في القرن التاسع يحملون ألقاب الكونت أو الدوق، وقد دفعهم ذلك إلى الرغبة في الاستقلال عن السلطة المركزيّة، وتشكيل جيش خاصّ بهم، والاستقلال بخزانتهم ومحاكمهم وجهازهم الإداري، كما صار صغار الإقطاعيين، والمتوسّطون منهم، تابعين لكبار الإقطاعيين ومرتبطين بهم أكثر من ارتباطهم بالملك أو الإمبراطور نفسه، كذلك أصبح الإقطاعيون يستطيعون بوساطة قوّاتهم الخاصّة إخماد تمرد الفلاحين عليهم دون الحاجة لمساعدة السلطة الملكيّة المركزيّة البعيدة، ولا سيّما أنّ تمردات الفلاحين كانت ذات طابع محليّ في تلك الحقبة التاريخيّة. وعلى هذا كان رسوخ أسس النظام الإقطاعي، وتوطّد أركانه كنظام اقتصادي واجتماعي من أهمّ العوامل التي أدت إلى تفتت الإمبراطوريّة الفرنجيّة إلى ممالك وأمّارات صغيرة.

بعد فشل الكارولنجيين في حماية البلاد من خطر النورمانديين، اجتمع الأمراء الفرنسيّون من إقطاعيين وكبار مُلّاك، واتّفقوا على انتخاب رجل قويّ من خارج الأسرة الكارولنجيّة، وتمّ اختيار أودو بن روبير كونت باريس، الذي عُرف بشجاعته نتيجة شهرته الكبيرة التي نالها حين تصدّى لغزو النورمانديين في أثناء حصارهم مدينة باريس سنة ٦٨٨، فتبوّأ أودو العرش الفرنسي سنة ٨٨٨، وأيّده أكثر الأمراء الفرنسيين، كما اعترف به الملك الألمانيّ أرنولف، وتمكّن أودو في بداية حكمه من تحقيق نصر على النورمانديين، فازداد جاهه وقويت سلطته، لكنّه ما لبث أن ضعفت مكانته وزادت قوّة خصومه بعد قيامه بدفع مبلغ كبير من المال لخصومه النورمانديين مقابل انسحابهم من باريس بعد غزوهم لها سنة ٨٩٠، فشجّع هذا التصرف خصومه على التحرك ضده، والعمل على إعادة العرش الفرنسي إلى الأسرة الكارولنجيّة، فتمّ تويج شارل البسيط ملكاً على فرنسا، لكنّ هذا التويج أفضى إلى نشوب نزاع مسلّح على السلطة بين أودو وشارل، كما تدخلت في هذا الصراع فئات عدّة، فاستغلّ

النورمانديون هذا الظرف وأغاروا على فرنسا من جديد سنة ٨٩٧، فاضطرّ الملكان المتصارعان عندئذٍ للتفاوض وإنهاء الصراع بينهما بغية توحيد الجهود ضدّ الغزاة النورمانديين، ونتيجة التفاوض تنازل أودو عن قسم من المملكة الفرنسيّة لشارل البسيط، وحين تُوفيّ أودو سنة ٨٩٨ صار شارل البسيط الملك الوحيد على فرنسا، وبذلك استعادت الأسرة الكارولنجيّة العرش الملكي<sup>[١]</sup>.

لكنّ الظروف لم تستقر طويلاً، حيث نشبت الحرب الأهليّة من جديد في فرنسا في السنوات الأخيرة من حكم شارل البسيط، وذلك حين تمردّ روبرت أخو أودو على السلطة الملكيّة في فرنسا وأعلن نفسه ملكاً على فرنسا، لكنّ شارل البسيط هاجم روبرت فقتله في معركة دارت رحاها سنة ٩٢٣، إلا أنّ بعض الإقطاعيين الموالين للأسرة الكايبة انتخبوا روبرت صهر روبرت ملكاً على فرنسا، بينما تمّ أسر شارل البسيط من قبل أحد الإقطاعيين، الذي أراد من وراء ذلك تحقيق أطماعه وزيادة ثروته، وبقي شارل البسيط في الأسر حتّى تُوفيّ سنة ٩٢٩.

أمّا لويس الرابع بن شارل البسيط، فقد فرّ بعد وفاة والده إلى إنكلترا، والتجأ لجدّه -والد أمه- الملك الإنكليزي إدوارد الأوّل، وبذلك لم يبق أحد من الأسرة الكارولنجيّة في فرنسا يحقّ له استلام العرش الملكي، ولذلك آل الحكم إلى رؤول صهر روبرت (من الأسرة الكايبة)، الذي أصبح ملكاً على فرنسا كلها، وحكمها حتّى مات سنة ٩٣٦.

مات رؤول وليس له ولد يخلفه، فأجمع كبار الإقطاعيين الفرنسيين على تتويج هوغو الملقّب بالأكبر ملكاً على فرنسا، لكنّ هوغو الأكبر لم يرغب في أن يكون ملكاً رسمياً على فرنسا، بل فضّل أن يمارس نفوذه من وراء السلطة الملكيّة، لذلك أقنع كبار الإقطاعيين بضرورة عودة لويس الرابع من إنكلترا وتنصيبه ملكاً على العرش الفرنسي، وبذلك عاد لويس الرابع إلى فرنسا، وتبوأ العرش الملكي من عام ٩٣٦ حتّى ٩٥٤، وبذلك استعادت الأسرة الكارولنجيّة السلطة الملكيّة من جديد.

بعد وفاة لويس الرابع خلفه على عرش فرنسا ابنه لوثر وحكم حتّى ٩٨٦، وخلف لوثر ابنه لويس الخامس، الذي حكم سنة واحدة ومات بعدها، دون أن يكون له ولد يخلفه على العرش الفرنسي. وبذلك لم يبق أحد من الأسرة الكارولنجيّة يحقّ له أن يكون ملكاً على فرنسا، لذلك تسلّم الحكم الابن الأكبر لهوغو المعروف بهوغ كاييه، الذي يُعدّ المؤسس الحقيقي للأسرة الكايبة التي حكمت فرنسا بعد الأسرة الكارولنجيّة<sup>[٢]</sup>.

[١]- فرح نعيم، تاريخ أوروبا السياسي، ص ٨١.

[٢]- فرح نعيم، تاريخ أوروبا السياسي، ص ٨٣.

## الصراع الإنكليزي الفرنسي

### أ- أسباب الصراع:

يعود الخلاف الفرنسي الإنكليزي في العصور الوسطى لعدة أسباب أهمها:

- ١- احتلال غليوم الفاتح دوق نورمانديا الفرنسية إنكلترا سنة ١٠٦٦.
- ٢- احتفاظ ملوك إنكلترا النورمانديين بأمالك غرب فرني، في الوقت الذي عدّ ملوك فرنسا تلك الممتلكات الإنكليزية على حدود بلادهم الغربية خطراً يهدّد الكيان الفرنسي ويحول دون وصول الفرنسيين إلى المحيط الأطلسي.
- ٣- التنافس الاقتصادي بين الدولتين، وتعارض مصالحهما السياسيّة في القارة الأوروبية.

### ب- بداية الصراع:

يُعدّ الصراع الفرنسي الإنكليزي أعظم خطر هددّ الملكيّة الفرنسيّة بعد وصول آل كاييه إلى الحكم في فرنسا وتأسيسهم النظام الملكي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وكان هذا الصراع مع ملوك إنكلترا الذين جمعوا بين العرش الإنكليزي ودوقية نورمنديا؛ وذلك أنّ حرب الحدود استمرّت بين ملوك فرنسا من جهة والنورمان من جهة أخرى، حيث جرح غليوم الفاتح سنة ١٠٨٧ جرحاً خطيراً في أثناء مهاجمته ضواحي باريس، ثمّ لجأ هنري الأوّل ملك إنكلترا (١١٠٠-١١٣٥) إلى تأليف حلف قويّ ضدّ لويس السادس ملك فرنسا، ضمّ هذا الحلف أعداء الملكيّة وأهالي المدن الذين لم يكونوا على وفاق مع أمراءهم، وعلى الرغم من أنّ الهزيمة حلّت أكثر من مرّة بلويس السادس، إلاّ أنّه ظلّ محتفظاً بشأنه ومركزه<sup>[١]</sup>.

كذلك تزوّج هنري الأنجوي الذي اعتلى عرش إنكلترا سنة ١١٥٤ تحت اسم هنري الثاني من زوجة الملك الفرنسي لويس السابع، بعد أن طلقها لعدم إنجابها ولدًا ذكرًا يحفظ الحكم من بيت كاييه، وهكذا أصبحت ممتلكات ملك إنكلترا في قلب القارة تمتدّ من المانش حتّى البرانس، ممّا جعل الصدام بين ملوك فرنسا وإنكلترا لا مفرّ منه<sup>[٢]</sup>.

واجه لويس السابع محاولة الملك هنري الثاني محاولته السيطرة على مدينة تولوز، ممّا استدعى الصدام بين الطرفين، وقد اتّبع الملك لويس السابع سياسة حكيمة في الداخل والخارج، ففي

[1]- Tout, The Empire and The Papacy, P280.

[2]- Ibid, p: 268.

الداخل ربط الملكية في فرنسا بالطبقة البرجوازية التي أقام لها المدن لتتخذها مسرحاً لنشاطها، وتكون عوناً على كبار الأمراء الإقطاعيين. أمّا في الخارج، فقد أقام علاقات مع الألمان، وهو تحالف ظل قائماً ما يقارب ثلاثمئة عام. أمّا ملك إنكلترا، فقد ارتكب خطأ فادحاً حين قتل توماس بكت رئيس أساقفة كانتربوري، ممّا أثار غضب الشعب ضده، وجعل الكثير من النبلاء يساندون ملك فرنسا، أضف إلى ذلك معاناة مملكته من صراعات أبنائه على ما يشرفون عليه من أملاك التاج البريطاني في صلب القارة، ممّا أضعف موقف أبيهم<sup>[1]</sup>.

ثمّ تولى الحكم في فرنسا بعد لويس السابع فيليب أوغسطس، الذي بدأ عهده باسترضاء هنري الثاني ملك إنكلترا، ليضمن عدم تدخله في الحركة التي أزمع القيام بها لإخضاع أمراء فلاندرز وبرجنديا<sup>[2]</sup>.

وقد دخل في حرب مع هؤلاء الأمراء (١١٨١-١١٨٥) حتّى تمكّن من إخضاعهم، لكنّ الملك الفرنسي أدرك أنّ تحقيق سيطرته على الإقطاعات الكبرى في فرنسا، ما دامت ممتلكات التاج الإنكليزي في شمالها وغربها تحدّ من نفوذ الملكية الفرنسية، وتشكّل خطراً جاثماً عليها<sup>[3]</sup>.

لذا لجأ إلى كلّ الوسائل الممكنة، السياسية والحربية لإضعاف قوّة ملك إنكلترا في القارة، فعقد تحالفاً سنة ١١٨٧ مع فريديريك بربروسا إمبراطور ألمانيا (١١٥٢-١١٩٠) للوقوف في وجه خصومه من كبار الإقطاعيين، ولا سيّما الأنجويين في فرنسا، والجلفيين في ألمانيا<sup>[4]</sup>.

وقد استغلّ الملك الفرنسي الخلاف والشقاق بين الملك هنري الثاني وأبنائه، فصنّف في صنّف الأبناء، وأخذ يساعدهم ضدّ أبيهم ليضعف نفوذ الملكية الإنكليزية عن طريق بثّ الشقاق بين الملك وأبنائه.

بعد تسلّم ريتشارد الحكم في إنكلترا دخل في صراع مع فيليب أوغسطس، وانتصر الملك الإنكليزي على الفرنسي، وأجبره على الانسحاب من نورمنديا، وعقد هدنة معه.

وقد استمرّ الصراع بين الملكين الفرنسي والإنكليزي على مقاطعة نورمنديا، حتّى قام الملك الإنكليزي ببناء حصن جيلارد فوق ربوة تطلّ على نهر السين شمال روان، من أجل حراسة عاصمة نورمنديا من أيّ اعتداء فرنسي، ممّا أثار العداوة بين الطرفين من جديد، فشنّ الملك الفرنسي

[1]- Adamas, The history of England from Norman Conquest to the Death of Jhon (1066- 1216), London, 1905, p304.

[2]- Ibid, p: 338.

[3]- Cam.Med. Hist. Vol.6, pp291- 302.

[4]- Adamas , Op.Cit, p304.

فيليب أوغسطس هجوماً سنة ١١٩٨ على نورمانديا، وحاول استعادتها، لكنه فشل ونجا من الأسر بصعوبة<sup>[١]</sup>.

لكن ما لبث أن تدخل البابا، ونجح سنة ١١٩٩ في عقد هدنة بين الطرفين لمدة خمس سنوات، لكن الخلاف عاد وتجدد نتيجة استمرار محاولات الملك الفرنسي فيليب أوغسطس بتفتيت أملاك التاج الإنكليزي في القارة من خلال تجهيز الأموال لخوض الحرب، وتأليب حكام المقاطعات على الملك الإنكليزي، وحشد القوات والتحالف مع ألمانيا ودفع الأموال لها، حيث بدأ بالاستيلاء على نورمانديا عن طريق رشوة حاميتها، ولم تنته سنة ١٢٠٥ إلا وكان فيليب أوغسطس قد استولى على نورمانديا وانجو ومين وتورين، ودان له بالطاعة معظم أمراء بواتو، وبذلك تضاعفت أملاك التاج الفرنسي، وأمدت الأملاك الجديدة ملك فرنسا بقوة عظيمة وثروة طائلة<sup>[٢]</sup>.

### ج- حرب المئة عام بين إنكلترا وفرنسا:

يطلق اسم حرب المئة عام على المرحلة الأخيرة من مراحل الصراع بين إنكلترا وفرنسا في العصور الوسطى، تلك التي امتدت بين سنتي (١٣٣٧-١٤٥٣)، غير أن تلك الحرب لم تستمر مئة عام تماماً، ولم تتخذ شكل قتال مستمر ودائم بين الإنكليز والفرنسيين، وإنما اتخذت شكل هجمات متباعدة زمنياً تخللتها الهدنة والصلح مرات عدة.

وقد قسّم المؤرخون حرب المئة عام إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: امتدت بين سنتي (١٣٣٧-١٣٨٠)، وأهم حوادثها انتصار الإنكليز على كريسي، واستيلاؤهم على غالية، ثم انتصارهم عند بواتيه.

المرحلة الثانية: امتدت بين سنتي (١٣٨٠-١٤١٥)، واتسمت بالهدوء والسلام بين الطرفين.

المرحلة الثالثة: امتدت بين سنتي (١٤١٥-١٤٥٣)، وفيها تجددت الحرب على يد هنري الخامس ملك إنكلترا وحليفه دوق برجنديا، فانتصر الإنكليز عند أجينكورت وغزوا شمال فرنسا، ثم عادت برجنديا إلى محالفة فرنسا، وانتهت الحرب بطرد الإنكليز نهائياً من الأراضي الفرنسية سنة ١٤٥٣.

[1]- Tout, Op.Cit, p268.

[٢]- عاشور، سعيد عبد الفتاح، المرجع السابق، ص ٢٢١.

### د- نتائج الصراع الفرنسي الإنكليزي:

لن نخوض في تفاصيل حرب المئة عام، لكننا سوف نركّز على النتائج التي تمخّضت عن هذه الحرب، والتي يمكن أن نجملها بالآتي:

#### على الصعيد الفرنسي:

١- جعلت هذه الحرب فرنسا دولة قويّة، فقد استطاع الملك الفرنسي شارل السابع أن يبني لفرنسا حكومة رشيدة، وأن يؤسّس لها جيشاً نظامياً يقوده ضباط يعيّنهم الملك، لا مجرد فرسان من الإقطاعيين كما كان الوضع سابقاً، كما منع الإقطاعيين من تشكيل الجيوش الخاصة، وأجبرهم على دفع الضرائب.

٢- تطوّر سلاح الجيش الفرنسي من الناحية العسكريّة؛ إذ استُخدمت المدفعية والبارود على نطاق واسع.

٣- تضخّمت العملة الفرنسيّة؛ إذ دفعت الحرب التي خاضتها فرنسا مع إنكلترا ملوكها لتزييف العملة من أجل تغطية نفقات الحرب، ممّا أدّى إلى ارتفاع الأسعار، وفرض ضرائب على السكّان؛ كضريبة احتكار الملح<sup>[١]</sup>، وارتباكات ماليّة أخرى أدّت إلى التضخّم المالي.

#### على الصعيد الإنكليزي:

١- خسر الإنكليز الحرب، وأضاعوا ممتلكاتهم في فرنسا.

٢- حقّق الإنكليز تطوّرًا في مجال الصناعة، ولا سيّما صناعة الصوف، ذلك أنّ الخوف من أخطار النقل البحري أثناء الحرب دفع الإنكليز إلى صنع الأقمشة من أصواف أغنامهم في إنكلترا.

٣- تقدّم الإنكليز من الناحية العسكريّة، حيث برعوا في فنون الحرب البريّة والبحريّة نتيجة الاحتكاك الحربي الطويل مع الفرنسيين.

٤- أخذت اللغة الإنكليزيّة تحلّ محلّ اللغة الفرنسيّة في المؤلّفات الأدبيّة، والمحاكم والبرلمان والكنيسة ومراسلات الملوك والمثقفين.

٥- تطوّرت إنكلترا من الناحية الدستوريّة، فقد صار البرلمان الإنكليزي يتمتع بسلطات واسعة؛

[١]- فرح نعيم، تاريخ أوروبا السياسي، ص ١٧٢.

ذلك أنّ حاجة الملوك للمال دفعتهم إلى اللجوء إلى البرلمان لفرض الضرائب على الشعب، وهذا ما جعل البرلمان صاحب حقّ في تقرير أمور البلاد.

في المجمل أدّت النزاعات والصراعات بين الأمراء والحكّام إلى انتشار الفوضى التي عمّت أوروبا عامّة، وغرب أوروبا خاصّة، وقد دفعت هذه الفوضى صغار الملاك للبحث عن قوّة تحميهم وتذود عنهم، فلم يجدوا أثراً لقوّة الملك أو لنفوذ السلطة المركزيّة، ممّا اضطرّهم إلى الارتباط بالكونت أو الأمير المحليّ لحمايتهم، وهكذا أخذ عامّة الناس وصغار الملاك يرتبطون بمن هم أقوى منهم من الأمراء وكبار الملاك في ظلّ نظام من الحقوق والواجبات المتبادلة كوسيلة وحيدة لحماية أرزاقهم وأرواحهم من الأخطار التي هدّدت مجتمعاتهم.

في ختام بحثنا لا يسعنا سوى التأكيد على أنّ انهيار الإمبراطوريّة الرومانيّة القديمة وسقوطها، كان بداية حقبة جديدة من الصراعات التي شهدتها أوروبا سادت لفترات طويلة على امتداد العصور الوسطى زهق خلالها الكثير من الأرواح. لم تشكّل أوروبا دولة إقليميّة قوميّة موحّدة، ولا ملكيّة ذات طابع إقطاعي، ولا هي دكتاتوريّة شعبيّة، لكنّها جمعت مزيجاً من الحواضر والجماعات المحليّة التي انصهرت في جزء كبير منها مع شبكة العلاقات الاجتماعيّة التي انسكبت في قالب المجتمع لتؤلّف كلّ واحدة منها مجتمعات ضروريّة ترانبيّة ومتشابكة ثقافيّاً، ولم تشكّل بنية متجانسة متناغمة متألّفة، بل على العكس تماماً، مزجت شعوباً وقبائل مختلفة ثقافيّاً وفكريّاً واجتماعيّاً وطبقيّاً، ممّا أسهم في توسيع هوّة الاختلاف الذي أودى إلى حدّ الصراع والتناحر والتنازع، ولا سيّما بين طبقة الفقراء والعمّال والعيبد وبين طبقة الإقطاعيين والفرسان والعسكر والطبقة الحاكمة، نتيجة استغلال الطبقة الغنيّة والحاكمة للطبقة الفقيرة العاملة وتجريدها من أبسط حقوقها الإنسانيّة في العيش حياة كريمة، واستعبادها وتسخيرها لمجرد الدفاع عنها وخدمتها والحفاظ على أمنها وأمانها وتأمين احتياجاتها.

إنّ كثرة الحروب ومظاهر العنف وسفك الدماء التي شهدتها أوروبا في العصور الوسطى قد أفسدت بنية المجتمع، ولم تسهم في نشوء أيّ وجه حضاري لها، فسُمّيت هذه الفترة بالعصر المظلم، كما كانت سبباً رئيساً لتخلّل أو تفكّك أو تنافر مكونات المجتمع.

## خاتمة

يمكن أن نجمل النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه الدراسة بالآتي:  
شهدت أوروبا خلال عشرة قرون (من القرن الخامس حتّى القرن الخامس عشر) تحولات

جذرية وتقلبات سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية عاشت خلالها عصرًا مظلمًا. لعب الكنيسة دورًا مهمًا في قيادة المجتمع وأصبحت صاحبة السيادة دون منازع. تغير النظام الاقتصادي وظهرت الملكيات الكبيرة لتمهّد لظهور نظام الإقطاع. أسست ممالك ودول دخلت في حروب وصراعات فيما بينها من جهة، وبينها وبين الإمبراطورية البيزنطية من جهة أخرى.

اتخذ الصراع في كثير من الأحيان طابعًا دينيًا؛ كالصراع بين أباطرة بيزنطة من جهة، والكرسي البابوي من جهة أخرى، وقد وصل الصراع إلى ذروته بعد محاولة أباطرة بيزنطة اعتقال بابا روما ومحاكمته ونفيه.

شكل قيام الإمبراطورية الفرنجية الكارولنجية بدعم من الكرسي البابوي وتتويج شارلمان إمبراطورًا عليها ضربة مؤلمة لأباطرة بيزنطة، الذين كانوا يعدّون أنفسهم الورثة الوحيدين للإمبراطورية الرومانية القديمة.

شهدت أوروبا حروبًا أهلية بين الأخوة للاستئثار بالحكم؛ كما حصل مع أبناء لويس التقي الذين ثاروا على والدهم، وشهدت الإمبراطورية الفرنجية حربًا أهلية انتهت بتقسيم الإمبراطورية فيما بينهم، مما ساهم بزيادة التفكك وسفك الدماء بين أبناء الجدة الواحدة.

سعى العديد من الملوك للتوسع على حساب جيرانهم بهدف زيادة مساحة ممالكهم، مما أدخلهم في حروب ونزاعات فيما بينهم.

أدى زيادة نفوذ كبار الملاك والإقطاعيين إلى تشكيل قوات وإدارات خاصة بهم، وتمردهم على سلطات بلادهم، مما أدخلهم في صراعات مع هذه السلطات من جهة، ومع الفلاحين الذين قاموا بثورات وتمردات ضدهم للتخلص من ظلمهم من جهة أخرى، وهذا أدى إلى نشوب حروب أزهدت فيها الكثير من الأرواح.

نتج عن الحروب تضخم اقتصادي أدى إلى ارتفاع الأسعار وفرض الضرائب على السكان من أجل تغطية نفقاتها.

## لائحة المصادر والمراجع

## المراجع العربية

١. إينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة عادل زيتون، دار الإحسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٩.
٢. حاطوم نور الدين، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، الجزء الأول، دار الفكر، ١٩٨٢، دمشق.
٣. الحريري، محمود محمّد، اللومبارديون في التاريخ والحضارة، ٥٦٨-٧٧٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦.
٤. طرخان إبراهيم علي، دولة القوط الغربيين، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ١٩٥٨.
٥. فرح نعيم، تاريخ أوروبا السياسي، منشورات جامعة دمشق، الطبعة السادسة، ٢٠٠٤.
٦. فرح نعيم، تاريخ بيزنطة السياسي، منشورات جامعة دمشق، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥.
٧. عاشور، سعيد عبد الفتّاح، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٦.

## المراجع الأجنبية

1. Adamas, The history of England from Norman Conquest to the Death of Jhon (1066-1216), London, 1905.
2. Cam. M. History of Europe . Vol.6, London,1955.
3. Dill. Roman Society in Gaul in the Merovingian age, london, 1926.
4. Eyre. E. European Civilization, (vol 3. the middle ages) London, 1935.
5. Orton. C.W.P, Out Lines Of Medieval History. Cambridge. 1924.
6. Oman.C. The Dark Ages 476- 918 A.D, London, 1908.
7. Mawer. A, Vikings Cambridge, 1930.
8. Mos, H.C, The Birth of the Middle Age, Oxford, 1947.
9. Thomposn J.W, The Middle Ages, Vol: 1, London, 1931.
10. Lot: the End of The Ancient World and the beginnings of the middle ages, London, 1931.
11. Wallacr-Hadrill, the Barbarian Weal 400- 1000, 1996.

# أسباب الحروب الصليبيّة ودوافعها

٤٩٠-٦٩١هـ / ١٠٩٦م-١٢٩١م

عمّار محمّد النهار<sup>[\*]</sup>

## الملخص

إنّ الحروب الصليبيّة، منذ بدايتها، هي نتاج لمجموعة عوامل متشابكة ومعقّدة إلى أقصى الحدود، وهي ظاهرة بالغة التعقيد، ومن ثمّ فإنّ أيّ محاولة لتفسيرها في ضوء عامل واحد أو مجموعة عوامل محدّدة، مثل التدينّ العاطفي والحماسة الدينيّة، أو جوع زعماء الصليبيين إلى الأرض، أو الأحوال والظروف الاجتماعيّة التعيسة التي عاش في ظلّها الفلاحون وفقراء أوروبا، أو أطماع تجّار المدن الإيطاليّة في الحصول على الامتيازات التجاريّة، أو المآرب السياسيّة للبابويّة، أو الطموح الشخصي، وما إلى ذلك، هذه المحاولة سيكون مصيرها الفشل كما رأى قاسم عبده قاسم، وهو أحد أهمّ من أرخ وترجم للحروب الصليبيّة، على الرغم من أنّ هذه العوامل جميعاً كانت بالفعل من بين العوامل والأسباب التي أدّت إلى انطلاق الحروب الصليبيّة.

وقد حاولت في هذا البحث أن أخوض في المصادر والمراجع والروايات وتفاصيل الأحداث ورؤى المؤرّخين؛ لأشكّل منها بحثاً مقبولاً قدر الإمكان، ولأخرج بأقرب صورة ممكنة عن أسباب هذه الحروب ودوافعها، منتهجاً التوسّع بحسب الحاجة، وضامّاً جهدي إلى جهود من سبقني، وواضعاً هذا البحث مع الأبحاث التي تناولت الموضوع نفسه، ليكون بين أيدي الباحثين والمهتمين. والله من وراء القصد.

كلمات مفتاحية: الحروب الصليبيّة، التدينّ العاطفي، الحماسة الدينيّة.

\*- أستاذ في قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة دمشق، مدير ورئيس تحرير مجلة تاريخ دمشق المحكّمة.

## مقدمة:

تجلى أهمية دراسة الحروب الصليبية التي دارت بين الغرب والشرق في المدة بين ٤٩٠-٦٩١هـ/١٠٩٦م-١٢٩١م في تمثلها في الذاكرة الشعبية بشكل كبير؛ إذ مت زالت تُبعث كفكرة يُسمع صداها إلى اليوم، وفي أنها من أكبر مظاهر العلاقات بين الشرق والغرب، وواحدة من أكثر الأحداث الحاسمة في تلك العصور في كل من أوروبا والمشرق العربي الإسلامي، لذلك نالت اهتمام كثير من الكتاب والباحثين.

ومصطلح الحروب الصليبية مصطلح حديث، ملأ كتب التاريخ والفكر العربي الإسلامي منذ نهاية القرن التاسع عشر، بل يكاد يكون المصطلح الوحيد الذي يُجمع على استعماله معظم الباحثين في الدراسات الصليبية وعلاقات الشرق بالغرب، بينما يندر استعمال المصطلحات الأخرى التي شاعت قديماً<sup>[١]</sup>.

وعلى الباحث في تاريخ الحروب الصليبية أن يكون حذراً وعميقاً حين يبحث في أسباب هذه الحروب التي شكّلت سلسلة معقدة وطويلة من الحملات العسكرية؛ ذلك لأن من أسبابها ما كان معلناً، ومنها ما لم يكن معلناً، ومنها ما كان مباشراً، ومنها ما لم يكن بشكل مباشر، كما نظرت إليها أطرافها الفاعلة من مناظير مختلفة، وتخلّلت ذلك تبريرات وتحليلات ووقائع شابتها الإشاعات والتضليلات والغموض.

وزاد الأمور تعقيداً أن من اشترك في هذه الحروب هم من كل فئات المجتمع الأوروبي المسيحي: من الفرسان الذين ينتمون إلى عائلات نبيلة، ومن الفلاحين والخدم، ومن العامة، مما أدى إلى تشعب أسباب هذه الحروب، وبالتالي ساقنا ذلك إلى إجابات معقدة أيضاً تبقى موضع جدل ونقاش.

وهذا يعني أنه ليس ثمة سبب واحد أو عدة أسباب موحدة للحروب الصليبية؛ إذ إن عدداً من الأسباب يكمن وراء كل حملة من الحملات الصليبية العديدة.

لكن أوضح ذرائع انطلاق هذه الحروب كانت قضية مدينة القدس، وهي المدينة التي تترسخ في الذاكرة الدينية للكثيرين؛ فاليهود يدعون أن الملك سليمان قد بنى الهيكل فيها، ويقول المسيحيون إن فيها مهد المسيح عليه السلام وفيها صلب، وهي تشكّل بالنسبة للمسلمين محلّ

[١]- انظر: سمير صالح حسن العمر: الحروب الصليبية تطوّر المصطلح والمفهوم، جامعة الكوفة، كلية الآداب، ص ١٠٩.

صعود سيّدنا محمد ﷺ إلى السماء في رحلة الإسراء والمعراج. ويمكن القول إنّ أصول هذه الحروب نتجت من الأوضاع الدينيّة والاجتماعيّة والفكريّة والاقتصاديّة والسياسيّة التي سادت في غرب أوروبا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ورجّح كثير من المؤرّخين الشرقيين والغربيين أنّها اتخذت من الدين ستاراً لها لتحقيق أهدافها وأطماعها في بلاد المسلمين.

لذلك يرى جوزيف نسيم يوسف، وهو أحد أبرز من أرّخ للحروب الصليبيّة، أنّ الحروب الصليبيّة كانت تهدف منذ البداية إلى التوسّع والاستعمار تحت قناع من الدعاية الدينيّة، وأنّ غرضها الحقيقي هو الاستيلاء على الشرق، وخاصّة فلسطين، بالقوّة المسلّحة، وتأسيس مستعمرات لاتيّنيّة لها، ثمّ العمل على تعزيز هذه المستعمرات، وتوسيع حدودها، والمحافظة عليها بشتّى الطرق والوسائل، حتّى تكون رأس جسر لأهل الغرب الأوروبي، يستخدمونه لتفتيت وحدة العالم العربي الإسلامي وكسر شوكتهم؛ ضماناً لبقاء نفوذهم في المنطقة<sup>[١]</sup>.

والحروب الصليبيّة عبارة ذات مدلول غامض بالنسبة للكثيرين، فالصورة التي تتمثّلها أذهان عمّة المثقّفين في الغرب الأوروبي عن الحملات الصليبيّة، وهي صورة ليست صحيحة جملة وتفصيلاً، عبارة عن صورة فرسان بواصل، ألهبتهم الحماسة الدينيّة والشوق لتحرير قبر المسيح والأماكن التي شهدت قصّته على الأرض من أيدي المسلمين، ويتصوّر الكثيرون أنّ هؤلاء الفرسان فارقوا الأهل والوطن، وانطلقوا فوق جيادهم يشنون حرباً مقدّسة ضدّ العرب ذوي البشرة الداكنة الذين يفرون أمامهم في جبن وتخاذل.

ولم ينشأ المفهوم الشعبي في الغرب عن الحروب الصليبيّة من فراغ، وإنّما نشأ من الدعاية التي روّجتها البابويّة ورجال الكنيسة الكاثوليكيّة ضدّ المسلمين من ناحية، والشعر الشعبي الذي تناول الحروب الصليبيّة من ناحية ثانية، ثمّ كتابات مؤرّخي الحروب الصليبيّة اللاتين من ناحية ثالثة<sup>[٢]</sup>.

لكلّ ما ذكرنا، تتبيّن صعوبة الخوض في استكشاف أسباب الحروب الصليبيّة الحقيقيّة ودوافعها، فمنّ ينظر لها من حيث الظاهر تظهر له الأسباب الدينيّة، ومنّ يدخل إلى تحليل أوضاعها تتوضّح له أسباب أخرى تتعلّق بقضايا سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة، ومنّ ينظر إلى واقع تفصيلي

[١]- انظر: جوزيف نسيم يوسف: الوحدة وحركات اليقظة العربيّة إبان العدوان الصليبي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٨م، ص ٨.  
[٢]- انظر: قاسم عبده قاسم: الحملة الصليبيّة الأولى، نصوص ووثائق تاريخيّة، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، ٢٠٠١م، ص ٥-١٣.

آخر، فستظهر له أسباب أخرى تتعلّق بالواقع الإقطاعي والاستيطاني وموضوع الهجرة، ومَنْ يبحث في التأثيرات فسيتقف على أسباب حضاريّة، وهذا ما جعل هذه الإشكاليّة بالغة التعقيد.

## أولاً: الأسباب الدينيّة

لعلّ أوضح أسباب للحروب الصليبيّة هي الأسباب الدينيّة؛ إذ جاءت بخطابات واضحة وبأعمال عمليّة جليّة قام بها الصليبيّون وقادتهم، وأخذت هذه الأسباب أشكالاً مختلفة وصوراً متنوّعة، فمنها ما كان بصورة مباشرة، ومنها ما كان بصورة غير مباشرة.

### ١. الأسباب الدينيّة المباشرة

يمكن الحديث عن هذه الأسباب من عدّة جوانب، ومن هذه الجوانب ما يتعلّق بعملية الإحياء الديني التي قامت في أوروبا في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وبلغت ذروتها في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فكانت الحرب الصليبيّة انتفاضة كبرى نتجت عن ذلك، وخاصّة أنّ الحركة الكلونيّة<sup>[١]</sup> في حقيقة أمرها حركة إحياء ديني بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى، ترتّب عليها عودة البابويّة الى سطوتها القديمة، وإثارة نوع من الحماسة الدينيّة في الغرب بوجه عام، الأمر الذي ترتّب عليه ظاهرة الحجّ الجماعي للأراضي المقدّسة.

وبالتالي، ومن هذا الجانب، يمكن القول إنّ الحروب الصليبيّة ليست إلّا استمراراً لظاهرة الحجّ الجماعي لبيت المقدس، مع حدوث تطوّر في الأسلوب، وهو أنّ الحجّ أصبح حربياً بعد أن كان سلمياً<sup>[٢]</sup>.

لذلك نرى أنّ كثيراً من المؤرّخين الذين كتبوا عن الحروب الصليبيّة، أوردوا تفاصيل مهمّة عن ادّعاء البابويّة بأنّ دوافع وأسباب الحروب الصليبيّة هي الدوافع الدينيّة<sup>[٣]</sup>.

وهنا علينا ألا ننسى أنّ الحروب الصليبيّة هي وجه من وجوه السياسة الخارجيّة للبابويّة، لما تقوم به من توجيه رعاياها المخلصين إلى الحرب الكبرى التي تخوضها المسيحيّة ضدّ أعدائها.

[١]- جماعة كلوني من الحركات التي بدأت حركة الإصلاح الديني، نسبة إلى دير كلوني، إذ أسّست أديرة جديدة كان الهدف منها إعادة الرهبنة إلى أصولها وإحياء المثل العليا للرهبنة.

[٢]- محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبيّة، دار المعرفة الجامعيّة، ٢٠٠٠م، ص ١٣.

[٣]- انظر عن ذلك: سعيد عبد الفتّاح عاشور: الحركة الصليبيّة، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصريّة، ط ٢، ١٩٧١م، ج ١، ص ٢٧-٣٤.

وقد أدّت هذه الحركة الدينيّة إلى تقوية مركز البابويّة وإثارة الحماسة الدينيّة في نفوس الناس، الأمر الذي جعل البابويّة تطمح في السيطرة على العالم النصراني عن طريق الكنيسة، وعن طريق ضمّ الكنيسة الشريقيّة واحتلال الأماكن المقدّسة في فلسطين<sup>[١]</sup>.

ومن جانب ثانٍ؛ تُعدّ الحروب الصليبيّة فصلاً من أهمّ الفصول في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، وعدّها المعاصرون لها في مظهرها الأوّل حروباً مقدّسة، وطريق الحاج إلى كنيسة القيامة قبر المسيح، على أنّ العين الفاحصة للمؤرّخ لا بدّ أن تعدّها في مظهرها الثاني صورة عن العلاقات بين الشرق والغرب، ولم تكن أقلّ أهميّة عن المظهر الأوّل.

فإذا جرى عدّ الحروب الصليبيّة حرباً مقدّسة، فلا بدّ من تفسيرها بمقتضى أفكار العصر الذي تغلب عليه الروح الدينيّة، والتعلّق بالحياة الآخرة.

ويصحّ عدّ الحروب الصليبيّة مرحلة من مراحل الإصلاح الديني للمقاتلين من العلمانيين، فإذا وجّهت الفروسيّة الرجل العلماني للدفاع عمّا هو حقّ، فإنّ التّبشير بالحروب الصليبيّة إنّما وجّهه أيضاً لمهاجمة ما يعدّه شرّاً، وهو امتلاك المسلمين لقبر المسيح، لذلك قامت الحروب الصليبيّة بحماية أوروبا من الإسلام الذي نهض على يد الأتراك السلاجقة خاصّة<sup>[٢]</sup>.

ورأى بعض المؤرّخين أنّ السبب الديني هو الذي حرّك البابا جريجوري السابع ٤٦٦-٤٧٨ هـ/ ١٠٧٣-١٠٨٥ م ثمّ البابا أوربان الثاني ٤٨١-٤٩٣ هـ/ ١٠٨٨-١٠٩٩ م لإنهاء الدين الإسلامي؛ لأنّ ما يحمله من مبادئ الحريّة الدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة لا تتناسب وأفكار الكنيسة<sup>[٣]</sup>.

وذهب مؤرّخون آخرون إلى أنّ الحروب الصليبيّة كان المقصود بها بالدرجة الأولى مسيحي المشرق وليس مسلميه؛ لأنّ هؤلاء المسيحيين رفضوا الانصياع إلى بابويّة روما؛ لأنّهم -برأيهم- أكثر حضارة وعلماً من جهلاء روما وغيرها من مدن أوروبا الغربيّة<sup>[٤]</sup>.

وهنا يقول المؤرّخ الفرنسي شاتوبويان: «إنّ الحروب الصليبيّة كانت فاتحة النهاية للدين المسيحي في أوروبا»، ولكن إذا توقّفنا عند هذا القول بدقّة، فسنرى أنّ الحروب الصليبيّة لم تكن

[١]- عبد الله الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبيّة، الرياض، ١٩٩٤م، ص ٢٣.

[٢]- أرنست باركر: الحروب الصليبيّة، ترجمة: السيّد الباز العربي، بيروت، دار النهضة العربيّة، ط ٢، ١٩٦٧م، ص ٩-١٣.

[٣]- تيسير بن موسى: نظرة عربيّة على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبيّة حتّى وفاة نور الدين، الدار العربيّة للكتاب، ١٩٨٣، ص ٤٥، ٤٦.

[٤]- ابن موسى: نظرة عربيّة على غزوات الإفرنج، ص ٥١.

نهاية الدين المسيحي، بل كانت بداية النهاية لسيطرة البابوية والكنيسة عموماً على مقدّرات أسياع الدين المسيحي سياسياً واجتماعياً، فقد تمخّضت هذه الحروب عن شقّ الأوروبيين عصا الطاعة على رجال الكهنوت البابوي والكنسي عموماً<sup>[١]</sup>.

وكانت الحروب الصليبية انعطافاً خطيراً في تاريخ الغرب الأوروبي، لذا كانت تلك الحملات الصليبية التي دارت على نطاق واسع، سواء من حيث إطارها الزمني، أو من حيث مجالها الجغرافي، أو من حيث أعداد المشاركين فيها؛ أول حرب يخوضها الغرب تحت راية أيديولوجية، إذ كانت الحملة الصليبية الأولى مشروعاً كنسياً سعت البابوية من خلاله إلى تحقيق الأهداف الكنسية المتمثلة في فرض سيطرتها على المسيحيين في الشرق، وإنهاء الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية، وتوحيدهم تحت سيادة البابا<sup>[٢]</sup>.

ومن جانب مشابه؛ كثرت في ذلك الوقت الأقوال والرؤى والتنبؤات والادّعاءات والخرافات، وأصبح من الطبيعي أن يدّعي أي شخص رؤية المسيح يأمره بتحرير قبره في بيت المقدس، فيصدّقه الناس؛ لأنّ نفوسهم كانت مهتأة لقبول مثل هذه الادّعاءات والخرافات<sup>[٣]</sup>.

وكان رجل العصور الوسطى يعتقد في قرب القيامة وضرورة الاستغفار، وانتاب الأوروبيين شعور عام بالندم والذنب، نتيجة لما مارسوه من حياة بعيدة عن أجواء الأديرة والكنائس، وأقبلوا على أمكنة العبادة ينشدون التكفير عما اقترفوه من آثام<sup>[٤]</sup>.

ولكن كيف لأحد أن يعدّ الحروب الصليبية في المشرق العربي الإسلامي حملات حجّ، كما قال أصحاب هذا الرأي، فالصليبيون جاؤوا بجيوش جرّارة تحت قيادات سياسية ودينية، حملت معها من السلاح ما حملت، ومن المعروف أنّ حملات الحجّ تكون حملات سلمية لا يحمل فيها الحجاج معهم غير ما يدفع عنهم مخاطر الطريق. وهنا جاءت تفاصيل هذه الحروب لتدلّل أنّ هذه الحملات ذات الأعداد الكبيرة، وذات الدوافع الدينية الواضحة، هي التي دعتنا إلى القول بأنّ الحروب الصليبية كانت استمراراً لحملات الحجّ الكبرى المألوفة لا يفرّقها عن غيرها سوى كثرة العدد والعتاد<sup>[٥]</sup>.

[١]- ابن موسى: نظرة عربية على غزوات الإفرنج، ص ٤٥.

[٢]- رواية روبرت الراهب عن مجمع كليرمونت، رواية جيويرت النوجنتي عن مجمع كليرمونت، ترجمة: قاسم عبده قاسم، نصوص ووثائق، ص ١٤، ١٥.

[٣]- عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ٢٢.

[٤]- ستيفن رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العرني، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧م، ج ١، ص ١٨٠-١٨٢.

[٥]- انظر الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، ص ٢٧ - ٢٩. عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ٢٢.

ومن جانب آخر؛ أرادت الكنيسة استغلال الأعداد الكبيرة المتزايدة في أوروبا بدفعها خارج البلاد، وتهيجها عن طريق تضخيم أخبار المسلمين عبدة الشيطان على حدّ زعمهم، وادّعاء الاضطهاد للحجاج المسيحيين، وفرض الهدنات المقدّسة بين المسيحيين الأوروبيين في معظم أيام السنة من قبل المسلمين، وفرض سيطرة البابوية فوق الملوك في أوروبا<sup>[١]</sup>.

وإذا انتقلنا إلى أدلة التحليلات السابقة، فنسجد أنّه وبحلول القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كان الغرب الأوروبي يتّجه نحو إرسال حملات كبرى لاسترداد بيت المقدس من المسلمين، فلم ينقطع أباطرة الدولة الرومانية الشرقية عن طلب النجدة العاجلة من البابوية ضدّ السلاجقة المسلمين<sup>[٢]</sup>.

وانتهز الإمبراطور البيزنطي فرصة عقد مجمع ديني يرأسه البابا في بياكزا بشمال إيطاليا سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٥ م، فأرسل بعثة من القسطنطينية لحضور المجمع، فطلبوا مساعدة البابا، وأبلغوه أنّ السلاجقة لا يهدّدون الدولة البيزنطية وحدها، بل يهدّدون المسيحية جمعاء، وفي هذا المجمع أعلن البابا فكرة الحروب الصليبية<sup>[٣]</sup>.

ثمّ انعقد المجمع الديني في كليرمونت في تشرين الثاني سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٥ م، وانقضت الأيام التسعة الأولى في مناقشة المسائل الكنسية المتعدّدة<sup>[٤]</sup>.

وعندما سمع البابا أوربان الثاني أنّ السلاجقة سيطروا على المناطق الداخلية من أراضي بيزنطة، وأنّ المسيحيين خضعوا «لشعب متوحّش هدّام، هزّته مشاعر التقي والورع، واجتاز مدفوعاً لمحبة الله الجبال هابطاً إلى أراضي فرنسا»؛ دعا إلى مجلس يُعقد في مدينة كليرمونت، فتقاطرت على المؤتمر جموع من الأمراء ورؤساء الكنائس ووفود الملوك<sup>[٥]</sup>.

واجتمعوا في الجلسة العاشرة من هذا المؤتمر في قصر المدينة، وكان بطرس السائح جالساً بجانب البابا، وهو الذي فتح الخطاب معدّداً المصاعب التي يعاني منها أهالي بيت المقدس قائلاً:

[١]- شاكِر مصطفى: موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣ م، ص ٦٩٠ وما بعد.

[٢]- عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص ١٢٩، ١٣٠.

[٣]- عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص ١٣١، ١٣٢. عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢١.

[٤]- عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص ١٣٢.

[٥]- انظر ميخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق، ترجمة: إلياس شاهين، موسكو، دار التقدم، ١٩٨٦ م، ص ٤٣. فوشيه الشارترى ت ١٥٢١ هـ / ١١٢٧ م: تاريخ الحملة على القدس ١٠٩٥-١١٢٧ م، ترجمة: زياد العسلي، عمّان، دار الشروق، ط١، ١٩٩٠ م، ص ٣١. عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص ١٣١، ١٣٢.

إنَّه شاهد هناك المسيحيين مقيدين بالسلاسل الحديدية، ورأى قبر المسيح محتقراً مهاناً، وإنَّ زوّاره يتكبّدون الدُّل<sup>[١]</sup>.

ثمّ ألقى البابا أوربان الثاني خطاباً أثار فيه حماس الجماهير، وأشار إلى ما أسماه بالخطر الإسلامي المحدق بأوروبا من جهة القسطنطينية، وأعلن أنّ النصارى في الشرق يعانون من ظلم المسلمين، وأنّ الكنائس والأديرة أصابها الدمار، وحثّ الحاضرين والأوروبيين عامّة على الانتقام من المسلمين<sup>[٢]</sup>.

وكان من أكبر المحرّضين على سير الحملة الصليبية الأولى: بطرس الناسك، وكان قد عكف على التعبّد في جوار القبر المقدّس، ثمّ قرّر أنّ يُبشّر في جميع البلدان اللاتينية، ويعلن بأنّ هاتفاً سماوياً جاء يأمره أن يعلن إلى جميع أمراء فرنسا أنّ عليهم مغادرة أوطانهم والسفر والتعبّد في كنيسة القيامة، وأنّ يبذلوا نفوسهم وجميع طاقاتهم في سبيل تحرير القدس من «أبناء هاجر»<sup>[٣]</sup>.

وقد وعد البابا «المناضلين في سبيل الإيمان» باسم الربّ العليّ بغفران الخطايا، كما وعد المقاتلين الذين يستشهدون في المعارك ضدّ الكفّار بالثواب الأبدي، ووعدهم بالثروات في الشرق فإنّها تسيل عسلاً ولبناً، وقال إنّ الحملة الصليبية تتساوى مع الحجّ في طلب الغفران والتكفير عن الذنوب<sup>[٤]</sup>.

وكانت الاستجابة التي لاقاها البابا وبترس الناسك كبيرة جدّاً، إذ تجمّع الفرنجة من جميع الأطراف، ومعهم أسلحتهم وخيولهم، وتقاطرت الحشود على الطرقات واندفعت بكلّ حماس، وانضمّ إليها عدد كبير من أهالي المدن حتّى فاقت أعدادهم الخيال<sup>[٥]</sup>.

ثمّ استقرّ الرأي أنّ يحيك كلّ محارب صليبيّاً من القماش الأحمر على رداءه الخارجي من ناحية الكتف؛ رمزاً للحركة التي اشترك فيها<sup>[٦]</sup>.

[١] - سعيد الحريري: الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، القاهرة، الإعلام العربي، ط٣، ١٩٨٥م، ص ٢٠.

[٢] - الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، ص ٢٥، ٢٦.

[٣] - آنا كومنينات ١١٥٣/٥٥٤٦م: الأليكسياد، ج ٦، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٥م، ص ١٠-١١.

[٤] - يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، مملكة بيت المقدس، ترجمة: عبد الحافظ البنا، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠١م، ص ٣٤، ٣٥. زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ٤٥.

[٥] - آنا كومنينات: الأليكسياد، ج ٦، ص ١١.

[٦] - آنا كومنينات: الأليكسياد، ج ٦، ص ١١. عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ١٣٤-١٣٦. براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٣٨.

٤٠. عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٦.

ومن ناحية ثانية تُعبّر عن السبب الديني، ذكر المؤرّخون أنّ جودفري الرابع هو البطل الرئيس في الحرب الصليبية، وقد نسبوا إليه غيرة دينية خاصة، وشجاعة شخصية مدهشة، وكفاءات بارزة كقائد عسكري يتمتع باحترام جميع العساكر، وشبّهوه -من حيث القوّة والضراوة في القتال والإلهام- بالبطل هكتور في ملحمة هوميروس<sup>[١]</sup>.

وقد تكلم ابن القلانسي على إعلان الغرب للجهاد ضدّ المسلمين، فقال: «تواصلت الأخبار من ناحية القسطنطينية وبلاد الفرنج والروم وما والاها بظهور ملك الفرنج من بلادهم ... في العدد الذي لا يحصر والعدد التي لا تحزر، لقصد بلاد الإسلام بعد أن نادوا في سائر بلادهم ومعاقلمهم بالنفير إليها، والإسراع نحوها ... واستصحبوا من أموالهم وذخائرهم وعددهم الشيء الكثير الذي لا يُحصى»<sup>[٢]</sup>.

على أنّ الصورة الأوضح للوجه الديني تجلّى في الدعاية الصليبية التي أدّت دوراً بارزاً في استثارة وتحريض الغرب الأوروبي لإرسال هذا الدعم العسكري الكبير للصليبيين في الشرق عقب الاستيلاء على بيت المقدس، وهي دعاية دينية تُشكّل «أصل دينهم» كما عبّر ابن شداد<sup>[٣]</sup>، ونقل لنا هذه الدعاية الدينية المؤرّخ ابن الأثير بقوله: «ثم إنَّ الرهبان والقسس وخلقاً كثيراً من مشهورهم وفرسانهم، لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج بيت المقدس من أيديهم، وأخذهم البطرك الذي كان بالقدس، ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعاً، ويستنجدون أهلها، ويستجيرون بهم، ويحثّونهم على الأخذ بثأر بيت المقدس، وصوّروا المسيح عليه السلام، وجعلوه مع صورة عربي يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام، وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد نبيّ المسلمين، وقد جرحه وقتله، فعظم ذلك على الفرنج، فحشروا وحشدوا حتّى النساء»<sup>[٤]</sup>.

وإذا أردنا أن نكون دقيقين وواقعيين كما يقول شاكر مصطفى، فيجب أن نشير إلى أنّ الحروب الصليبية لم تكن لأسباب دينية خالصة، بل دليل أنّ الحملة الصليبية الرابعة توجّهت إلى القسطنطينية المسيحية، كما أنّ أحد أسبابها الرئيسة، وهو تخليص القبر المقدّس في فلسطين من أيدي

[١]- زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ٦٠. تكوّنت حول جودفري أسطورة بعد نجاح الحملة الصليبية، وكان وليم الصوري هو الذي نقل لدينا الصورة الكاملة لهذه الأسطورة.

[٢]- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة ت ٥٥٥هـ: ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ط ١، ١٩٠٨م، ص ٢٩٧.

[٣]- ابن شداد، بهاء الدين ت ٦٣٢هـ: النوادر السلطانية والمحاسبة اليوسفية، دار المنار، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٠م، ص ٩٩.

[٤]- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم ت ٦٣٠هـ: الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٩٩٧م، ج ١، ص ٦٩. وانظر: ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٩٨، ٩٩. ابن خلدون، عبد الرحمن ت ٨٠٨هـ: مقدّمة ابن خلدون مع التاريخ، ضبط المتن ووضع الحواشي: خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، ٢٠٠١م، ج ٥، ص ٣٧٩.

المسلمين، لم يكن لوحده سبباً رئيساً، بدليل أن أربعاً من الحملات الثماني، قد اتّجهت وجهات أخرى: اثنتان إلى مصر، وواحدة إلى القسطنطينية، والأخيرة إلى تونس.

ولم يكن أيضاً أحد أولويات أسبابها نشر الديانة المسيحية في أراضي الإسلام فقط، بدليل أنها بقيت متّية سنة مطوّقة معزولة في المواقع الأولى التي احتلتها<sup>[١]</sup>.

## ٢. حرب صليبية الصليب

تعدّ تعابير الحروب الصليبية والحملة الصليبية The Crusades ومشتقاتها، الأكثر شيوعاً منذ القرن التاسع عشر، بل يكاد يكون المعبر الوحيد عن أهداف ومعنى الحروب التي شنتها الغرب المسيحي على المشرق العربي الإسلامي، حتى لو استعملت عناوين أخرى، فلا يمكن لأحد إلا أن يستخدم كلمة الحروب الصليبية - الصليبي في الكتابات والترجمات.

وارتبط المفهوم بالصليب -الذي يتمتع بقدسية في الفكر المسيحي- منذ القرون الأولى لظهور وانتشار المسيحية، بعدما كان له دور في تنصير الإمبراطور قسطنطين واعترافه بالمسيحية كديانة رسمية في الإمبراطورية الرومانية، ثم ما قامت به أمه هيلانة بإيجاد الصليب المقدس وبناء كنيسة القيامة، فتحوّل إلى رمز للمسيحيين، فكان لا يغيب عن المراسيم والاحتفالات الملكية، وكانت إهانة هذا الرمز هو إهانة للمسيحيين جميعاً.

ثمّ كان الصليب حاضراً في الصراع الإسلامي البيزنطي، وهو أمر طبيعي للدلالات المعنوية لمثل هذه الأمور على نفوس الجند، وحافظ الصليب على قدسيته ورمزيته حتى بعد أن سيطر المسلمون على الأماكن المقدسة المسيحية، كبيت المقدس وأنطاكية والإسكندرية<sup>[٢]</sup>.

لذلك فإنّ إشارة البابا أوربان الثاني في خطاب مؤتمر كليرمونت ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م إلى التّوسم بالصليب، هو لإعطاء الجيش حامل الصليب قوّة معنوية واندفاعاً حماسياً للتّوجه إلى بيت المقدس.

ولم تظهر عملية التّوسم بالصليب Crusade إلا بعد مؤتمر كليرمونت، إذ تحوّلت إلى ظاهرة لها معناها، وهي التّوجه لقتال المسلمين، ثمّ تطوّرت ظاهرة التّصلّب، ممّا جعل مشتقات كلمة

[١]- مصطفى: موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، ص ٦٩٠ وما بعد.

[٢]- الباز العربي: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٨، ص ٧٣-٧٦. حبيب زيات: الصليب في الإسلام، الكنيسة البولسية، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٥، ص ١٠. سمير العمر: الحروب الصليبية تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١٢٩.

الصليب تستعمل مع الحجّ والحجّاج، فصارت: «الحجّ الصليبي» و«حملة الحجّاج الصليبيّة»<sup>[١]</sup>.  
 أمّا عن ظهور مصطلح الحروب الصليبيّة - Crusades، فيُعدّ ظهور هذا المصطلح في أواخر القرن السابع عشر في فرنسا نقطة تحوّل مهمّة في الدراسات الصليبيّة، وهو ليس من قبيل المصادفة، بل هو استمرار تأثير الحروب في الذاكرة الفرنسيّة، فالحروب بدأت الدعوة إليها في كليرمونت فرنسا، والبابا الذي دعا إليها فرنسي أوربان الثاني، ومعظم المشاركين في الحروب طوال قرنين من ملوك ونبلاء وعمّة كانوا فرنسيين.

على كلّ حال، فإنّ مبتدع هذا المصطلح الحروب الصليبيّة هو لويس ممبرور، وكان فرنسيّاً أيضاً، فأعطى المصطلح عام ١٠٨٦هـ / ١٦٧٥م مغزى دلاليّاً أثر في نفوس الأوروبيين لارتباطه بالصليب.

وقد ظهر هذا المصطلح بلغة تقبّلها الفرنسيّون أولاً ثمّ الأوروبيّون ثانياً، وجاء بتأثير الحركة الأدبيّة الفرنسيّة، وقيام حركة الصالونات الأدبيّة التي من ميزاتها استعمال لغة اصطلاحية في نقاشاتها تسود فيها العبارات المزخرفة والرموز الأخلاقية.

وانتقل المصطلح Croisade الفرنسي بسبب التأثير بنموذجه إلى اللغات الأوروبيّة في القرن الثامن عشر، مثل الإنكليزيّة والألمانيّة، ففي إنكلترا تُرجم كتاب ممبرور إلى الإنكليزيّة سنة ١٠٩٨هـ / ١٦٨٦م، ومنه دخل المصطلح إليها<sup>[٢]</sup>.

وقد أثر الصراع الإسلامي المسيحي الأوروبي بتعزيز مكانة المصطلح في نفوس الأوروبيين، وذلك من خلال الدور الذي قامت به الدول الأوروبيّة البرتغال - إسبانيا - هولندا - بريطانيا - فرنسا ضدّ المسلمين، سواء في المغرب العربي والجنوب حتّى الهند، إذ حاولت هذه الدول نشر المسيحيّة الصليبيّة بحسب مذاهبها، مع نشر نفوذها العسكري والسياسي، وكان النموذج البرتغالي

[١]- سمير العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١٢٩، ١٣٠. مؤلّف مجهول: أعمال الفرنجة وحجّاج بيت المقدس، كتب الكتاب حوالي ٤٨٩-٤٩٣هـ / ١٠٩٥-١٠٩٩م، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٧. زيات: الصليب في الإسلام، ص ٣٤. جوانفيل، القدّيس لويس، حياته وحمالاته على مصر والشام، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٣١١-٣١٢.  
 [٢]- سمير العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١٣٠-١٣٢. فرديناند شيفل: الحضارة الأوروبيّة في القرون الوسطى وعصر النهضة، ترجمة: منير بعلبكي، بيروت، ١٩٥٢، ص ٥٤-٥٦. زابوروف: الصليبيّون في الشرق، ص ١٤. قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبيّة، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، ١٩٩٣، ص ١٢. بول هازار: الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر من منتسكيو إلى لسينج، ترجمة: محمّد غلاب، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٩٨-١٩٩.

هو الذي أخذت به الدول الأوروبية التي تلتها في أفريقيا، وسمّيت سياستهم وعملتهم crusado لوجود علامة الصليب عليها<sup>[١]</sup>.

وعملياً، نأتي إلى البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت وقضية الصراع مع الآخر والصليب، وخطابه في هذا المجمع الذي كان أقوى الخطب شهرة في تاريخ العصور الوسطى، وفيه أثار حماس الجماهير، وأشار إلى ما أسماه بالخطر الإسلامي المحقق بأوروبا، وبعد أن نجح بإلهاب حماس المحتشدين من آلاف العامة والنبلاء والرهبان والنسك، استقرّ الرأي على أن يحيك كلّ محارب صليبياً من القماش الأحمر على ردائه الخارجي من ناحية الكتف رمزاً للحركة التي اشترك فيها، «وإنّ كلّ من يضع هذا الصليب بغية المشاركة في الحرب المقدّسة، عليه أن يتّجه فوراً إلى الشرق، فإنّ تردّد وعاد دون أن يؤدّي واجبه أو أظهر تقاعساً عن تأدية ذلك الواجب، فإنّه يتعرّض لعقوبة الحرمان»<sup>[٢]</sup>.

يقول فوشيه الشارترى: «كم كان مناسباً ومفرحاً لنا جميعاً أن نرى كلّ هذه الصلبان المصنوعة من الحرير والقماش المذهب أو غيره من الأقمشة الجميلة التي قام بها الحجّاج، سواء من الفرسان أو غيرهم من العلمانيين والكنسيين، بخياطتها على أكتاف ستراتهم، وقد فعلوا هذا بأمر من البابا أوربان الثاني عندما أقسموا على الرحيل»<sup>[٣]</sup>.

### ٣. حرب مقدّسة

الحرب المقدّسة هي إحدى مسمّيات الحرب التي أطلقها الغرب الأوروبي على الإسلام، وذلك منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي تقريباً.

ويرتبط مفهوم الحرب المقدّسة بالحجّ<sup>[٤]</sup>؛ لأنّ البابوية لم تجعل الحجّ مسلّحاً إلاّ لتحريضها الناس على التوجّه الى فلسطين لتخليصه من الكفار؛ أي المسلمين، وفي خطاب كليرمونت برواية روبرت الراهب الذي قيل إنّه اشترك في الحملة الصليبية الأولى، وشهد الاستيلاء على بيت المقدس

[١]- سميّر العمر: الحروب الصليبية تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١٣٢، ١٣٣. زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ١٤. Geddie. Williom, Chambers twelve century Dictionary London - 1959 p254.

[٢]- المؤرّخ المجهول: يوميات صاحب أعمال الفرنجة، ج ٦، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٥م، ج ٦، ص ٧٨. أنا كومينا: الأليكسياد، ج ٦، ص ١١. الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ٣١-٣٥. براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٣٨-٤٠. الحريري: الأخبار السنّية في الحروب الصليبية، ص ٢٠.

[٣]- الشارترى، تاريخ الحملة على القدس، ص ٣٧، ٣٨. وانظر: سميث، جونانان رايلي: الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٩، ص ٤٩.

بين البابا أوربان الثاني ما تعرّض له المسيحيون في الشرق من قتل وإذلال، ثمّ قال: «فعلى من إذن تقع مهمّة الانتقام من هذا، ومهمّة الخلاص من هذا الموقف، إذا لم يكن على عاتقكم أنتم يا من اختاركم الربّ دون سائر الأمم ليسبغ عليكم نعمة المجد في السلاح، وجسارة في القلب، وقوّة الجسد»، ثمّ ذكرهم بأمجاد شارلمان وغيره من ملوك الفرنجة، الذين دافعوا عن الكنيسة ونشروا المسيحيّة، فدعاهم لتخليص الضريح المقدّس من أسره في أيدي المسلمين، وبين لهم أنّ حبّ الأبناء والبنات والزوجات والوالدين لا يمكن مقارنته بحبّ المسيح الذي يفوقها مئة مرة، ويُنال به الحياة الدائمة، ومن أقواله الحرفيّة في ذلك: «انطلقوا على طريق الضريح المقدّس، أنقذوا تلك الأرض من ذلك الجنس المرعب واحكموها بأنفسكم؛ لأنّ هذه الأرض التي تفيض باللبن والعسل \_ كما يقول الكتاب المقدّس \_ أعطها الربّ لبني إسرائيل»<sup>[1]</sup>.

فجاء الخطاب البابوي، المعدّ بذكاء لإقناع الناس بمختلف طبقاتهم، مركزاً على نقاط حسّاسة جدّاً بالنسبة للمسيحي، وهي: القبر المقدّس - أخبار الربّ - الحياة الدائمة - خطا المسيح - أعداء المسيح، فكان مقنعاً بعدالة الحرب ومطمعاً في أن واحد ليشعل حقداً وهوّساً عارماً تجاه المسلمين الذين تمّ تصويرهم بأبشع صورة، ويظهر الخطاب وكأنه حصيلة تجربة البابويّة الناجحة في مساندة الإسبان ومعهم الفرسان الأوروبيين بحرب الاسترداد على المسلمين في الأندلس<sup>[2]</sup>.

ولأنّ القدس مثّلت للبابويّة أهمّ أهدافها الدنيويّة والدينيّة الداخليّة والخارجيّة، فأوهمت الناس بجعل أمر التوجّه إليها أمراً إلهياً مقدّساً، كما جاء بخطاب البابا أوربان الثاني إلى المسيحيين الذي نقله فوشيه دي شاتر قائلاً: «لست أنا ولكنّ الربّ هو الذي يحثّكم بكونكم قساوسة المسيح أن تحضّوا الناس من شتى الطبقات ... إنني أخاطب الحاضرين وأعلن لأولئك الغائبين فضلاً عن المسيح يأمر بهذا أنّه ستغفر ذنوب كلّ أولئك الذاهبين هناك».

أمّا روبر الراهب، فبيّن أنّ البابا خاطب الفرنجة: «يا من اختاركم الربّ وأحبّكم كما تجلّي واضحاً من خلال أعمالكم الكثيرة»، ودعاهم للعمل على تخليص القدس الأسيرة «لذا فهي تسأل وتصلّي

[1]- انظر سمير العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١١٢-١١٣. السيّد الباز العريني: مؤرّخو الحروب الصليبيّة، دار النهضة العربيّة، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٢٨ - ٥١. قاسم عبده قاسم: الخلفيّة الأيديولوجيّة للحروب الصليبيّة، ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت، ط ٢، ١٩٨٨، ص ٤٢. والمقصود هنا ببني إسرائيل من كلام البابا: المسيحيون لا اليهود؛ لأنّ المسيحيّة نزلت لهداية اليهود، قال تعالى في حقّ سيّدنا عيسى: {وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ}. سورة آل عمران، الآية ٤٩.

[2]- انظر سمير العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١١٣-١١٤. محمّد نور الدين أفاية: الغرب المتخيل صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٠، ص ١٤٢-١٤٣. قاسم: الخلفيّة الأيديولوجيّة للحروب الصليبيّة، ص ١٦. جوزيف نسيم يوسف: في تاريخ الحركة الصليبيّة، دار المعرفة الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص ٤٦.

من أجل تحريرها، وتناديكم روما لتهبوا لنجديتها، والحقيقة تسألكم أنتم بصفة أساسية لمساعدتها؛ لأنَّ الربَّ كما ذكرنا من قبل، قد أسبغ عليكم دون سائر الأمم مجداً فائقاً في السلاح، لذا سيروا على هذا الطريق للتطهّر من خطاياكم، وكونوا على ثقة في المجد الخالد لمملكة السماء»<sup>[١]</sup>.

كانت لغة البابا متناغمة مع شعور الحاضرين ومعبرة عن غاياته لضرب الأعداء، لذا كانت استجابتهم فورية بهتافهم «هكذا أراد الله»، وبسرعة حُمل الصليب على الأكتاف، ممّا جعل بعض الباحثين المحدثين يعتقد أنها مدبرة بسبب هذه الاستجابة السريعة.

ولأنَّ التوجّه نحو القدس أمر إلهي، فقد صُبغ المنفّذون للأوامر بقدسيّة المسيح أو الربِّ، وهو أمر نجحت فيه البابويّة، فكانت الحماسة الدينيّة على أوجها، لذا نجد المصنّفات في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي تصف المتوجّهين نحو القدس بـ«جنود المسيح - جيش المسيح - شعب المسيح - المؤمنون - جيش المؤمنين - حملة الصليب - جيش الربِّ - قادة الربِّ». فضلاً عن ذلك، كانت القدس غاية كلّ مسيحي غربي؛ لأنّها رمز الخلاص، لذلك أولى المؤرّخون المعاصرون لها جلّ اهتمامهم، وإنَّ هذه الحرب تختلف في أسبابها كلياً عن كلّ الحروب السابقة في أوروبا؛ لأنّها إلهيّة في كلّ شيء، وكان مفهوم الحرب المقدّسة مرتبطاً بمفهوم الحجّ الذي كان غاية مسيطرة على الفكر الأوروبي أواخر العصور الوسطى<sup>[٢]</sup>.

ويظهر أنّ النظرة المقدّسة للحروب توازت مع سيطرة الكنيسة والفكر الديني على الحياة الأوروبيّة، وصارت تشكّل أعمالاً بطوليّة للمجتمع الأوروبي في العصور الوسطى<sup>[٣]</sup>.

وتدلّ قصّة الحرب المقدّسة على إحدى صور الحرب المقدّسة عند الصليبيين، بغضّ النظر عن مدى صحّتها، وقد رواها فوشيه الشارترى، وملخصها أنّ فلاحاً يدعى بطرس بارثولوميو، وجد حربة في حفرة في الأرض تحت كنيسة القديس بطرس في ١٤ حزيران ١٠٩٨م/ ٤٩٢هـ بعد سقوط أنطاكية بأحد عشر يوماً، وادّعى أنّها كانت ذات الحربة التي أطلقها لونجينس، كما ورد في

[١]- انظر سمير العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١١٤. قاسم عبده قاسم: الحملة الصليبيّة الأولى، نصوص ووثائق تاريخيّة، ص ٧٥-٧٩.

[٢]- انظر سمير العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١١٤-١١٥. يوشع بروار: عالم الصليبيين، ترجمة وتعليق: قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٣٥-٣٧. ابن موسى: نظرة عربيّة على غزوات الإفرنج على غزوات الإفرنج، ص ٥١.

Grant, A.J. A hisroty of Europe, The Middle age vol:II, London - 1927, p291.

[٣]- انظر سمير العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١١٥.

الإنجيل، فطعنت الجنب الأيمن من يسوع المسيح<sup>[١]</sup>.

وقد أبدى الأمير بوهيموند، ومعه معظم القادة الصليبيين، فرحهم بقصة الحربة، على الرغم من أن بوهيموند عرف أنها لعبة من اختراع الأمير ريموند الذي اختار ذلك الفلاح المغمور لتمثيلها<sup>[٢]</sup>.

وقد أتى المؤرخ ابن الأثير على ذكر هذه الحربة في كتابه الكامل، يقول: «كان معهم راهب مطاع فيهم، كان داهية من الرجال، فقال: إنَّ المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية، وهو بناء عظيم، فإنَّ وجدتموها فإنَّكم تظفرون، وإنَّ لم تجدوها فالهلاك متحقق، وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه، وعفى أثرها، وأمرهم بالصوم والتوبة، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام، فلمَّا كان اليوم الرابع أدخلهم الموضوع جميعهم، ومعهم عامتهم، والصنَّاع منهم، وحفروا في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر، فقال لهم: أبشروا بالظفر»<sup>[٣]</sup>.

والجدير بالذكر أنَّ الصليبيين أنفسهم، شكَّكوا في قصة الحربة المقدَّسة، وشاع بينهم أنَّ القصة من اختراع ريمون السان جيلي<sup>[٤]</sup>.

#### ٤. الحجَّ إلى القدس

أولى مشكلات البحث في تاريخ الحركة الصليبية تتمثل في المصطلح ومدلولاته المختلفة التي تؤدي إلى الفوضى، لا سيَّما إذا كان المصطلح ذاته يحمل تناقضاً بين دلالاته اللغوية وحقيقته التاريخية، فلقد ارتبط اسم هذه الحركة بالصليب بعد حوالي قرن ونصف قرن من دوران عجلة أحداثها، فالناظر في مجرياتها يجد مزيجاً من القسوة والوحشية الذي يتناقض مع الصليب رمز الفداء والتضحية بالنفس في سبيل الآخرين<sup>[٥]</sup>.

فإنَّ وضع تعريف بسيط لظاهرة تاريخية معقدة وممتدة في رحاب الزمان والمكان مثل الحروب الصليبية، أمر قد يجردُّها من الكثير من دلالاتها التاريخية ومضامينها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، فالكُتَّاب اللاتين ظلُّوا حتَّى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر يستخدمون كلمة per-egrinus معناها الحاج، للدلالة على الصليبي وعلى الحاج المسلَّح معاً، وطوال المدَّة

[١]- الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ٥٨، ٥٩. كما وردت عند المؤرخ المجهول، ص ١٤٠-١٤٢.

[٢]- ابن موسى: نظرة عربية على غزوات الإفرنج، ص ٧٦.

[٣]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٤١٩.

[٤]- قاسم: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص ١٦٧. باركر: الحروب الصليبية، ص ٣٥.

[٥]- قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص ١٣.

السابقة استخدمت مصطلحات وكلمات عديدة للدلالة على الحملة الصليبية، مثل الحرب المقدسة أو الرحلة العامة وحملة الصليبيين<sup>[١]</sup>.

وكان عنوان الحجّ إلى القدس ومرادفاته هو النسبة الغالبة على المصنّفات التاريخية للأوروبيين في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، ممّن شاركوا في الحروب أو مدوّنو روايات المشاركين، لا سيّما مؤرّخي الحملة الأولى كما يسمّيها الكتّاب في العصر الحديث.

وقد كتب عنها اثنان وثلاثون مؤرّخاً، منهم أحد عشر مؤرّخاً كتبوا بعنوان تاريخ القدس مثل توديبود Tudebod، وبلدريك أسقف دول Baldrich bishop of Do، وثلاثة كتّاب كتبوا بعنوان حملة بيت المقدس مثل باثولف نانجيجو Batholf de Nangiejo، وألبرت أوف أكس Albert of Aix، وذكر الحجّاج أو أعمال الحجّاج منهم مؤلّف كتاب أعمال الفرنجة وحجّاج بيت المقدس، وريموند أوف أجيل Raymond of Agile، وفولشردي شارتر Fulcher de Chartres، وتغلب مصطلحات تعبر عن دور ظاهرة الحجّ في الفكر الأوروبي الوسيط على العناوين مثل: الحجّ، والرحلة، والرحلة العامة، وحملة الصليب، ولأهميّة الحجّ وارتباطه بمدينة بيت المقدس كونها الجنة الأرضية، توجّب دراسة وإظهار أهمّيّتها في عقيدة الكاثوليك آنذاك<sup>[٢]</sup>.

وقد تطوّرت أهميّة القدس مع ظهور أفكار جديدة، منها أنّ الأماكن التي شهدت حياة المسيح واستشهاده أو حتى استشهاد أحد القديسين تتمتع بقوة روحية تساعد على محو الذنوب، ويمكن تقسيم مراحل تطوّر ظاهرة الحجّ الأوروبي حتى بداية الحروب الصليبية لأربع مراحل<sup>[٣]</sup>:

**المرحلة الأولى:** كان الحجّ في القرون المسيحية الأولى حتى مرسوم ميلان ٣١٣م نادراً، لأنّه لم يكن فرضاً دينياً، فضلاً عن الظروف التي يعانها المسيحيون عموماً من اضطهاد أثناء الحكم الروماني.

**المرحلة الثانية:** بعد الاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية في الدولة الرومانية في عهد الإمبراطور

[١] - قاسم: الحملة الصليبية الأولى، ص ٨.

[٢] - سمير العمر: الحروب الصليبية تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١٠٩، ١١٠. الحريري: الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، ص ١٤. العربي: مؤرّخو الحروب الصليبية، ص ٢٢ - ٤٥. قاسم: الخلفية الأيدولوجية للحروب الصليبية، ص ٤٣.

[3]- Wright, John kirt land: the geographical Lore of the time of the crusade - American Geographical society .New York - 1925. pp261- 62.

قسطنطين ٣٠٧-٣٣٧م، دعم هذا الإمبراطور الديانة الجديدة في مركز الدولة روما وفي موطن الديانة بيت المقدس، إذ عملت والدته القديسة هيلانة على بناء كنيسة القيامة سنة ٣٢٨م، وكشفت عن مقدّسات أخرى، ممّا أدّى إلى ازدياد رحلات الحجّ الى فلسطين.

المرحلة الثالثة: تبدأ من الفتح العربي الإسلامي القرن الأوّل الهجري/ السابع الميلادي بدءاً من معركة اليرموك ١٣هـ/ ٦٣٤م وتحرير بيت المقدس ١٤هـ/ ٦٣٥م، إذ فرض العرب المسلمون سيطرتهم على بلاد الشام، ثمّ بعد ذلك سيطروا على مصر وشمال أفريقيا وبعض جزر البحر المتوسط، ممّا جعل المسلمين مهيمنين على البحر المتوسط، وهذه التطوّرات أثّرت في الحجّ، لكنّها لم تقطعه، إذ ذكرت بعض الرحلات التي تعود إلى هذه المدّة.

المرحلة الرابعة: وهي مرحلة عصر الحجّ الأكبر القرنين الرابع - السادس الهجري/ العاشر - الثاني عشر الميلادي، إذ حدثت تطوّرات مهمّة في أوروبا والبحر المتوسط في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، منها تطوّر التجارة وظهور المدن التجارية، وقد ساعدها على هذا التطوّر انحسار دور المسلمين في البحر المتوسط. فكان لهذه التطوّرات آثار إيجابية على تنقل الحجّاج يبسر نوعاً ما إلى الأراضي المقدّسة في فلسطين، وكانوا غالباً يفضّلون الطريق البري عبر القسطنطينية.

وارتبط التطوّر الآخر بتبلور ارتباط الحجّ بالتكفير والتوبة عند الكنيسة الكاثوليكية، وكانت القدس واحدة من أربعة مواقع كان يؤمّها المسيحيون الكاثوليك، وتعزّزت عمليّة الحجّ بالمكانة الدينية والتاريخية لهذه المدينة في الفكر المسيحي والتطوّر الداخلي للكنيسة الكاثوليكية، وسعت البابوية لتتبوأ منصب السيادة الدينية والدينيّة نظريّة السموّ البابوي والصراع مع الكنيسة الشرقية للسيطرة على العالم المسيحي، وهذا كلّ جعل القدس تحتلّ مكانة متفوّقة على روما نفسها.

جعلت هذه الأفكار الحجّ ظاهرة مميّزة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، واسعة النطاق تشمل الملوك والأمراء والرهبان وعامة الناس من بقاع متعدّدة في أوروبا.

إنّ البابوية أدركت واستغلّت مثل هذه المشاعر بحكم طموحها الكبير، لتظهر مدى نفوذها على المجتمع الأوروبي الغربي، فكانت خطبة البابا أوربان الثاني في المجمع الكنسي بكليرمونت خير تعبير عن هذا الإدراك، فوجّه الناس لتخليص القبر المقدّس، فأثار ذلك حماس المجتمع الأوروبي بمختلف طبقاته؛ لما تمثّله هذه الدعوة من السير على خطا المسيح والتكفير عن الذنوب، والحصول على الخلود الأبدي بالوصول إلى القدس.

وبما أنّ كلّ زيارة لبيت المقدس هي حجّ، والقائمين بها حجّاجًا، لذا عند قراءة أيّ كتاب عاصر الأحداث منذ كليرمونت وما بعدها مثل كتاب: أعمال الفرنجة وحجّاج بيت المقدس تُعدّ فيه كلمة حاج هي المعبر عن كلّ مسيحي متّجه لزيارة بيت المقدس، حتّى المحاربين منهم، بل وُصف الحجّاج المسلّحين بأنّهم شعب المسيح.

وانعكس تأثير ظاهرة الحجّ في المجتمع الغربي القروسطي، والنزعة الدينيّة الغالبة على الفكر الأوروبي القروسطي ومنه الفكر التاريخي، فجاءت الكثير من العناوين الحجّ - أعمال الحجّاج - القدس التي تعبّر عن فلسفة العصر ونظرتها إلى التاريخ، على أنّ له بداية هي مولد المسيح، وله نهاية هي نزوله لتحقيق مملكة الله في الأرض القدس، وهو أمر يفسّر الاندفاع الشعبي العارم لتلبية دعوة البابا أوربان الثاني؛ إذ اعتقد الناس أنّ في التوجّه إلى بيت المقدس الحجّ السعادة الأبدية ليكونوا سكّان مدينة الله بتأثير أفكار سان أوغسطين، والأفكار الأخروية الألفيّة التي تقول: إنّ نهاية العالم ستحلّ بعد الألفيّة الأولى لميلاد المسيح، وذلك بنزول السيّد المسيح إلى الأرض لتأسيس مملكة الله<sup>[١]</sup>.

وبين يدي مخطوط كتاب: الحجّ إلى بيت المقدس، قدّمه لي مترجمه: الدكتور أحمد غسان سبانو، ونجد فيه أنّ حركة الحجّ بدأت في العالم المسيحي خلال القرن الثاني الميلادي، ولكنّ ليس لدينا من أخبار مترابطة حول هذه الحركة حتّى عام ٣٣٣م، وعندما كتب أحد الرواد من بوردو يوميّات رحلته، ذكر عددًا من الأماكن المقدّسة التي لم تزل من أهداف الحجّ بالنسبة لحجّاج المملكة اللاتينيّة بعد ثمانية قرون من كتابتها.

وهكذا فإنّ كتاب: الحجّ إلى بيت المقدس بعد عام ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م، يخدمنا بصفته عيّنة تمثّل مرحلة في عمليّة طويلة مستمرة، وهي عيّنة واضحة المعالم نظرًا لأنّ لدينا نصوصًا واسعة المدى يرجع تاريخها إلى سنوات طويلة ما بين ٤٩٣-٥٨٣هـ/ ١٠٩٩-١١٨٧م، وهي تفوق في أهمّيّتها جميع النصوص التي كتبت في المدّة السابقة.

ولقد افترض أصحاب النصوص السابقة أنّ الأماكن المقدّسة هي نفسها الأماكن التي زارها

[١]- عبد المنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربيّة، بيروت، ١٩٦٦، ص ٨٣ وما بعد. سميت: الحملة الصليبيّة الأولى وفكرة الحروب الصليبيّة، ص ٥٠-٦١. سمير العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١١٠-١١٢. رنسيان: تاريخ الحروب الصليبيّة، ج ١، ص ٦٣-٧٩. العربي: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٤١-٥١. قاسم: الخلفيّة الأيديولوجيّة للحروب الصليبيّة، ص ٢٣ وما بعدها. محمّد صالح منصور: أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبيّة، جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٩٦، ص ١٨٥.

الحجاج منذ زمن طويل، وكانت هذه الفرضية صحيحة. ولكن حركة الحروب الصليبية مع ما صاحبها من الجيوش التي احتلت بيت المقدس وحياة المملكة اللاتينية التي لم تكن لتفترق عن الاحتلال اللاتيني للأرض المقدسة، كل هذه العوامل سببت بعض التغيرات<sup>[١]</sup>.

وتُظهر نصوص كتاب: الحج إلى بيت المقدس، أنه عندما غزا الجنود الصليبيون بيت المقدس عام ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م، واستولوا على المسجد الأقصى، كان لديهم كثير من الأعمال التي كانت مبنية أصلاً على القصص التوراتية التي لها علاقة بالمعبد، وهي كثيرة، لذلك سنلخص أبرزها مما ورد في العهد الجديد وما حضر من التوراة:

— دخول يواقيم وحنه إلى المعبد خصوصاً لتقديم مريم العذراء المقدسة.

— إعلان الملاك جبريل لذكرياً أنه سوف يُنجب ولدًا وهو يوحنا المعمدان.

— تقديم المسيح في المعبد ونبوءة سيمون.

— جلوس المسيح بين الفلاسفة.

— طرد المسيح للمرايين من المعبد.

— عفو المسيح عن المرأة الزانية.

— شفاء بطرس ويوحنا للرجل الأعرج في البوابة الجميلة.

وتُصوّر نصوص الكتابات التفصيلات المتشعبة التي تتعلق بكل شيء عن الحجّاج في أيام بدايات الحروب الصليبية وخلالها، وتقدم وصفًا شاملاً للمداخل والمخارج في بيت المقدس، والجسور والبوابات التي كان يستخدمها الحجّاج، والطرق وخزانات المياه والبرك في الحرم الشريف، والصخرة وقبة الصخرة ووصفهما، وكيف كان يظنّ الصليبيون أنّ الذي بناها هو إمبراطور روماني بينظطي، وابتداءً من عام ٥٠٠هـ / ١١٠٦م فصاعدًا أصبح اللاتين واليونان يعتقدون أنّ الذين بنوها هم الوثنيون والمسلمون، وكان هناك تشويش في التعبير حول الوثنيين والمسلمين، فقد ظنّ بعض الكتاب في المملكة اللاتينية أنّه وقبل عام ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م كان المسلمون في قبة الصخرة يعبدون صنمًا يمثل النبي محمد ﷺ<sup>[٢]</sup>.

[١]- أحمد غسان سبانو: الحجّ الى بيت المقدس، نصوص تاريخية من العصور الوسطى، جمع وترجمة وتحليل، مخطوط غير منشور، ص ٦-٨.

[٢]- سبانو: الحج الى بيت المقدس، نصوص تاريخية من العصور الوسطى، جمع وترجمة وتحليل، ص ٥٦-٦٠.

ونأتي إلى خطاب البابا وقضيّة الحج، فليس لدينا تفاصيل خطبة البابا أوربان الأصليّة التي تفوّه بها في مجمع كليرمونت، ولكن نعلم أنّه قد أشار في بعض مقاطعها إلى قضيّة الحجّ إلى بيت المقدس، وهو يستشهد بماثيو ١٦-٢٤ الذي يقول: «إذا كان هناك رجل يرغب في اتباع خطواتي فعليه أن ينكر ذاته ويحمل الصليب ويتبعني»، ومن المحتمل أنّ هذه الأقوال قد سببت ارتداء كلّ الحجّاج الصليب بشكل منتظم، وكان بعضهم يحمل الصلبان الخشبيّة من بلاده إلى بيت المقدس، وكانوا يضعون هذه الصلبان على جبل الجمجمة وذلك تشبّهًا بالمسيح.

ولقد تشوّشت أفكار الحجّاج في هذه المدّة عندما ذكروا لهم أنّه قد حدثت محاكمتان للمسيح خلّدت ذكراهما على جبل صهيون، الأولى عندما مثّل المسيح أمام أناس Annas وكيافاس Caiphas، والثانية عندما مثّل أمام بيلاطوس.

أمّا الفرسان الهيكليون، فإنّ لديهم وجهة نظر مختلفة حول مكان المحاکمتين، فالدليل الثاني يذكر بركة الخراف بالشكل الآتي:

إنّ هذه البركة هي المكان الذي يخبر فيه الحجّاج والزوّار أنّ خشبة الصليب بقيت وقتًا طويلاً، ولكنّ فرسان المعبد يظهرون لك بركة أخرى ويقولون إنّها بركة الخراف.

هذا وإنّ بركة الخراف الموجودة حاليًا، وهي الخزّان المثلث الواقع أسفل القسم الشمالي من كنيسة القديسة حنّه، هذه البركة ليست بذات شأن، بل هناك بركة أكبر إلى الشمال من سور المعبد، وهي تدعى بركة إسرائيل، وهذه البركة أفضل من تلك<sup>[١]</sup>.

إنّ ثمانية نصوص من النصوص التسعة عشر التي ذكرها كتاب الحجّ إلى بيت المقدس، ما هي إلّا دلائل مرشده أو أوصاف لزيارة الأراضي المقدّسة، وهناك أربع نصوص تذكر الشكل الذي ثبتت بموجبه جميع الأماكن المقدّسة في بيت المقدس، أمّا النصوص الخمسة الباقية فتقول إنّ الحجّاج يشكرون الله الذي أعطاهم القدرة والأمان في رحلتهم بحرّاً أو برّاً، ولكنّ السفر هو أحد العناصر الرئيسيّة في مواسم الحجّ.

وفي النصوص تأكيد على أنّ بيت المقدس هي أقدس مكان، ويذكر ثيودريك ذلك بطريقته الخاصّة: «إنّها أقدس مكان؛ لأنّه قد أضاءها ونورّها وجود إلهنا وسيّدنا يسوع المسيح وأمه الطيّبة، وإنّ جمع البطارقة والأنبياء والرسل قد عاشوا هناك وعلموا وبشّروا واستشهدوا هناك»<sup>[٢]</sup>.

[١]- سبانو: الحجّ إلى بيت المقدس، نصوص تاريخيّة من العصور الوسطى، جمع وترجمة وتحليل، ص ٨٧-٩١.

[٢]- سبانو: الحجّ إلى بيت المقدس، نصوص تاريخيّة من العصور الوسطى، جمع وترجمة وتحليل، ص ٩٦-٩٧.

## إبادة المسلمين:

كانت الحروب الصليبية حركة استعمارية استيطانية تهدف إلى احتلال المشرق العربي الإسلامي، وخاصة فلسطين، واستيطانه، وتهجير سكّانه ليحلّ محلّهم العنصر الفرنجي الصليبي؛ فالحروب الصليبية كانت حرب إبادة، وإنّ الدعوة لإبادة المسلمين قد قال بها البابوات، كما قال بها القديس برنارد -راعي دير كليرفو، أحد أكبر الدعاة للحروب الصليبية- عندما عدّ «أنّ قتل الكافر ليس قتلاً لإنسان، بل هو إبادة للشّر، وأنّ قتل الوثني هو مجد مسيحي، ففي هذا القتل يجري تمجيد المسيح»، وقد اتّضحت رؤيته لاستيطان تلك الأراضي بضرورة استحواذ المسيحيين الكاثوليك عليها، فالأرض المقدّسة لا تكون مأهولة إذا كانت غير مأهولة بشعب الربّ، فهو الشعب الوحيد الجدير بالاهتمام، وعلى ذلك فقد دعا برنارد إلى طرد المسلمين من فلسطين وتفريغ الأرض المقدّسة من سكّانها<sup>[١]</sup>.

لقد جرى تصوير الحروب الصليبية على أنّها عملية تطهير كبرى، فقد حثّ البابا أوربان الثاني المسيحيين على السعي بأقصى الجهود إلى «تطهير المدينة المقدّسة ومجد القبر المقدّس»، وإحلال العنصر المسيحي في الأرض المقدّسة بدلاً من المسلمين، إذ أشار جيوربت إلى أنّ البابا قال: «لا يمكن أن يحدث هذا التطهير ما لم تحلّ المسيحية محلّ الوثنية»<sup>[٢]</sup>.

ولم يكن هدف الصليبيين كما يسمّون أنفسهم، أو الفرنجة كما سمّاهم العرب، تحقيق مكاسب اقتصادية أو مادية أو الطمع في خيرات الشرق بالدرجة الأولى؛ لأنّ بلادهم بجميع المقاييس أغنى من بلاد المشرق، وإنّما كان الهدف الرئيس المعلن توجيه ضربة قاضية للإسلام وإبادة السكّان بالكامل أو تحويلهم إلى النصرانية، وتصفية أيّ أثر للإسلام في مصر والشام حيث القوّة الحقيقية له، تماماً مثلما حصل في الأندلس فيما بعد، حيث لم يُبق الصليبيون أثراً لمسلم واحد في كلّ الأندلس، وما كان لأوروبا أن تهاجم الشرق الإسلامي على مدى مئة عام طمعاً في قمحة أو زيتونة، وإنّ الصليب الذي اتّخذوه شعاراً لهم يغني عن أيّ تفسير<sup>[٣]</sup>.

[١]- وليم الصوري ت ٥٨٢هـ / ١١٨٦م: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٣م، ج ٢، ص ٧٥٨-٧٥٩. أودو أوف دويل، رحلة لويس السابع إلى الشرق، ج ٧، الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٩٣م، ج ٧، ص ١٣-١٤. زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ١٧٢-١٧٣. توماس ماستناك: السلام الصليبي، ترجمة: بشير السباعي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ١٧٦. رياض شاهين، حسام الأغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ٢٠٠٧، ص ٥، ٦.

[٢]- رواية جيوربت عن مجمع كليرمونت، ترجمة: قاسم عبده، نصوص ووثائق، ص ٨٣. رياض شاهين، حسام الأغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٦.

[٣]- عبد المعين الشواف: دمشق بين سقوط الفاطميين وظهور الأيوبيين، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، ٢٠٠٨، ص ٣٧٨.

وقد وفر البابا أوربان الثاني -المحرّض الأوّل للحروب الصليبيّة- على الباحثين عناء تبرير هذه الحروب عندما قال في خطابه في المجمع الكنسي في مدينة كليرمونت: «إنّ مهّد عقيدتنا وموطن ربّنا وأمّ الخلاص يستولي عليه الآن شعب من غير ربّ، إنّه ابن لجارية مصريّة، وهو يفرض شروطاً قاسية على أبناء المرأة الحرّة، وبذلك تكون الأمور قد انعكست، إنّ ما كتب هو: اطرّد الجارية وابنها، لقد دنّس عرق السراسنة - المسلمون العرب - الشرير الذي يدين بمعتقدات خرافيّة نجسة، الأماكن المقدّسة حيث ارتكزت أقدام ربّنا، لقد دخل الكلاب إلى الأراضي المقدّسة وجرى تدنيس المقدّسات»<sup>[١]</sup>، لقد كانت تعاليم البابا هذه ومعه بطرس الناسك نبزاً للصليبيين، ساروا على هديه فيما ارتكبه من مجازر بحقّ الشرق، إرضاءً للربّ ولممثّله الرسمي على الأرض.

وعندما سقطت القدس وأُعيد سكّانها من المسلمين واليهود في المجزرة الجماعيّة الرهيبة المشهورة، قال رئيس أساقفة صور رجل الدين والمحبة والسلام: «إنّ هذا يوم مقدّس، وسيكون اليوم الذي يجب أن يروى فيه كلّ ما قد تنبأ به الرسول، وذلك في سبيل مجد المسيحيّة وعظمتها»<sup>[٢]</sup>.

وذكر ابن العديم أنّ الصليبيين عندما حاصروا حلب سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤ م، بقيادة ملك القدس بلدوين، نبشوا قبور المسلمين خارج الأسوار، وأخذوا توابيتهم، وأحرقوا الموتى، وربطوا بعضهم بالحبال وسحبوهم أمام المسلمين وهم يقولون:

\_ هذا نبيكم محمّد.

\_ وآخر يقول: هذا عليّ.

وأخذ بعضهم مصحفًا شريفًا من بعض المشاهد وقال: «يا مسلمين، أبصروا كتابكم، ثمّ ثقبه وشده بخيط وجعله في مؤخّرة البرذون غير العربي من الخيل والبغال يُروث عليه، وكلّما أبصر الروث على المصحف صفق بيديه وضحك زهواً وسروراً»<sup>[٣]</sup>.

ويقدّم فوشيه الشارترى مثلاً عن الكيفيّة التي يجري بها هذا التطهير، فقد أشار إلى سعي البابا لطرّد المسلمين من فلسطين، وكتب أنّ البابا أوربان الثاني حتّ في كليرمونت الفرسان والمشاة المسيحيين إلى «أنّ يسارعوا لسحق هذا الجنس الخسيس من أراضينا»<sup>[٤]</sup>.

[١]- سهيل زكار: تاريخ الحروب الصليبيّة، دار الفكر، دمشق ١٩٩٠م، ١م، ص ١٧٠.

[٢]- زكار: تاريخ الحروب الصليبيّة، ١م، ص ١٧١.

[٣]- ابن العديم، عمر بن أحمد ت ٦٦٠هـ: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، ط ٢٠٠٦م، ٢م، ص ٢٢٤.

[٤]- الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ٣٦.

وهكذا وبحلول أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي كانت الحروب الصليبية قد كُفّت عن أن تكون حركة من أجل تحرير الأرض المقدسة، وأصبحت بدلاً من ذلك «حركة لإبادة المسلمين»<sup>[١]</sup>، ولتحقيق ذلك اتّبع الفرنج خلال احتلالهم سياسة تهدف إلى تفرغ الأرض من سكّانها الأصليين، سواء كان ذلك بالقتل أو التهجير أو الطرد، وتوطين المستوطنين القادمين من الغرب الأوروبي مكانهم<sup>[٢]</sup>.

فالباحث المتأمل لواقع الحركة الصليبية يدرك من فوره أنّها ذات طابع عنصريّ تعصبيّ ضدّ من هو غير مسيحي كاثوليكي، لذلك فلا عجب أن ارتبط بها طابع دمويّ لا يُنكر أثره، وقد ظهر هذا الطابع في المذابح والمجازر الجماعية التي ارتكبتها الصليبيون ضدّ أعدائهم المسلمين، وخلال ذلك تمّ قتل عشرات الآلاف من السكّان، وجاء ذلك وسط موجة عارمة من الكراهية والعداء والرغبة في القتل بكلّ من لا يدين بالمسيحية الكاثوليكية<sup>[٣]</sup>.

ومن أمثلة هذه المذابح ما حدث على مدى الطريق من أنطاكية إلى بيت المقدس مروراً بالبارّة ومعرّة النعمان، ووصلت إلى ذروتها في المذبحة المروعة التي اقترفها الصليبيون في بيت المقدس ٤٩٢هـ/ ١٥-٢٥ يوليو ١٠٩٩م، ففي أعقاب استيلاء الفرنجة الصليبيين على بيت المقدس قتلوا عشرات الآلاف من المسلمين<sup>[٤]</sup>.

وقام الصليبيون بتحويل مسجد قبة الصخرة إلى دير أطلقوا عليه اسم: دير معبد السيّد، كما أضافوا إلى المبنى مذابح وأماكن للتعميد، فضلاً عن النقوش اللاتينية البارزة على جدار المبنى.

كما أحدث الصليبيون العديد من التغييرات العمرانية في مدينة القدس، سواء عن طريق بناء الكنائس والأديرة والأبراج والأسوار أو عن طريق تغيير استخدامات بعض الأبنية الدينية الإسلامية.

لم يقتصر هذا الإجراء الصليبي على مدينة بيت المقدس، بل شهدته معظم مدن فلسطين، مثل سبسطية حيث حوّل فيها مشهد زكريّا إلى كنيسة، والخليل التي حوّل فيها المسجد الإبراهيمي إلى

[١]- ماستناك: السلام الصليبي، ص ١٧٢-١٧٣.

[٢]- رياض شاهين، حسام الأغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٧.

[٣]- رياض شاهين، حسام الأغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٦، ٧.

[٤]- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٤-١٣٦. ريموند أجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة: حسين محمّد عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط ١، ١٩٩٠م، ص ١٢٠. الشارترى: تاريخ الحملة، ص ٥٨-٦٨. رياض شاهين، حسام الأغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٦-٧.

كنيسة عرفت باسم: سانت إبراهيم، وعكّا التي حوّلت «مساجدها كنائس»<sup>[١]</sup>.

## ثانياً: الأسباب السياسيّة:

من الممكن تجزئة الأسباب السياسيّة إلى النقاط الآتية:

### ١. دور البابويّة والكنيسة السياسي:

لقد أسهمت التطوّرات الداخليّة في أوروبا في شرعنة الحرب، ومنها الدور الذي قامت به الكنيسة الغربيّة بعد سقوط روما سنة ٤٧٦م، ومحاولة فرض هيمنتها أو استمالة القوى الفعّالة إلى جانبها للدفاع عنها، فصوّرت للناس أنّ الحرب المشروعة هي حرب لا تتنافى مع المبادئ المسيحيّة، ثمّ شعرت البابويّة بخطر التقدّم الإسلامي في أوروبا في شبه جزيرة إيبيريا الأندلس وفي جنوب إيطاليا ووسط فرنسا.

وإزاء هذه المخاطر الخارجيّة، نادى البابا ليو الرابع ٢٣٣-٢٤٠هـ / ٨٤٧-٨٥٥م والبابا يوحنا الثامن ٢٥٨-٢٦٨هـ / ٨٧٢-٨٨٢م للدفاع عن المسيحيّة، وأنّ كلّ مَنْ يموت في سبيل الكنيسة سوف ينال ثواباً من السماء وتغفر ذنوبهم، وهو أمر أتى بنتائج كبيرة جدّاً لصالح البابويّة من جهة وأوروبا من جهة أخرى، إذ لم يوقف التهديد الإسلامي على ممتلكات البابويّة في إيطاليا وعلى المملكة الكارولنجيّة، بل تراجع المسلمون من أراضٍ كانوا يعدّونها إسلاميّة، مثل الأندلس وصقلية وجزر البحر المتوسط الغربيّة، ممّا فسح المجال لتقوية وهيمنة المدن الإيطاليّة التجاريّة والبحريّة في البحر المتوسط<sup>[٢]</sup>.

وإزدادت طموحات البابويّة السياسيّة قوّة في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بمجيء بابوات مصلحين، أسهموا بقيام إصلاحات داخليّة مهمّة، أدّت إلى تقوية الكنيسة، فنافست الإمبراطوريّة في الهيمنة على شؤون غرب أوروبا، فضلاً عن اهتمامهم بالحروب على المسلمين، ممّا مهّد الطريق أمام البابا أوربان الثاني ليوجّه جهود البابويّة المؤثّرة نحو فلسطين<sup>[٣]</sup>.

[١]- سايلوف: رحلة الحاج سايلوف لبيت المقدس والأرض المقدّسة ١١٠٢-١١٠٣م، ترجمة: سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمّان، ١٩٩٧م، ص ٣٠-٤٢. يوحنا فورزبورغ ت ٥٢٥هـ / ١١٣٠م: وصف الأراضي المقدّسة في فلسطين، ترجمة: سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمّان، ١٩٩٧م، ص ٥١. محمّد عبد الحافظ النقر: التغيّرات الإداريّة والعمرانيّة والسكانيّة في مدينة القدس في فترة الصراع الإسلامي الإفريقي أعمال مؤتمر بلاد الشام، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، ط١، ١٩٩٩م، ص ٨-١٥. رياض شاهين، حسام الأغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ١٤-١٥.

[٢]- انظر سمير العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١١٣-١١٤. أفاية: الغرب المتخيّل صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، ص ١٤٢-١٤٣. قاسم: الخلفيّة الأيديولوجيّة للحروب الصليبيّة، ص ١٦. يوسف: في تاريخ الحركة الصليبيّة، ص ٤٦.

[٣]- انظر سمير العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١١٤. قاسم: الحملة الصليبيّة الأولى، ص ٧٥-٧٩.

وهناك مؤرّخون عدّوا النداءات البيزنطية سبباً للحركة الصليبية، إذ كان وضع الإمبراطورية حرجاً من جراء توسّع السلاجقة في آسيا الصغرى بعد معركة ملاذكرد التي انتصر فيها السلاجقة على الجيش البيزنطي، ممّا دفع بالإمبراطور ميخائيل السابع أن يستنجد بالبابا جريجوري السابع، وعندما تولّى ألكسيوس حاول أن يوقف المدّ السلجوقي وطلب أكثر من مرة مساعدة أوروبا<sup>[١]</sup>.

ولا نعتقد مطلقاً أن إعلان أوربان الحرب المقدّسة، كما زعم المؤرّخون الأوروبيون إثر فورة دينية عاطفية فقط، فالقرار اتّخذه أوربان بعد دراسة مطوّلة عميقة وضع فيها حسابات الربح والخسارة، حتّى اختياره مدينة كليرمونت جنوب شرق فرنسا كان مقصوداً، إن البابا أراد أن يسير بمخطّط جريجوري إلى نهايته، فيمدّ سلطانه البابوي على سائر أوروبا والمشرق، وليست إشارته لبيت المقدس وتصوير عذاب واضطهاد المسيحيين في المشرق الإسلامي إلا ورقة عرف أنّها رابحة في لعبته الذكيّة مع دهماء أوروبا، بل إن عدداً من المؤرّخين يرون أنّ الحروب الصليبية كان المقصود بها بالدرجة الأولى مسيحيي المشرق وليس مسلميه؛ لأنّ هؤلاء المسيحيين رفضوا بكلّ قوّة الانصياع إلى بابوية روما عدا عن كونهم أكثر حضارة وعلماً من جهلاء روما وغيرها من مدن أوروبا الغربية<sup>[٢]</sup>.

## ٢. مدلولات الفرنجة والصليبيين

يرتبط بالسبب السياسي ما يتعلّق بمصطلحي: الفرنجة والصليبيين، إذ استعمل العرب والمسلمون مصطلح الفرنجة بمعنيين: عام يشمل كلّ سكّان أوروبا خارج الدولة البيزنطية، ومعنى خاصّ على أغلب منطقة شمال الأندلس تحديداً.

ويظهر أنّ الكُتّاب المسلمين كانوا على دراية بموطن الفرنجة جزء من فرنسا حالياً الذي أقاموا به أولاً في عهد كلوفس حوالي ٤٦٦-٥١١م، بعد ذلك اتّسع نفوذهم مع اتّساع الإمبراطوريتين اللتين أقامهما الفرنجة الميروفنجية والكارولنجية واستمرارهما زهاء خمسة قرون ٤٨١-٩٨٣م/٣٧٣هـ، لكن بقي موطنهم ومركزهم فرنسا حالياً.

وعرف المسلمون في الشرق الفرنجة أكبر قوّة سياسية مهيمنة على وسط وجنوب أوروبا، لذا

[١]- الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، ص ٣١-٣٢. عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ١٢٩-١٣٠. حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، بيروت، دار الجيل، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٤٤، ١٩٩٦م، ج ٤، ص ٢٣٢. وقد توفي جريجوري السابع سنة ١٠٨٥م، وخلفه فكتور الثالث الذي حكم بين ١٠٨٦-١٠٨٧م، وبعدها انتخب الراهب الكلوني أودو دي لاجني كردينال أوسينا عام ١٠٨٨م، واتخذ اسم أوربان الثاني.

[٢]- عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ١٣١. ابن موسى: نظرة عربية على غزوات الإفرنج، ص ٥١.

تمّ تعميم هذا المصطلح على كلّ الأوروبيين عدا البيزنطيين، وهو تصوير واقعي كان يقربّه حتّى الأوروبيين أنفسهم، لذا عندما غزا الفرنجة بلاد الشام ٤٩٠هـ/ ١٠٩٩م لم يكن من الصعب تمييزهم من الأقباط الأوروبيّة المعروفة مثل الروم أو الصقالبة والبلغار، فتمّ تحديدهم وتمييزهم بوضوح؛ لأنّ عمليّة التمايز بين الأقباط جغرافياً ظاهرة موجودة في المصادر العربيّة والإسلاميّة، فيقال: رومي - حبشي - فارسي - تركي - صقلبي - فرنجي.

وأخذ المصطلح يتعرّز في الفكر العربي الإسلامي، وخاصّة أنّ بلاد الفرنجة قبيل الحروب الصليبيّة وما بعدها، بدأت تؤدّي دوراً مهماً سياسياً وعسكرياً واقتصادياً في منطقة البحر المتوسط وسواحلها الإسلاميّة، ولم يدرك المسلمون التغيّرات التي أصابت أوروبا التي جعلت الفرنجة يأخذون المبادرة من الروم، وكذلك التغيّرات الداخليّة الكبرى على مختلف الصعد؛ لأنّ مصادر معلوماتهم كانت تعتمد على ما كتبه أسلافهم عن هذه الأقباط بعد نمو القوميّة في أوروبا وتماسهم مع المسلمين في القرن التاسع الهجري/ القرن الخامس عشر الميلادي وما بعده، فبدأت تظهر تعابير مزدوجة تجمع بين الإفرنج كصفة عامّة لأوروبا مع صفة الدولة التي يسمونها طائفة من الفرنج يقال لهم الفرنسيّين طائفة من الإنكليز من الفرنج فرنج إفرنسة.

واستمرّ مصطلح الفرنجة أو الإفرنج حتّى بداية القرن العشرين، وفي نهاية القرن العشرين عادت بعض الدراسات إلى استعمال مصطلح الفرنج كمحاولة للردّ على الحملات الصليبيّة؛ كونها ظاهرة متعدّدة الأبعاد، أحدها البعد الديني الذي أكّد عليه الأوروبيون.

كانت هذه نظرة كتّاب الشرق الإسلامي، فكانت بيزنطة الروم كقوّة رئيسيّة، ثمّ نafسها الفرنج في منطقة البحر المتوسط التي هي منطقة اهتمام عربيّة إسلاميّة، لذلك كان هناك تمايز قومي ثقافي بين القوتين، وزاد من نظرة التمايز الغزو الفرنجي الصليبي للأراضي الإسلاميّة؛ لأنّ الصلة صارت مباشرة ومتواصلة بين القوى الثلاث، فضلاً عن إدراك المسلمين ضعف بيزنطة المستمرّ وقوّة الفرنج المتصاعدة<sup>[١]</sup>.

ويمكن أن نلخص أنّ الخطّ البياني للمعلومات العربيّة الإسلاميّة الجغرافيّة والتاريخيّة كانت تسير في تصاعد عن أوروبا والفرنجة، وحصل التطوّر الكبير فيها في كتب الموسوعات، فمثلاً كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي، يضمّ في معلوماته لمحة جغرافيّة عن أهمّ المدن

[١]- السمعاني، عبد الكريم بن محمّد ت ٥٧١هـ: الأنساب، وضع حواشيه محمّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٨، ج ٣، ١١٤. سمبر العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١٢٥-١٢٦. ابن موسى: نظرة عربيّة على غزوات الإفرنج على غزوات الإفرنج، ص ٥١.

في أوروبا وأقوامها، ومنهم الفرنجة، وصلتهم بالبلاد الإسلامية، كذلك أهم السلع التجارية التي تصدرها وأهم النباتات التي تزرعها، حتى المخاطبات السياسية بين حكامهم والحكام المسلمين كانت متعددة، وهذا يمثل إدراكاً للتغيرات السياسية التي حدثت في أوروبا.

وإنَّ الاهتمام بالمعلومات المعاصرة لم يجعل المسلمين غافلين عن دراسة تاريخ الفرنجة، وهو أمر انفرد به المسعودي قبل الحروب الصليبية. أمَّا بعد الحروب، فبيّن الهمداني أصولهم وعلاقتهم بالمسيحية وبيت المقدس وسيطرتهم على بعض مدن الشام، ثمَّ ابن خلدون الذي ذكر تفاصيل أكثر من غيره عنهم، سواء أصولهم، والقليل من أحوالهم الداخلية، وعلاقتهم مع المسلمين<sup>[١]</sup>.

ميزان القوى قبيل الحروب الصليبية، وتطورات الأحداث وظروفها:

يوضّح الأسباب السياسية للحروب الصليبية بشكل أكبر: ميزان القوى وحال العالم والقوى الفاعلة قبيل هذه الحروب.

فلقد تعددت الآراء حول تعريف الحركة الصليبية، ويرجع ذلك إلى الزاوية التي نظر منها المؤرّخون إليها، فرأت مجموعة من المؤرّخين أنَّ الحروب الصليبية تمثل حلقة من حلقات الصراع الطويل بين الشرق والغرب، وهو الصراع التقليدي الذي ظهر بجلاء في الصراع بين الفرس واليونانيين، ثمَّ بين الفرس والإمبراطورية الرومانية والبيزنطية<sup>[٢]</sup>.

وبتحليل تفاصيل الأوضاع العامة قبيل الحروب الفرنجية الصليبية، سنجد أنَّ أهم سبب من أسبابها هو السبب المتعلّق بميزان القوى قبيل هذه الحروب أو تطورات الأحداث وظروفها، وهو ميزان متعلّق بالقوى الناشطة آنذاك على مسرح الأحداث، وهي: الخلافة العباسية ١٣٢-٦٥٦هـ/ ٧٤٩-١٢٥٨م، والقوى الموجودة في بلاد الشام، والخلافة الفاطمية ٢٩٧-٥٦٧هـ/ ٩٠٩-١١٧١م، والسلاجقة ٤٢٩-٥٩٠هـ/ ١٠٣٨-١١٩٤م.

ونشطت من الطرف الآخر القوة البيزنطية، فلقد سيطرت الإمبراطورية البيزنطية خلال القرن الأوّل الهجري/ السادس الميلادي على معظم الأراضي المجاورة للبحر المتوسط، بما فيها جنوب شرقي أوروبا وآسيا الصغرى تركيا حالياً وفلسطين وسوريا وإيطاليا وأجزاء من إسبانيا وشمال

[١]- انظر القلقشندي، أحمد بن علي ت ٨٢١هـ: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ج ٥، ص ١٣٧، ٤٨٥. سمير العمر: الحروب الصليبية تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١٢٢-١٢٤. كلود دلماس: تاريخ الحضارة الأوروبية، ترجمة: توفيق وهبة، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٥.

[٢]- عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٣.

أفريقيا، ثم فتح العرب المسلمون فلسطين في القرن الأوّل الهجري/ السابع الميلادي، ثم فتح السلاجقة الأتراك آسيا الصغرى وفلسطين وسوريا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وهزموا البيزنطيين في معركة ملاذكرد في آسيا الصغرى عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م، وأسروا إمبراطورهم رومانوس<sup>[١]</sup>.

لذلك فإنّ مَنْ يتأمّل أحوال المسلمين السياسيّة في المشرق العربي الإسلاميّ عشية وصول الحملة الصليبيّة الأولى إلى بلاد الشام في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، سيلاحظ ما كان عليه المسلمون من ضعف وانقسام وتمزّق، ممّا أطمع الغرب الأوروبي ببلادهم<sup>[٢]</sup>. ونظرة إلى العالمين الشرقي والغربي آنذاك، تبين لنا أهمّ القوى السياسيّة والحربيّة التي أدّت دوراً فعّالاً في أحداث المنطقة قبيل الغزو الصليبي لها، هي كما يأتي:

### ٣. الغرب الأوروبي قبيل الحروب الصليبيّة:

حتى قبيل بداية الحملات الصليبيّة، لم تكن أوروبا -كما نعرفها اليوم- دولة مستقرّة أو شعباً متميّزة، بل كانت مجرد مناطق إقطاعيّة متخلّفة بالقياس إلى ما وصلت إليه حضارة العالم البيزنطي وحضارة العالم العربي الإسلامي من قوّة وازدهار<sup>[٣]</sup>.

فشكّل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بالنسبة للغرب الأوروبي بداية مدّة امتدّت ثلاثة قرون، تمثّل مرحلة الإبداع في تاريخ العصور الوسطى، إذ أخذت -خلال تلك المدّة- المؤسّسات السياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة والاجتماعيّة تتشكّل، حتى صارت الأساس الذي قامت عليه النهضة الأوروبيّة<sup>[٤]</sup>.

وكان الغالب على مجتمعات أوروبا الطابع الريفي أو المظهر الإقطاعي، وكان الأوروبيون يعيشون تحت رحمة الطبيعة، فالأرض المزروعة ما تزال ضئيلة المساحة بالقياس إلى مناطق البراري والغابات، وعاش الفلاح الأوروبي في كوخ صغير حياة أدنى من حياة الحيوان، حياة فقر وبساطة، معتمداً على إنتاج حقله، وعلى ملابس كان يصنعها من جلود حيواناته.

[١]- انظر محمود محمد الحويري: بناء الجبهة الإسلاميّة المتّحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٩٢م، ص ١٠ وما بعد.

[٢]- الحويري: بناء الجبهة الإسلاميّة المتّحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص ١٠.

[٣]- مصطفى وهبة: موجز تاريخ الحروب الصليبيّة، المنصورة، مكتبة الإيمان، ط١، ١٩٩٧م، ص ٩.

[٤]- قاسم: ماهية الحروب الصليبيّة، ص ٥٧.

وكانت السنوات العشر التي سبقت الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥م/٤٩٦هـ سنوات قاسية على سكّان أوروبا، خصوصاً شمال فرنسا وغرب ألمانيا، إذ شهدت تلك السنوات سلسلة تكاد تكون متّصلة من الفيضانات والمجاعة<sup>[١]</sup>.

#### ٤. الإمبراطورية البيزنطية

أسست الإمبراطورية البيزنطية سنة ٣٩٥م في القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور أركاديوس ٣٧٧-٤٠٨م، وعجزت تلك الإمبراطورية عن صدّ الفاتحين العرب المسلمين التي انتزعوا منها سورية ومصر وشمال أفريقيا، كما بلغوا حدود عاصمتها القسطنطينية عدّة مرات.

وقد بلغت هذه الدولة أوج قوتها وازدهارها في عهد السلالة المقدونية في المدّة من ٢٥٣هـ/٨٦٧م إلى ٤٤٩هـ/١٠٥٧م، وكان بينها وبين الدولة الحمدانية في حلب صراع مستمرّ، ثمّ دخلت في صراع شديد كبير في القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين مع دولة السلاجقة التي كانت تشكّل آنذاك الجناح العسكري لدولة الخلفاء العبّاسيين<sup>[٢]</sup>.

#### ٥. دولة السلاجقة

تنازعت خلافتان على العالم الإسلامي هما: الخلافة الفاطمية في مصر، والخلافة العبّاسية في بغداد، وظهرت خلال ذلك على مسرح الأحداث قوّة الأتراك السلاجقة، وذلك خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي؛ أي قبيل وصول الصليبيين إلى بلاد الشام.

وبغضّ النظر عن تفاصيل الأحداث والصراعات؛ كانت الدولة البيزنطية الضحية الأولى لدولة السلاجقة، إذ نفّذ السلاجقة غزوات ناجحة ضدّ الأراضي البيزنطية وانتصروا على البيزنطيين في إقليم إبيريا الإبخار وطرابزون شمال شرق تركيا الحالية وأرضروم أكبر مدن تركية في الأناضول.

وفي العام ٤٤٦هـ/١٠٥٤م قاد السلطان طغرل بك ٤٢٩-٤٥٥هـ/١٠٣٨-١٠٦٣م السلاجقة بنفسه إلى الأراضي البيزنطية، فغزا أرمينية، ودمّر ما صادفه من قرى ومزارع فيما بين بحيرة فان وأرضروم، وفرض الحصار على ملاذكرد، ولكنّ الجيوش البيزنطية لم تمكّنه من الاستيلاء عليها، فانسحب إلى مدينة الري.

[١]- وهبة: موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٠.

[٢]- وهبة: موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٤.

ولمّا تولّى حكم السلاجقة ألب أرسلان ٤٥٥-٤٦٥هـ / ١٠٦٣-١٠٧٢م بعد وفاة طغرل بك، نهج السلاجقة نهجاً جديداً تجاه الإمبراطورية البيزنطية؛ إذ استهدفوا الاستيلاء على أراضيها بدلاً من مجرد القيام بغارات للسلب والنهب، وبالفعل وفي سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م استولى ألب أرسلان على إقليم أرمينية ذي الموقع الإستراتيجي المهم.

ثمّ كانت المعركة الكبيرة الشهيرة ملاذكرد ٤٦٤هـ / ١٠٧٠م، وفيها ألحق الأتراك السلاجقة هزيمة منكرة بالجيش البيزنطي بقيادة الإمبراطور رومانوس الرابع ٤٦١-٤٦٤هـ / ١٠٦٨-١٠٧١م<sup>[١]</sup>.

وفي عام ٤٦٤هـ / ١٠٧١م، استولى السلاجقة على معظم آسيا الصغرى، وواصلوا زحفهم حتّى أصبحوا على مقربة من بوابات القسطنطينية، ووقعت القدس تحت حكمهم عام ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م، لذلك كان أحد الأسباب التي أدت إلى الحروب الصليبية نداءات الأباطرة البيزنطيين طلباً للمساعدة نتيجة لهذه الأحداث والتطورات، وخوفاً من إزعاج الحجّاج المسيحيين، فتشجّعت البابوية، وقدمت العروض للمساعدة.

ثمّ بلغت الدولة السلجوقية أوج عظمتها واتّساعها في عهد السلطان ملكشاه ٤٦٥-٤٨٥هـ / ١٠٧٢-١٠٩٢م الذي خلف أباه ألب أرسلان، وصارت تمتد من بحيرة خوارزم شمالاً إلى حدود اليمن جنوباً، ومن حدود الصين شرقاً إلى سواحل البحر المتوسط غرباً، ثمّ بدأت هذه الدولة تسيير في طريق التداعي والانهيار بعد وفاة ملكشاه ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م؛ أي قبيل وصول الصليبيين إلى بلاد الشام بسنوات معدودة<sup>[٢]</sup>.

لذلك كلّ طلب الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنينوس ٤٧٤-٥١٢هـ / ١٠٨١-١١١٨م عام ٤٨٩هـ / ١٠٩٥م المساعدة من بابا الكنيسة الرومانية الكاثوليكية البابا أوربان الثاني في قتاله ضدّ الأتراك السلاجقة، فوافق البابا على طلبه<sup>[٣]</sup>.

[١]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجمل الجزء ٨. وانظر: الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص ٢١.  
[٢]- انظر البنداري، الفتح بن علي الأصفهاني ت ٦٤٣هـ: تاريخ دولة آل سلجوق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٠، ص ٢١-٤٦. الحسيني، صدر الدين بن علي ت ٦٢٢هـ: أخبار الدولة السلجوقية، اعتناء: عباس إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٩٨٤، ص ١٨-٢١. وانظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجمل الجزء ٨. ابن خلدون: مقدّمة ابن خلدون مع التاريخ، مجمل جزء ٥. عمّار النهار، فوزي مصطفى: تاريخ العصر العباسي والأندلسي، مطبعة جامعة دمشق، ٢٠١١، ٢٠١٢م، ص ٦٥-٨٠. براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ١٢. الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص ٢٥.  
[٣]- وهبة: موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٢.

## ٦. المشرق العربي

في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي كان العرب المسلمون موزعين في ولائهم السياسي بين الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في القاهرة، بالإضافة إلى الصراع المستمر بين الخلافتين، فإنَّ أحوالهما الداخليَّة كانت مرتبكة بالقدر الذي جعل من بلاد الشام مجالاً واسعاً لهذا الصراع، وأدَّى بالنتيجة إلى انقسام بلاد الشام إلى عدَّة إمارات صغيرة متصارعة، على رأس كلِّ إمارة حاكم مستقلّ، وكانت مشاعر الحقد بين هذه الإمارات السياسيَّة الصغيرة سبباً في العداء السياسي والعسكري الذي كان حائلاً دون توحيدها في مواجهة الغزو الصليبي<sup>[١]</sup>.

## ٧. الخلافة العباسية

فقدت الدولة العباسية هيبتها منذ أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ودبَّ فيها الضعف والانحلال، وصار الخلفاء العباسيون مغلوبين على أمرهم في بغداد، وأشبهه بالعبوبة في أيدي العناصر التركيَّة التي غدت صاحبة السلطة الفعلية.

وظهرت في عصر العباسيين فرق كثيرة: كالإسماعيلية والمعتزلة والزنادقة، ممَّا أدَّى إلى انقسام المسلمين، وظهرت عدد من الدول المستقلة، ثمَّ سقطت، وقامت دويلات على أنقاضها، وأهمُّ هذه الدويلات: البويهيون ٣٣٤-٤٤٧هـ/ ٩٤٥-١٠٥٥م، ثمَّ إنَّ نفوذ البيت البويهي أصيب بضعف شديد بعد وفاة عضد الدولة البويهي ٣٢٤-٣٧٢هـ/ ٩٣٦-٩٨٣م بسبب القتال الذي نشب بين أبنائه حول ممتلكات أبيهم، وبذلك سقطت دولة بني بويه سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م<sup>[٢]</sup>.

## ٨. الخلافة الفاطمية

كان قيام الدولة الفاطمية في حدِّ ذاته حدثاً فريداً في التاريخ العربي الإسلامي، إذ إنَّ نجاح الحركة الفاطمية في إقامة خلافة لها في بلاد المغرب عام ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م جاء بعد محاولات فاشلة وطويلة قاموا بها منذ قيام الدولة الأموية للظفر بالخلافة. وتقدّم الفاطميون سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م بقيادة جوهر الصقلي ٣١٢-٣٨١هـ/ ٩٢٤-٩٩١م نحو الفسطاط، فاستعد الإخشيديون ٣٢٣-٣٥٨هـ/ ٩٣٤-٩٦٩م لقتاله، والتقى الجيشان بالقرب من الفسطاط في معركة انتهت بانتصار جوهر، وبذلك

[١]- وهبة: موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٢. الحويري، بناء الجبهة الإسلامية، ص ٢٦.

[٢]- عمار النهار، فوزي مصطفى: تاريخ العصر العباسي والأندلسي، ص ١٣-١١٥. أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٢، ص ١٦٣. عزيز سوربال عطية: الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة: فلييب صابر سيف، القاهرة، دار الثقافة، ط ٢، ص ٣٩. الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص ١٠.

زال نفوذ الإخشيديين والخلافة العباسية من مصر. ومنذ أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، طرأت أحداث على الدولة الفاطمية تسببت في إضعافها، إذ اضمحل سلطانها وعظم نفوذ الوزراء، وأصبح في أيديهم أمر تعيين الخلفاء، وكان لتنافس رجال الدولة الفاطمية على منصب الوزارة واستعانة بعض الطامعين في هذا المنصب بحكام الدول المجاورة أثر سيئ في حالة مصر الداخلية، الأمر الذي مهد السبيل للقضاء عليها<sup>[١]</sup>.

## ٩. بلاد الشام

كانت بلاد الشام هي الأخرى تعاني الاضطراب والفوضى، ذلك أن الحمدانيين ٣١٧-٣٩٤هـ/ ٩٢٩-١٠٠٣م في عهد سيف الدولة ٣٣٣-٣٥٦هـ/ ٩٤٤-٩٦٧م دخلوا في صراع مع كل من الإخشيديين في الجنوب والبيزنطيين في الشمال، وزاد من الفوضى التي تعرّضت لها بلاد الشام سيطرة القبائل اليمنية على جنوب بلاد الشام ووسطها، أما القبائل القيسية فقد سيطرت على شمال الشام والجزيرة.

وعندما ضعفت الخلافة العباسية شهدت الإمبراطورية البيزنطية ظهور أسرة قوية هي الأسرة المقدونية ٢٥٣-٤٤٨هـ/ ٨٦٧-١٠٥٦م خلالها وصلت الإمبراطورية البيزنطية أقصى اتساع لها منذ الفتوحات الإسلامية والتي حققت انتصارات كبيرة على حساب المسلمين والبلغار والروس، إذ استولى نقفور على المصيصة من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم وطرطوس وأنطاكية، ولكن الفاطميين تمكنوا من استرجاع دمشق.

ويرى بعض المؤرخين أن جهود الأباطرة البيزنطيين لاسترجاع الشام، بما فيها من أماكن مقدسة، كانت حلقة متقدمة من حلقات الحروب الصليبية التي قامت بها أوروبا ضد العرب المسلمين لاسترجاع الأراضي المقدسة في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

ومهما يكن، فقد ظهر الانقسام والتفتت في أوصال الجبهة الإسلامية في منطقة الشرق الأدنى، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في نجاح الحملة الصليبية الأولى، واستقرار الصليبيين أمداً طويلاً في بلاد الشام<sup>[٢]</sup>.

[١]- انظر: ابن ميسر، محمد بن علي: أخبار مصر، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨١م، ص ٦١. ابن الطوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام ت ٦١٧هـ: نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، نشرات الإسلامية، شتوتغارت، ١٩٩٢، ص ٥. الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص ١٤، ١٥.  
[٢]- الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص ١١-٢٦. عمّار النهار، فوزي مصطفى: تاريخ العصر العباسي والأندلسي، ص ٩٠-٩٥.

فالحروب الصليبية تمثل إفراناً من الغرب الأوروبي، وهي نتاج طبيعي ومنطقي تماماً للأوضاع التي كانت سائدة هناك، غير أن ذلك ينبغي ألا يوقعنا في تناقض أساسه النظر إلى الطرف الإسلامي وكأنه ملتقى ساذج لصدمة الغزو الصليبي، أو تصوير الأمر وكأن المبادرة التاريخية في الصدام كانت لدى الصليبيين من الغرب الأوروبي، وأن المسلمين كانوا مجرد ساكني النطاق الجغرافي الذي حلَّ به الغزاة، على أن الأحداث التي وقعت على الجانب الإسلامي كانت بمثابة البداية الحقيقية لاستنفار الغرب الأوروبي<sup>[١]</sup>.

### ثالثاً: السيطرة على القدس

إن هدف السيطرة على بيت المقدس ظهر واضحاً في تصريحات كل من آثار الحروب الصليبية، فمثلاً كان من أكبر المحرّضين على سير الحملة الصليبية الأولى بطرس الناسك، وكان قد عكف على التّعبد في جوار القبر المقدّس، وبعدهما عانى كثيراً من سوء المعاملة على أيدي التركمان والمشاركة بزعمه، عاد لموطنه ولم يستسلم للهزيمة، فقد قرّر أن يُشرّ في جميع البلدان اللاتينية، ويعلن بأن هاتفاً سماوياً جاءه يأمره أن يعلن إلى جميع أمراء فرنسا أن عليهم مغادرة أوطانهم والسفر والتّعبد في كنيسة القيامة، وأن يبذلوا نفوسهم وجميع طاقاتهم في سبيل تحرير القدس من أبناء هاجر<sup>[٢]</sup>.

ومن أجل أن يشجّع البابا الجموع على الاشتراك في الحرب، وعد المشتركين بالحرب الصليبية المناضلين في سبيل الإيمان باسم الربّ العليّ بغفران الخطايا، فضلاً عن أن ممتلكات الصليبيين ستوضع تحت حماية الكنيسة ورعايتها طوال مدّة غيابهم، كما وعد المقاتلين الذين يستشهدون في المعارك ضدّ الكفّار بالثواب الأبدي في الجنة السماوية فـ «القدس إنّما هي محور الكون، منطقة فائقة الخصب بالمقارنة مع المناطق الأخرى جنة ثانية»<sup>[٣]</sup>.

كما قال البابا: «إنني أخطب الحاضرين، وأعلن للغائبين، وعلاوة على ذلك فإن يسوع المسيح يأمر بما يأتي: كل من يذهب إلى هناك سوف تغفر له خطاياه إذا ما واجه حتفه زاحفاً في البرّ أو عابراً البحر أو مقاتلاً الكفّار، إنني أمنح ذلك لكل من يذهب مستمداً القوّة من السلطة التي وضعها

[١]- محمّد مؤنس عوض: الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، ٢٠٠٠م، ص ٣٥.

[٢]- آنا كومينا: الأليكسياد، ج ٦، ص ١٠، ١١.

[٣]- زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ٤٤.

الله في»<sup>[١]</sup>. كما قال لهم: «إِنَّ مَنْ لَهُمُ الْحُزْنُ وَالْفَقْرُ هُنَا فِي الْأَرْضِ سَيَكُونُ لَهُمُ الْفَرَحُ وَالْغِنَى هُنَا فِي السَّمَاءِ»<sup>[٢]</sup>.

وقد عدَّ البابا أنَّ الحملة الصليبيَّة تتساوى مع الحجِّ في طلب الغفران والتكفير عن الذنوب. وهكذا صار الاشتراك بالحملة الصليبيَّة بمثابة رحلة حجِّ تكفيريَّة واستشهاديَّة في آن، وقد صار مقصدها بيت المقدس كأكبر دافع ديني وراء الحركة الصليبيَّة<sup>[٣]</sup>.

لقد أثارت دعوة البابا أوربان الثاني حركة شعبيَّة ضخمة ترتبط في التاريخ عادة باسم بطرس الناسك، فالمصادر التاريخيَّة التي عاصرت الأحداث التي جرت منذ كليرمونت ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م حتَّى سقوط بيت المقدس ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م لم تذكر شيئاً من حجِّ بطرس إلى أورشليم، باستثناء أنا كومينيا التي تقول: إنَّ بطرس فشل في رحلة قام بها للتعبُّد في الضريح المقدَّس، فأعدَّ خطَّة ماهرة لكي يعود إلى القدس بصحبة جيش كبير، ونجح في هذا<sup>[٤]</sup>.

فقد كان زعيم الحملة الشعبيَّة يُعدُّ بمثابة التجسيد الحيِّ للروحانيَّة الشعبيَّة، بل إنَّه كان يعدُّ بمثابة نبيِّ هذه الحركة ومبشرها الأوَّل، وكان ألبرت الأيكسي<sup>[٥]</sup> الذي عاش في هذه الأرجاء هو صاحب أقدم نصِّ مكتوب عن هذه الأسطورة، وتقبَّلها وليم الصوري وزاد عليها، وأوضح في نصِّه كيف تضحَّمت أسطورة بطرس الناسك بعد حوالي مئة سنة من أحداث الحملة الصليبيَّة الأولى<sup>[٦]</sup>.

كما أنَّ هناك رواية لجيوبرت النوختي التي تكشف مراحل تطوُّر هذه الأسطورة<sup>[٧]</sup>.

بكلِّ الأحوال، قرَّر بطرس الناسك أن يبشِّر في جميع البلدان اللاتينيَّة، ويعلن بأنَّ هاتقاً سماويًّا جاءه يأمره أن يعلن إلى جميع أمراء فرنسا أن عليهم مغادرة أوطانهم والسفر للتعبُّد في كنيسة القيامة وتحرير بيت المقدس، فلاقى نجاحاً كبيراً، وتجمَّع الفرنجة من كلِّ الأطراف ومعهم أسلحتهم وخيولهم وتدقُّ الجميع من كافَّة الجهات تدقُّ السيول والروافد على النهر العظيم<sup>[٨]</sup>.

[١]- المؤرِّخ المجهول: يوميات صاحب أعمال الفرنجة، ج ٦، ص ٣٦.

[٢]- زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ٤٥.

[٣]- انظر: براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٣٤، ٣٥.

[٤]- أنا كومينيا: الأليكسياد، ج ٦، ص ١١.

[٥]- جمع مدونته التاريخيَّة عن الحملة الصليبيَّة ومملكة بيت المقدس اللاتينيَّة حتَّى سنة ١١٢٠م من شهود العيان. انظر: قاسم: الحملة الصليبيَّة الأولى، ص ١٠٠.

[٦]- للاطلاع على هذه الرواية انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبيَّة ١٠٩٤-١١٨٤م، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة، مؤسَّسة الأهرام للنشر، ١٩٩١م، ج ١، ٩٠-٩٤.

[٧]- للاطلاع على هذه الرواية انظر نصَّ الرواية والترجمة العربيَّة كاملة عند قاسم: الحملة الصليبيَّة الأولى، ص ٩٨-٩٩.

[٨]- أنا كومينيا: الأليكسياد، ج ٦، ص ١١. عمران: تاريخ الحروب الصليبيَّة، ص ٢٦.

وعملياً؛ في السادس من يونيو سارت القوّات الصليبيّة من الرملة فوصلت أمام القدس في السابع من حزيران ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م.

كان الفصل الأخير من قصّة الحملة الصليبيّة الأولى هو الحصار الذي فرضه الصليبيّون على مدينة القدس على مدى خمسة أسابيع من ٧ حزيران حتّى ١٥ تمّوز، حيث اقتحموا المدينة، فسقطت في أيديهم، واندفعوا كالسيل الجارف يقتلون ويذبحون، ووضعوا السيف في المسلمين على اختلاف أعمارهم وجنسهم<sup>[١]</sup>.

وفي هذا الجوّ الموحش الذي بلغه الصمت الرهيب وتغلّغت إليه الروائح الكريهة الصادرة عن المنازل المحترقة والأجساد العفنة، اجتمع الصليبيّون في كنيسة القيامة، وتردّدت عبارة: نحمدك يا الله<sup>[٢]</sup>.

وقد عقد الصليبيّون اجتماعاً لليونان المشورة العسكريّة، ثمّ أصدروا حكماً بقتل كلّ مسلم باق داخل المدينة، فارتكبوا فظائع مهولة استمرّت أسبوعاً كاملاً، جعلت المؤرّخ الغربي مكسيموس مونروند يصفها بالإبادة السكانيّة، إذ لم يوفّروا قتل أيّ مقدسي أياً كانت ديانته، ولم يميّزوا بين رجال ونساء ولا شباب ولا شيوخ، بل تعمّدوا قتل كثير من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهّادهم<sup>[٣]</sup>.

وعبر مؤرّخو الحروب الصليبيّة الغربيين والشرقيين عن الفظائع التي ارتكبتها الصليبيّون في بيت المقدس، أمثال ريموند دي سان جيل، وابن الجوزي، وابن كثير<sup>[٤]</sup>.

واختلف الرواة في تحديد عدد القتلى؛ فقدّرهم البعض بمئة ألف نسمة، وآخرون قدّروهم

[١]- براور: عالم الصليبيين، ص٤٦-٤٧. الحويري: بناء الجبهة الإسلاميّة، ص٥٥، ٥٦. الحريري: الأخبار السنيّة، ص٤٨.

[٢]- براور: عالم الصليبيين، ص٤٧.

[٣]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٨، ص٤٢٥. مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدّسة في المشرق المدعوّة حرب الصليب، ترجمة: مكسيموس مظلوم، طبع أورشليم في دير الرهبان الفرنسيّسكانيين، ١٨٦٥م، ص١٧٢. نقولا شحادة الخوري: تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسيّة، مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٥م، ص٧٠.

[٤]- ريمون دي سان جيل ت ٤٩٩هـ / ١١٠٥م: تاريخ الفرنجة، ج٦، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكّار، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٥م، ص٢٩٥. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي ت ٥٩٧هـ: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمّد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط١، ١٩٩٢م، ج١٧، ص٤٧. ابن كثير، إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤هـ: البداية والنهاية، تحقيق، عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط١، ١٩٩٨م، ج١٦، ص١٦٦.

بعشرين ألف نسمة، ولكن الأغلبية قدّروهم بسبعين ألف نسمة<sup>[١]</sup>.

فكانت النتيجة «أن انقلبت المدينة في أيام قليلة من ديانة إلى أخرى، ومن شرائع إلى غيرها، ومن مراسيم وعوائد إلى أخرى، ومن سكّان إلى غيرهم»<sup>[٢]</sup>.

وحسب الأرقام التي أوردتها المصادر الصليبيّة والعربيّة القديمة يمكن القول: إنَّ عدد المسلمين الذين دُبحوا بيد الصليبيين منذ خروجهم من القسطنطينيّة وحتى احتلال بيت المقدس تجاوز نصف مليون إنسان، فيهم الكثير من النساء والأطفال والرُّضع، ووصف عدد من المؤرّخين بإسهاب الطرق الوحشيّة التي اتّبعها الصليبيّون في إزهاق أرواح تلك الأنفس البريئة بشكل تقشعر له الأبدان، ويروى أنّ جماجم المسلمين وأذرعهم التي امتلئت بها شوارع وأزقة مدينة القدس، بقيت عدّة أيام دون أن يتمكن الصليبيّون من إزالتها لكثرتها، وكادت تهدّد بانتشار الوباء في المدينة بعد نفّسها، كلّ ذلك يدعو المرء ليتساءل عن نوع القلوب التي كان يحملها هؤلاء القوم<sup>[٣]</sup>.

بعد هذا انعقد مجلس لانتخاب أحدهم ليكون ملكاً على بيت المقدس، وبعد مجادلات ومعارضات تمّ انتخاب أربعة وهم: غودافرو ورايموند ودوق نورمانديا وتنكريد. وأخيراً عينوا اللجنة من الكهنة وغيرهم عددها عشرة لأجل أن ينتخبوا واحداً من الأربعة المذكورين، فانعقدت اللجنة وقرّرت انتخاب القائد غودافرو، ولما أرادوا تنويجه ليكون ملكاً على بيت المقدس، أبقى أن يلبس التاج قائلاً: لا يمكنه أن يضع على رأسه تاجاً من ذهب مرصّعاً بحجارة كريمة في بلد تُوج فيها السيّد المسيح بإكليل من شوك، وأبى أن يُلقّب بملك القدس بل بحامي قبر المسيح<sup>[٤]</sup>.

ومن جانب آخر يتعلّق ببيت المقدس، نجد قضية التشجيع على الهجرة الغربيّة إلى القدس، وكان لأخبار النجاح الذي حقّقه الحملة الصليبيّة الأولى أثره في تشجيع عناصر أوروبية جديدة للقدوم رغبة منهم في تدعيم الوجود الصليبي في المملكة الصليبيّة من ناحية، وفي الحصول على المكاسب الماديّة من ناحية ثانية، لذلك بدأت جماعات الصليبيين تشقّ طريقها صوب الشرق من

[١]- قدّر سبط ابن الجوزي وغيره عدد القتلى بـ ١٠٠٠٠٠، بينما قدّروهم ابن الأثير ومونرون وغيرهما بـ ٧٠٠٠٠. انظر سبط ابن الجوزي، يوسف ت ٦٥٤ هـ: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق: مسفر الغامدي، السعودية، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلميّة وإحياء التراث الإسلامي، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٩٨٧م، ج ١، ص ٣٢٤. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٤٢٥. مونرون: تاريخ الحروب المقدّسة، ص ١٧٥.

[٢]- مونرون: تاريخ الحروب المقدّسة، ص ١٧٥-١٧٦.

[٣]- ابن موسى: نظرة عربيّة على غزوات الإفرنج، ص ٧٨-٧٩.

[٤]- الحريري: الأخبار السنيّة، ص ٤٨.

فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وغيرها من دول غرب أوروبا<sup>[١]</sup>.

وقد اتبّع ملوك المملكة الصليبية سياسة تهدف إلى تشجيع الهجرة الأوروبية إلى فلسطين، وذلك بطرق عدّة، أبرزها عن طريق إصدار مراسيم تشجيع وتسهيل هجرة المسيحيين الأوروبيين إلى فلسطين والاستيطان فيها<sup>[٢]</sup>.

لذلك هاجر كثيرون إلى القدس، وقد منحهم الملك بلدوين جزءاً كبيراً من مدينة بيت المقدس، حيث أقاموا في شمال شرق المدينة، فيما كان يعرف باسم الحيّ اليهودي سابقاً<sup>[٣]</sup>.

وكي يشجّع الهجرة بشكل أكبر، قام بلدوين الثاني بالطلب من البطريرك بتزويد المدينة بشكل أوفر بالمواد التموينية، كما أصدر في أوائل سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م قراراً بإعفاء سكّان المدينة من الضرائب المفروضة على السلع التي كانوا يتاجرون فيها، وألغى ضرائب أخرى عديدة، فحقّق من وراء هذه السياسة تشجيع الهجرة وزيادة سكّان المدينة<sup>[٤]</sup>.

ولقد استمرّت عمليّات الهجرة الجماعيّة من الجنسيّات الأوروبيّة كافّة، والتي تقدّر بعشرات الآلاف، تضمّ مقاتلين وتجاراً وحجاجاً وأصحاب مهن؛ ففي سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م أرسل الملك بلدوين الثاني هيو دي بانيز إلى الغرب الأوروبي لحثّ الأوروبيين على التوجّه إلى المملكة الصليبية للمشاركة في محاربة المسلمين والاستيطان في المملكة، وقام القديس برنارد رئيس دير كليرفور بمساعدة هيو من أجل تحقيق غرضه بتشجيع العناصر الأوروبيّة بالهجرة إلى القدس، إذ أخذ يدعو أهل الغرب للانضمام إلى جماعة فرسان الداوية، حيث انتقل هيو من فرنسا إلى إنجلترا، وجمع الهبات، وحشد الفرسان، واستمرّ هيو دي بانيز في جولته الأوروبيّة حتّى سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م، واستطاع أن يضم عدداً كبيراً من الفرسان إلى جماعته<sup>[٥]</sup>.

وكان من نتائج تلك الهجرات أن فرضت آثارها السلبية على سكّان المناطق المحتلّة، إذ جرى تفرّغ سكّاني لبعض المناطق؛ نتيجة النزوح القسري للسكّان إلى مناطق أكثر أمنًا يسيطر عليها

[١]- الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ١١١. زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ١٢٧. قاسم: أثر الحروب الصليبية على العالم العربي، ص ٢٣٣.

[٢]- الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ١، ص ٤٧٢.

[٣]- الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ١، ص ٥٦٠-٥٦١. الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ١٠٩-١١٠. النقر: التغيّرات الإدارية والعمرانية والسكانية في مدينة القدس في فترة الصراع الإسلامي الإفريقي، ص ١٦.

[٤]- الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ١٨٩. الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ١، ص ٥٨٨.

[٥]- الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ١، ص ٥٧٦-٥٧٧. الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ١٩٤. قاسم عبده قاسم: أثر الحروب الصليبية على العالم العربي، سكانياً، اجتماعياً، سياسياً، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ج ٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٩٥م، ص ٢٢٨-٢٣٣.

المسلمون، وهو الأمر الذي أدى إلى تغيير في البناء الديموغرافي في كثير من المناطق التي يسيطر عليها الفرنج، بحيث تحوّلت الأقلية إلى أكثرية، وبعد أن كانت فلسطين إسلامية الطابع تحوّلت إلى مملكة لاتينية الطابع<sup>[١]</sup>.

وقد عمل الصليبيون على تثبيت أنفسهم في القدس بعد احتلال الأراضي المقدسة عبر ثلاث طرق:

الأولى: بناؤهم لعدد من الأديرة والكنائس.

الثانية: حاولوا اكتشاف جثث القديسين، إذ كانت الأرض المقدسة مليئة بهذه الآثار، وقد وجدوا بقايا بعض الجثث في بعض الأماكن، مثلاً اكتشفوا عظام البطاركة في الخليل ووجدت مسامير الصليب بزعمهم.

الثالثة: بدّلوا طوبوغرافية بيت المقدس بشكل بسيط أولاً، باستيلائهم على الحرم الشريف، بينما كان هذا التبديل والتغيير أعظم أثر في بعض النواحي، إذ أحدثوا بعض التغييرات في كنيسة القيامة مثلاً<sup>[٢]</sup>.

### رابعاً: الإقطاع - الاستيطان - الهجرة والتهجير

كان لهذه الأهداف الثلاثة الإقطاع - الاستيطان - الهجرة والتهجير أثرها البارز لأن تكون من أهم أسباب الحروب الصليبية، والأسطر الآتية تبين ذلك.

#### ١. الإقطاع:

إنّ الروح الإقطاعية بدت واضحة في حملة الفرسان، وهم الحملة النظامية من الحرب الصليبية الأولى، وكان قد تمّ الاتفاق على تحديد يوم الخامس عشر من شهر أغسطس ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م موعداً لخروج هذه الحملة، وبعد أن أتمّ الفرسان استعدادهم خرجوا في عدّة جيوش قسّمت على أساس التقسيمات الجغرافية واللغوية، وتمّ الاتفاق بينهم على تحديد مكان اللقاء في الشرق، كما اتّفقوا على أن يقود كلّ منهم جيشاً بمفرده، وألاً يسير على نفس الطريق الذي سار عليه الآخرون حتى لا تواجههم مشكلة التموين<sup>[٣]</sup>.

[١]- قاسم: أثار الحروب الصليبية على العالم العربي، ص ٢٢٥-٣٥.

[٢]- سبانو: الحجّ الى بيت المقدس، نصوص تاريخية من العصور الوسطى، جمع وترجمة وتحليل، ص ٩٤-٩٥.

[٣]- قاسم: الحملة الصليبية الأولى، ص ١٣٨-١٣٩. عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ١٤٥.

ومن قادة هذه الجيوش: هيوغ العظيم أخ الملك فيليب ملك فرنسا أول الذين عبروا البحر، وبعده بوهيموند أمير أبوليا، ثم جودفري دوق اللورين، ثم ريمون كونت البروفنس، وكذلك أديمار أسقف بوى. وكانت القسطنطينية نقطة التجمّع حيث التقت الجيوش الصليبية معاً في ربيع سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧<sup>[١]</sup>.

وقد جرى تنظيم حملة الفرسان، وهو الشطر المعروف بحملة الأمراء، وإعداده إعداداً رتيباً، والواقع بأن الشطر الخاص بالأمراء في الحملة الصليبية الأولى تتألف من عدة حملات، لكل منها طابعها المميّز الذي لازمها وميّز نشاطها في الشرق، وبعبارة أخرى: إن الروح الإقطاعية بدت واضحة في حملتهم هذه، إذ تولّى زعامتها عدة أمراء، لكلّ منهم اتجاهاته وجنده وسياسته الخاصة، ممّا جعل تلك الحملة في حقيقة أمرها عبارة عن حملات، وربما عملت أحياناً في جهات متعارضة<sup>[٢]</sup>.

وقد واجهت حملة الفرسان، ومنذ البداية، مشكلة التموين، إذ لم يكن بوسعهم أن يغامروا بالخروج دونما تنظيم أو استعداد، مثلما فعلت جماهير الحملات الشعبية، وقد اعتمدوا على الصدقات والتبرّعات، ولجأ بعضهم إلى رهن أملاكه لدى الأديرة والكنائس، على حين لجأ البعض الآخر إلى ابتزاز اليهود<sup>[٣]</sup>.

فمثلاً لجأ جودفري إلى ابتزاز اليهود، وصرّح بأنه سينتقم لدم المسيح منهم قبل أن يذهب إلى الحملة الصليبية، فسارع كالوتيموس رئيس جماعة ماينز اليهودية بالكتابة إلى هنري الرابع الألماني، والذي كان هو السيّد القطاعي لجودفري، يطلب منه منع جودفري من اضطهاد اليهود، وفي الوقت نفسه لجأ اليهود إلى خطّ دفاعهم التقليدي، فقدّم يهود ماينز وكولون خمسمئة قطعة ذهبية إلى جودفري على سبيل الرشوة، وعندما كتب هنري الرابع ملك ألمانيا ٤٤٦-٥٠٠هـ/ ١٠٥٤-١١٠٦م إلى كبار الإقطاعيين من العلمانيين والكنسيين يطلب منهم ضمان سلامة اليهود في أراضيهم، أجابه جودفري -الذي كان قد نجح في ابتزاز اليهود وضمن التمويل لحملة- بأنه لم يفكر قطّ باضطهاد اليهود، وهكذا كشفت الحملة منذ بدايتها عن موقف مشابه لموقف الحملة الشعبية<sup>[٤]</sup>.

وقد أدّى نظام الإقطاع الصليبي الفرنجي إلى نجاح تجربة الفرنجة في توفير الأمن للمستوطنين، وتقليص حدّة المقاومة الإسلامية، وتقديم الامتيازات، سواء فيما يتعلّق بتوزيع الأراضي إلى

[١]- الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ٤٠. براور: عالم الصليبيين، ص ٤٢.

[٢]- عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ١٤٥.

[٣]- قاسم: الحملة الصليبية الأولى، ص ١٣٩.

[٤]- قاسم: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص ١٤٩.

المستوطنين بعد مصادرتها من أصحابها الشرعيين، أو فيما يتعلّق بالإعفاءات الضريبية، وقد علّق السوري على ذلك بقوله: «كانت النتيجة أن بدأ الذين يقيمون في المنطقة المجاورة يضعون ثقة كبيرة في هذه القلعة إضافة إلى القلعتين الأخرين، كما وقامت حولها ضواح كبيرة وكثيرة، وسكنت أعداد كبيرة من الأسر هناك، إضافة إلى مزارعي الحقول أيضاً، وأصبحت المنطقة أكثر أمناً»<sup>[١]</sup>.

هكذا أسهم نظام الإقطاع الفرنجي في زيادة الرقعة الاستيطانية في فلسطين، وتعاونت المملكة مع الكنيسة في زيادة الحركة الاستيطانية؛ إذ استغلّ رجال الدين المنح والهبات التي قدّمت لهم لإقامة القرى الزراعية الفرنجية، وقد حصل كلّ مستوطن على ٢٤٠ فدّاناً من الأرض بيني على جزء منها ويزرع الباقي، وبالمقابل توجّب عليه دفع ضريبة سنوية، وكان المستوطنون أحراراً في مغادرة المستوطنة عندما يشاؤون؛ لأنّهم لم يحصلوا على الأرض وفقاً للشروط الإقطاعية في تمليك الأرض، بل بكونها ممتلكات وراثية يحقّ لهم بيعها أو رهنها أو التصرف فيها حسب إرادتهم، إذ كانوا يدفعون الإيجار عنها.

فالمتملّ في كتابات يعقوب الفيتري التاريخية في شتى الاتجاهات بصفة عامّة، والاتّجاه الاقتصادي والاجتماعي بصفة خاصّة، يقف على حقيقة ما طرأ على الحركة الصليبية من تغييرات عند مطلع القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ويكشف القناع عن حقيقة الدوافع الإقطاعية الصليبية من أجل السيطرة على الأرض، واستعمارها وتفرغها من أهلها الأصليين، واستغلال مواردها الطبيعية بإقامة المستوطنات والقلاع.

ويرتبط بما نقول، القانون الذي تمّ تشريعه لوراثة الإقطاع، إذ إنّ إقطاعات المملكة الصليبية كانت تُبدل للمقطع وسلالته من الورثة المباشرين وغير المباشرين، وكان هذا التشريع يهدف إلى استغلال الأرض وتوظيف الموارد المالية للمملكة، كما شجّع هذا التشريع عملية هجرة الأروبيين إلى المناطق الصليبية والاستيطان فيها، خاصّة وأنّ أوروبة شهدت في القرن السادس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ازدياداً سكانيّاً تسبّب في حدوث اضطرابات اجتماعية، سواء في الريف أو في المدن، إذ أسهمت الزيادة السكانية في المناطق الريفية بإمداد المدن بعدد كبير من السكّان، واستمرّت هذه الهجرة الداخلية من الريف إلى المدن طيلة مدّة الوجود الصليبي في فلسطين، والتي

[١]- جلال حسني سلامة: الاستيطان الصليبي في الأراضي المقدّسة ١٠٩٩-١١٨٧م/ ٤٩٢-٥٨٣هـ أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية النبات للآداب والعلوم والتربية، جامعة عين شمس، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٧٣٠.

دامت ما يقرب من قرنين، ولقد كانت الحروب الصليبية والهجرة الأوروبية صوب المملكة الصليبية وغيرها من الإمارات الصليبية في الشرق منفذاً لتصريف الفائض والزيادة السكانية في أوروبا<sup>[١]</sup>.

وكتيجة، وفي الناحيتين الاجتماعية والسياسية، أحدثت الحروب الفرنجية الصليبية هزة عنيفة في الغرب الأوروبي، فمن ناحية بناء المجتمع ساعدت هذه الحروب على إضعاف النظام الإقطاعي وحلّه، وهو النظام الذي قامت على أساسه الحياتين الاجتماعية والسياسية بل والاقتصادية في ذلك العصر في الغرب الأوروبي.

والمعروف أنّ النظام الإقطاعي في الغرب اعتمد على قاعدة ضخمة من الأبقان والرقيق الذين قاموا بفلاحة الأرض لسادتهم من الفرسان والأمرء، ولكنّ الحروب الفرنجية الصليبية فتحت الباب على مصراعيه لهؤلاء الأبقان ورقيق الأرض لكي يتخلّصوا من أوضاعهم، ويتركوا الأرض التي ارتبط بها آبائهم وأجدادهم بحجة المشاركة في النشاط العسكري. وكان السيد الإقطاعي لا يستطيع أن يمنع الفلاحين من الخروج لخدمة الدين والكنيسة، فوجد ملاًك الأرض أنفسهم فجأة أمام عجز خطير في الأيدي العاملة، بعد أن استوعبت الحملة الفرنجية الصليبية الأولى وحدها أكثر من عشرة آلاف قنّ، تركوا الأرض التي يقومون بفلاحتها واتّجهوا إلى الشرق بحثاً عن حياة جديدة. وهكذا اضطرّ كبار الأمرء والسادة الإقطاعيين إلى البحث عن رجال أحرار يقومون بفلاحة أرضهم، ممّا أدى إلى تصدّع الجهاز الإقطاعي وانقراض طبقة الأبقان والرقيق تدريجياً من المجتمع الأوروبي الغربي<sup>[٢]</sup>.

## ٢. الاستيطان والتغيير الديموغرافي

إنّ من أوضح أسباب الحروب الصليبية: القضايا التي تتعلّق بالاستيطان الصليبي والتغيير الديموغرافي، إذ تعتمد عملية الاستيطان على مجموعة من الركائز التي تسهم في نجاحها، وتجعلها حقيقة واقعة على الأرض، وتتمثّل هذه الركائز في مجموعة من القوى؛ هي القوى العسكرية والقوى الاقتصادية والمالية، وتوفّر عنصر السكّان والأرض التي يستوطن عليها المستعمرون، ولا شك أنّ هذه الركائز تحتاج إلى الدعم والمساندة من الظهير الأوروبي.

ولقد احتلّت الأرض حيناً كبيراً في الصراع الإسلامي الفرنجي، وتعود أصول هذا الصراع إلى نشوء الحركة الصليبية؛ ثم أخذ يتبلور مع شدة التضارب بين الحضارتين واقتناع كل من طرفي

[١]- قاسم: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص ٧٤، ٧٥. براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٩٣-١٠٠.

[٢]- الحركة الصليبية: سعيد عاشور، ج ٢، ص ١٠٠٦-١٠١٠.

الصراع الإسلامي والفرنجي بأنه وحده صاحب الحق التاريخي في أرض فلسطين.

ومن هذا المنطلق، كانت الحروب الصليبية في نشأتها وأهدافها مرتبطة بالأرض المقدسة والمنطقة العربية وبالأهداف الاستعمارية الاستيطانية<sup>[١]</sup>.

ولقد كان تحوّل فلسطين إلى كيان صليبي هدفاً يراود الحركة الصليبية، وقد جرى التلميح إلى المخططات الصليبية في كليرمونت، ويمكن أن نبيّن من قراءة نصوص الروايات التي أوردها المؤرّخون حول خطبة البابا في كليرمونت أنّه كان يدعو إلى حملة مقدّسة هدفها فلسطين اعتماداً على نصوص في الأناجيل المسيحية، وذلك بهدف تحرير الكنيسة الشرقية من ربة المسلمين، وتخليص الأرض المقدّسة من سيطرتهم، هذه الأرض التي وصفها أوربان الثاني بأنّها ميراث المسيح لما قال: «لذا... فإنّني، بل إنّ الله وليس أنا، يحثّكم يا جنود المسيح أن تحضّوا الرجال... أن يسارعوا لسحق هذا الجنس الخسيس من أراضينا، ويمدّد يد العون للسكان المسيحيين»<sup>[٢]</sup>.

وبالتالي شكّلت الأرض على الدوام أحد أهمّ أهداف الغزو الصليبي بشكل عام وغزو فلسطين بشكل خاص؛ بصفته مشروعاً إقطاعياً استيطانياً قوامه استقدام المهاجرين الأوروبيين وإحلالهم في الأراضي العربية والفلسطينية محلّ أصحابها الأصليين؛ فقد جاء على لسان البابا في كليرمونت ما نصّه: «أنقذوا تلك الأرض من ذلك الجنس المرعب، واحكموها بأنفسكم؛ لأنّ هذه الأرض التي تفيض باللبن والعسل كما يقول الكتاب المقدّس أعطها الربّ ملكاً لبني إسرائيل».

وكان الفرنج يهدفون إلى غزو الأراضي الإسلامية في الشرق؛ لأنّ الأرض ضرورية كأساس مادي للحكم، وقد تطلّب الاستيطان الفرنجي الدائم في فلسطين الحصول على المزيد من الأراضي، ولضمان الاتصال مع الظهير الأوروبي كان على الفرنج أن يوطّدوا سيطرتهم ونفوذهم على الساحل الفلسطيني والسوري.

لقد كان الاستيلاء على الأرض في بلاد الشام عامّة، وفلسطين خاصّة، الشرط الضروري المسبق لاستيطان الأنحاء المختلفة من بلاد الشام؛ لذلك أحاطت الأيديولوجيا الصليبية الأرض بهالة من القداسة؛ كما رفعت هذه الأيديولوجيا مهمّة تخليص الأرض المقدّسة إلى مستوى الفريضة الدينية، فالبابا في كليرمونت دعا إلى حملة مقدّسة هدفها الأوّل فلسطين اعتماداً على نصوص وردت في الإنجيل، لتخليص الأرض المقدّسة من سيطرة المسلمين، هذه الأراضي التي وصفها

[١]- الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ٣٦. قاسم: نصوص، ص ١١.

[٢]- الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ٣٦.

الكتاب المقدس بأنها الأرض التي تفيض باللبن والعسل، كما وصفها أوريان الثاني بأنها ميراث المسيح، لذا طالب الجموع المحتشدة بقوله: «يجب أن تدافعوا بالسلاح عن حرية أرض الآباء حقاً وعدلاً»<sup>[١]</sup>.

وهذا كله يدل على وجود خطة صليبية ممنهجة ومدروسة لتغيير ديموغرافية المدينة المقدسة، ويؤيد ذلك أن هذه الحالة استمر عليها الصليبيون قرابة تسعين عاماً، ولم يُسمح للمسلمين بالعودة إلى بيت المقدس أو دخولها إلا لتقديم بعض الخدمات التجارية<sup>[٢]</sup>.

وعلى ذلك يمكن القول بأن الحركة الصليبية كانت في جوهرها حركة استيطانية قام بها الغرب الأوروبي ضد الشرق الإسلامي، وقد أيد هذا القول بعض المؤرخين الغربيين أمثال جروسية، الذي عدّها حركة استيطانية استعمارية قدمت من الغرب إلى الشرق بقوله: «إنّ الحروب الصليبية أدت إلى أول توسع استعماري للغرب المسيحي في الشرق العربي».

وعدّها المؤرّخ برنارد لويس «حركة استعمارية هدفها التوسّع الاستعماري الغربي في الشرق»، في حين حكم عليها تريفيليان في كتابه مختصر تاريخ إنجلترا بأنها «حركة اتّساع خارجي قامت بها أوروبة المسيحية ضدّ العرب».

وتحدّث المؤرّخ هنري وليم كارلز ديفز في كتابه أوروبة في العصور الوسطى عن الحروب الصليبية تحت عنوان: الاستعمار الأوروبي، قائلاً: «إنّ الشغل الشاغل للحكّام اللاتين في الثمانين سنة التي أعقبت تأسيس المستعمرات الأوروبة في الأرض المقدسة هو توسيع حدود تلك المستعمرات وتدعيمها تحت تاج بيت المقدس»<sup>[٣]</sup>.

ويرى جوزيف نسيم أنّ الحركة الصليبية كانت تهدف منذ البداية إلى التوسّع والاستعمار تحت قناع من الدعاية الدينية، وأنّ غرضها الحقيقي هو الاستيلاء على فلسطين بالقوة المسلحة، وتأسيس مستعمرات لاتينية لها ثمّ العمل على تعزيز هذه المستعمرات، وتوسيع حدودها، والمحافظة عليها بشتى الطرق والوسائل حتّى تكون رأس جسر لأهل الغرب الأوروبي يستخدمونه لتفتيت وحدة

[١]- رواية روبر الراهب عن مجمع كليرمونت، رواية جيويرت النوجتي عن مجمع كليرمونت، ص ٧٩-٨١. رياض شاهين، حسام الآغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٤.

[2]- Prawer, Jusha: The Settlement Of the Latins In Jerusalem, Speculum 1952. Vol 27 P.494.

أنس المحمّد: الحياة الاجتماعية في القدس في عصر المماليك على ضوء وثائق الحرم القدسي الشريف، رسالة ماجستير، إشراف الدكتور عمّار النهار، جامعة دمشق، ٢٠١٠م، ص ٣٠.

[٣]- رياض شاهين، حسام الآغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٤-٥. جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص ١٠٣، ١٠٤.

العالم العربي وكسر شوكته ضمناً لبقاء نفوذهم في المنطقة<sup>[١]</sup>.

وقد عنون يوشع براور كتاباً كاملاً باسم الاستيطان الصليبي في فلسطين، وذكر أن استيطان الفرنجة في منطقة الشرق العربي كان «بمثابة أولى المحاولات التي تهدف إلى تأسيس مملكة استيطانية في هذه المنطقة». ويرى بلدوين مارشال أن السنوات التي أعقبت تأسيس الدويلات الثلاث في أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس «كانت سنوات رخاء، واكتمل نضج تطورها كمستعمرات أوروبية غربية»<sup>[٢]</sup>.

وكما قال بعضهم: «إنه كأنَّ أوروبية اقتلعت وجاءت إلى الشرق، فقد جاء الصليبيون ليقيموا، وجأوا معهم بالخدم والعبيد والأتباع والرحالة والأدباء والشعراء ورجال الكنيسة والنساء والأولاد»<sup>[٣]</sup>.

ومما يدلُّ على أنَّ الفرنج الصليبيين غيروا من ديموغرافية القدس؛ ما قام به صلاح الدين الأيوبي من إجراءات مضادة بعد تحرير القدس، ولننظر ماذا فعل:

– حرَّر صلاح الدين يوسف بن أيوب بيت المقدس يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ / ٢ تشرين الأول ١١٨٧م، ولم يعامل الصليبيين بالمثل، وإنما أظهر معهم تسامحاً يُضرب المثل به<sup>[٤]</sup>.

وبعد ذلك انتقل إلى معالجة كارثة التغيير الديموغرافي التي قام بها الصليبيون، فقام بما يأتي:

– اتَّفَق مع الصليبيين على دفع فدية محدَّدة تختلف بين الرجل والمرأة والطفل، وقبل صلاح الدين أن تدفع السلطات الصليبية مئة ألف دينار عن جميع الفقراء العاجزين عن دفع الفدية، ثم تمَّ اقتداء سبعة آلاف نسمة بثلاثين ألف دينار.

– بدأ بترحيل الصليبيين عن بيت المقدس بطرق سلمية، وضمن لهم سلامة الرحيل إلى صور وطرابلس وأنطاكية وبقية قلاعهم التي لم تسقط بعد.

– ضمن صلاح الدين أنَّ المدينة أصبحت شبه خالية من السكان.

[١]- رياض شاهين، حسام الآغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٤، ٥. جوزيف نسيم يوسف: الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي، ص ٨.

[٢]- رياض شاهين، حسام الآغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٤، ٥. براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٨٣.

[٣]- زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، بيروت، ١٩٥٨م، ص ١٤٦-١٥٣.

[٤]- ابن شدَّاد، بهاء الدين ت ٦٣٢هـ: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تصحيح: محمَّد الرخاوي، مطبعة محمَّد صبيح، القاهرة، مصر، ١٣٤٦هـ، ص ٦٦.

ـ أطلق عددًا من المشاريع العمرانية والاجتماعية لإعادة بيت المقدس إلى حالته الطبيعية الحقيقية السابقة، وصفته العربية الإسلامية.

ـ بدأ بعملية الإسكان من خلال عشرة آلاف كانوا قد جاؤوا معه<sup>[١]</sup>.

ـ تدفق الناس إلى المدينة وسط فرحتهم الكبيرة بالنصر، فأتوها «رجالاً وركباناً من كل جهة»<sup>[٢]</sup>.

ـ جلب صلاح الدين عددًا من القبائل العربية وأسكنهم المدينة وما حولها، فأسكن بني سعد في الحي الذي عرف فيما بعد باسمهم حارة السعدية، وكلفهم بحراسة باب الخليل، وسكن بنو الحارث عند القلعة خارج المدينة في خان الزيت، وأسكن بني زيد عند عقبة الشيوخ من جهة الشمال قرب باب الساهرة في مكان عُرف بحارة بني زيد، وأسكن قبائل بني مرة من جهة الغرب الشمالي في سوق الفخر<sup>[٣]</sup>.

ـ شجّع صلاح الدين عددًا من الذين جاهدوا معه على السكن في المدينة، مثال ذلك المغاربة، الذين زادت أعدادهم في بيت المقدس عقب الفتح الصلاحي للمدينة، إذ أعطاهم صلاح الدين الأيوبي ميزات عديدة، فجعل أحكامهم إليهم ولم يجعل يدًا لأحد عليهم.

ونظرًا لأهمية هؤلاء المغاربة وكثرتهم أوقف عليهم الملك الأفضل نور الدين علي ابن الأكبر لصلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م البقعة التي اعتادوا على الإقامة فيها، وعُرف المكان فيما بعد بحيّ أو حارة أو محلّة المغاربة<sup>[٤]</sup>.

ـ ثمّ سمح صلاح الدين للمسيحيين الساكنين ببيت المقدس بالبقاء فيه، بل أعاد للأقباط الأماكن التي اغتصبها منهم الصليبيون<sup>[٥]</sup>.

ـ وسمح لليهود أيضًا بالإقامة ببيت المقدس، وذلك ضمن مخطّطه لإعادة إسكان المدينة، فلم يكن اليهود في ذلك الوقت يشكّلون خطرًا على الطابع الإسلامي للمدينة، بسبب أعدادهم القليلة جدًّا، إذ ذكر الرحّالة اليهودي بنيامين التطيلي حوالي عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م، أنّ عددهم بلغ حوالي

[١]- ابن شدّاد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٦٧. المقرئزي، أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمّد مصطفى زيادة، سعيد عبد الفتاح عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٤-١٩٧٣ م، ج ١، ق ١، ص ١٢٢. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، ط ١، ١٩٥١ م، ج ٨، ق ١، ص ٣٩٩.

[٢]- المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٩٧.

[٣]- عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط ٢، ٢٠٠٥ م، ص ٢٨٥.

[٤]- عبد الهادي التازي: أوقاف المغاربة في القدس، مطبعة فضالة، المحمّدية، المغرب، ١٩٨١ م، ص ٦.

[٥]- العارف: المفصل في تاريخ القدس، ص ٧٦٠.

٢٠٠ يهودي يقيمون في حيّ مجاور لبرج داود، أما الرّحالة اليهودي الآخر بتاحيا الراتسبوني الذي زار بيت المقدس قبيل الفتح الصلاحي للمدينة، فذكر أنّه لا يوجد في المدينة إلاّ يهودي واحد، هو إبراهيم هلتسيفغ<sup>[١]</sup>.

\_ بادر صلاح الدين نحو تحقيق الاستقرار السياسي والاقتصادي.

\_ بعد كلّ ذلك انطلق نحو برنامج عمراني شامل تضمّن تشييد المساجد، والمدارس، والخانقاوات، والزوايا، ودور الحديث، ودور القرآن، ومكاتب الأيتام، والبيمارستانات، والسبل، والمطاهر، والربط<sup>[٢]</sup>.

وبالنتيجة، وللمرّة الأولى منذ الفتح الإسلامي لبلاد الشام، أصبح للصليبيين إمارات أوروبية خالصة في بلاد الشام بإدارتها ونظامها وعقائدها، بحيث يمكن القول إنّ مدناً أوروبية أقيمت في المشرق واستوطنها الصليبيون.

### ٣. الهجرة والتهجير

يرى فريق من المؤرّخين، وعلى رأسهم المؤرّخ كنج، أنّ الحركة الصليبيّة ليست في حقيقة أمرها سوى الحلقة الأخيرة في سلسلة الهجرات الكبرى التي صاحبت انهيار الإمبراطوريّة الرومانيّة في الغرب عام ٤٧٦م، وذلك أنّ سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، أعقبته موجات من الهجرات تفاوتت في مداها واتّجاهها وأثرها.

يضاف الى ذلك أنّ تدفق الهجرات داخل الإمبراطوريّة ترتّب عليه قيام مجتمع جديد دعمه الجرمان بدماء جديدة وحيويّة دافقة، ظهر أثرها في معظم الهجرات التي اتّجهت إلى إنجلترا وصقلية وجنوب إيطاليا وشمال أفريقية<sup>[٣]</sup>.

والتاريخ مليء بحركات الهجرة وانتقال الشعوب من مكان إلى آخر، ومن هذه الحركات العديدة ما اتّخذ طابعاً سلمياً معتدلاً، ومنها ما اتّخذ طابع الغزو العنيف الذي يستهدف تشريد أهل البلاد

[1]- Greatz , Heinrich: History of the jews, London, 1982, vol III, P475.

بنيامين التطيلي: الرحلة، ترجمة: عزار حداد، بغداد، ١٩٤٩م، ص ٩٩.  
[٢]- انظر كامل العسلي: معاهد العلم في بيت المقدس، مطبعة جمعية عمال المطابع التعاونيّة، عمّان، ١٩٨١م. عبد الجليل عبد المهدي: المدارس في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى، عمّان، ١٩٨١م.

British School of Archaeology, the Architecture of Islamic Jresalam An Exhibition Prepared on the Occasion of the World of Islam Festival, London, 1976. Jerusalem, 1976.

[٣]- عمران: تاريخ الحروب الصليبيّة، ص ١٣.

وحرمانهم من حقوقهم وأراضيهم، ومهما تعدد الأسباب الظاهرية لتلك الهجرات، فإنَّ الاتجاه الحديث يحاول دائماً أن يفسرها في ضوء العامل الاقتصادي، ومن المبالغة نسب جميع الهجرات الكبرى في التاريخ إلى العامل الاقتصادي، فهناك أمثلة لحركات ضخمة شاركت في بعثها وتوجيهها عوامل أخرى دينية وفكرية واجتماعية وسياسية، فضلاً عن العوامل الاقتصادية، ومن هذه الحركات الحركة الصليبية، والواقع أنه لا توجد حركة في تاريخ العصور الوسطى أحق بالدراسة لكشف حقيقتها وإبراز معالمها من الحركة الصليبية<sup>[١]</sup>.

وكدليل واضح، فإنه مع سقوط القدس، بدأت جماعات الصليبيين تشق طريقها صوب الشرق من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وغيرها من دول غرب أوروبا، وتؤكد المصادر أن عدداً كبيراً من هؤلاء القادمين الجدد كانوا من النساء والأطفال وغير المقاتلين، مما يجعل هذه الحركة هجرة أكثر من كونها حملة عسكرية<sup>[٢]</sup>.

وكتطبيق عملي، نجد أن الحملة الصليبية الأولى رافقها عمليات تهجير وهجرة لعدد كبير من السكّان؛ كما حدث تفرغ سكّان بعض المناطق والمدن، وهرب سكّان المناطق التي تعرضت للعدوان إلى مناطق أخرى أكثر أمناً؛ فتؤكد معظم المصادر التاريخية المتوفرة بشكل واضح أن موجات كبيرة من اللاجئين طردوا وهجروا من مدنهم وقراهم أثناء العمليات العسكرية للقوات الصليبية لاحتلال الأراضي المقدسة، كما عبّر ابن القلانسي، حتى كادت فلسطين تخلص من سكّانها الأصليين الذين تفرقوا في البلاد، كما عبّر الرَّحّالة ابن جبير<sup>[٣]</sup>.

ونقف على اعتراف واضح من أحد الصليبيين، هو المؤرّخ فوشيه الشارترى، وذلك بقوله: «كان المواطنون الشرقيون قد ولّوا الأدبار لما سمعوا الشائعات بمقدمنا، ولم يبق إلا أولئك الذين فاقوا الهباب سواداً فتركناهم، وعاملناهم باحتقار»<sup>[٤]</sup>.

وكانت النتيجة أن أدت العمليات العسكرية الصليبية الهادفة لاحتلال فلسطين إلى ارتكاب المذابح والمجازر الجماعية، وإلى هجرات متتالية لما أحدثته من هول وفزع للكثيرين من سكّان

[١]- سعيد عبد الفتاح عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، القاهرة، دار القلم، ١٩٦٤م، ص ٧-٨.

[٢]- الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ١١١. زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ١٢٧. قاسم: أثر الحروب الصليبية على العالم العربي، ص ٢٣٣.

[٣]- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٦. ابن جبير، محمّد بن أحمد الكتاني ت ٦١٤هـ: تذكرة بالأخبار في اتفاقيات الأسفار، علق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ٢٣٨. رياض شاهين، حسام الأعنا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٧.

[٤]- الشارترى: تاريخ الحملة إلى القدس، ص ١٠٩.

القرى والمدن، مما أدى إلى ضياع الأرض، فضلاً عن ظهور مشكلة اللاجئين التي اكتظت بهم بعض المدن الإسلامية<sup>[١]</sup>.

ويضاف إلى ذلك أن القوات الصليبية اتبعت سياسة تهدف إلى مصادرة عقارات وممتلكات السكّان المنقولة وغير المنقولة، وفقاً لقانون الغزو The Law of Conquest الذي أصبح منذ مدة باكرة جزءاً من تشريع المملكة الصليبية. ووفقاً لقانون الغزو، فإن القائد الصليبي الذي يرفع رايته فوق أيّ موضع أو قرية أو منزل أو فرن، يصبح هذا الموضع ملكاً خالصاً له لا ينازعه فيه أحد<sup>[٢]</sup>.

ووصف الشارترى هذا القانون -عند حديثه عن المذبحة التي ارتكبتها الفرنج في بيت المقدس- بقوله: «وبعد هذه المذبحة العظيمة دخلوا بيوت المواطنين يمتلكون ما وجدوا فيها، وقد ربّوا ذلك بحيث أن أول من يدخل بيتاً، سواء كان بيت غني أو فقير، فلن يعارض بذلك أيّ إفرنجي، وله أن يسكن ويمتلك ذلك البيت أو القصر وكل ما فيه كما لو كان بيته حقاً، وهكذا تبادلوا القرار بحق الاستملاك، وبهذه الطريقة أصبح كثير من فقراء الفرنجة أغنياء»<sup>[٣]</sup>.

ليس هذا فحسب، بل الأخطر من ذلك هو قيام الصليبيين بإنشاء مستعمرات استيطانية، وذلك عن طريق إحلال مستوطنين جدد من شتى أنحاء الغرب الأوروبي، إذ قاموا في هذه المستوطنات بتأسيس مجتمعات زراعية أوروبية في الشرق، ولقد ساعدت هذه المستوطنات على جذب المهاجرين الأوروبيين للقدوم إلى فلسطين والاستيطان فيها، وعمل هؤلاء المستوطنون الجدد على تعمير بعض القرى التي كان قد هجرها أهلها، أو أجبروا على إخلائها.

وبالتالي بدأت سياسة استيلاء الصليبيين على بعض المدن والأرياف الفلسطينية بمدّة وجيزة، وجرى تنفيذها على مختلف المستوطنات، سواء من قبل ملوك المملكة الصليبية والأمراء الإقطاعيين، أو من قبل رجال الدين اللاتين وجماعات الفرسان الدينية أو الجاليات التجارية الإيطالية<sup>[٤]</sup>.

وحين زار ثيودريش فلسطين، ذكر أن الصليبيين قد أنشؤوا عدداً من المدن والقرى الجديدة في أنحاء الأرض المقدسة، وقد أورد بنفينستي قائمة بالمستوطنات البشرية التي أقامها الفرنجة

[١]- رياض شاهين، حسام الآغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٩.

[٢]- ريموند أجيل: تاريخ الفرنجة غزاه بيت المقدس، ترجمة: حسين محمّد عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط ١، ١٩٩٠م، ص ٢٣٥. رياض شاهين، حسام الآغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ١٣.

[٣]- الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ٧٦.

[٤]- براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ١٠٧. رياض شاهين، حسام الآغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ١٤.

بعد الاحتلال الفرنسي للصليبي لفلسطين، ذاكراً مساحتها وأعداد السكّان فيها؛ إذ ذكر أنّ مجموعها قد بلغ حوالي ثمانين مستوطنة، في حين ذكر براور أنّ عدد المستوطنات الصليبيّة قد وصل إلى حوالي مئة مستوطنة، وشملت هذه المستوطنات الصليبيّة مدناً، وقرى، وقلاعاً وحصوناً صغيرة<sup>[١]</sup>.

### خامساً: الأسباب الاقتصاديّة

يتراءى لنا أنّ السبب الاقتصادي هو سبب أساسي من أسباب الحروب الصليبيّة، ومن الممكن التدليل على ذلك بعدة أمور، منها:

\_ حالة التكاثر البشري التي سادت أوروبا، وما نتج عنها من تردّي الأحوال الاقتصاديّة، والتراجع في الموارد والإنتاج.

\_ تزايد القوى الحربيّة، وكثرة عدد الفرسان دون عمل أو إقطاع<sup>[٢]</sup>.

\_ خطاب البابا أمام الجموع، وتعبيره عن الأوضاع الاقتصاديّة المتردّية التي كانت تعيشها أوروبا آنذاك، ثمّ أنّه حاول إثارة الرغبة والإغراءات لمّا قال إنّ أورشليم القدس «هي فردوس المباحج، وهي الأرض التي تدرّ لبناً وعسلاً»<sup>[٣]</sup>.

\_ ظهور حركة اقتصاديّة في أوروبا تبحث عن الموارد، قادتها مجموعة من المدن في جنوب أوروبا، وخاصّة في سواحل إيطالية، كالبندقية وجنوا وناپولي، فأخذت هذه المدن تتاجر مع الشرق بالخشب والحريير والتوابل والحبوب والذهب. وقد حرّضت هذه المدن التجاريّة على الحملات الصليبيّة، واستغلت في الوقت نفسه هذه الحملات والهجرة الغربيّة معها، إلى حرب بحريّة اقتصاديّة ضمن البحر المتوسط، إلى جانب الحروب البريّة في الشام وصقلية والأندلس<sup>[٤]</sup>.

\_ وكان للباعث الاقتصادي أثره الأكبر في تحريك القوى البحريّة الإيطاليّة - وبخاصّة الثلاثة الكبار جنوا والبندقية وبيزا - نحو المشاركة في الحروب الصليبيّة، وتقديم مساعداتها البحريّة بالشام، مقابل ما حصلت عليه من امتيازات واسعة في موانئ الشام ومدنه. ولم يلبث التجار الأوروبيون -

[١]- ثيودريش: وصف الأماكن المقدّسة في فلسطين، ترجمة: سعيد البشاوي، رياض شاهين، دار الشروق، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٢٢-٢٢٥. براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص٤٩٩. رياض شاهين، حسام الأغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص٤٠ - ٤٢، وانظر تفاصيل قيام هذه المستوطنات وأعدادها وظروفها في المرجع نفسه، ص٤٢-٥١.

[٢]- مصطفي: موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، ص٦٩٠ وما بعد.

[٣]- الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي، ص٣٤. عاشور: الحركة الصليبيّة، ج١، ص٣٤-٣٧.

[٤]- مصطفي: موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، ص٦٩٠ وما بعد.

من إيطالية ومرسيليا وإسبانية - أن قاموا بنشاط تجاري واسع بين الشرق والغرب، فأسسوا لأنفسهم مراكز وأحياء ثابتة في عكا وصور وصيدا والسويدية واللاذقية وغيرها، ومن هذه المراكز احتكروا تصدير حاصلات الشرق إلى الغرب الأوروبي.

وقد أدت سيطرة الأوروبيين على معظم شواطئ الشام في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي إلى تدفق تلك البضائع بواسطة القوافل - عن طريق بلاد العرب والعراق - على دمشق، ومنها إلى موانئ الشام الساحلية حيث كانت تشحنها السفن إلى الغرب<sup>[١]</sup>.

- ونرى سبباً آخر يتعلق بالجانب الاقتصادي، وهو ما يسميه الغرب بنهضة القرن الثاني عشر، وهو ليس سوى محاولة من القوى البشرية الأوروبية لإيجاد مخرج لها من الضائقة الاقتصادية العامة، فكان نتيجة ذلك ظهور حركة الإصلاح الديني التي تحاول أن ترضي الله<sup>[٢]</sup>.

- ثم إن أحد التفسيرات الاجتماعية الاقتصادية لأحد أسباب الحروب الصليبية؛ أن البابوية كانت ترغب في التخلص من المجرمين الأوروبيين<sup>[٣]</sup> وإرسالهم إلى الشرق، بحجة تكفير الذنوب، فانخرط الآلاف منهم في الحركة الصليبية على امتدادها الزمني والمكاني، فصارت بلاد الشام وسواحلها مرتعاً خصباً لأعمالهم الإجرامية، وأدت أعمالهم إلى توتير الأمن العام في معظم الأوقات، حتى في أوقات السلم بين المسلمين والصليبيين<sup>[٤]</sup>.

وإن أعمال السلب والنهب التي حدثت من هؤلاء تشير إلى دلالات كثيرة، اقتصادية ودينية واجتماعية، فأسر الفلاحين التي تفوق الحصر في آلاف الضياع، حملت ممتلكاتها، ومنهم النساء والأطفال، على عربات ثقيلة تجرها الثيران والخيول، وشقوا طريقهم صوب الشرق، منهم من عدّها أمراً إلهياً، ومنهم من رآها فرصة لتحرير أنفسهم من الفقر والعبودية ورق الأرض<sup>[٥]</sup>.

وقد تحركت هذه الجموع في ربيع سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م؛ أي بعد نصف عام فقط من خطبة كليرمونت، صانعة تاريخ طلائع الفلاحين التي سبقت حملة الفرسان الصليبية الكبرى، فانضمت أسر الفلاحين إلى بعضها البعض، وتزايدت أعداد الجماعات المتجهة صوب حوض الراين بحيث

[١]- عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٩٩٩.

[٢]- مصطفى: موسوعة دول العالم الاسلامي ورجالها، ص ٦٩٠ وما بعد.

[٣]- تراكم هؤلاء الأفراد على هامش المجتمع كبؤر للسلب والنهب.

[٤]- انظر: المجلة الجزائرية للدراسات والأبحاث، العدد ١، مج ٥، ٢٠٢٢م، بحث: العناصر الهامشية المنحرفة خلال عصر الحروب الصليبية، اللصوص نموذجاً: أشرف صالح محمد سيد، ص ٦٥٥-٦٦٨، وقد دار مدار البحث حول هذه القضية.

[٥]- براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٣٦.

صارت فرقاً وجيوشاً، وتحرك البعض دونما قيادة<sup>[١]</sup>.

لكن سرعان ما تعرّضت مسيرة الكنيسة المقاتلة، التي تصاحبها التراتيل المقدّسة، والتي بدأت كتعبير عن شعور ديني، إلى أحداث شوّهت صورتها، إذ ارتكبت واحدة من أكبر فظائع النهب والسلب والقتل في التاريخ تلك المذابح الدموية التي أجهزت على الجماعات اليهودية في حوض الراين، وهي جماعات يعود تاريخ بعضها إلى عصر الإمبراطورية الرومانية، فكانت النتيجة أن تلاشت جماعات يهودية بأسرها، كما لاقى آلاف اليهود حتفهم؛ لأنهم رفضوا التعميد المسيحي. وهنا تجب الإشارة إلى حقيقة أن اليهود يتحملون جزءاً من مسؤولية ما حدث لهم، إذ كانت الجماعات اليهودية تسيطر على شؤون المال والتجارة في أوروبا الوسطى، وكانوا يقرضون المال لأبناء الطبقة الإقطاعية، وكانت للديون الثقيلة الأثر الكبير في إذكاء العداوة الكامنة في نفوس المسيحيين.

ثم استمرت هذه الجموع ترتكب أعمال السلب والنهب والإجرام في كل مكان مرّوا به<sup>[٢]</sup>.

وما يهمننا من إيراد بعض تفاصيل سير الصليبيين، أن بطرس الناسك أطلق عليهم اسم: لصوص، وهذا يعطي وجهاً اقتصادياً معيناً للحملة، فلو نظرنا إلى مشهد آخر من الحملة الأولى الشعبية، فسرى أنه بسبب الطمع والفوضى وقع الصليبيون في شباك كمين أعدّه الأتراك السلاجقة وأجهزوا على الحملة الشعبية، وقتل والتر المفلس، وتمكّن بطرس الناسك من النجاة والهرب إلى القسطنطينية، وأخذ يشكو بمرارة من الصليبيين لعدم إطاعتهم وأوامره، وصار يسميهم لصوصاً<sup>[٣]</sup>.

[١]- انظر أنا كومنينيا: الأليكسياد، ج٦، ص ١١. براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٣٨. رنسيان: تاريخ الحملات الصليبية، ج ١، ص ١٨٠-١٨١.

[٢]- انظر عمّا سبق: المؤرّخ المجهول: يوميات صاحب أعمال الفرنجة، ج ٦، ص ٧٩. براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٣٨ - ٤٠. قاسم: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص ١٢٨. عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ١٣٨. قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص ١١٤.

[٣]- أنا كومنينيا: الأليكسياد، ج ٦، ص ١٦. قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص ١١٥-١١٦. وقد ظهر زعيم آخر من زعماء العامة اسمه والتر الملقب بالمفلس، وهو أول من انطلق برحلة الحجّ ١٠٩٦م، وسار على خطاه قسّ ألماني يدعى جوتشولك، وآخر اسمه فولكمار، وقد ارتكب جيشاهما من الأهوال والفظائع والنهب والسلب ما جعلت جيش المجر يمزق عصابات فولكمار، وبعدها بأقل من يومين، فتك بعصابات جوتشولك. وقد أورد وليم الصوري رواية عن هذه العصابات، منها عصابة الكونت أميخو، وانضمّ إليهم وليم النجار وعدد من النبلاء المتعطّشين للدماء في فرنسا وألمانيا، وقد ارتكبوا أشنع الجرائم. انظر الصوري: الحروب الصليبية، ج ١، ص ١١٢-١٣٤. ألبرت الأيكسي من خلال الترجمة العربية الكاملة عند قاسم: الحملة الصليبية الأولى، ص ١٠٥-١٢٢. عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ١٣٧. قاسم: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص ١٣٣-١٣٥.

## سادساً: الأسباب الحضارية

يمكن تفسير أحد أسباب الحروب الصليبية بربطه بالعامل الحضاري؛ كونه صراعاً بين حضارتين مختلفتين، وليس إلى عوامل دينية فقط.

ويرى أنصار هذا الرأي أن النزاع بين الشرق والغرب كالبركان، يهدأ حيناً ويثور حيناً آخر، حتى اشتدت ثورته في نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ووجد منفساً له في الحروب الصليبية، وزاد من حدة هذا الصراع الخلاف الديني بين الإسلام والمسيحية<sup>[١]</sup>.

وعدّ عدد من المؤرخين إشعاع المبادئ الإسلامية والتحضّر العربي الإسلامي من العوامل التي حرّكت البابا جريجوري السابع ثم البابا أوربان الثاني للتفكير ثم للإعداد للحروب الصليبية، إذ أرادوا إنهاء الدين الإسلامي بكلّ ما يحمله من تعاليم سماوية منطقية؛ لأنّ هذه الحضارة كانت العدو الحقيقي للبابوية، وبالتالي فالدين الإسلامي وما يحمله من مبادئ الحرية الدينية والسياسية والاجتماعية يُعدّ من الأسباب المهمة التي أشعلت نار الحروب المقدّسة<sup>[٢]</sup>.

في حين، وعلى النقيض من مفهوم الكنيسة، نرى كثيراً من المؤرخين يؤكّدون على أهمية الشرق كمعبر من معابر الحضارة العربية الإسلامية، وإنّ هذه الحروب كانت العامل الوحيد الذي من الممكن أن يؤدي إلى تقدّم أوروبا<sup>[٣]</sup>.

لذلك كان القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي هو الأهمّ في نقل مظاهر وعناصر الحركة العلمية من «دار الإسلام» إلى أوروبا؛ لأنّ هذا القرن شهد مرحلة الحروب الصليبية، فخلال هذه الحروب حصلت عملية تماس إجباري، على مستوى واسع، بين المجتمع العربي الإسلامي من جهة، وحشود من الأوروبيين الغزاة من جهة ثانية، وقد حصل هذا التماس في بلاد الشام بالذات حيث أنشأ الصليبيون إمارات أوروبية مستقلة في كلّ من الرها، وأنطاكية، وطرابلس الشام، ومملكة مسيحية في القدس، وبالرغم من حالة العداء التي كانت تفرض العديد من المعارك والمناوشات الحربية، فقد قامت علاقات واقعية بين الطرفين، وخاصة في أوقات المهادنة، على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والعلمي.

[١]- عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٣.

[٢]- ابن موسى: نظرة عربية على غزوات الإفرنج، ص ٤٥-٤٦.

[٣]- الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي، ص ٤٠-٤١.

يقول مؤرّخ الطب المعروف الدكتور لوسيان لوكليرك في رصد هذه الظاهرة: «هناك تفكيران عصفا بأوروبا في القرن الثاني عشر: الأوّل ديني متعصّب دفع الأوروبيين للقيام بالحروب الصليبيّة، والثاني متعطّش للعلم دفعهم للتفتيش عن منابعه لدى العرب المسلمين، وهذان التيّاران سارا بالتوازي إلى أقاصي العالم الإسلامي».

ونحن، من جهتنا، إذا كنّا نحترم هذا القول وصحّته وحسن نيّة قائله، فإنّنا نرى أنّ هذين التيّارين لم يسيرا بالتوازي - كما يقول لوكليرك - وإنّما تبع أحدهما الآخر، أو بالأحرى خلق أحدهما الآخر، إذ إنّ الحملات الصليبيّة الأولى فتحت عيون العالم الأوروبي على كنوز الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وخلقت لديه نهماً علمياً للحصول على مثل لها أو تقليدها.

وهكذا يمكننا القول: إذا كان القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي قد شهد انتقال بعض مظاهر الحركة العلميّة العربيّة إلى أوروبا عبر بوابتي الأندلس وجنوبي إيطاليا، فإنّ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، الذي حصلت فيه الحملات الصليبيّة الأولى وإنشاء الممالك والإمارات الصليبيّة، شهد عملية انتقال مشابهة عن طريق ثغور بلاد الشام المحتلّة أنطاكية، طرابلس، بيروت، صور، عكا، عسقلان...<sup>[١]</sup>.

لكنّ ينبغي أن نشير إلى أنّ الصليبيين وإنّ كانت استفادتهم من علوم العرب والمسلمين أقلّ ممّا يجب؛ لأنّ الجيوش الصليبيّة جاهلة ولم تكن تبالي بالمعارف، كما يقول غوستاف لوبون، فإنّهم اقتبسوا من الحضارة العربيّة الإسلاميّة في ميدان العمران والصناعة والنظم الاجتماعيّة والسياسيّة أكثر منها في ميداني الفكر والفن، واقتبسوا الشورى وتحرير العبيد وحقوق المرأة والعلاقات الدوليّة وأمثالها<sup>[٢]</sup>.

وبالتالي كانت الحروب الصليبيّة أكبر لقاء جماعي في التاريخ بين الشرق والغرب، فقبل تلك الحروب، كان اللقاء والاتّصال بالغرب مقصوراً على حجّاج بيت المقدس والتجار والطلبة والرّحالة، ومنّ إليهم، ولكنّ عندما جاء الفرنج إلى المشرق، كانوا كأنّ أوروبا اقتلعت وجاءت إلى الشرق<sup>[٣]</sup>.

وفي هذا المجال يذكر المستشرق جيون أنّ عصر العلم العربي يتوافق مع أكلح عصر من

[١]- أمجد الهندي: دور العرب في تقدّم علوم الطب، دار سعاد الصباح، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص ١٧٠-١٧١.

[٢]- أبو عبيدة: الحضارة الإسلاميّة دراسة في تاريخ العلوم الإسلاميّة، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط١، ٢٠٠٤م، مج ٢، ص ٩٥٤، ٩٥٥.

وانظر هاني مبارك وشوقي أبو خليل: دور الحضارة العربيّة الإسلاميّة في النهضة الأوروبيّة، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٩٦م، ص ٥٤-٥٦.

[٣]- انظر زكي النقاش: العلاقات الاجتماعيّة والثقافيّة بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبيّة، ص ١٤٦-١٥٣. عبد المعين الشواف: دمشق بين سقوط الفاطميين وظهور الأيوبيين، ص ٣٧٨.

حوليات أوروبا وأكثرها جهلاً، وأنَّ انتعاش العلم الغربي كان بسبب تأثير المعرفة العلميّة العربيّة على أمم غربي أوروبا، وبسبب الترجمة السريعة لمؤلّفات العرب العلميّة، ونقلها من اللغة العربيّة إلى اللغة اللاتينيّة.

ودائماً ما يثبت الباحثون أنَّ تأثر الثقافة والعلوم الغربيّة بالثقافة والعلوم العربيّة، حدث عبر الأندلس وجنوبي فرنسة صقليّة وجنوبي إيطاليا، وأنَّ هذا الاتصال تمَّ في عصور مختلفة، لا سيّما في القرون الثلاثة: الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر للميلاد/ السادس والسابع والثامن للهجرة<sup>[١]</sup>.

ولكنّهم لم يعطوا أثر الحروب الفرنجيّة الصليبيّة في نقل الحضارة حقّها من البحث كما ينبغي. فمن الثّابت علمياً أنَّ الغرب الأوروبي ظلَّ طيلة الشطر الأوّل من العصور الوسطى حتّى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد غارقاً في غمرة من التآخّر الحضاري، في الوقت الذي كان العرب في المشرق والمغرب منذ القرن الأوّل الهجري/ السابع الميلادي ينعمون بمستوى حضاري رفيع.

كذلك أثبتت الأبحاث الحديثة أنَّ ثمة حركة إفاقة شاملة دخل فيها المجتمع الأوروبي في عصر الحروب الصليبيّة، وأنَّ هذه الحركة شملت جميع نواحي الحياة في الغرب، حتّى أطلق عليها هاسكنز اسم «النهضة الأوروبيّة في القرن الثاني عشر».

وعندما بحث المؤرّخون عن أسباب هذه النهضة وبواعثها، لم يستطيعوا مطلقاً إغفال أثر الحروب الصليبيّة، بحكم ما تمَّ خلالها من اتصال قويّ بين الأوروبيين من ناحية والعرب من ناحية أخرى، ممّا ساعد على انتقال كثير من مظاهر الحضارة العربيّة الإسلاميّة إلى الغرب الأوروبي.

فلقد أثر العرب بالصليبيين في نواح عديدة، وذلك لم يتمّ بسرعة، وإنّما بدأ ينتشر ويؤثر بعد انقضاء السنوات الأولى من الغزو الصليبي، ومن المؤكّد أنّ السنوات الأولى من هذا الغزو كانت مرعبة سوداء بسبب سيطرة رجال الدين الأوروبيين على مجريات الحرب<sup>[٢]</sup>.

ويخبرنا المؤرّخ الفرنجي فوشيه الشارترى، الذي أرخ للحملة الأولى، عن مدى تأثر الصليبيين بالحياة الجديدة، إذ قال: «الآن صرنا نحن الذين كنّا غربيين: شرقيين، ومن كان منّا إيطاليّاً فرنسيّاً أصبح في هذه البلاد: جليليّاً أو فلسطينيّاً، والذي كان من مواطني مدينة رمس تقع شمال شرق فرنسا

[١]- قصي الحسين: موسوعة الحضارة العربيّة العصر المملوكي والعثماني، بيروت، دار البحار، ٢٠٠٤م، ص ٢٠٣.

[٢]- سعيد عاشور: الحركة الصليبيّة، القاهرة، المكتبة الأنجلومصريّة، ط ٤، ١٩٩٧م، ج ٢، ص ٩٩٩.

أو الشارترى أصبح الآن: صورياً أو أنطاكيًا، لقد نسينا الأماكن التي وُلدنا فيها»<sup>[١]</sup>.

## الخاتمة

ظهرت لنا أهميّة دراسة الحروب الصليبيّة لتركّزها في الذاكرة الشعبيّة إلى اليوم، ولأنّها تاريخياً من أبرز مظاهر العلاقات بين الشرق والغرب، لذلك لم يكن من اليسر البحث في تفاصيل أسبابها ودوافعها، بسبب تشعّب العلاقات والقوى والأحداث، وتداخل الأسباب مع بعضها البعض، وربما تكاملها في أحوال عديدة.

ولقد جاءت الأسباب الدينيّة لهذه الحروب واضحة ظاهرياً، وتجلّى ذلك من خلال عمليّة الإحياء الديني التي قامت في أوروبا، وإثارة البابويّة للحركة والحماسة الدينيّة من أجل أن تحقّق أهدافها المتنوّعة، وظهور رجالات أظهروا غيرة دينيّة حادّة، وترتّب على كلّ ذلك ظاهرة الحجّ الجماعي للأراضي المقدّسة.

وكان الصليب حاضراً في هذا الصراع الصليبي الإسلامي، لما له من دلالات عند المسيحيين، إذ استقرّ رأي المحرّضين على هذه الحروب، وعلى رأسهم البابا أوربان الثاني، على أن يحيك كلّ محارب صليبياً من القماش الأحمر على رداءه الخارجي من ناحية الكتف رمزاً للحركة التي اشترك فيها. وبالتالي جعلت هذه الحروب مقدّسة، وهذا مسمّى من مسمّيات الحرب التي أطلقها الغرب الأوروبي على الإسلام، وذلك منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي تقريباً، وارتبط مفهوم هذه الحرب المقدّسة بالحجّ، لذلك أوهمت البابويّة الناس بجعل أمر التوجّه إلى القدس أمراً إلهياً مقدّساً، وتوازت هذه النظرة المقدّسة للحروب مع سيطرة الكنيسة والفكر الديني على الحياة الأوروبيّة، وصارت تشكّل أعمالاً بطوليّة للمجتمع الأوروبي في العصور الوسطى.

وكانت ظاهرة الحجّ بادية في أسباب هذه الحروب، فكان عنوان الحجّ إلى القدس ومرادفاته هو النسبة الغالبة على المصنّفات التاريخيّة للأوروبيين في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، ممّن شاركوا في الحروب أو مدوّنو روايات المشاركين، لا سيّما مؤرّخي الحملة الأولى، وارتبط الحجّ بالتكفير والتوبة عند الكنيسة الكاثوليكيّة، لذلك شجّعت عليه البابويّة بهذا المعنى، وصارت كلمة حاج هي المعبر عن كلّ مسيحي متّجه لزيارة بيت المقدس، حتّى المحاربين منهم، بل وُصف الحجاج المسلّحين بأنهم شعب المسيح.

[١]- الربيعي: أثر الشرق، ص ٤٤، ٤٥.

وجرى تصوير الحروب الصليبية على أنها عملية تطهير كبرى ضد المسلمين وإبادتهم، فقد حث البابا أوربان الثاني المسيحيين على السعي بأقصى الجهود إلى تطهير المدينة المقدسة وإحلال العنصر المسيحي فيها بدلاً من المسلمين، فتّمت الدعوات إلى طرد المسلمين من فلسطين وتفريغ الأرض المقدسة من سكانها، لذلك ارتبط بهذه الحروب الطابع الدموي الذي ظهر منذ بداية المشروع الصليبي، فتكررت المذابح والمجازر الجماعية، وقتل الصليبيون عشرات الآلاف من السكان، أوضحها ما حدث خلال احتلالهم لمدينة القدس.

وظهرت الأسباب السياسية للحروب الصليبية من خلال طموحات البابوية السياسية، ومحاولة تقوية الكنيسة لمنافسة الإمبراطورية في الهيمنة على شؤون غرب أوروبا، ولتهيئة لمحاربة المسلمين.

وقد ساعدت التطورات الداخلية في أوروبا في شرعنة الحرب، فبعد سقوط روما سنة ٤٧٦م، حاولت الكنيسة الغربية فرض هيمنتها وتصوير الحرب أنها مشروعة.

وارتبط بالسبب السياسي مفهوم مصطلحي: الفرنجة والصليبيين، ومدى معلومات العرب المسلمين بموطن الفرنجة وقوتهم السياسية، وتمييزهم لمختلف الأقسام الرومية والحبشية والفارسية والتركية والصقالبية والفرنجية، ثم دور الفرنجة المهم سياسياً وعسكرياً واقتصادياً قبيل الحروب الصليبية القريب من المناطق الإسلامية، وكيف بدأت أوروبا تشهد تقدماً على حساب العرب والمسلمين، سواء في الأندلس على الجانب العسكري والسيطرة على تجارة البحر المتوسط على الجانب الاقتصادي.

ثم كان من الأسباب السياسية النداءات البيزنطية للبابوية جرّاء توسّع السلاجقة في آسيا الصغرى بعد معركة ملاذكرد التي انتصر فيها السلاجقة على الجيش البيزنطي.

وثبت أنّ من أهم أسباب الحروب الصليبية ميزان القوى قبيلها المتعلّق بالقوى الناشطة آنذاك على مسرح الأحداث، وهي: الخلافة العباسية، والقوى الموجودة في بلاد الشام، والخلافة الفاطمية، والسلاجقة، والبيزنطيين، وقد أدّت هذه القوى في العالمين الشرقي والغربي دوراً فعّالاً في أحداث المنطقة قبيل الغزو الصليبي، كان له أبرز الأثر في حدوث الحروب الصليبية.

وكان هدف السيطرة على بيت المقدس بادياً بأسباب الحروب الصليبية، وظهر واضحاً في

تصريحات كلِّ مَنْ أثار هذه الحروب، وخاصة البابا وبطرس الناسك، وغلّف ذلك بغلاف عاطفي ديني مقدّس، وقد ارتبط بذلك قضية التشجيع وبطرق شتى على الهجرة الغربية إلى القدس، خاصة بعد النجاح الذي حقّته الحملة الصليبية الأولى، وقد عمل الصليبيون على تثبيت أنفسهم في القدس بعد احتلال الأراضي المقدسة بطرق مختلفة.

وظهر من أسباب الحروب الصليبية قضايا الإقطاع - الاستيطان - الهجرة والتهجير، فالروح الإقطاعية بدت واضحة في حملة الفرسان، ولم يوفر الصليبيون جهداً في تعزيز ذلك وبطرق وقوانين متنوعة عديدة.

وكانت الحروب الصليبية، في نشأتها وأهدافها، مرتبطة بالأرض المقدسة والمنطقة العربية، وبالأهداف الاستعمارية الاستيطانية والتغيير الديموغرافي، وبالتالي شكّلت الأرض على الدوام أحد أهم أهداف الغزو الصليبي بشكل عام، وغزو فلسطين بشكل خاص؛ بصفته مشروعاً إقطاعياً استيطانياً، قوامه استقدام المهاجرين الأوروبيين وإحلالهم في الأراضي العربية والفلسطينية محل أصحابها الأصليين؛ وقد جاء التصريح بذلك على لسان البابا في مجمع كليرمونت، وأيد بروز هذا السبب عدد من المؤرّخين الغربيين، أمثال جروسيه، وبرنارد لويس، وهنري وليم، كارلز ديفز، ويوشع براور.

وقد رأى عدد من المؤرّخين أنّ الحروب الصليبية ليست سوى الحلقة الأخيرة في سلسلة الهجرات الكبرى التي صاحبت انهيار الإمبراطورية الرومانية في الغرب عام ٤٧٦م، وارتبط بالهجرة عمليات التهجير للسكان منذ الحملة الصليبية الأولى، وارتكاب المجازر بحقهم، ومصادرة عقاراتهم، وإحلال المهاجرين الغازين مكانهم؛ حتى كادت فلسطين تخلو من سكانها الأصليين الذين تفرّقوا في البلاد.

وظهرت الأسباب الاقتصادية للحروب الصليبية من وجوه عدّة، منها حالة التكاثر البشري التي سادت أوروبا، وتزايد القوى الحربية، وكثرة عدد الفرسان دون عمل أو إقطاع، وخطاب البابا أمام الجموع عن الأوضاع الاقتصادية المتردية التي كانت تعيشها أوروبا.

ومن الأسباب ظهور حركة اقتصادية في أوروبا تبحث عن الموارد، قادتها مجموعة من المدن التي صارت تحرّض على الحروب الصليبية، وقد حرّك الباعث الاقتصادي القوى البحرية الإيطالية نحو المشاركة في هذه الحروب.

وقد أدت نهضة القرن الثاني عشر في أوروبا إلى محاولة القوى البشرية الأوروبية إيجاد مخرج لها من الضائقة الاقتصادية العامة.

ولعلَّ السبب الحضاري كان حاضرًا في الحروب الصليبية، كوجه من وجوه الصراع بين حضارتين أو ثقافتين مختلفتين، وزاد من حدة هذا الصراع الخلاف الديني بين الإسلام والمسيحية، وظهر لدى بعض الروى أنَّ الحضارة العربية الإسلامية كانت العدو الحقيقي للبابوية، في حين ظهرت آثار اللقاء الغربي بالشرق العربي الإسلامي واضحة في جوانب علمية وفنية كثيرة.

وفي ختام الكلمات، نوّكد على أنَّ أسباب الحروب الصليبية جاءت نتاجًا لمجموعة عوامل متشابكة ومعقدة، وأنَّه لا يمكن تفسيرها في ضوء عامل واحد أو مجموعة عوامل محدّدة، وهذا يعطي صعوبة في الوصول إلى رؤية كاملة ودقيقة عن هذه الأسباب، ممّا يعطيها أبعادًا كثيرة ومتشعبة لا يجوز إهمالها أو التغاضي عنها.

## قائمة المصادر والمراجع

### \_ المصادر

١. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم ت ٦٣٠هـ: الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٧م.
٢. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي ت ٥٩٧هـ: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمّد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط١، ١٩٩٢م.
٣. ابن العديم، عمر بن أحمد ٦٦٠هـ: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، ط٢، ٢٠٠٦م.
٤. ابن جبير، محمّد بن أحمد الكتاني ت ٦١٤هـ: تذكرة بالأخبار في اتفاقيات الأسفار، علّق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.
٥. ابن خلدون، عبد الرحمن ت ٨٠٨هـ: مقدّمة ابن خلدون مع التاريخ، ضبط المتن ووضع الحواشي: خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، ٢٠٠١م.
٦. ابن شداد، بهاء الدين ت ٦٣٢هـ: النوادر السلطانيّة والمحاسبة اليوسفيّة، دار المنار، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م. + مطبعة محمّد صبيح، القاهرة، مصر، ١٣٤٦هـ، تصحيح: محمّد الرخاوي.
٧. ابن كثير، إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤هـ: البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط١، ١٩٩٨م.
٨. أبو شامة، شهاب الدين أبو محمّد ت ٦٥٥هـ: الروضتين في أخبار الدولتين النوريّة والصلاحية، والذيل، قدّم له وعلّق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
٩. أبو يعلى حمزة، ابن القلانسي ت ٥٥٥هـ: ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ط١، ١٩٠٨م.
١٠. أنا كومينا ت ٥٤٦هـ / ١١٥٣م: الأليكسياد، ج٦، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكّار، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٥م.
١١. أودو أوف دويل: رحلة لويس السابع إلى الشرق، ج٧، الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبيّة، ترجمة: سهيل زكّار، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٣م.
١٢. البنداري، الفتح بن علي الأصفهاني ت ٦٤٣هـ: تاريخ دولة آل سلجوق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣، ١٩٨٠.
١٣. الحسيني، صدر الدين بن علي ت ٦٢٢هـ: أخبار الدولة السلجوقيّة، اعتناء: عبّاس إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٤.

١٤. ريمون دي سان جيل ت ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م: تاريخ الفرنجة، ج ٦، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٥ م.
١٥. سايلوف، رحلة الحاج سايلوف لبيت المقدس والأرض المقدسة ١١٠٢-١١٠٣ م، ترجمة: سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمّان، ط ١، ١٩٩٧ م.
١٦. سبط ابن الجوزي، يوسف ت ٦٥٤ هـ: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق: مسفر الغامدي، السعودية، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٩٨٧ م. + مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، ط ١، ١٩٥١ م.
١٧. السمعاني، عبد الكريم بن محمد ت ٥٧١ هـ: الأنساب، وضع حواشيه محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.
١٨. ابن الطوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام ت ٦١٧ هـ: نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، النشرات الإسلامية، شتوتغارت، ١٩٩٢.
١٩. فوشيه الشارترى ت ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م: تاريخ الحملة على القدس ١٠٩٥-١١٢٧ م، ترجمة: زياد العسلي، عمّان، دار الشروق، ط ١، ١٩٩٠ م.
٢٠. القلقشندي، أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
٢١. المقرئزي، أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، سعيد عبد الفتاح عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٤-١٩٧٣ م.
٢٢. المؤرّخ المجهول: يوميات صاحب أعمال الفرنجة، ج ٦، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٥ م.
٢٣. مؤلّف مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس كتب الكتاب حوالي ٤٨٩-٤٩٣ هـ / ١٠٩٥-١٠٩٩ م، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة، ١٩٥٨.
٢٤. ابن ميسر، محمد بن علي ت ٦٧٧ هـ: أخبار مصر، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨١ م.
٢٥. وليم الصوري ت ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م: الحروب الصليبية ١٠٩٤-١١٨٤ م، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة، مؤسسة الأهرام للنشر، ١٩٩١ م.
٢٦. وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٣ م.
٢٧. يوحنا فورزبورغ ت ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م: وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ترجمة: سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمّان، ١٩٩٧ م.

## المراجع

١. أحمد غسان سبانو: الحجّ الى بيت المقدس، نصوص تاريخيّة من العصور الوسطى، جمع وترجمة وتحليل، مخطوط غير منشور.
٢. أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربيّة، بيروت ١٩٧٢.
٣. أرنست باركر: الحروب الصليبيّة، ترجمة: السيّد الباز العريني، بيروت، دار النهضة العربيّة، ط٢، ١٩٦٧م.
٤. أنس المحمّد: الحياة الاجتماعيّة في القدس في عصر المماليك على ضوء وثائق الحرم القدسي الشريف، رسالة ماجستير، إشراف الدكتور عمّار النهار، جامعة دمشق، ٢٠١٠م.
٥. السيّد الباز العريني: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٨.
٦. السيّد الباز العريني: مؤرّخو الحروب الصليبيّة، دار النهضة العربيّة، القاهرة، ١٩٦٢.
٧. أمجد الهندي: دور العرب في تقدّم علوم الطبّ، دار سعاد الصباح، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
٨. بنيامين التطيلي: الرحلة، ترجمة: عزار حداد، بغداد، ١٩٤٩م.
٩. بول هازار: الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر من منتسكيو إلى لسينج، ترجمة: محمّد غلاب، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩.
١٠. توماس ماستناك: السلام الصليبي، ترجمة: بشير السباعي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
١١. تيسير بن موسى: نظرة عربيّة على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبيّة حتّى وفاة نور الدين، الدار العربيّة للكتاب، ١٩٨٣.
١٢. ثيودريش: وصف الأماكن المقدّسة في فلسطين، ترجمة: سعيد البيشاوي، رياض شاهين، دار الشروق، عمّان، الأردن، ط١، ٢٠٠٣م.
١٣. جلال حسني سلامة: الاستيطان الصليبي في الأراضي المقدّسة ١٠٩٩-١١٨٧م / ٤٩٢-٥٨٣هـ أطروحة دكتوراه غير منشورة، كليّة البنات للآداب والعلوم والتربية، جامعة عين شمس، القاهرة، ٢٠٠٤م.
١٤. جوانفيل، القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨.
١٥. جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، ١٩٨٩م.
١٦. جوزيف نسيم يوسف: الوحدة وحركات اليقظة العربيّة إبّان العدوان الصليبي، مؤسّسة شباب الجامعة، الإسكندريّة، ١٩٨٨م.
١٧. جوزيف نسيم يوسف: في تاريخ الحركة الصليبيّة، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، ١٩٨٩.
١٨. جوناثان رايلي سميث: الحملة الصليبيّة الأولى وفكرة الحروب الصليبيّة، ترجمة: محمّد فتحي الشاعر،

- الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٩.
١٩. حبيب زيات: الصليب في الإسلام، الكنيسة البولسية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥.
٢٠. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، بيروت، دار الجيل، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط١٤، ١٩٩٦م.
٢١. رواية روبر الراهب عن مجمع كليرمونت، رواية جيويرت النوجنتي عن مجمع كليرمونت، ترجمة: قاسم عبده قاسم، نصوص ووثائق.
٢٢. رياض شاهين، حسام الأغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ٢٠٠٧.
٢٣. ريموند أجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة: حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٠م.
٢٤. زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، بيروت، ١٩٥٨م.
٢٥. ستيفن رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العريني، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧م.
٢٦. سعيد الحريري: الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، القاهرة، الإعلام العربي، ط٣، ١٩٨٥م.
٢٧. سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، القاهرة، المكتبة الأنجلومصرية، ط٤، ١٩٩٧م.
٢٨. سعيد عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، القاهرة، دار القلم، ١٩٦٤م.
٢٩. سعيد عاشور: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٧١م.
٣٠. سمير صالح حسن العمر: الحروب الصليبية تطوّر المصطلح والمفهوم، جامعة الكوفة، كلية الآداب.
٣١. سهيل زكار: تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق ١٩٩٠م.
٣٢. شاكر مصطفى: موسوعة دول العالم الاسلامي ورجالها، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣م.
٣٣. طه أبو عيبة: الحضارة الإسلامية دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٤م.
٣٤. عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٥م.
٣٥. عبد الجليل عبد المهدي: المدارس في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨١م.
٣٦. عبد الهادي التازي: أوقاف المغاربة في القدس، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ١٩٨١م.

٣٧. عبد الله الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، الرياض، ١٩٩٤م.
٣٨. عبد المعين الشواف: دمشق بين سقوط الفاطميين وظهور الأيوبيين، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، ٢٠٠٨.
٣٩. عبد المنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ١٩٦٦.
٤٠. عزيز سوريال عطية: الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة: فيليب صابر سيف، القاهرة، دار الثقافة، ط ٢.
٤١. عمّار النهار، فوزي مصطفى: تاريخ العصر العباسي والأندلسي، مطبعة جامعة دمشق، ٢٠١١، ٢٠١٢م.
٤٢. فرديناند شيفل: الحضارة الأوروبية في القرون الوسطى وعصر النهضة، ترجمة: منير بعلبكي، بيروت، ١٩٥٢.
٤٣. قاسم عبده قاسم: أثر الحروب الصليبية على العلم العربي، سكانياً، اجتماعياً، سياسياً، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٩٥م.
٤٤. قاسم عبده قاسم: الحملة الصليبية الأولى، نصوص ووثائق تاريخية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠١م.
٤٥. قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت، ط ٢، ١٩٨٨.
٤٦. قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٣.
٤٧. قصي الحسين: موسوعة الحضارة العربية، العصر المملوكي والعثماني، بيروت، دار البحار، ٢٠٠٤م.
٤٨. كامل العسلي: معاهد العلم في بيت المقدس، مطبعة جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨١م.
٤٩. كلود دلماس: تاريخ الحضارة الأوروبية، ترجمة: توفيق وهبة، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٧٠.
٥٠. المجلة الجزائرية للدراسات والأبحاث، العدد ١، مج ٥، ٢٠٢٢م، بحث: العناصر الهامشية المنحرفة خلال عصر الحروب الصليبية، للصوص نموذجاً: أشرف صالح محمد سيد.
٥١. محمد عبد الحافظ النقر: التغيرات الإدارية والعمرانية والسكانية في مدينة القدس في فترة الصراع الإسلامي الإفرنجي أعمال مؤتمر بلاد الشام، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، ط ١، ١٩٩٩م.
٥٢. محمد صالح منصور: أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٩٦.
٥٣. محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية، السياسية، المياه، العقيدة، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط ١، ٢٠٠١م.
٥٤. محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات والبحوث

- الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠٠م.
٥٥. محمد نور الدين أفاية: الغرب المتخيل صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٠م.
٥٦. محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠م.
٥٧. محمود محمد الحويري: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٩٢م.
٥٨. مصطفى وهبة: موجز تاريخ الحروب الصليبية، المنصورة، مكتبة الإيمان، ط١، ١٩٩٧م.
٥٩. مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب، ترجمة: مكسيموس مظلوم، طبع أورشليم في دير الرهبان الفرنسيين، ١٨٦٥م.
٦٠. ميخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق، ترجمة: إلياس شاهين، موسكو، دار التقدم، ١٩٨٦م.
٦١. نقولا شحادة الخوري: تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية، مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٥م.
٦٢. هاني مبارك وشوقي أبو خليل: دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٩٦م.
٦٣. يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، مملكة بيت المقدس، ترجمة: عبد الحافظ البنا، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.
٦٤. يوشع براور: عالم الصليبيين، ترجمة وتعليق: قاسم عبدة قاسم ومحمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٩م.
65. Prawer, Jusha: The Sattlement Of the Latins In Jerusalem, Speculum 1952. Vol 27.
66. British School of Archaeology, the Architectare of Islamic Jresalam An Exhibition Prepared on the Occasion of the World of Islam Festival, London, 1976. Jerusalem, 1976.
67. Geddie, Williom, Chambers twelve century Dictionary London – 1959.
68. Greatz , Heinrich: History of the jews , London, 1982.
69. rant, A,J. A hisroty of Europe, The Middle age vol: II, London – 1927.
70. Wright. John kirt land. the geographical Lore of the time of the crusade - American Geographical society, New York - 1925.

# نظرة تاريخية نقدية للحملات الصليبية الرئيسية

## الآثار والنتائج

ناديا محمد زهير الغزولي [\*]

### الملخص

تمتد الحملات الصليبية الرئيسية المتوجهة إلى بلاد الشام ما بين عامي ١٠٩٥-١٢٩١م. والقاسم المشترك بينها جميعاً عنوان ظلم الآخر والاعتداء عليه وسلبه حقوقه الطبيعية، ولهذا نجد في كل حملة أنّ السبيل الوحيد المتبع لاستمرار تواجد الصليبيين في البلاد والمدن ارتكاب المجازر الجماعية بحق أهلها الأصليين، وإضرار النيران في المدن للحصول على الأسلاب، ثم القيام بسلسلة من الغارات السريعة على الأراضي المجاورة لهذه المدن بهدف الحصول على المؤن ومن ثمّ تخريبها. لذلك أخذ البحث بعين الاعتبار تبدل طابع الفكرة الصليبية واتساع رقعة حروبها، وممارساتها غير الإنسانية التي أعطتها طابع التعصب والعنف.

ومن الواضح أنّ هذه الحروب والحملات تمثل روح العالم الغربي الوسيط والأفكار السائدة فيه في الدين والحرب؛ الأولى مثلتها قوّة الكنيسة المسيطرة في تلك القرون، والثانية مثلها النظام الإقطاعي.

وإنّ النظرة التقليدية لأسباب قيام الحرب الصليبية جعلت السبب الديني هو الأساس في قيامها، فهو حجّ مسلّح، هدفه تحرير القبر المقدّس في كنيسة القيامة، ومع أنه لا يمكن إنكار العامل الديني، القائم على استغلال الدين والتعصب المقيت، ولكن هذا لا يخفي الأسباب الأخرى لهذه الحروب، كالمصالح والأطماع الاقتصادية، والسياسية. أمّا سياسياً، فقد وجدت البابوية فيها وسيلة ناجحة لتوجيه الغرب نحو وجهة واحدة، حيث تمكّنت من خلالها من تحقيق سياسة واحدة مهيمنة على مقدّرات القوى السياسية، والواقع أنّ الحرب هي الغرض الأساسي الذي قامت لأجله الحملات الصليبية، فالحرب كانت أساس الحياة في الإمارات التي أقيمت في الشرق العربي. ومن أجل هذه الحرب ارتكب الصليبيون العديد من الجرائم الدموية. إنهم همج أتوا لتدمير حضارة الشرق التي احتاجت لقرنين من الزمان لتتمكّن من التأثير على طباع هؤلاء المحاربين فتهذبها إنسانياً وأخلاقياً.

كلمات مفتاحية: الحملات الصليبية، البابوية، الحج المسلّح، بلاد الشام، الشرق.

\*- دكتوراه في تاريخ العرب والإسلام، مديرة المركز الوطني لتطوير المناهج التربوية في الجمهورية العربية السورية.

## مقدمة

رغم اتفاق الحرب الصليبية مع غيرها من الحروب إلا أنها تختلف في طبيعتها وخصائصها، فلها مقوماتها والأسس التي تركز عليها، ويمكن تحديد المقصود بالحركة الصليبية<sup>[١]</sup> وفقاً لوجهة النظر التي انطلقت لدراستها.

فعدّ بعض المؤرخين هذه المصادمات العسكرية أنها الصراع التقليدي القديم بين الشرق والغرب رُبط بالعامل الحضاريّ، فهو صراع بين حضارتين مختلفتين وعقليتين متباينتين، بدأت من خلاله أوروبا مزاحمة السيطرة العربية المتفوّقة في البحر المتوسط، أو أنّها انطلاقة كبرى نتجت عن عملية الإحياء الديني، وحركة الإصلاح الكلونيّة التي ترتب عليها عودة البابوية إلى سطوتها القديمة السابقة، وتحقيق نوع من الإشراف المركزيّ على الكنائس كافة، فكانت الدعوة للحجّ عام ١٠٩٥ م استمراراً لحركة الحجّ الجماعيّ إلى بيت المقدس مع تطوّر في الأسلوب؛ إذ أصبح الحجّ حربياً بعد أن كان سلمياً، فهي بهذا التصوّر حدّدت طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب في تلك العصور وفقاً للسياسة الخارجية للبابوية<sup>[٢]</sup>، على اعتبار الدور البارز الذي قامت به من الإعلان عنها والإشراف عليها. إذأ هي جدال العالم<sup>[٣]</sup>، فهي تمثّل حرباً عالميّة في تلك المرحلة، تمهيداً لتطوّر فكرة الاحتلال الأوروبيّ في العصر الحديث<sup>[٤]</sup>.

وجعل فريق من المؤرخين الحركة الصليبية وسيلة تحايل بها الغرب للخروج من أوضاع العصور الوسطى، وللانطلاق إلى حياة أوسع، فقد حقّقت هذه الحروب أمنيات الناس في الوصول إلى حياة

[١]- الحروب الصليبية: أتت هذه التسمية من معنيين: الأوّل إشارة إلى صليب صغير أحمر مصنوع من القماش كان يلصق على الكتف الأيمن للفارس المزمع السفر إلى بلاد الإسلام للحرب. والثاني ترجمة لكلمة مستعملة في اللغة الإنكليزية من أصل لاتيني Crusades تعني الحروب أو الحملات التي شنها مسيحيو أوروبا في سبيل استرداد الأرض المقدّسة. المؤرّخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجّاج بيت المقدس، تر: حسن حبشي، المملكة العربية السعودية، ١٩٥٨ م، ص ١٨. محمّد ماهر حمّادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ٤٨٩-١٢٠٦هـ/١٠٩٦-١٤٠٤ م «دراسة ونصوص»، سلسلة وثائق الإسلام ٥، بيروت، ط ٢، ١٩٨٢ م، ص ١٩. حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلاميّة في مواجهة المخططات الصليبيّة جبهة الشام وفلسطين ومصر، دار السلام، ٢٠٠٧ م، ص ٨٣. سهيل زكار، الحروب الصليبية الحملتان الأولى والثانية حسب روايات شهود عيان كتبت أصلاً بالإغريقية والسريانية والعربية واللاتينية، دمشق، ط ١، ١٩٨٤ م، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، ص ١٩٢.

[٢]- أرنست باركر، الحروب الصليبيّة، تر: السيّد الباز العريني، بيروت، ط ٤، ١٩٦٧ م، ص ٣.

[٣]- ستيفن رنسيان، تاريخ الحروب الصليبيّة، تر: السيّد الباز العريني، لبنان، ١٩٩٧ م، ج ١.

[٤]- يوشع براور، عالم الصليبيين، تر: قاسم عبده قاسم، محمّد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، ط ١، ١٩٩٩ م. ص ١٠. محمّد مؤنس عوض، الحروب الصليبيّة، العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين ١٢-١٣م/٦-٧هـ عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، ط ١، ٢٠٠٠ م، ص ١٢-١٣.

أفضل حتى كانت تؤيدها الكنيسة والبابوية<sup>[١]</sup>، فقد كانت ترى فيها وسيلة ناجحة من أجل توجيه الغرب الأوروبي من خلال هيمنتها على المقدرات السياسية<sup>[٢]</sup>. ورغم تبدل الفكرة الصليبية على مدار قرنين من الزمان، وظهور هذا التبدل والتطور فيها عبر الحملات الصليبية الرئيسة، إلا أن الممارسات واحدة، فكان العنف صفة مميزة للمرحلة، تحول فيها سفك الدماء إلى ما يشبه الجنون العام والصفة الغالبة، وهذا إن دل على شيء فهو دليل العجز وليس القوة<sup>[٣]</sup>.

## أولاً: الحملة الأولى

### ١. الفكرة

ظهرت في الحروب الصليبية رؤية كل فريق «للاخر» وتبلورت نتيجة التلاحم العسكري والاحتكاك الحضاري بشتى جوانبه، وتعدّ الحملة الصليبية الأولى الفصل الأساس في تاريخ هذه الحركة، ففيها تبلورت الفكرة الصليبية نفسها، وحققت نجاحاً منقطع النظير، وترتب عليها الكثير من الآثار الخطيرة<sup>[٤]</sup>، تتعلق بالأسس والممارسات التي اتبعتها الصليبيون في هذه الحملة وجعلتها الحملات اللاحقة قواعد وقوانين سارت عليها ظناً منها أنها الأسلوب الواجب تنفيذه لتحقيق نتائج الحملة الأولى نفسها، سواء لديهم أكانت هذه الممارسات منطقية أو لاإنسانية.

وإذا عدّ عام ١٠٩٥م/١٠٩٥هـ عامًا لبداية الحروب الصليبية، فإنه لا يمكن الأخذ بهذا التحديد الزمني الجاف؛ لأنّ روح هذه الحركة وصفاتها كانت موجودة في الغرب قبل ذلك بعشرات السنوات، ولم يكن ينقصها سوى أن تصطبغ بالصبغة الرسمية، وأن يوجد من يعلن مولدها، وهذا ما فعله البابا أوربان الثاني (٤٨١-٤٩٣هـ / ١٠٨٨-١٠٩٩م) عندما بشر بتلك الحركة في مجمع

[١]- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ج١، القاهرة، ط٢، ١٩٧١م، ص٢١-٢٤.

[٢]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص٢١.

[٣]- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، نقله للعربية: سهيل زكار، دار الفكر، ط١، ١٩٩٠م، ج١، ص٢٨٢-٣١٤-٣٢٩، ج١، ص٤٣٦. متى الرهاوي، تاريخ متى الرهاوي الإفرنج الصليبيون، المسلمون، الأرمن، تر: محمود الرويض، عبد الرحيم مصطفي، الأردن، ٢٠٠٩م، ص٤٥. ابن الأثير عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرام، الكامل في التاريخ، حققه: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ٢٠١٢م، ج٨، حوادث سنة ٤٩٢هـ. ابن القلانسي حمزة بن أسد بن علي بن محمّد التميمي، تاريخ دمشق ٣٦٠-٥٥٥هـ، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان، ط١، ١٩٨٣م، ص١٣٧. سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٩١م، ص١٩٦.

[٤]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج١، ص٢-١.

[٥]- جعل ابن القلانسي عام ٤٩٠هـ هو بداية الحملات الصليبية فقال: «وفي هذه السنة كان مبدأ تواصل الأخبار بظهور عساكر الأفرنج من بحر القسطنطينية...». ابن القلانسي، المصدر السابق، ص٢١٨.

كليمونت، الذي دعا فيه إلى حمل الصليب للاستيلاء على فلسطين وتأسيس ممالك لاتينية فيها<sup>[١]</sup>، وتلبيةً لنجدة الأباطرة البيزنطيين بعد خسارة معركة ملازكرد عام ١٠٧١م<sup>[٢]</sup>، فكان كتاب الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس إلى البابا أوربان مفتاح العمل الذي أدى إلى الحملة الأولى<sup>[٣]</sup>.

اللائق للنظر هو ما طرأ من تطوّر على الفكرة الصليبية نفسها، فإذا كانت انطلقت من البابوية وتحت رعايتها في الحملة الأولى، فإنّها في الحملة الثالثة أصبحت من اختصاص السلطة المدنية، حيث بدأت الحكومة تتولّى تنظيمها على أساس نظام الضرائب، وعلى أساس المفاوضات<sup>[٤]</sup>. وهنا بدأت البابوية تقف موقف المناوئ للحملة الصليبية، حيث تحوّلت قيادتها من يد الأمراء إلى يد الملوك، باستثناء الحملة السابعة؛ لأنّ قائدها كان الملك لويس الذي يُعدّ قديسًا<sup>[٥]</sup>.

ونتيجة هذا التغيير ظهرت بوضوح المطامع الدنيوية للحملة، إذ تحكّمت البواعث الاقتصادية والسياسية والشخصية بالحملة المنحرفة<sup>[٦]</sup>، حيث آمن غرب أوروبا بأنّ مصر يجب أن تكون الهدف الأوّل للحملة الكبرى التي تخرج إلى الشرق؛ لأنّها مخزن الإمدادات وحجر الزاوية بالنسبة للمشروعات الصليبية<sup>[٧]</sup>، وهذا ما حدث في الحملة الخامسة.

وقد أثر تغيّب الدافع الديني في تراجع الحركة الصليبية، يؤكّد ذلك تشكيك المفكرين الأوروبيين في جدوى هذه الحرب، فيقول متى الباريزي أنّ بابا روما لم يكن يعنيه التبشير بحملة صليبية إلاّ بالقدر الذي يخدم أطماعه ويحقّق مصالحه العلمانية، ويسخر الشاعر رتيف الفرنسي من رجال الدين الذين جعلوا من الحرب الصليبية وسيلةً لابتزاز الأموال وتحقيق أطماعهم في الشرق، ومما ساهم في نبذ فكرة الحرب المقدّسة تأقلم الفرنجة المقيمين في الشرق مع الحياة الشرقية وخلافهم مع القادمين الجدد الراغبين في امتلاك الأراضي والإقطاعات<sup>[٨]</sup>.

[١]- وصف أوربان في خطبته بيت المقدس بقوله: «إنّ أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباحج...». محمّد ماهر حمادة، وثيقة خطاب البابا أوربان الثاني، المرجع السابق، ص ٩٩-١٠٠.

[٢]- ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، حوادث سنة ٤٦٣هـ. وثيقة رسالة ألكسيس كومنين الأوّل إلى روبرت أمير الأراضي الواطئة عام ١٠٨٨م. من كتاب محمّد ماهر حمادة، المرجع السابق، ص ٩٧.

[٣]- هـ.ل. فيشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، تر: محمّد مصطفى زيادة، السيّد الباز العربي، مصر، ط ٣، ١٩٥٧م، ص ١٧٤. MARGARET RUTH MORGAN, DOCUMENTS SELATIFS A L'HISTOIRE DES CROISADES PIBLES PAR L'ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLES - LETTRES, XIV, LA CONTINUATION DE GUILLAUME DE TYR 11841197-, PARIS, 1982, P

[٤]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص ٩٣. نعمان الطيّب سليمان، منهج صلاح الدين في الحكم والقيادة، ط ١، ١٩٩١م، ص ٣٢٩.

[٥]- رأفت عبد الحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، ط ١، ١٩٩٨م. ص ١١.

[٦]- ستيفن رنسيان، المرجع السابق، ج ٣، القسم الأوّل، ص ٩.

[٧]- سعيد عبد الفتّاح عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤م، ص ٣٧.

[٨]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ٨٤-٩٩.

والتطور الآخر والأكثر عمقاً لفكرة الحركة الصليبية تمثل في إضفاء المظهر الديني والدبلوماسي للحملات، وقد ظهر ذلك جلياً في الحملة السادسة؛ إذ تصرف الملك فريديك بروح ملك صقلية لا بروح ملك بيت المقدس<sup>[١]</sup>؛ إذ عبر فريديك عن موقف الرجال الأحرار، فكان أقلّ خضوعاً للكنيسة التي كانت تبتعد شيئاً فشيئاً عن التعاليم المسيحية<sup>[٢]</sup>.

لتؤكد الحملة الثامنة التطور الاقتصادي والفكري للفكرة الصليبية، فكانت أصدق تعبير عن الدوافع الاقتصادية والسياسية والتنصيرية، فاختارت أن تكون وجهتها تونس.

أثرت هذه التغييرات على جوهر فكرة الحروب الصليبية؛ إذ لم يرَ أنصار البابوية من داع للقيام برحلة شاقّة إلى الشرق بعد الحملة الثامنة<sup>[٣]</sup>، ترافق ذلك بولادة أفكار جديدة لدى الأطراف الأوروبية والطرف المملوكي أدت إلى نوع جديد من العلاقات الدولية الدبلوماسية التجارية، فوظف الممالك سلسلة من التحالفات والمعاهدات مع مصدري التحدي، المغول والقوى المسيحية، وفي مواجهتها في الوقت نفسه؛ وذلك من أجل إصابة هدفين: تحجيم الأثر السلبي لمغول فارس، وتصفية بقايا الوجود الصليبي<sup>[٤]</sup>. إلا أن الصراع السياسي والعقدي بين الطرفين لم ينته، لكنّه أفرز أدوات جديدة لإدارته<sup>[٥]</sup>، لكنّه أدى في النهاية إلى انتهاء الصورة التقليدية للحروب الصليبية.

## ٢. الدوافع

مهما كان أصل فكرة الحركة الصليبية فهناك عوامل متعدّدة ومتشابكة ساهمت في قيامها، ويُعدّ الدافع الشخصي من أبرز هذه العوامل<sup>[٦]</sup>، فالثابت تاريخياً أنّ المسؤول الأوّل وصاحب الدور الرئيس في تحقيق الفكرة هو البابا أوربان الثاني<sup>[٧]</sup>، حيث كان على علم بالأوضاع السائدة في العالم

[١]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص ١١٥.

[٢]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٠.

[٣]- ستيفن رنسيان، المرجع السابق، ج ٣، القسم الثاني، ص ٥٨٠.

[٤]- نادية محمود لطفى، العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية، العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٦م، ص ٢٣. محمّد سهيل طقوش، تاريخ الممالك في مصر وبلاد الشام، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧م، ص ١٨٠.

[٥]- نادية لطفى، المرجع السابق، ص ٣٨.

[٦]- ظهرت عدّة نظريات نسبت قيام الحركة الصليبية لشخص دون آخر، من هذه النظريات أنشودة رولان وقصيدة حجّ شارلمان، وهما أسطورتان بعيدتان عن الحقيقة، بينما يُعدّ خطاب الإمبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين إلى روبرت أمير الأراضي الواطئة أسطورة أو وثيقة مزوّرة، وهناك أساطير قامت حول زعماء الحملة الأولى مثل بطرس الناسك، ذاعت هذه الأساطير في الغرب طيلة الحروب الصليبية بقصد التسلية وإثارة الهمم. وليم الصوري، المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٧. جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ٥١-٥٥.

[٧]- فوشيه الشارترى، الاستيطان الصليبي في فلسطين تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ١٠٩٥-١١٢٧م، تر: قاسم عبده قاسم، طبعة الشروق الأولى، ٢٠٠١م، ص ٨١.

العربي ودولة الروم، فبذل جهده في سبيل الدعوة لعقد مؤتمر كليرمونت، وتوجّ عمله بإعلان هذه الحركة عام ١٠٩٥م، وحمل الجميع شارة الصليب<sup>[١]</sup>، وتولّى قيادة الحملة أحد رجال الكنيسة لي بويه، وهو دليل على خضوع الحملة لإشراف الكنيسة مباشرة. من هنا، وعلى هذه الأسس، نظر إليها المؤرّخون الغربيون على أنّها حروب دينية<sup>[٢]</sup>، إضافة إلى أنّ مخاطبة البابا الفرسان دون الملوك أثناء خطبته تعني صراحة إعلان الحرب على السلطة الزمنية في أوروبا<sup>[٣]</sup>، وأنّه هو المسؤول عن هذه الحملات، وليس معنى هذا أنّ التيّار الدينيّ هو المسؤول الوحيد عن إثارة هذه الحركة؛ لأنّه بالنظر لتطور الفكرة الصليبية، نجد أنّ الباعث الدينيّ كثيراً ما ذاب وسط التيارات السياسيّة والاقتصاديّة<sup>[٤]</sup>.

تواءمت دعوة أوربان الثاني مع طموحات رجال الدين والعلمانيين، ويرجع ذلك لظاهرة العنف التي شهدتها فرنسا في القرن العاشر الميلاديّ، فقد قامت فرنسا في الحروب الصليبيّة مقام الروح من الجسد، وغدا فرسانها نموذجاً لغيرهم من الفرسان الأوروبيين<sup>[٥]</sup>، فالمجتمع الفرنسيّ كان ميالاً للعنف الذي أدّى إلى سيطرة مبدأ الرغبة في الحرب، فعندما توقفت الإمبراطوريّة الكارولنجيّة عن التوسّع، تحوّل محاربوها للدفاع عن فرنسا، لكنّ الجماعات المسلّحة المحليّة لم تتفكك بل وجّهت نشاطها نحو مهاجمة المزارعين العاديين في المناطق المجاورة.

ويميل جوناثان ريلي -سميث إلى الاعتقاد بأنّ رسالة أوربان التاريخيّة كانت تقليديّة، فهي لم تكن تختلف عن كثير من الرسائل التي قدّمها مصلحو الكنيسة في ذلك الحين<sup>[٦]</sup>، لكنّها طرحت أمام المجتمع الأوروبيّ هدفاً عاماً يمكن لكلّ قوّة من القوى الفاعلة في هذا المجتمع أن تعبّر عن نفسها من خلاله<sup>[٧]</sup>، فكانت بيت المقدس الهدف الذي يسعى المؤمنون للوصول إليه، لذلك كانت استجابة العلمانيين إيجابية<sup>[٨]</sup>. وقد رأى ملوك وأباطرة الطبقة الحاكمة في المشروع الصليبيّ

[١]- المؤرّخ المجهول، خطبة أوربان، من كتاب قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبيّة الأولى نصوص ووثائق تاريخيّة، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، ٢٠٠١م، ص ٧٧.

[٢]- فوشيه دي شارتر، المصدر السابق، ص ٨٠. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، تر: حسين عطية، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص ٥٤. وليم الصوري، المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٨-١٧٣. أرست باركر، المرجع السابق، ص ٩-٢٢. ستيفن رنسيان، المرجع السابق، ج ١، ص ١٦٤.

[٣]- رأفت عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٦.

[٤]- سعيد عبد الفتّاح عاشور، الحركة الصليبيّة، ص ٢٨.

[٥]- فشر، المرجع السابق، ص ١٧٩.

[٦]- جوناثان ريلي - سميث، المرجع السابق، ص ١١.

[٧]- قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبيّة الأولى، ص ١١.

[٨]- جوناثان ريلي - سميث، المرجع السابق، ص ١٢.

دعماً لنفوذهم السياسي داخلياً، ودعمًا لبلادهم خارجياً، ومجالاً خصباً للتنافس الدولي وتحقيق المكاسب<sup>[١]</sup>.

بينما كانت حماسة المدن التجارية الإيطالية لفكرة الحروب الصليبية من منطلق اقتصادي، لذلك لم يعرضوا مساعدتهم لهذه الحملات إلا بعد نجاح الحملة الأولى وإقامة إمارات في بلاد الشام<sup>[٢]</sup>، إذ رأت في ذلك فرصة ذهبية لتدعيم وجودها التجاري في عالم البحر المتوسط، بتحويل مدنه الساحلية أسواقاً تجارية حرة<sup>[٣]</sup>، والسيطرة على الطرق التجارة للسلع الشرقية، فامتلاك طريق مصر وبلاد الشام والشمال الإفريقي هو حجر الزاوية في هذه السياسة الاقتصادية، ولم يتمثل دور هؤلاء التجار في قيام الدويلات اللاتينية في الأرض المقدسة بل امتدّ للحفاظ عليها أطول مدة ممكنة، لذلك تضمنت الامتيازات التي حصلوا عليها من حكام مملكة بيت المقدس مزايا إقليمية ومالية وقضائية مقابل مدّ هذه الدويلات بالإمدادات والمؤن والحجّاج<sup>[٤]</sup>.

بينما كانت حماسة النورمان في إيطاليا بدافع من كراهيتهم العميقة للإمبراطورية البيزنطية، فقد كانوا يرون بالحروب الصليبية أنها موجهة ضدّ البيزنطيين أكثر منها حرباً ضدّ المسلمين، وبتشجيع من البابوية<sup>[٥]</sup>.

وفسر ستيفن رنسيمن النجاح الغريب الذي حظيت به الدعوة إلى الحروب الصليبية في ضوء الظروف الاجتماعية والاقتصادية السيئة نتيجة الغزوات الجرمانية وما تلاها من مشكلات<sup>[٦]</sup>، التي تمثلت بزيادة معدل النمو، حيث ازدادت الحاجة إلى التوسّع خارج أوروبا، فلم تكن مواردها تكفي حاجات السكّان، ما ساعد على تصاعد حدة العداء ضدّ العرب الذين كانوا يفرضون وجودهم في كلّ الاتجاهات، يدعم ذلك المستوى الثقافي، ففي مجتمع يسوده الجهل وتفشي الأمية تختلط المفاهيم الدينية بالخرافات، لا بدّ أن تكون الاستجابة لهذه الحرب قوية بل هستيرية، وهو ما حدث

[١]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢٢.

[٢]- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٣، القسم الثاني، ص ٥٩٩. ناديا محمّد زهير الغزولي، مدينة صور في حقبة الحروب الصليبية ٤٩٨-٦٩٠هـ/١٠٩٦-١٢٩١م، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، ٢٠٠٣م، ص ٥٨.

Gino Lazzatto, *An economic History of Italy*, London, 1961, p73.

[٣]- شارل ديل، البندقية إمبراطورية أرستقراطية، تر: أحمد عزت عبد الكريم، توفيق إسكندر، دار المعارف، ١٩٤٨م، ص ٢-٣٠. حافظ أحمد حمدي، الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، دار الفكر العربي، ط ١، ٢٠٠٠م، ص ١١٣.

[٤]- وليم الصوري، المصدر السابق، ج ١، ص ٦٠٢. يعقوب الفيتري بطريرك عكا، تاريخ بيت المقدس، تر: سعيد البيشاوي، الأردن، ١٩٩٨م، ص ١٠٨. شارل ديل، المرجع السابق، ص ٣١. فشر، المرجع السابق، ص ١٨٢-١٨٣. ناديا الغزولي، المرجع السابق، ص ٥٩-60. Gino Lazzatto, p72.

[٥]- فشر، المرجع السابق، ١٧٦.

[٦]- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ١، ص ١٧١-٣، القسم الثاني/ ص ٦٠٠.

بالفعل، فيكتسب المشعوذون والمبشرون مكانة هائلة في نفوس البسطاء، أمثال بطرس الناسك<sup>[١]</sup>، فقد كان بطرس وأمثاله تجسيداً لحالة الهلع التي حكمت المجتمع الغربي آنذاك، وقد أثمرت جهود هؤلاء المبشرين الجوالين في تكريس العداء ضدّ العرب، فكان أبناء الغرب يتحرّقون شوقاً للقضاء عليهم.

ساهم في دعم هذه الجهود العدائية مؤرّخو الحملة الصليبية الأولى، فتكشف الأوصاف التي أسبغوها على المسلمين عن مدى التعصّب الذي حكم أوروبا أثناء التحضير للحملة. واللافت للنظر أنّ الشخصية الإسلامية التي صورتها كتابات هؤلاء المؤرّخين، ونصوص الخطبة التي أوردتها أوربان، شخصية مثقلة بكلّ الشرور والخطايا والآثام، هذا التصوّر كتبه مؤرّخو الحملة قبل أن يروا فعلاً مسلماً واحداً، فاستخدموا كلّ صياغاتهم الكريهة لتحريض الكاثوليك<sup>[٢]</sup>، وكان ذلك دافعاً قوياً للممارسات اللاإنسانية التي قام بها منقذو الحملة الأولى.

يضاف إلى ذلك كلّ أسباب لم تكن واضحة بين الناس في ذلك الوقت؛ لأنّ من الخصائص العامة في الخلافات التاريخية أنّ أقوى الأسباب لا تكون أكثر ذبوعاً، وتتمثّل في الخلاف المذهبي بين الكنيسة البيزنطية والكنيسة الرومانية<sup>[٣]</sup>. وقد أضاف المؤرّخون العرب إلى ذلك الباعث التصريحيّ، فقد أرادت البابوية توحيد الكنيستين من جهة، وتحويل مسلمي الشرق إلى أن يكونوا مسيحيين تابعين للكنيسة الكاثوليكية في روما من جهة ثانية<sup>[٤]</sup>.

### ٣. اللاإنسانية والهمجية خطأ الحملة الأولى

قدّمت الحملة الأولى نموذجاً لمدي ما يمكن أن ينتج من استجابات في مجتمع جعل العنف شريعته وألبس الحرب ثوب الدين، فكانت خطة الصليبيين في سيرهم نحو الشرق تقتضي الاستيلاء على الغنائم وحرق كلّ ما لم يستطع الجيش حمله، ويوحى مشهد الحملة الشعبية بتطوّراتها المختلفة بأنّ روحاً من الجنون كانت تحلّق في سماء الغرب الأوروبيّ، ويؤكّد سلوك الصليبيين القادمين إلى

[١]- بطرس الناسك: كان يُعدّ بمثابة التجسيد الحيّ للروحانية الشعبية، وقد كشفت دراسة هنريخ فون سايل عام ١٨٤١م زيف هذه الأسطورة التي أحاطت ببطرس الناسك. رواية جيوبرت النوجنتي عن بطرس الناسك، وردت في كتاب قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى، ص ٩٨-٩٩. يوشع براور، المرجع السابق، ص ٢٠. كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، تر: أحمد الشيخ، ط ١، ١٩٩٥م، ص ٥٥.

[٢]- فوشيه الشارترى، المصدر السابق، ص ٦.

[٣]- فشر، المرجع السابق، ص ١٧٤.

[٤]- أسامة بن منقذ، الاعتبار، حرره: فيليب حتّي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ب.ت، ص ١٣٤-١٣٥. ابن جبير أبو الحسين محمّد بن أحمد، رحلة ابن جبير، دار صادر، ب.ت، ص ٢٨١. محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢٨.

الشرق وما قاموا به من غارات وحشية بربرية وأعمال إرهابية ضدّ حثّي الشعوب المسيحية التي مرّوا بها<sup>[١]</sup>، أنّ هؤلاء تحركوا بوحى بطونهم لا قلوبهم وعقولهم<sup>[٢]</sup>. فيذكر ريمونداجيل تصرفات القادمين من الغرب أثناء عبورهم بلاد اليونان بقوله: «جيش ريموند أثناء تدميره -كعادته- للقري والمدن المحصّنة ..... وصلنا إلى روسا Roussa وهي مدينة نتج عن الاحتقار السافر الذي أبداه سكّانها تجاهنا، أنّ فقدنا صبرنا الذي عرفنا به، فحملنا السلاح، وهدمنا الأسوار الخارجية، وغنمنا غنائم كثيرة ..... وعندما هاجمتنا القوّات التابعة لألكسيوس .... ذبحنا بعضهم...»<sup>[٣]</sup>.

فقد اعتبروا أنفسهم أصفياء الربّ؛ لأنّهم الفقراء، ولكنّ هذا لم يكن ليمنعهم من انتهاك الفكرة الدينيّة التي تحركوا في إطارها، وارتكاب أخطّ ضروب الجرائم، والكشف عن أبشع الشرور الماديّة والدينيّة. كانت الحركة الصليبيّة متنفساً لجماهير الفلاحين وعامة سكّان المدن ليطلقوا العنان لعواطفهم الهادرة العنيفة، وكانوا يرون في التصرفات العنيفة وسيلة فعّالة للتنفيس عن القلق<sup>[٤]</sup>.

المجد والشهرة والمال هذا ما كانت تردّه القصص التاريخيّة عن الحملة الصليبيّة الأولى عقب صياغة قرار مجمع كليرمونت<sup>[٥]</sup>. وللحصول على المال، فقد سيطرت على الصليبيين فكرة جمع

الغنائم، فالاستيلاء عليها كان منتهى آمالهم وتوقّعاتهم، حيث مارسوا عمليّات السلب والنهب في كلّ منطقة حلّوا بها، وجرّدوا كلّ مَنْ يقع في قبضتهم ما يملك، سواء أكان جيشاً منزهماً أم مدينة أم قلعة، وشاعت مقولة «اليوم سنصبح كلّنا أغنياء بمشيئة الله»<sup>[٦]</sup>، فيذكر متى الرهاوي ذلك بقوله: «كان النصر حليف الصليبيين، حيث أجبروا الأعداء على التقهقر .... حتّى أغرقوا البلاد ببحر من الدماء، وسيطروا على نيقية بقوة السلاح وذبحوا كلّ الكفار ..... سحقوهم من غير رحمة حتّى امتلأ السهل بالجثث»<sup>[٧]</sup>.

هكذا كانت سياسة الصليبيين بعد الاستيلاء على أيّ مدينة واحدة، فعندما دخلوا أنطاكية في ٣ حزيران ١٠٩٨م نهبوا بيوتها من المسيحيين والمسلمين على حدّ سواء، وحطموا كلّ ما صادفوه

[١]- قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ٢٨.

[٢]- سعيد عبد الفتّاح عاشور، أضواء جديدة، ص ١١.

[٣]- ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٧١.

[٤]- قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ٩٧.

[٥]- جوناثان ريلي - سميث، المرجع السابق، ص ٨٠.

[٦]- المرجع نفسه، ص ١١٨.

[٧]- متى الرهاوي، المصدر السابق، ص ٦٧-٦٨-٦٩-٧١. رواية آنا كومنينيا عن الحملة الصليبيّة الأولى من كتابها الأليكسياد Alexiad، وردت في كتاب قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ١٢٤. ووردت في كتاب سهيل زكّار، الحروب الصليبيّة الحملتان الأولى والثانية، المصدر السابق، ص ١٢١-١٣٦.

من النفائس والأسلحة، فما من أحد يستطيع أن يرتاد الشوارع دون أن تتعثر قدماه بالجثث التي لم تلبث أن تعفنت بتأثر حرارة الصيف<sup>[١]</sup>.

رسخت الحملة الصليبية الأولى مجموعة معاملات شكّلت بمجموعها نظاماً أخلاقية اتخذها الصليبيون في الحملات اللاحقة، قاعدة طبّقوها خلال خط سيرهم إلى الشرق، فرسخت الحملة الأولى فكرة أن للحصول على المؤمن لا بد من الغارات على الأراضي العربية، فبعد الاستيلاء على أنطاكية هاجموا عزاز الواقعة على الطريق الرئيس المؤدي من الرها وتلّ باشر إلى أنطاكية<sup>[٢]</sup>.

أمّا القاعدة الثانية: الغارات على المناطق الريفية للحصول على الأملاك، فبعد استقرار الجيش الصليبي في أنطاكية واحتلالها، انطلق الطمع والجشع المكبوتان، فأخذ القادة والرؤساء يغيرون على المناطق الريفية المجاورة لأنطاكية، ولمّا كانت المقاومة المحلية ضعيفة، فإن القرى والمدن والقلاع لم تلبث أن خضعت للصليبيين<sup>[٣]</sup>.

بينما يمثل اللجوء إلى الخدعة وإعطاء الوعود الكاذبة لأهل المدن كي يتمكنوا من دخولها والسيطرة عليها القاعدة الثالثة التي طبّقها الصليبيون في حملاتهم كافة، فعندما استسلم سكان البارة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من أنطاكية، تعرّض سكانها للموت قتلاً وجرى بيع الباقي رقيقاً في أنطاكية، وكما فعل بوهمند مع مدينة معرة النعمان، فأعلن مناد أنه إذا استسلمت المدينة فسوف يبقى على حياة كلّ المدافعين عنها، لكن عند استأنف القتال في اليوم التالي لم يبق منهم أحد على قيد الحياة، فقد اقتحم الصليبيون الدور ونهبوها وأحرقوها، ولقي الرجال مصرعهم بينما بيع الأطفال والنساء رقيقاً<sup>[٤]</sup>.

وما يجعل الحملة الصليبية الأولى في مصاف الثأر والانتقام، وهي القاعدة الرابعة لجني نتائجها، ما قامت به الحملة بعد أن وصلت للقدس، حيث استمر حصار القدس خمسة أسابيع، وأعقب سقوطها مذبحه فظيعة راح ضحيتها المدافعون عن المدينة وسكانها، فيذكر ريمونداجيل مذبحه بيت المقدس بقوله: «سفك تانكرد وجودفري كمية لا تصدق من الدماء، ..... بينما عذب آخرون لوقت طويل، وأحرقوا حتى الموت في اللهب المتأجج، وتكدّست في الطرقات والبيوت

[١]- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٣٤.

[٢]- المرجع نفسه، ج ١، ص ٣٦٥.

[٣]- يوشع براور، المرجع السابق، ص ٥٦.

[٤]- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٦٦-٣٦٩.

الرؤوس، والأيدي، والأقدام، وفعالاً فقد كان الفرسان والرجال يجرون جيئةً وذهاباً فوق الجثث<sup>[١]</sup>، وأبيحت المدينة لأعمال السلب والنهب على مدى ثلاثة أيام متوالية، وفاض الدم في الشوارع، وظلت أكوام الجثث مصدر إزعاج في الشوارع أياماً طويلة. وفي هذا الجوّ الموحش الذي تغلّفه الروائح الكريهة الصادرة عن المنازل المحترقة والأجساد العفنة، اجتمع الصليبيون في كنيسة القيامة، وتردّدت عبارة «Te Deum laudamus» أي «نحمدك يا الله» في الكنيسة القديمة، ويرر ريمونداجيل مذبحه القدس بأنها عدالة إلهية: «فيكفي أن أحكي أنه في معبد سليمان وفي الرواق خاض الصليبيون بخيولهم في الدم الذي وصل إلى ركبهم وسروج خيولهم، وفي رأيي هذا عدالة إلهية تتمثل في أن يتلقى معبد سليمان دم المسلمين الذين سبوا الربّ هناك لسنوات كثيرة، وامتألت بيت المقدس الآن بالجثث، وتلطّخت بالدماء»<sup>[٢]</sup>. كانت عبارة «Dieu Le Vent» «إنّها إرادة الربّ» هي صيحة القتال لدى الصليبيين، فكانوا يؤمنون بأنّ الربّ قد أظهر رغبته في تطهير معقله، وأنّ القديسين ساهموا في المعركة وجلبوا النصر لجيوش المؤمنين الحقيقيين<sup>[٣]</sup>، ولا يمكن وصف ما قام به الفرنجة في القدس وغيرها من مدن الشرق سوى بأنهم همج جاؤوا للعبث بحضارة الشرق.

### ثانياً: رعاية ملكية للحملة الثانية

عكست حروب الحملة الصليبية الأولى تنافس الأسر الحاكمة في الغرب الأوروبي من أجل احتلال شرق البحر المتوسط. لقد كان الصليبيون بشراً وكانوا مقبلين على دنياهم بجشع غير مسبوق، فعلى صخرة المصالح السياسية سقطت مسوح الرهبان التي حرص مؤرّخو الحوليات الصليبية أن يلبسوها لأبطالهم<sup>[٤]</sup>. وانتهت الحملة الأولى وثبتت أقدام الصليبيين بقيام ثلاث إمارات صليبية كبرى الرها وأنطاكية<sup>[٥]</sup> وطرابلس، وتأسست المملكة الصليبية<sup>[٦]</sup>، ومنع المسلمون من الإقامة في المدينة المقدّسة؛ إذ إنّ الغزاة المنتصرين عدّوا سكنى المسلمين تدنيساً للمدينة المقدّسة وانتهاكاً لحرمتها<sup>[٧]</sup>، ما يدلّ على تعصّبهم وهدفهم من هذه الحملات، فيذكر فوشيه الشارترى أنّها كانت

[١]- ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٢٤٧.

[٢]- المصدر نفسه، ص ٢٤٨.

[٣]- يوشع براور، المرجع السابق، ص ٦١.

[٤]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢٢.

[٥]- ابن الأثير، المصدر السابق، حوادث سنة ٤٩١هـ/ ص ٤١٦-٤١٧-٤١٨. ابن تغري بردى أبو المحاسن جمال الدين يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، ج ٥، ص ١٩١. وليم الصوري، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨٢-٣١٤-٣٢٩. سهيل زكار، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، المصدر السابق، ص ٢٣٣. المؤرّخ المجهول، المصدر السابق، ص ٦٥.

[٦]- متى الرهاوي، المصدر السابق، ص ٩٩. سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة، ص ٢٥.

[٧]- يوشع براور، المرجع السابق، ص ٩٥-٦٠.

حرباً مقدّسة، وكان يبدي سروره في عبارات بليغة لما يرتكبه الصليبيون من أعمال وحشيّة ضدّ المسلمين، ولم يخطر بباله أبداً أن يكون لهؤلاء الناس الحقّ في أوطانهم، فقد كان يرى فيهم مجموعة من الوثنيين القساة الغلاظ الذين يستحقّون القتل والفناء<sup>[١]</sup>.

وفي بطن عتيد تحوّلت حياة الصليبيين الحذرة على بعض المدن القليلة إلى سيادة على أقاليم متّصلة، أخذت في التوسّع والامتداد دون أيّة مقاومة. لقد تلقّى العالم الإسلامي ضربة مفاجئة أثارَت الذعر في جناباته، وتسبّبت في شلل إماراته في حلب وشيزر وحماة وحمص ودمشق، وامتنع العمل المشترك بين إمارات الشمال وإمارات الجنوب، وظلّ الحال على ما هو عليه قرابة جيلين تمكّن الصليبيون خلالها من تدعيم وجودهم في الشرق<sup>[٢]</sup>. وممّا ساعدهم على ذلك هو الواقع السياسيّ لبلاد الشام التي كانت تفتقد إلى التاريخ المركزيّ الموحد، فلم تستطع أن تواجه زحف تلك الظاهرة التاريخيّة<sup>[٣]</sup>.

لقد أقام الإمارات الصليبيّة مغامرون حريصون على الربح والكسب، ولم تفقد الغريزة الفطريّة حدّتها كلّما مضى الزمن، فأنزل أمراء الفرنجة أنواع الظلم والاستبداد بأهل المناطق المحيطة بإماراتهم، وقد أدّى ذلك إلى انهيار الزراعة وتدمير اقتصاد بيت المقدس<sup>[٤]</sup>.

لكنّ ما يدعو إلى الدهشة أولئك الرهبان المحاربين الذين اشتركوا مع الفرنجة في شتى مراحل الحركة، فرقة الإسبتاريّة<sup>[٥]</sup> والداويّة<sup>[٦]</sup>، فقد استحووا إلى جمعيات نفعيّة، وأصبحوا يتمنّعون داخل قلاعهم وحصونهم في الشام، ولهم جيوشهم ومواردهم الماليّة وسياستهم الخارجيّة التي تتفق ومصالحهم الخاصّة، فقد أصبحوا يمتلكون المتاجر والحوانيت، فقد انحرفت تلك الجماعات عن مبادئها الأصليّة وأصبح رجالها رجال دين ودنيا رجال يلبسون مسوح الرهبان ويقاتلون من فوق

[١]- قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ٣٠.

[٢]- يوشع براور، المرجع السابق، ص ٦١.

[٣]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٤٨. كلود كاهن، المرجع السابق، ص ٢٨.

[٤]- ابن جبير، المصدر السابق، ص ٣٠١-٣٠٢. أرنست باركر، المرجع السابق، ص ٧١.

[٥]- حصل تجار أمالفي من المسلمين على أذن ببناء مشفى في بيت المقدس عام ١٠٤٨م لإيواء الفقراء والمرضى من الحجّاج، ثمّ نظّم ريموند أوف لبوي رجال هذه الجماعة فجعلهم هيئة دينيّة تكوّن حياتها للعفة والفقير والطاعة وحماية المسيحيين في فلسطين والدفاع عنهم دفاعاً عسكريّاً، ومن ثمّ أصبح الفرسان فرسان القديس يوحنا أو الإسبتاريّة Hospitallers من أقوى الهيئات في بلاد الشام. محمود عمران، تاريخ الحروب الصليبيّة ١٠٩٥-١٢٩١م، دار المعرفة الجامعيّة، ٢٠٠٠م، ص ٥٦.

[٦]- وفي عام ١١١٩م نذر هيو أف باينز وثمانيّة آخرون من فرسان الصليبيين أنفسهم للرهبنة وخدمة القوّات الصليبيّة، وحصلوا من بلدوين الثاني على مبنى لهم بالقرب من الموضوع الذي كان فيه هيكل النبي سليمان، وقد أطلق عليهم فرسان المعبد. محمود عمران، تاريخ الحروب، ص ٥٧.

ظهور الخيل، يتاجرون ويفرضون الضرائب والأتاوات على القوافل المارة بمعاقلهم في الشام<sup>[١]</sup>. انتقل فرسان المشفى من ترميز الحجاج إلى الهجوم على حصون المسلمين<sup>[٢]</sup>، هذا التحول في المهام من خدمة خيرية إنسانية إلى تقديم خدمات حربية مأجورة وممارسة أعمال لا إنسانية ضد الطرف الآخر، يؤكد بُعد هذه الجمعيات عن الدافع الديني لدعم الحملات الصليبية.

مع ذلك أصبحت الحملات الصليبية عملية مستمرة، فكان تتدفق على الشرق باستمرار قوات قادمة من الغرب<sup>[٣]</sup>، وذلك بهدف حماية ما حققه الصليبيون من مكاسب، وللغزو بنصيب من الغنائم، بالإضافة إلى الحاجة الماسة للصليبيين في الشرق إلى العنصر البشري<sup>[٤]</sup>. لكن البلاد العربية لم تتمكن من التعايش مع الوجود الصليبي على أرضها بشكل سلمي، خصوصاً أن الإمارات الصليبية اتبعت سياسة عدائية توسعية تجاه جيرانها، فتواصلت الغارات على المناطق الريفية غير المحصنة للاستيلاء على المواشي ومناطق الرعي وتدمير المحاصيل لهروب السكان، وهي سياسة اتبعتها الصليبيون مع المناطق الداخلية، فكان أهالي المدن، وخاصة دمشق، يشاهدون التدمير المنظم لمزارعهم ومراعيتهم دون أن يتمكنوا من منعه أو حتى مقاومته على نحو فعال، إذ كان من المستحيل عملياً بناء الحصون نظراً لقرب قواعد الصليبيين<sup>[٥]</sup>.

فكانت إمارة الرها<sup>[٦]</sup> تتولى تهديد خطوط مواصلات ما بين إمارة الموصل وحلب وبين بغداد وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وذلك بسبب وقوعها في الحوض الأوسط لنهر الفرات<sup>[٧]</sup>، فكانت بمثابة قلعة حمت الممتلكات الصليبية من هجمات الجبهة العربية الشرقية، ما جعل منها عقبة في قيام أي وحدة عربية، وحاجزاً وخط دفاع يحمي البناء الصليبي في الجنوب، إضافة

[١]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ٩١.

[٢]- محمود عمران، تاريخ الحروب، ص ٦٨.

[٣]- كان قادة هذه الحملات أمراء أمثال سيجورد ملك النرويج، إضافة لأقوام مثل الإنكليز والدانيين، والفرسان الذين جاؤوا للالتحاق بالاستيلاء أو الداوية. ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٢، القسم الأول، ص ٤٠٠-٤٠١.

[٤]- سالم محمد الحميدة، الحروب الصليبية عهد الجهاد المبكر، بغداد، ١٩٩٠م، ج ٢، ص ٢٠.

[٥]- يوشع براور، المرجع السابق، ص ٦٤.

[٦]- الرها: منطقة طبيعة معقدة من ناحية التركيب البشري أرمن وسريان وأتراك وتركماني وعرب فضلاً عن الوافدين الجدد الصليبيين، تقع على الطريق الرئيس بين الموصل وحلب، كانت إحدى كراسي المطرانية، لكن إمارة الرها كانت بالدرجة الأولى إمارة حرب، حرب بينها وبين المسلمين من أجل البقاء، وبينها وبين الممتلكات الأرمنية خارجها من أجل التوسع، وبينها وبين إمارة أنطاكية من أجل الأطماع الشخصية، وحرب شنتها إلى جانب مملكة بيت المقدس بحكم تبعيتها الإقطاعية لها. ابن الأثير علي بن أبي الكرام، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر طليمات، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٦٦-٦٧. ولیم الصوري، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٣٩. يعقوب الفيتري، المصدر السابق، ص ٣٦-٣٧-٣٨. علي عبد السمیع الجززوري، إمارة الرها الصليبية، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٢١١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ٢٠٠١م، ص ٧-٢٩-٣٤٨. ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٠٠.

[٧]- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٩٣. علي السيد علي محمود، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، القاهرة، ط ١، ١٩٩٦م، ص ١٤-١٥.

لمكانتها الدينية<sup>[١]</sup>. لكنّ القوات العربية تحتاج إلى استثمار الوقت المناسب والقائد المحنك لتمكّن من القيام بعمل نوعي، وهذا ما فعله عماد الدين الزنكي<sup>[٢]</sup> أمير الموصل<sup>[٣]</sup> في خريف عام ٥٣٩هـ/١٤٤م<sup>[٤]</sup>، ففي هذا العام أصبح النزاع بين إمارة الرها وبين إمارة أنطاكية واضحاً<sup>[٥]</sup>، بينما تمكّنت بيزنطة من طرد الصليبيين من كيليكيا، فأصبح التعاون بينها وبينهم مستحيلاً مع تزايد مشاكلها الداخلية<sup>[٦]</sup>. أمّا مملكة بيت المقدس، فهي غير مستعدة للقيام بمغامرة حربية في ظلّ ملك ضعيف بعد وفاة الملك فولك Fulk عام ١١٤٣م<sup>[٧]</sup>.

دعم تحرير الرها موقف حلب من الدفاع إلى الهجوم، وأزال خطورة وجود قاعدة أمامية للصليبيين، فعدّ تحريرها بداية النهاية لوجودهم في بلاد الشام<sup>[٨]</sup>، إذ غير هذا الحدث موازين القوى في الشرق لصالح العرب، وشكّل صدمة عنيفة للصليبيين في الشرق والغرب، وكأنّ أوروبا كانت بحاجة إلى ما حلّ بالرّها من كارثة كي تنهض من جديد في دعم الإمارات الصليبية الشرقية، فتحريرها بعد أقلّ من خمسين عاماً على تأسيسها كان نذير شوّم عليهم<sup>[٩]</sup>، فدقّ ناقوس الخطر لباقي الإمارات الصليبية التي لم تقدّم أيّ مساعدة إيجابية للرّها، وبدأت أنظار صليبي الشرق تتّجه نحو الغرب الأوروبي لطلب النجدة، فكانت البعثة الأرمنية إلى روما يرافقها أسقف جبلة في إمارة أنطاكية هيو<sup>[١٠]</sup>. وكانت الحملة الصليبية الثانية (٥٤٣هـ/١١٤٨م)، وقد حظيت بعناية خاصة؛ إذ حلّ الملوك مكان الفرسان في قيادتها، فكانت بقيادة ملك فرنسا لويس السابع (٥٣٢-٥٧٦هـ/

[١]- عادل حمزة، العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والإمبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م، ص ٥٤. حامد أبو سعيد، المرجع السابق، ص ٨٩. عصام محمّد شبارو، السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري السلاجقة- الأيوبيون، بيروت، ١٩٩٤م، ص ١٢٢.

[٢]- عماد الدين زنكي ٤٧٧-٥٤١هـ: والده قسيم الدولة آقسنقر، تمكّن عماد الدين من تكوين جبهة موحّدة لمقاومة الصليبيين واضعاً أوّل حجر في هذا البناء، تمكّن كسياسي بارز وعسكري بارع من توحيد جبهة الموصل وحلب. ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص ٧٤-٨٤. محمّد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ٥٢١-٦٣٠هـ/١١٢٧-١٢٣٣م، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م، ص ١٦١-١٦٣.

[٣]- عندما دبّ الضعف في مركز الدولة العباسية أخذت المدن تنفصل وتحصل على استقلالها في سياستها وإدارتها، وكانت الموصل إحدى هذه المدن. عماد الدين خليل، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي عصر ولاة السلاجقة في الموصل ٤٨٩-٥٢١هـ/١٠٩٥-١١٢٧م، دمشق، ٢٠٠٥م، ص ١٢-١٥.

[٤]- ابن القلائسي، المصدر السابق، ص ٤٣٦. محمّد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين، ص ١٥٠.

[٥]- عليّة الجنزوري، المرجع السابق، ص ٢٩٨.

[٦]- سالم محمّد الحميدة، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤.

[٧]- ستيفن رنسيان، المرجع السابق، ج ٢، القسم الأوّل، ص ٣٧٥-٣٧٩.

[٨]- ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص ٦٩-٧٠. سالم محمّد الحميدة، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٠٩.

[٩]- عليّة الجنزوري، المرجع السابق، ص ٣١٤. قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ١٣٨. محمّد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين، ص ١٥٦.

[١٠]- ستيفن رنسيان، المرجع السابق، ج ٢، القسم الأوّل، ص ٣٩٧. HANS, OP, Cit, p93.

١١٣٧-١١٨٠م)، وإمبراطور ألمانيا كونراد الثالث (٥٣٣-٥٤٧هـ/١١٣٨-١١٥٢م)<sup>[١]</sup>.

اتخذت الحملة من ممارسات الحملة الأولى قدوة لها، فعندما وصل ملك ألمانيا كونراد إلى هنغاريا عبرها، بدأ يمارس السلب والنهب والتدمير محارباً وليس كحاج يريد الوصول إلى القبر المقدس، وهذا يؤكد صدق مقولة: «جاءت الحروب الصليبية لتروي ظمأ وتعطش الأمراء إلى الحرب والمغامرة»<sup>[٢]</sup>.

وعلى الرغم من اختلاف ظروف هذه الحملة عن الأولى في أن الصليبيين القادمين سوف يجدون في بلاد الشام قاعدة حربية في متناول أيديهم<sup>[٣]</sup>، إلا أنها باءت بالفشل نتيجة فقدان الصليبيين لوحدة الهدف التي كانت تؤلف بين قوات الحملة الأولى، وتظهرها بمظهر القوات المتجانسة، حيث سار كل من الملكين مستقلاً عن الآخر<sup>[٤]</sup>. ونتيجة سوء التخطيط والتخبط الذي عاشه قادة الحملة في الوجهة التي يجب عليهم اتخاذها لاستعادة الرها، اختاروا محاصرة دمشق، لكنّه كان تقديراً خاطئاً اتسم بالحماقة المطلقة<sup>[٥]</sup>، ممّا دفعهم للانسحاب تفادياً لمعركة دموية لم تكن في حسابهم<sup>[٦]</sup>. فالحملة نسيّت هدفها الذي جاءت من أجله إلى الشرق وسط دوامة المصالح المتضاربة للأمراء الصليبيين.

ومن أهم أسباب توجّه الحملة نحو دمشق الجشع في إخضاعها وهي عاصمة الشام التاريخية، ولتأمين حدود المملكة من جهة الجليل، وللحصول على المكاسب الاقتصادية والسياسية والإستراتيجية<sup>[٧]</sup>. فهي نقطة تمويل كبيرة وغنيّة، فامتلاكها يقطع صلة بلاد الشام بمصر وأفريقيا، ساعدهم على ذلك الظن بسهولة الاستيلاء عليها<sup>[٨]</sup>.

جاء فشل الحملة نقطة تحوّل في تاريخ الإمارات الصليبية، فتحرير الرها أنهى المرحلة الأولى

[١]- ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص ٨٨. وليم الصوري، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٥٨-٧٥٩. أودو أوف دويل، الحملة الصليبية الثانية كتاب رحلة لويس السابع إلى الشرق، تر: سهيل زكار، ج ١، ص ٢٩٥-٣١٤. فشر، المرجع السابق، ص ١٨٤. أرنست باركر، المرجع السابق، ص ٩٣.٧٤، HANS, OP, Cit,

[٢]- أودو أوف دويل، المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٥ هامش ٢.

[٣]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص ٧٤. مصطفى وهبة، المرجع السابق، ص ٣٢.

[٤]- وليم الصوري، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٥٩. حامد أبو سعيد، المرجع السابق، ص ١٨٣. عصام شبارو، المرجع السابق، ص ١٢٤.

[٥]- ستيفن رنسيان، المرجع السابق، ج ٢، القسم الأول، ص ٤٥٢.

[٦]- ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٤٦٥-٤٦٦. وليم الصوري، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٨٧. ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، المصدر السابق، ص ٨٩.

[٧]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ١٨٣.

[٨]- عادل حمزة، المرجع السابق، ص ٥٩.

في الإفاقة العربية الإسلامية<sup>[١]</sup>، وأجج العداة الغربي الأورويّ تجاه الإمبراطورية البيزنطية، وسيتراكم هذا العداة على مدار القرن الثاني عشر حتّى يصل إلى ذروته مطلع القرن الثالث عشر، واتّضح للصليبيين في الشرق أنّ اعتمادهم على الدعم الأورويّ الخارجيّ لم يغنهم شيئاً، بل لم يضمن لهم الاستمرار بقوة<sup>[٢]</sup>.

### ثالثاً: الحملة الثالثة نقطة تحول في الفكرة الصليبية

اتّخذت الحملات الصليبية شكل الهجرة وانتقال الشعوب من خلال طابع الغزو العنيف الذي يستهدف تشريد أهل البلد وأصحابها الشرعيين وحرمانهم من حقوقهم وأراضيهم<sup>[٣]</sup>. وبإلقاء نظرة على سلوك الصليبيين في الشرق، سواء فيما يتعلّق بالمعاملات فيما بينهم وبين بعض أم فيما يتعلّق بتصرفاتهم تجاه أهل البلد الأصليين، توضح أنّ أولئك لم يكن لهم من المسيحية إلاّ اسمها، وتؤكد العامل الاقتصاديّ في دفعه أهالي غرب أوروبا إلى المشاركة في الحركة الصليبية.

فطباع الفرنجة لم تكن إلاّ طباعاً قامت على الجشع المفرط الذي لا يقرّه القانون، إذ كانوا يهبطون من قلاعهم لينقضّوا على المسلمين وليقبضوا عليهم، ولا يفرجون عنهم إلاّ بعد دفع فدية أو ليهاجموا قافلة من قوافل المسلمين. وفي هذه المرحلة جدّدت الغارات الصليبية على موانئ البحر الأحمر، فاستولوا على السلع التجارية في ميناء عيذاب، وأشعلوا النيران في مينائي الحوراء وينبع، وفي منطقة غابر أغرقوا سفينة حجّاج كانت في طريقها إلى جدة<sup>[٤]</sup>. فالحرص للحصول على الكسب غير المشروع أفسد دماء الفرنجة، وإذا صبر المسلمون على قيام دولة للصليبيين، فإنّهم لا يطيقون قيام دولة من اللصوص<sup>[٥]</sup>، ميزتها الغدر ونقض العهود، وهذا ما بيّنه صلاح الدين الأيوبي<sup>[٦]</sup> عام (١٥٧٢هـ/١١٧٧م) في رسالته إلى بغداد يخبر بقدم نجدة إلى فرنج الشام، وكيف

[١]- ستيفن رنسيومان، المرجع السابق، ج٢، القسم الثاني، ص٤٦٧.

[٢]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص١٨٤.

[٣]- سعيد عبد الفتّاح عاشور، أضواء جديدة، ص٧.

[٤]- محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب، ص١٢٥.

[٥]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص٧١.

[٦]- أنهى صلاح الدين من تأمين حدود دولته المترامية الأطراف، وأتمّ تدريب جيشه فنظّمه وسلّحه، فبدأ بالدخول في المرحلة الثانية هي الجهاد ضدّ الصليبيين. جوفري دي فانسوف، الحرب الصليبية الثالثة صلاح الدين ورينشارد، تر: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م، ج١، ص٢٨. محمّد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ٥٦٩-٦٦١هـ/١١٧٤-١٢٦٣م، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص١٥٣-١٦٤. شاعر مصطفى، صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه، دمشق، ط١، ١٩٩٨م، ص١٦٧. المرتضى الزبيدي، ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب، تحقيق: صلاح الدين المنجد، بيروت، ط١، ١٩٦٩م، ص٦٨.

STANLEY LANE-POOLE, M.A, SLADIN AND THE FALL OF THE KINGDOM OF JERUSALEM, LONDON, 1985, P197.

أنهم نقضوا الهدنة التي كانت معقودة بينه وبينهم، وهي من إنشاء القاضي الفاضل: «فاسخين لعقد كان محكمًا غادرين غدرًا صريحًا»<sup>[١]</sup>. وهي قاعدة رسختها الحملة الأولى وسار على خطاها باقي الحملات والصليبيين، فما أقدم عليه حاكم الكرك رينو أوف شاتيون في شن الغارات المخربة في البحر الأحمر عام (٥٧٧هـ/١١٨٢م)، يصح تفسير سياسته على أنها نوع من المغامرة والنهب، ثم تحوّل إلى قطع الطريق واللصوصية، فتعرض للقوافل التي تجتاز الطريق من دمشق إلى مصر، ونهب ما معهم من مال ومتاع<sup>[٢]</sup>. وكانت هذه سببًا جعل صلاح الدين الأيوبي يعدّ العدة لتحرير بيت المقدس، فكانت معركة حطين عام (٥٨٢هـ/١١٨٧م).

جاء الرد رسميًا من قبل أوروبا على هذه الانتصارات<sup>[٣]</sup>، فكانت الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢م) التي تميّزت بأنها لم تنبع من البابوية التي كانت وقتذاك تجتاز مرحلة من مراحل الانهيار، إنما نبعت من السلطة الزمنية التي تمثلها الملكيات الثلاث في ألمانيا وإنكلترا وفرنسا، التي صار لها السيادة والسلطان في أوروبا، وما اتخذ كل من ملكي فرنسا وإنكلترا فيليب أغسطس وهنري الثاني من وسائل للقيام بالحملة يدل على أنها تحمل مظهرًا علمانيًا، وهو الأساس الذي جعلها أكبر الحملات الصليبية<sup>[٤]</sup>، وإن كان ريتشارد، الذي تسلّم حكم إنكلترا بعد والده هنري، يأمل من وراء هذا الحجّ الحربي أن يجعل الطريق لنفسه ممهدًا فيبلغ القدس ويدخلها غازيًا على جث أعدائه كما دخلها سلفه جودفري<sup>[٥]</sup>.

واللافت للانتباه أنّ هذه الحملة تُعدّ أقلّ شأنًا من الحملة الأولى على الصعيد الروحي؛ إذ نقل كل من ملكي فرنسا وإنكلترا ما بينهما من منازعات سياسية إلى الحركة الصليبية<sup>[٦]</sup>، إضافة لهدفها الأساسي في كسر شوكة العرب وتفتيت وحدتهم بعد معركة حطين وتحرير القدس، ليمكنوا من حماية مصالحهم في احتلال الأرض العربية. كان سير الحملة، سواء في البر أو البحر، يتّجه نحو مركز واحد هو عكا، فهي النقطة الجوهرية التي إذا أمكن السيطرة عليها، أصبح الطريق مفتوحًا إلى بيت المقدس<sup>[٧]</sup>.

[١]- قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ١٢٠. كتاب الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٧٠٦.  
 [٢]- جوفري دي فانسوف، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢. أرنست باركر، المرجع السابق، ص ٨٢.  
 [٣]- شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص ٢٩٥. جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ٧٧. حامد أبو سعيد، المرجع السابق، ص ٣٠٣.  
 [٤]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص ٨٦. ستيفن رنسيان، المرجع السابق، ج ٣، القسم الأول، ص ٧.  
 [٥]- جوفري دي فانسوف، المصدر السابق، ج ١، ص ١٤.  
 [٦]- المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٦-٢٠٧، ص ٤١. ستيفن رنسيان، المرجع السابق، ج ٣، القسم الأول، ص ٩٩. نعمان الطيب سليمان، المرجع السابق، ص ٣٢٨.

KENNETH M. SETTON, A HISTORY OF THE CRUSADES, LONDON, 1969, P45.

[٧]- جوفري دي فانسوف، المصدر السابق، ج ١، ص ٨٤-٨٦. نعمان الطيب سليمان، المرجع السابق، ص ٢٩٣.

استهوت الحياة الجديدة في الشرق الصليبيّين، فقد اختلطوا بالشرقيين وأخذوا من طباعهم وعاداتهم، وأعدّوا أنفسهم للإقامة الدائمة في الشرق<sup>[١]</sup>. فقد كانت الحركة الصليبيّة دعوة إلى الاستيطان والعمل على تهجير الغربيين إلى الشرق وتوطينهم فيه بصفة دائمة، دون التفكير في العودة إلى ديارهم، ونجد ذلك في أسلوب قتال الصليبيين أثناء المعارك التي حصلت لتحرير المدن بعد حطّين؛ فحين استولى كونراد دي مونتفرات على مدينة صور ٥ جمادى الأولى ٥٨٣هـ/ ١٤ تموز ١١٨٧م؛ أي بعد عشرة أيام من حطّين، حصّن المدينة وألقى بقوّات المسلمين من على الأسوار إلى الخنادق، ولم يتورّع عن إطلاق السهام على والده الماركيز بونيفيس الذي جاء ليطلب منه تسليم صور لقوّات صلاح الدين<sup>[٢]</sup>، فقد كانت القوات الصليبيّة تستخدم كلّ الأساليب في سبيل التمسك بالمدن والأماكن وعدم مغادرة الشرق.

رغم اتّحاد أوروبا كلّها في الحملة الثالثة، فإنّ ما حصلت عليه من نتائج كان ضئيلاً، وكلّ ما أسهم به الصليبيّون لإعادة بناء مملكة الفرنجة لم يتعدّ الحفاظ على إمارتي أنطاكية وطرابلس والمدن الساحليّة حتّى يافا والاستيلاء على عكا<sup>[٣]</sup> التي نقل إليها مركز المملكة الصليبيّة السياسي والمالي، ممّا يعني التحوّل من المصالح الدينيّة إلى المصالح الاقتصاديّة والتجاريّة، والتي ستصبح ميزة القرن الثالث عشر<sup>[٤]</sup>، وقد أظهر توقيع صلح الرملة عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م<sup>[٥]</sup> عجز أوروبا عن توحيد المسيحيّة الغربيّة وتوجيهها نحو هدف عام<sup>[٦]</sup>.

#### رابعاً: غلبة المصالح الاقتصاديّة في الحملة الرابعة

استجابت أوروبا في الحملة الأولى لنداء بيزنطة ضدّ الشرق العربيّ، لكنّ لم تتصوّر بيزنطة يوماً أنّ تدفق هذه القوّات سيهدّد كيائها ويكون سبباً في انتهاء سلطانها، فمشروع قيام حملة صليبيّة جديدة ومهاجمة القسطنطينيّة، تمّ ربطهما معاً في الحملة الرابعة (٥٩٩-٦٠١هـ/ ١٢٠٢-١٢٠٤م)،

[١]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ٨٤.

[٢]- ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٠، ص ٣٢. أرنول، ذيل تاريخ وليم الصوري ١١٨٤-١١٩٧م، تر: سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٣م، ص ٣١١، ناديا الغزولي، المرجع السابق، ص ٨٢.

[٣]- يعقوب الفيتري، المصدر السابق، ص ١٦٨-١٦٩. روجر أوف ويندوفر، ورود التاريخ، تحقيق: سهيل زكار، الموسوعة الشاميّة في تاريخ الحروب الصليبيّة، ٢٠٠٠م، ج ٣٩، ص ٣٧٢. KENNETH M. SETTON, P46. ستيفن رنسيان، المرجع السابق، ج ٣، القسم الأوّل، ص ١٤٥.

[4]- KENNETH M. SETTON, P522.

[٥]- نعمان الطيّب سليمان، المرجع السابق، ص ٣٢١. محمّد سهيل طقّوش، تاريخ الأيوبيين، ص ٢٠١، STANLEY LANE-POOLE، ٣٤٣-٢٨١.

[٦]- فشر، المرجع السابق، ص ١٨٨.

التي تُعدّ تاريخاً لتسلّط النزعة العلمانيّة، ومحاولة البايوية التخلّص من تلك السيطرة، ومواصلة ما اشتهرت به من قبل في توجيه الحروب الصليبيّة<sup>[١]</sup>.

كان الوارث الحقيقي لهنري السادس هو الباب أنوسنت الثالث «١١٨٩-١٢١٦م<sup>[٢]</sup> الذي جعل الحروب الصليبيّة هدفه الأساسي، فبعد موت هنري في صقلية عام ١١٩٧م وفشل الحملة التي أعدّها لها، تمكّن البابا أنوسنت من الإعداد لحملة جديدة عام ١٢٠٠م، فقام فولك نيللي بدور بطرس الناسك نفسه في الحملة الأولى<sup>[٣]</sup>. وتعدّ الحملة الرابعة فرنسيّة في تأليفها لا في توجيهها، وقد تطلّع قادتها إلى مصر هدفاً لهم دون استشارة البابا أنوسنت الثالث<sup>[٤]</sup>، لذلك كانت الحملة الرابعة علمانيّة منذ بدايتها على الرغم من تحضيرات البابا أنوسنت لها<sup>[٥]</sup>، فهي مثال حيّ على انعدام الباعث الدينيّ وثبوت الاتجاه التوسعيّ للحركة الصليبيّة<sup>[٦]</sup>، مع الانتباه للبعد الاقتصاديّ التجاري<sup>[٧]</sup>؛ فقد تحوّلت الحملة الرابعة إلى معترك لأغراض سياسيّة متنازعة، فتغيّر اتجاهها عن مصر كان بمثابة فكّ عقدة للصرع القديم بين الغرب الأوروبيّ وبيزنطة<sup>[٨]</sup>، وإثبات أنّ الصليبيين استقروا حيث كانت هناك الوفرة الماديّة والثراء، وتوسّعوا حيث الإغراء بالتوسّع، ورفعوا شارة الصليب كمبرّر ديني في عصر كانت تلك طبيعته<sup>[٩]</sup>. فأيّ وازع ديني كان عند ألوف الصليبيين الذين اتّجهوا نحو القسطنطينيّة - وهو البلد المسيحي الكبير - لينهبوا كنائسها ويسرقوا أديرتها ويعتدوا على أهلها بالقتل والضرب، وهم إخوانهم في الدين؟؟ ممّا فاقم من حدّة الانشقاق بين الكنيسة الأرثوذكسيّة الشرقيّة والكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة<sup>[١٠]</sup>.

كانت خطأ الحملة الأولى اللانسانيّة والهمجيّة طبّقت ضدّ المدن العربيّة الشرقيّة بهدف الحصول على المؤن والأموال والغنائم، والغريب أنّ الخطأ ذاته استخدمت بعد دخول الصليبيين

- [١]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص ٩٤-٩٥.
- [٢]- إسمت غنيم، الحملة الصليبيّة الرابعة ومسؤوليّة انحرافها ضدّ القسطنطينيّة، دار المعارف، ١٩٨٢م، ص ٥٦.
- [٣]- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٣، القسم الأوّل، ص ١٩٩-٢٠٠.
- [٤]- محمود عمران، الحملة الصليبيّة الخامسة حملة جان دي برين على مصر ١٢١٨-١٢٢١م / ٦١٥-٦١٨هـ، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٥م، ص ٨١.
- [٥]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص ٩٧ هامش ١.
- [٦]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ٧٧.
- [٧]- شارل ديل، المرجع السابق، ص ٤٢. محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢٥.
- [٨]- إسمت غنيم، المرجع السابق، ص ١٨.
- [٩]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢٦.
- [١٠]- عبر البابا يوحنا بولس الثاني عام ٢٠٠١م عن حزنه لأحداث الحملة الصليبيّة الرابعة، وقال: «إنّه لأمر مأساوي أنّ المهاجمين انقلبوا ضدّ إخوانهم في الإيمان»، وأعرب عن اعتذاره عام ٢٠٠٤م عن مذابح هذه الحملة أثناء زيارة بطريك القسطنطينيّة «بارثولوميو الأوّل» الفاتيكان. سعيد عبد الفتّاح عاشور، الحركة الصليبيّة، ص ٣٣.

إلى العاصمة البيزنطية، الذين اقتحموها كالجراد المنتشر وأشعلوا النيران في منازلها. وقدّر المؤرّخ فيلهاردوين عدد المنازل التي احترقت بأنّها تماثل عدد المنازل التي تحتويها ثلاث مدن كبيرة من مملكة فرنسا، ثم انطلقوا يقتلون كلّ مَنْ صادفهم من البيزنطيين حتّى أصبح من العسير حصر عدد القتلى، ثمّ جاء دور النهب الذي لم يقف عند أيّ حدّ، حتّى الكنائس والأديرة لم تسلم. ويصوّر المؤرّخون ما فعله الصليبيّون بعد دخولهم كنيسة آيا صوفيا، وكأنّهم يسردون ما فعلته الحملة الأولى بعد دخولها مسجد بيت المقدس، فعبارة «إنّها إرادة الربّ» وإن لم يردها الصليبيّون في القسطنطينية، إلّا أنّهم طبّقوها فعلاً، فقد اقتحموا الكنيسة فمزقوا الستائر والبسط والمفروشات، وداسوا الكتب المقدّسة بأقدامهم وحطّموا الأيقونات، وبيعت التحف والنفائس في أسواق دمشق والقاهرة وحلب والأسواق الأوروبية، حتّى إنّ الجياد البرونزية الأربعة التي كانت تزين ميدان السباق في العاصمة البيزنطية، قام داندلو بحملها إلى البندقية، وحتّى اليوم تزين واجهة كاتدرائية القديس مارك في فينيسيا<sup>[١]</sup>.

وأصدر البابا أمراً بأنّه ينبغي ألاّ يجري الاعتداء على مسيحيين آخرين<sup>[٢]</sup>، وكأنّه يقول يمكن الاعتداء على غير المسيحيين، وأرسل إلى الماركيز بونيفيس أوف مونتفات رسالة يؤنبهم على فعلتهم في اقتحام القسطنطينية، فقال: «لقد أصبحتم أمام العالم كلّ أهلاً للبعاء والفسوق، لقد اتّبعتم غرائزكم الآثمة، ..... استوليتم على ثروة الكنيسة وكلّ ما يخصّها، .... حطّمتم غرف المقدّسات وسرقتم الصلبان، ..... ولأنّ الكنيسة اليونانية أخضعت بالقوّة، فإنّها رفضت سيادة الكرسي البابوي....»<sup>[٣]</sup>.

مع ذلك كان يفترض أن تدعم هذه الحملة موقف الإمارات الصليبيّة في بلاد الشام، لكنّ نتائجها كانت فاجعة في جملتها، فأدّت إلى إضعاف موقف الصليبيين في الشرق بشكل مباشر وغير مباشر، إذ بدأت تجذب إليها الفرسان الصليبيين لينعموا بالراحة بعيداً عن الحروب. ونتيجة تأسيس العائلات الأرستقراطية للممالك في أبيروس ونيقية ودخولهم لصراعات مع المملكة اللاتينية في القسطنطينية، أن أصبح الطريق البري إلى بلاد الشام أشدّ خطورة على الصليبيين<sup>[٤]</sup>.

[١]- إسمنت غنيم، المرجع السابق، ص ٩٧- ٢٦٨.

[٢]- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٣، القسم الأوّل، ص ٢١٢.

[٣]- إسمنت غنيم، المرجع السابق، ص ١١٤.

[٤]- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٣، القسم الأوّل، ص ٢٣٤. إسمنت غنيم، المرجع السابق، ص ١١١.

## خامساً: ضياع هيبة البابوية في الحملة الخامسة

كانت الإمارات الصليبية تدرك أهمية الاستيلاء على دلتا نهر النيل فيما إذا أرادت هذه الإمارات أن تنعم بحياة آمنة مستقرة في الأراضي المقدسة<sup>[١]</sup>، وهذا يؤكد السياسة التوسعية للفكرة الصليبية، لكن لم توضع فكرة السيطرة على مصر موضع التنفيذ، بسبب عدم توفر الإمكانيات العسكرية للإمارات الصليبية، لكنّها ظلّت هدفاً تستغلّ ظروفه كلما كانت الفرصة مناسبة والإمكانيات متوفرة، مع الاكتفاء ببعض الهجمات على الحدود الشمالية الشرقية لمصر المتاخمة لحدود المملكة الصليبية، أو على الموانئ، وقد أتت قناعة الصليبيين بتلك المحاولات طالما بقيت في مصر حكومة ضعيفة<sup>[٢]</sup>.

وهنا لا بدّ من القول إنّ أوروبان الثاني بدأ المشروع الصليبيّ بتصوّرات معيّنة، أمّا الآن بعد الحملة الرابعة، فإنّ الفكرة الصليبية أصابها التطوّر الذاتي من خلال قوتها المتنامية وضعف جيرانها، لذلك سيُمدّد التوسّع الصليبي إلى مناطق جديدة، لذلك كانت حملة عام (٥١٢هـ / ١١١٨م) استكشاف ليتلوها الغزو الفعلي في الحملة الخامسة<sup>[٣]</sup>. هذا من جهة، ومن جهة أخرى الإيديولوجيا التي انطلقت منها الفكرة الصليبية أخذت تفسد ويظهر زيفها مع مرور الزمن، وبدأت تظهر الأهداف والدوافع الحقيقية التي كانت متوارية خلف الضجّة الإعلامية للحرب<sup>[٤]</sup>.

وإذ انحرفت الحملة الرابعة عن هدفها الأساسيّ واتّجهت إلى القسطنطينية، فإنّ الحملة الخامسة (٦١٥-٦١٨هـ / ١٢١٨-١٢٢١م) استهدفت مصر بشكل مباشر<sup>[٥]</sup>، إذ تمّ توجيهها في بابوية أنوسنت الثالث الذي رغب في رفع شأن البابوية ليكون لها السلطة العليا الدنيوية من خلال القيام بعمل صليبيّ ضخم يجني من ورائه نصراً يعوّض به فشل الحملة الرابعة، وليؤيد نصر الغرب في معركة العقاب عام ١٢١٢م بانتصار آخر في الشرق<sup>[٦]</sup>.

وأكثر ما يوضّح التغيير الذي طرأ على الإستراتيجية العسكرية في الفكر الأوروبي في ذلك

[١]- محمود عمران، المرجع السابق، ص ٥٢. محمّد سهيل طقوش، تاريخ الزنكين، ص ٣٢١.  
 [٢]- ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٢٢٥-٢٢٦. Fulcher of chartres، ستيفن رنسيومان، المرجع السابق، ج ٢، القسم الأول، ص ٢١.  
 [٣]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ١٠٦-١٠٧.  
 [٤]- قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى، ص ١٤.  
 [٥]- أولفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط، تحقيق: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق، ١٩٩٨م، ج ٣٣، ص ٣٨.  
 [٦]- محمّد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص ٢٨-١٤١-١٤٢. KENNETH M. SETTON، p381.

الوقت، أن أصبحت مصر هدفاً لتحقيق أطماعهم ليس في الشرق فقط، وإنما في كل العالم الإسلامي، فقد أرادوا في هذه الحملة توجيه ضربة لدولة العادل الأيوبي قبل أن يتمكن من القضاء على بقية الإمارات الصليبية المتفككة في بلاد الشام، لذلك دعمها البنادقة بهدف السيطرة الكاملة على الموانئ التي لهم فيها امتيازات تجارية<sup>[١]</sup>. كانت الحملة بقيادة جان دي برين، وقد اتسمت بالعدوانية وطابع التعصب<sup>[٢]</sup>؛ فبعد استيلاء الصليبيين على دمياط أنزلوا بأهلها القتل والأسر والنهب، بينما احتفظ جاك دي فترى بأربعمائة طفل تم تعميدهم، ما يؤكد ارتباط الناحية التبشيرية عند الصليبيين بالفكرة الصليبية نفسها، ووزعوا أحياء المدينة وأبراجها على الفرق الصليبية الموجودة في الحملة<sup>[٣]</sup>.

لكنَّ الغريب في الأمر، أنَّ البابوية كان لها دور في فشل الحملة؛ إذ سمحت للصرع بين المندوب البابوي الكاردينال بيلاجيوس والملك جان دي برين أن يتحوّل إلى صراع بين السلطة الدينية والسلطة والزمنية<sup>[٤]</sup>. وفي محاولة من البابا هونوريوس الثالث الهيمنة على الحملة حتى لا تتعرض لما تعرضت له الحملة الرابعة، منح مندوبه صلاحيات مطلقة تعلق على صلاحيات القادة الزميين. ومما ساهم في فشل الحملة، أخطاء رجال الدين في إدارتها، فانتاب المندوب البابوي الغرور والعجرفة وعدم الحيلة<sup>[٥]</sup>، فكانت هذه الحملة آخر محاولات البابوية في توجيه حملة صليبية تحت قيادتها فقط ولحسابها منفردة، لذلك كان فشلها ضربة موجّهة لهيبتها<sup>[٦]</sup>.

### سادساً: ضعف الممالك الصليبية يؤدي إلى الحملة السادسة

أحرزت الحملة السادسة (١٢٢٨-١٢٢٩م) من نجاح بقدر ما أحرزت الحملة الخامسة من فشل، لكنَّ ظروف الحملة ووسائل سيرها جعلت نجاحها يفوق في نكته فشل الحملة الخامسة، فهي حملة فريدة في ذاتها، علمانية خاصة، وجرى توجيهها دون أن تقوم بأي عمل عدائي ضدَّ المسلمين<sup>[٧]</sup>، ولم تباركها البابوية بل صبّت عليها لعنتها، وحرصت على فشلها حتى لا يُقال إنَّ الرجل الخارج على طاعة بابا روما قد حقق نجاحاً لم يسبقه إليه أحد. وقد حاربت هذه الحملة؛ لأنَّها أفقدتها الدور الدبلوماسي الذي كانت تقوم به في سبيل الدعوة والاتصال بين القوى السياسية

[١]- أولفر أوف بادربورن، المصدر السابق، ج٣٣، ص٥٧. أرنست باركر، الحروب الصليبية، ص١٠٩-١١٠.

[٢]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج١، ص٨٠.

[٣]- محمود عمران، المرجع السابق، ص٢٨٣.

[٤]- أولفر أوف بادربورن، المصدر السابق، ج٣٣، ص٧٩-٨٣. محمود عمران، المرجع السابق، ص٣٢٥.

[٥]- محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، ص٣٢١-٣٢٢.

[٦]- أولفر أوف بادربورن، المصدر السابق، ج٣٣، ص١٠٩. مصطفى وهبة، المرجع السابق، ص٤٥.

[٧]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص١١١.

المختلفة للمشاركة في هذا المشروع<sup>[١]</sup>.

لم تتخذ هذه الحملة صفة الحرب المقدسة، فقد ساد أوساط الحملة روح التسامح والشعور بالودّ والمجاملة، فبدت وكأنّها زيارة ودية لملك شرقي صديق<sup>[٢]</sup> من قبل ملك صقلية فريديريك الثاني (٦٢٢-٦٤٨هـ / ١٢٢٥-١٢٥٠م) المشهور بحريته الفكرية وميله نحو الشرق، فما حدث هو نوع من المساومة بينه وبين سلطان مصر الكامل الأيوبي، فالإمبراطور فريديريك لم يكن في مركز يسمح له أن يصل إلى هدفه باستعادة القدس عن طريق القوة، فالكثير من زعماء الصليبيين في الشرق لم يتعاونوا معه، ولم تتحمس الداوية والإسبترية له بسبب حرمانه من الكنيسة، ولم تأت معه قوة كبيرة يستطيع بها أن يوجه ضربة حاسمة للقوات العربية، ولم يكن السلطان الملك الكامل في موقف يسمح له بتحدّي الإمبراطور<sup>[٣]</sup>، فالتقت وجهتا نظر الزعيمين على ضرورة الوصول إلى حلّ عن طريق المفاوضات<sup>[٤]</sup>، فوقّعت هدنة لمدة عشر سنوات عادت فيها القدس للصليبيين اتفاق يافا عام (٦٢٦هـ / ١٢٢٩م)، وغادر فريديريك بلاد الشام بعد زيارته لبيت المقدس لنتهي بمغادرته الحملة الصليبية السادسة.

### سابعًا: الحملة السابعة جولة عسكرية فاشلة

قامت هذه الحملة نتيجة عودة القدس للمسلمين عام (٦٤٢هـ / ١٢٤٤م) على يد القوات الخوارزمية التي استعان بها الملك الصالح أيوب، ونتيجة معركة غزة التي تعدّ أعظم كارثة حلّت بالصليبيين بعد معركة حطين؛ إذ كادت أن تستأصل شأفة الإسبترية والداوية<sup>[٥]</sup>. صحب الحملة قيام مجمع ليون عام ١٢٤٥م، ودعوة البابا أنوسنت الرابع للحملة التي ستؤدّي إلى تدمير الحروب الصليبية بمعناها الأصلي الديني، فقد أثر استخدام أغراضه السياسية لاستعادة بيت المقدس، بينما كان موقف العلمانيين معاكسًا لموقف البابا؛ إذ نهضوا في هذه الحملة لنصرة المعنى الروحي للحروب الصليبية، وإن كان هذا الموقف ضدّ البابوية نفسها<sup>[٦]</sup>.

وقد تنبّه البابا أنوسنت الرابع للقوة الجديدة التي ظهرت على مسرح الأحداث في الشرق متمثلة

[١]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢١.

[٢]- محمّد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، ص ٣٤٤.

[٣]- حامد أبو سعيد، المرجع السابق، ص ٣٦٢.

[٤]- المقريري تقي الدين أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: زيادة، القاهرة، ١٩٤١م، ج ١، ص ٢٢٨. عادل حمزة، المرجع السابق، ص ٢٩٩.

RICHARD VAUGHAN, *Europe in the Middle Ages Selected Studies*, oxford, 1979, v11B, p321.

[٥]- حامد أبو سعيد، المرجع السابق، ص ٣٨٥. عصام شبارو، المرجع السابق، ص ١٩٠. KENNETH M. SETTON, p489.

[٦]- ستيفن رنسيمان، المرجع السابق، ج ٣، القسم الثاني، ص ٤٤١. أرنست باركر، المرجع السابق، ص ١٢٠.

بالمغول، فما قاموا به من أعمال حربية وتدمير وقتل، يشابه ما قام به الصليبيون في القدس، فكانت لديه الرغبة في استغلال هذه القوة في محاربة العرب ومحاصرتهم من الشرق والغرب بين قوتين، فأرسل البعثات للقيام بحرب صليبية عامة لانتزاع الأراضي المقدسة من الحكم الإسلامي، وهذا ما فعله الملك لويس التاسع لتحقيق هذه السياسة قبل مغادرته أوروبا، وحتى بعد وصوله جزيرة قبرص عام ١٢٤٩م<sup>[١]</sup>.

اتّجه الملك لويس التاسع بهذه الحملة لمهاجمة مصر عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، دون أن تسفر اتصالاته مع التتار إلى أي نتائج ولعل ما اشتهرت به مصر من الثروة والمناعة، مع ضعف الدولة الأيوبية، ساهم في اختيارها هدفاً لهذه الحملة<sup>[٢]</sup>.

فشلت الحملة الصليبية بعد معركة المنصورة<sup>[٣]</sup>، وأجبر الملك لويس على المغادرة إلى عكا بقي فيها أربع سنوات (١٢٥٠-١٢٥٤م) يحاول أن يوطد مملكة بيت المقدس وتصفيه الخلافات بين الأمراء الصليبيين<sup>[٤]</sup>، وجمع جيشاً صليبيّاً تحضيراً لحملة جديدة، لكن عدم وجود الإمكانيات واستمرار النزاعات بين البابوية والإمبراطورية، أصاب أوروبا بالشلل، فغادر الشرق عام ١٢٥٤م<sup>[٥]</sup>.

#### ثامناً: آخر الحملات الرئيسة الحملة الثامنة

بعد مغادرة لويس التاسع عكا زادت المنازعات بين الأمراء الصليبيين والتجار الإيطاليين<sup>[٦]</sup> والمنظمات العسكرية الداوية والإستبارية. بالمقابل على الجبهة العربية، ثبتت أركان الدولة المملوكية بعد انتصار المماليك في عين جالوت عام ١٢٦٠م، فرتب الظاهر بيبرس الجبهة الداخلية للدولة، ورتب علاقاته الخارجية، وبدأ بتحرير البلاد من الوجود الصليبي بحرب شاملة<sup>[٧]</sup>، فقضت انتصاراته على آمال الصليبيين في البقاء طويلاً في بلاد الشام، ونشط دعاة الحركة الصليبية في

[١]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ص ٢٥٥-٢٧٢. فايد حماد محمد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، لبنان، ط ١، ١٩٩٥م، ص ٨٢-٨٩.

[٢]- ابن تغري بردى، المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٣٠. فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص ٦١-٦٢. المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٣٣٦. ستيفن رنسيمنان، المرجع السابق، ج ٣، القسم الثاني، ص ٤٤٥.

[٣]- المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٣٥٦. ابن تغري بردى، المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٦٦. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك، ص ٣٧.

[٤]- ابن تغري بردى، المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٦٩. فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص ١٢٩-١٣٠.

[٥]- مصطفى وهبة، المرجع السابق، ص ٥٣.

[٦]- شارل ديل، المرجع السابق، ص ٥١. RICHARD, Op, Cit, V11B, p361.

[٧]- فتم تحرير قيسارية وأرسوف عام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م، وتحرير صفد وهونين وتبين ومدينة الرملة وبلاد سيبس عام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م، وتحرير يافا وأنطاكية عام ٦٦٦هـ/١٢٦٨م. المقرئزي السلوك، المصدر السابق، ج ١، ص ٥٢٦-٥٣٤-٥٥٢-٥٦٥-٥٦٨-٥٧٠. ابن تغري بردى، المصدر السابق، ج ٧، ص ١٤٠-١٤٣. فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص ١٤٥-١٤٦-١٤٩-١٥٠-١٥٥. وفاء محمد علي، جهود المماليك الحربية ضد الصليبيين، الإسكندرية، ط ٢، ١٩٩١م. ص ١١-٢٤. عزمي عبد محمد أبو عليان، مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، الأردن، ط ١، ١٩٩٥م، ص ٣٣-٤٣-٥٠.

محاولة لإنقاذ الوجود الصليبي. وبعد تدهور قوة مملكة أرمينيا، توجه الصليبيون نحو قبرص، وتمّ توحيد التاجين تحت حكم الملك هيو الثالث، الذي بدأ يعمل في عدّة اتجاهات لتقوية الجبهة الداخلية للمملكة، فتارةً يفكرّ بقدوم حملة جديدة، وتارةً يشجّع المغول على غزو بلاد الشام<sup>[١]</sup>.

وفعلاً كانت حملة الملك لويس التاسع، وهي ثالث الحملات بالنسبة له، لكنّ وجهتها هذه المرة كانت نحو تونس عام ١٢٧٠م، فالهدف منها استمالة حاكمها المستنصر إلى المسيحية على المذهب الكاثوليكي، مع إضافة إقليم جديد يقع في بقعة بالغة الأهمية الإستراتيجية<sup>[٢]</sup>، ومن ثمّ مواصلة الزحف إلى مصر التي أصبحت خطّ الدفاع الأوّل عن العالم العربيّ، ومركز إمداده بالجند والميرة والسلاح، فالقضاء عليها يؤديّ إلى امتلاك الأراضي المقدّسة وتحقيق الأطماع الصليبية<sup>[٣]</sup>.

لكنّ موت الملك لويس التاسع بمجرد وصوله سواحل تونس، أصاب الحملة بالفشل<sup>[٤]</sup>، وكانت النهاية الفعلية للحملات الصليبية، فلم يعد يخرج من أوروبا جيش لإنقاذ الإمارات الفرنجية في الشرق<sup>[٥]</sup>. ترافق ذلك مع تكثيف سلاطين المماليك<sup>[٦]</sup> جهودهم للقضاء على بقايا الإمارات الصليبية في بلاد الشام، إضافة لذلك تغيير سياسة المدن التجارية البندقية وجنوا باعتماد التعامل المكشوف والمباشر مع المماليك<sup>[٧]</sup>؛ إذ تمكّن قطز ثمّ بيبرس ثمّ قلاوون من توظيف سلسلة من التحالفات والمعاهدات مع المغول والصليبيين، مع متابعتهم تحرير الأرض العربية، فكانت عكاً آخر مدينة يتمّ تحريرها في عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م<sup>[٨]</sup>، فذهبت عبثاً صيحات هنري الثاني ملك قبرص الذي أرسل يستنجد بالغرب، موضحاً أنّ يوم عكاً قريب<sup>[٩]</sup>، ولم يعد يتمكن البابا جريجوري العاشر من الإعداد لحملة صليبية جديدة، فرغم لباقة التقارير التي جمعها عن سبب عداء الرأي العام لهذا الموضوع، إلّا أنّها لم تتعرّض للمشكلة الجوهرية، وهي أنّه لم يعد للحرب الصليبية التقليدية ذاتها قيمة بعد هذا التاريخ.

[١]- فايد حماد محمّد عاشور، المرجع السابق، ص ١٥٨-١٦٠. عزمي أبو عليان، المرجع السابق، ص ٦٣.

[٢]- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٣، القسم الثاني، ص ٥٠١.

[٣]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ٨٠-٨١.

[٤]- المقرزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٥٩٠. محمّد سهيل طقوش، تاريخ المماليك، ص ١٢٧.

[٥]- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٣، القسم الثاني، ص ٥٠٣.

[٦]- وفقاً لمعايير عناصر القوة ومعايير ممارسة النفوذ، كانت دولة المماليك ولمدّة ثلاثة قرون الفاعل المركزي في العلاقات الإسلامية الدولية. نادية لظفي، المرجع السابق، ج ١٠/ص ٧.

[٧]- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٣، القسم الثاني، ص ٥٧٥.

[٨]- المقرزي، المصدر السابق، ج ١، ص ٧٦٤. وفاء محمّد علي، المرجع السابق، ص ٣٤.

[٩]- أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي، المختصر في أخبار البشر، دار الطباعة الشهبانية، ١٢٨١هـ، ج ٤، ص ٢٥-٢٦. عزمي أبو عليان، المرجع السابق، ص ٨٢-٨٤.

## خاتمة

الحركة الصليبية مرحلة من مراحل الكفاح الطويل بين الشرق والغرب، جاءت نتيجة عمليات تطوّر بطيئة مستمرة لفترات متباعدة، وقد تركت آثارها لأحقاب أخرى بعد نهايتها. فهذه الظاهرة التاريخية تمثل روح العالم الغربي الوسيط والأفكار السائدة فيه تمثيلاً صادقاً في ناحيتي الدين والحرب، الأولى مثلتها قوة الكنيسة المسيطرة في تلك القرون<sup>[١]</sup>، والثانية مثلها النظام الإقطاعي، فكانت الحرب صناعة الفرسان<sup>[٢]</sup>. كما أنّ النزاع بين البابوية والإمبراطورية جاء وسيلة لاستنفاد الطاقة التي تزوّد بها المجتمع الغربي خلال نهضة القرن الحادي عشر، وكان من المتعذر أن تستنفد هذه الطاقة في صراع داخلي، فلا بدّ من البحث عن منفس خارجي لتوجيه هذه الطاقة إليه<sup>[٣]</sup>. وممّا شكّل الفكرة الصليبية وساهم في تكوينها، ثلاثة روافد أساسية، الحرب المقدّسة والحجّ المسيحي، الحروب الإقطاعية وحركة السلام التي كانت نتيجة مباشرة لها كتيّار جرمانى، ثمّ المؤثرات الإسلامية نتيجة غير مباشرة كتيّار خارجي<sup>[٤]</sup>.

تمتدّ الحملات الصليبية الرئيسة المتوجّهة إلى بلاد الشام ما بين عامي (١٠٩٥-١٢٩١م). هذه المرحلة التاريخية تمثل الدور الحاسم التقليدي لتلك الحركة، لكنّ هذه الحركة بمعناها الواسع لها جذور ومقدّمات، والتّيّار الصليبي استمرّ بعد تحرير عكا عام ١٢٩١م طيلة القرن الرابع عشر الميلادي<sup>[٥]</sup>. والسبب في اتّخاذ الحروب الصليبية أرقاماً معيّنة، ترجع إلى أنّها حدثت بعد وقوع كارثة مثل عودة الرها عام ١١٤٤م، فكانت الحملة الصليبية الثانية، أو تحرير القدس عام ١١٨٧م، أو قادها ملوك وأباطرة مثل الحملة الصليبية الثالثة، أو لما أحرزته من نجاح أو فشل مثلما جرى للحملتين الرابعة والخامسة، إذ قلّما مضى عام دون أن يقدم أثناءه جماعات جديدة إلى الأرض المقدّسة<sup>[٦]</sup>. فالحملات الصليبية مشروع واحد لا يتجزأ، وإنّ كان الهدف من التجزئة سهولة الدراسة<sup>[٧]</sup>.

إنّ النظرة التقليديّة لأسباب قيام الحرب الصليبية جعلت السبب الديني هو الأساس في قيامها،

[١]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢٠.

[٢]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ٤١-٤٢.

[٣]- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ص ٢١.

[٤]- قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ١٣.

[٥]- محمّد ماهر حمادة، المرجع السابق، ص ١٩.

[٦]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص ٧٣.

[٧]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٨٦-٨٧.

فهو حجّ مسلّح، هدفه تحرير القبر المقدّس في كنيسة القيامة<sup>[١]</sup>. علماً أنّ مصطلح الحملة الصليبية لم يظهر إلّا في منتصف القرن الثالث عشر، ليحلّ محلّ التعبيرات السابقة مثل الطريق، رحلة القدس، الرحلة الاستكشافية، العبور إلى ما وراء البحر.

لا يمكن إنكار العامل الدينيّ، لكنّه كان نابعاً من تديّن عاطفيّ يقوم على التعصّب المقيت، ولم يكن نابعاً من تديّن عقلائيّ حقيقيّ<sup>[٢]</sup>. ففكرة الحملة الأولى تعبّر عن كيف كان الأوروبي في ذلك الزمان لا يسمح أن يعترف بوجود «الآخر»، فهذا «الآخر» لم يكن نتاجاً لمعرفة واقعية، إنّما كانت صورته نتاج دعاية نزقة غدّتها الكنيسة وغلّفها روح التديّن العاطفي الذي يشوبه التعصّب المقيت<sup>[٣]</sup>، وهناك أدلّة ملموسة تكشف عن استغلال عامل الدين، مثل الخطاب المنسوب إلى ألكسيس كومنين<sup>[٤]</sup>.

لو كانت الحروب الصليبية مجرد حركة لاسترداد الأراضي المقدّسة وحماية الحجّاج الغربيين، لاقتصر ميدانها على بلاد الشام، لكنّها كانت وسيلة للتعبير عن رفض الأوروبي لأوضاعه السيئة، ولعلّ الصفقات التجارية المعقودة بين التجّار الإيطاليين ومملكة بيت المقدس فيما بعد، تعطي دليلاً على المصالح الاقتصادية للحركة الصليبية؛ لأنّها تفتح طريق التجارة إلى بلاد الشرق، سواءً بلاد الشام والعراق وصولاً إلى الهند والصين. ويؤكد وضوح هذا الاتجاه الاستغلالي في الاحتلال والسيطرة، تطوّر العلاقات بين الجاليات التجارية والممالك الفرنجية إلى قتال وحروب دامية على المكاسب والأموال<sup>[٥]</sup>، لذلك كان شعار التجّار البنادقة «لنكن أولاً بنادقة، ثمّ لنكن بعد ذلك مسيحيين»<sup>[٦]</sup> Sismo Venezini, poi Christiani. فالعامل الاقتصادي له من القوّة والأهميّة ما يجعله سبباً في تحريك الأحداث<sup>[٧]</sup>.

أمّا سياسياً، فقد وجدت البابوية فيها وسيلة ناجحة لتوجيه الغرب نحو وجهة واحدة، حيث تمكّنت من خلالها من تحقيق سياسة واحدة مهيمنة على مقدّرات القوى السياسيّة، فحجم المكاسب كان ضخماً، وقد تهيأ لكلّ الدوافع السابقة القائد الفرد الذي امتلك القدرة على تحريك

[١]- وليم الصوري، المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٨-١٧٣. أرست باركر، المرجع السابق، ص ٢٢.

[٢]- يوشع براور، عالم الصليبيين، ص ١٨.

[٣]- فوشيه الشارترى، المصدر السابق، ص ٤. محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٣٢.

[٤]- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، الملحق الأوّل، ص ٣٠٧.

[٥]- المرجع السابق، ج ١، ص ٨٩. سعيد عبد الفتّاح عاشور، الحركة الصليبية، ص ٣٧.

[٦]- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢٤.

[٧]- سعيد عبد الفتّاح عاشور، الحركة الصليبية، ص ٣٤. شاعر مصطفى، المرجع السابق، ص ١٠.

أحداث التاريخ وتحريك الحشود الضخمة من البشر من أجل المشاركة في تحويل الفكرة القائمة إلى واقع معاش تشترك الجماهير في صنعه، وهو ما حدث البواعث مع القائد التاريخي والجماهير ككتل شعبية صنعت الأحداث، فكانت الحروب الصليبية<sup>[١]</sup>.

ولكن ما هيئاً الأذهان والعقول لانفجار الأحداث وجعل لكلمات أوربان أثراً فعلياً معاشاً، هو انتشار ظاهرة العنف في المجتمع الأوروبي، فعرض أوربان الفكرة على شكل حرب تحرير وكفارة قاسية تستحق المديح لتحقيق هدفين: الأول تخليص الكنائس الشرقية، وخاصة بيت المقدس؛ أي تحرير الشعب، والثاني تخليص بيت المقدس من حالة العبودية التي يعيشها؛ أي تحرير المكان. وهذا ما جعل الحملة الأولى رحلة للحج إلى الأرض المقدسة<sup>[٢]</sup>.

كانت هذه الحملة نتاجاً لخبرات الذين شاركوا فيها، فأصبحت المثال الذي جرت أوروبا على مدى قرنين تقريباً منذ عام ١٠٩٦ وحتى ١٢٩١ م على الاهتداء به، وعلى درب هذه الحملة المظفرة توالى على شاطئ المتوسط الشرقي موجات عديدة جاءت بعشرات الألوف من الحجاج المسلحين<sup>[٣]</sup> الذين سعوا إلى تحقيق المجد والشهرة والمال من خلال أعمال السلب والنهب والعنف، فكانت الحملات الصليبية هي حركة الاستخراب الأوروبي في العصور الوسطى لسلب ثروات المنطقة العربية البالغة الحيوية في حركة الاقتصاد العالمي حينذاك<sup>[٤]</sup>.

هيأت الحروب الصليبية للناس أن يوقنوا بأنهم لم يبلغوا العالم الآخر إلا بما يقومون به من قتال عنيف على ظهر الأرض<sup>[٥]</sup>. هيئاً هذا المبدأ مشاركة أوروبيين في الحملات الصليبية كافة، وقد أتى بنتائج جيدة ساهمت باستمرار الصليبيين في بلاد الشام على مدار قرنين من الزمان، خصوصاً أن الإمارات الصليبية التي أقيمت، كانت حريصة على تحقيق الربح والكسب المالي، فكانت الغارات متواصلة على المناطق الريفية غير المحصنة والاستيلاء على المواشي ومناطق الرعي وتدمير المحاصيل لهروب السكان؛ سياسة اتبعتها الصليبيون مع المناطق الداخلية لطرد السكان الأصليين، وما يوضح رغبات الصليبيين معاملتهم مع مسيحيي بيت المقدس بعد المذبحة الرهيبة التي حصلت لسكانها؛ فقد استولوا على أديرتهم وطردوهم من الكنائس والبيوت، وغادرها البطريك إلى القاهرة<sup>[٦]</sup>.

[١]- محمد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢١-٣٠.

[٢]- جوناثان ريلي -سميث، المرجع السابق، ص ٢٦-٣٩-٤٠-٤٨-٥٧-٥٨.

[٣]- قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى، ص ١٢. يوشع براور، المرجع السابق، ص ٢١.

[٤]- محمد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ١٣.

[٥]- أرنست باركر، المرجع السابق، ص ١٣.

[٦]- مصطفى وهبة، المرجع السابق، ص ٢٧.

والواقع أنّ الحرب هي الغرض الأساسي الذي قامت لأجله الحملات الصليبية، فالحرب كانت أساس الحياة في الإمارات التي أقيمت في الشرق العربي. وما يؤكّد هذه القاعدة عدم تمكن قادة الحملات الصليبية من تنفيذ وعودهم بل وضعفهم على فرض معاهداتهم على الأطراف الذين يقدمون لهم المساعدة، فإذا استطاع بلدوين الالتزام بوعوده لحاكم طرابلس، فلم يتعرض للنهب والتخريب ما كان تحت يديه من المناطق؛ فإنه لم يستطع فرض ذلك على الجنوبيين، الذين شقوا طريقهم إلى داخل طرابلس فأخذوا ينهبون ويحرقون الدور ويقتلون كل من صادفهم. وفي غمرة هذه الفوضى أتى الحريق على مكتبة بني عمار التي كانت تعدّ أروع مكتبات العالم، فحلّ الدمار بكل ما تحويه<sup>[١]</sup>. ومن أجل هذه الحرب ارتكب الصليبيون العديد من الجرائم الدموية. إنهم همج أتوا لتدمير حضارة الشرق التي احتاجت لقرنين من الزمان لتتمكّن من التأثير على طباع هؤلاء المحاربين فتهذبها إنسانياً وأخلاقياً.

[١]- رنسيان، ج٢، القسم الأول ص ١١٣-١١٤.

## لائحة المصادر والمراجع

١. ابن الأثير عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرام، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر طليعات، القاهرة، ١٩٦٣م.
٢. ابن الأثير عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرام، الكامل في التاريخ، حققه: عمر عبد السلام تدمري، ج ٨، بيروت، دار الكتاب العربي، ٢٠١٢م.
٣. أرنست باركر، الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، بيروت، ط ٤، ١٩٦٧م.
٤. أرنول، ذيل تاريخ وليم الصوري ١١٨٤-١١٩٧م، تر: سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٣م.
٥. أسامة بن منقذ، الاعتبار، حرره: فيليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ب.ت.
٦. إسمنت غنيم، الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية انحرافها ضد القسطنطينية، دار المعارف، ١٩٨٢م.
٧. أودو أوف دويل، الحملة الصليبية الثانية كتاب رحلة لويس السابع إلى الشرق، تر: سهيل زكار.
٨. أولفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط، تحقيق: سهيل زكار، الجزء ٣٣ من الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق، ١٩٩٨م.
٩. ابن تغري بردي أبو المحاسن جمال الدين يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، ١٦ جزء.
١٠. ابن جبير أبو الحسين محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير، دار صادر، ب.ت.
١١. جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، مكتبة الحروب الصليبية، بيروت، ط ٣، ١٩٨١م.
١٢. جوفري دي فانسوف، الحرب الصليبية الثالثة صلاح الدين وريتشارد تر: حسن حبشي، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ١٨١-١٨٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.
١٣. جوناثان ريلي - سميث، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، تر: محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٩٩م.
١٤. حافظ أحمد حمدي، الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، دار الفكر العربي، ط ١، ٢٠٠٠م.
١٥. حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية جبهة الشام وفلسطين ومصر، دار السلام، ٢٠٠٧م.
١٦. رأفت عبد الحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، ط ١، ١٩٩٨م.
١٧. روجر أوف ويندوفر، ورود التاريخ، تحقيق: سهيل زكار، ج ٣٩ من الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ٢٠٠٠م.

١٨. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت القدس، تر: حسين عطية، الإسكندرية، ١٩٩٠م.
١٩. سالم محمد الحميدة، الحروب الصليبية عهد الجهاد المبكر، ج٢، بغداد، ١٩٩٠م.
٢٠. ستيفن رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، ج١، لبنان، ١٩٩٧م.
٢١. سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤م.
٢٢. سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٩١م.
٢٣. سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ج١، القاهرة، ط٢، ١٩٧١م.
٢٤. سهيل زكار، الحروب الصليبية الحملتان الأولى والثانية حسب روايات شهود عيان كتبت أصلاً بالإغريقية والسرانية والعربية واللاتينية، دمشق، ط١، ١٩٨٤م.
٢٥. شارل ديل، البندقية إمبراطورية أرستقراطية، تر: أحمد عزت عبد الكريم، توفيق إسكندر، دار المعارف، ١٩٤٨م.
٢٦. شاكرو مصطفى، صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه، دمشق، ط١، ١٩٩٨م.
٢٧. عادل حمزة، العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والإمبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
٢٨. عزمي عبد محمد أبو عليان، مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، الأردن، ط١، ١٩٩٥م.
٢٩. عصام محمد شبارو، السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري السلاجقة- الأيوبيون، بيروت، ١٩٩٤م.
٣٠. علي السيد علي محمود، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.
٣١. علي محمد الصلابي، الأيوبيون بعد صلاح الدين، دار المعرفة، ط١، ب، ت.
٣٢. علي عبد السميع الجنزوري، إمارة الرها الصليبية، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٢١١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ٢٠٠١م.
٣٣. عماد الدين خليل، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي عصر ولاة السلاجقة في الموصل ٤٨٩-٥٢١هـ/١٠٩٥-١١٢٧م، دمشق، ٢٠٠٥م.
٣٤. فايد حماد محمد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، لبنان، ط١، ١٩٩٥م.
٣٥. أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي، المختصر في أخبار البشر، دار الطباعة الشهابية، ١٢٨١هـ.

٣٦. فوشيه الشارترى، الاستيطان الصليبي في فلسطين تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ١٠٩٥-١١٢٧م، تر: قاسم عبده قاسم، طبعة الشروق الأولى، ٢٠٠١م.
٣٧. قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠١م.
٣٨. ابن القلانسي حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي، تاريخ دمشق ٣٦٠-٥٥٥هـ، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان، ط ١، ١٩٨٣م.
٣٩. كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، تر: أحمد الشيخ، ط ١، ١٩٩٥م.
٤٠. متى الرهاوي، تاريخ متى الرهاوي الإفرنج الصليبيون، المسلمون، الأرمن، تر: محمود الرويض، عبد الرحيم مصطفى، الأردن، ٢٠٠٩م.
٤١. محمد ماهر حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ٤٨٩-١٢٠٦هـ/١٠٩٦-١٤٠٤م «دراسة ونصوص»، سلسلة وثائق الإسلام ٥، بيروت، ط ٢، ١٩٨٢م.
٤٢. المرتضى الزبيدي، ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب، تحقيق: صلاح الدين المنجد، بيروت، ط ١، ١٩٦٩م.
٤٣. محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ٥٦٩-٦٦١هـ/١١٧٤-١٢٦٣م، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م.
٤٤. محمد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ٥٢١-٦٣٠هـ/١١٢٧-١٢٣٣م، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م.
٤٥. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧م.
٤٦. محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين ١٢-١٣م/٦١-٧٧هـ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، ٢٠٠٠م.
٤٧. محمود عمران، الحملة الصليبية الخامسة حملة جان دي برين على مصر ١٢١٨-١٢٢١م/٦١٥-٦١٨هـ، جامعة الاسكندرية، ١٩٨٥م.
٤٨. محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية ١٠٩٥-١٢٩١م، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠م.
٤٩. مصطفى وهبة، موجز تاريخ الحروب الصليبية، ط ١، ١٩٩٧م.
٥٠. المقرئ تقي الدين أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: زيادة، القاهرة، ١٩٤١م.
٥١. المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، تر: حسن حبشي، المملكة العربية السعودية، ١٩٥٨م.

٥٢. ناديا محمّد زهير الغزولي، مدينة صور في حقبة الحروب الصليبية ٤٩٨-٦٩٠هـ/١٠٩٦-١٢٩١م، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، ٢٠٠٣م.
٥٣. نادية محمود لطفي، العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية، الجزء العاشر من العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.
٥٤. نعمان الطيب سليمان، منهج صلاح الدين في الحكم والقيادة، ط١، ١٩٩١م.
٥٥. ه.ل. فيشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، تر: محمّد مصطفى زيادة، السيّد الباز العريني، مصر، ط٣، ١٩٥٧.
٥٦. وفاء محمّد علي، جهود المماليك الحربية ضدّ الصليبيين، الإسكندرية، ط٢، ١٩٩١م.
٥٧. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، نقله للعربية: سهيل زكّار، دار الفكر، ط١، ١٩٩٠م، ج١، ص١٤١.
٥٨. يعقوب الفيتري يطيريك عكّا، تاريخ بيت المقدس، تر: سعيد البيشاوي، الأردن، ١٩٩٨م.
٥٩. يوشع براور، عالم الصليبيين، تر: قاسم عبده قاسم، محمّد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط١، ١٩٩٩م.

60. Gino Lazzatto, An economic History of Italy, London, 1961.
61. HANS EBERHARD MAYER, THE CRUSADES, tr: JOHN GILLINGHAM, OXFORD, ED 2, 1988.
62. KENNETH M. SETTON, A HISTORY OF THE CRUSADES, LONDON, 1969.
63. MARGARET RUTH MORGAN, DOCUMENTS SELATIFS A L'HISTOIRE DES CROISADES PUBLIES PAR L'ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLES - LETTRES, XIV, LA CONTINUATION DE GUILLAUME DE TYR 11841197-, PARIS, 1982.
64. RICHARD VAUGHAN, Europe in the Middle Ages Selected Studies, oxford, 1979.
65. STANLEY LANE-POOLE, M.A, SLADIN AND THE FALL OF THE KINGDOM OF JERUSALEM, LONDON, 1985.

## رؤية العالم الغربيّة: الوجود بالإبادة والعيش بالإقصاء حال الحرب أنموذجًا

شهرزاد حمدي [\*]

### الملخص

تتقدّم الحرب بصفقتها حالاً مكثّفة الأهميّة في الكشّف عن الخبايا، وإظهار حقيقة النوايا، والمرامي التي تتوارى خلف الشّعارات الرّجبة. وهذا بالضبط ما أدركنا فعليته من خلال ممارسات العقل الغربي الإبادي في الحروب التي يشنّها في حقّ الشعوب. وأنّ ثقافة الحرب لديه هي ثقافة هجوميّة استعماريّة وليست دفاعية. هذه البربريّة مبنية على رؤية العالم التي مفادها: الوجود بالإبادة، والعيش بالإقصاء، تأسّست بدورها على جملة من المبادئ كان لها الأثر البين في توجيه الأفعال. ولنا في الاستعمار الفرنسي للجزائر، والهجمات الإسرائيليّة في فلسطين، مثالين صادقين على إجراميّة الغرب وتوسّعاته الإمبرياليّة. تهدف ورقتنا البحثيّة إلى بيان ظلاميّة الممارسات الغربيّة في الحروب، وأفعالها الشيطانيّة من تعذيب، وقتل، وتشريد، وفق رؤية العالم المنوطة بها. وأمّا الأدوات المنهجية، فكان الاعتماد الأبرز على المنهج النقدي مع استخدام أساليب التحليل، والتركيب، والاستنتاج.

الكلمات المفتاحيّة: رؤية العالم، المبادئ، الغرب، الحرب، الإبادة.

## مقدمة

إنَّ الحديث عن مُصطلحات مثل رؤية العالم Worldview إنمَّا هو حديث يستجلب الاهتمام، ويستدعي العقل The mind للبحث فيه من عدَّة زوايا، يدلُّ على رؤية كُليَّة شاملة لها قُدرتها على تعيين المراكز، وتشكيل المنظورات الفكرية، وقوالب الفهم، والنماذج المعتمدة في علاقة الإنسان بنفسه وبغيره. والحقُّ أنَّ لكلِّ حضارة رؤية العالم الخاصَّة بها تمثُّلها وتمثُّل بها، ونسلاً من هذه الواقعة الجارية تكوَّنت رؤية العالم الغربية بمجموع خصوصياتها، ومبادئها، وأهدافها، لها سياقاتها التاريخية، وقيمها الثقافية، وفلسفتها السياسية. والفاحص لهذه الرؤية فحصاً يعتمد بالأساس على ما ينقله لنا الحدث، وما نعيشه يومياً سواء كنَّا معنيين بالأمر مباشرة، أو من خلال التداعيات، سيدرك أنَّها رؤية إمبريالية تبيد غيرها من أجل الانفراد بالوجود، وهذا ما يتجلَّى بدون أدنى شكٍّ في حال الحرب The state of war كما هو الشَّان في الاستعمار الفرنسي للجزائر، والاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، التي تشهد على بربرية العقل الغربي، وممارساته التعذيبية للشُّعوب التي يستهدفها بغيَّة استعمارها، وانتهاك حرمتها. وإن كان للحرب أخلاقيات Ethics كما نَظر إلى ذلك المشتغلين بحقل الفلسفة السياسيَّة Political philosophy، فإنَّ السياسة الغربيَّة تُنكرها، ولا تعمل بمقتضاها، بالأخصَّ حينما تكون إبديَّة. ولهذه الرؤية جُملة من المبادئ بمنزلة المحضن التوجيهي والمؤطر لأفعالها، امتدَّت تاريخياً وترسَّخت إلى أن تحوَّلت إلى نمط من الوجود في الفترة المعاصرة، يتوافد تأثيرها إلينا عبر الأحداث الراهنة. ولأنَّ عَصَبَ التَّفلسف، ومُحرِّكه الجوهرية هو الإشكال، فإنَّنا ننتقل منه: كيف شكَّلت رؤية العالم الغربيَّة باعثاً على فعل البربرية، والتعذيب في حال الحرب؟ وفيمَ تتمثَّل أبرز المبادئ التي تأسَّست عليها؟

## أولاً: إمبريالية رؤية العالم الغربية

تأتي رؤية العالم الغربيَّة بما تحمله من عدَّة دلاليَّة تتجلَّى عملياً بصفتها إحدى رؤى العالم التي تستدعي المباحثة الدَّقيقة، والمعانيمة العميقة، والتفكُّر معها وضدَّها، الأولى بغيَّة اكتشاف ماهيتها، والثانية لأجل تعرية مسطورها. كما تستلزم الالتفاتة الفلسفيَّة النَّقدية لها، وذلك راجع إلى إجراءاتها، وما تتركه من أثر في العالم، وما تفرضه من قيم، ونزعات، ونمط وجود على حَسَب مَقاسها، وما تحلُّه من شبكة علاقات، والأهمُّ ما تتضمَّنه من نوايا للهيمنة، والمركزيَّة منوطة بمبادئ، ومفاهيم مُعيَّنة، مثلما تشهد حال الحروب.

## 1\_ رؤية العالم بين المفهوم والأهمية

تتعدّد رؤى العالم، ولا وجود لرؤية واحدة، بل إنّ كلّ حضارة لها رؤية العالم الخاصّة بها، تُعبّر بها عن تقدير تفكيرها، وعن قيم ضميرها، لتُعبّر هي بدورها عنها.

### 1\_1 المفهوم

تتطلّب الضّرورة المنهجية دائماً إحداث وقفة عند محطة الضبّط المفهومي؛ حيث ينبغي الإحاطة في البدء بدلالات المصطلح من الجانب اللغوي، والجانب الاصطلاحي، من ثمّ الانتقال إلى أمور أخرى لها قيمتها المحفوظة مثل الوظائف، والخصائص، والأهميّة.

### من الناحية اللغوية

علم: «من صفات الله عزّ وجلّ العليم والعالم والعلّام، قال الله عزّ وجلّ: وهو الخلاق العليم، وقال: عالم الغيب والشّهادة، وقال: علّام الغيوب فهو الله العالم بما كان، وما يكون قبل كونه، وبما يكون ولما يكن بعده قبل أن يكون»<sup>[١]</sup>. علم؛ أي المعلوم الذي لا يخفى، ولا يُستتر، ومنه صفات الله تعالى العليم بكلّ شيء ما يظهر وما يُبطن، عالم بما هو مُعلن للإنسان، وبما هو غائب عنه في عالم الغيب، وهو يعلم بما كان، وما هو كائن قبل كونه، وبما سيكون، وما سيكون بعده قبل حدوثه. والعالمون: أصناف الخلق، والعالم معناه كلّ الخلق، وإنّ جعل عالم اسمًا لواحد منها أصبح جمعًا لأشياء تتفق في ما بينها، والجمع عالمون، ولا يتمّ جمع شيء على فاعل بالواو والثون إلّا هذا، وقيل: جمع العالم الخلق العوالم<sup>[٢]</sup>. فالعالمون: الإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد، والعالم كلّ شيء مخلوق. وأمّا رأي: «الرؤية بالعين تتعدّى إلى مفعول واحد، وبمعنى العلم تتعدّى إلى مفعولين، يُقال: رأي زيدًا عالما ورأي رأيًا ورؤية وراءه مثل: راعة. وقال ابن سيده، الرؤية النّظر بالعين والقلب. والرؤيا: ما رأيته في منامك»<sup>[٣]</sup>. الرؤية بالعين تتعدّى إلى مفعول واحد؛ أي أنّ الرؤية بالعين تقتصر على العين، وبمعنى العلم تتعدّى إلى مفعولين؛ أي تعتمد على العين والقلب. الرؤية بالتّاء تكون عن طريق العين والقلب؛ بمعنى بالمشاهدة، والمكاشفة، بالملاحظة، وبالتأمّل، والتدبّر، والرؤيا بالألف الممدودة ما يرى في المنام مثل قوله تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي

[١]- ابن منظور، لسان العرب، د.ط، دار صادر، بيروت، د.ت، ج ١٢، ص ٤١٦

[٢]- المرجع نفسه، ص ٤٢٠

[٣]- المرجع نفسه، ج ١٤، صص ٢٩١-٢٩٧

رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ<sup>[١]</sup>. وما يهْمُنَا هي الرُّؤية، التي لا تقتصر على الدَّور الَّذِي تُؤَدِّيهِ العين؛ إذ تنظُر إلى الأشياء من أجل إبصارها، بل تُفيد إلى جانب ذلك الرُّؤية بالقلب، أو البصيرة، وبناء الرَّأي وهو الاعتقاد، ويُقصد بها الإخبار، والإعلام، والرُّؤيا في المنام وغيرها<sup>[٢]</sup>. ما يُشكّل محور اهتمامنا هي الرُّؤية الشَّاملة، والمركَّبة الَّتِي تعني الرُّؤية بالعين والقلب، وصياغة الرَّأي والاعتقاد، والإخبار، والرُّؤيا بمعنى ما نراه في منامنا.

### من النَّاحية الاصطلاحية

تختصُّ رؤية العالم بالصُّورة الكلِّية الَّتِي يُشكِّلها الإنسان لنفسه عن نفسه، عن العالم من حوله، في إطار المكان الَّذِي يُحاول منه الرُّؤية، وزاوية التَّقدير الَّتِي يتبنَّاها، والبيئة الطَّبِيعية، والنَّفسيّة، والاجتماعية، والنَّظام الفكري بتركيبته الثَّقافية، وأطره المرجعية. إنَّ هذه الصُّورة الكلِّية هي الَّتِي تُعرِّف الإنسان حينما ينظُر إليه الآخرون إليه من الخارج، وتُعرِّفه برؤيته الخاصّة لنفسه، وللأشياء من حوله، وهي ما يتداول تحت اسم الرُّؤية الكلِّية، أو الرُّؤية الكونية، أو الفكرة الكلِّية، أو التَّصور الكلِّي، أو الفلسفة العامّة، أو التَّفسير الشَّامل، أو الأنموذج التَّفسيّري، أو الإيديولوجيا، ... أو ما أصبح يُعرف بشكلٍ واسعٍ برؤية العالم. ويُسجَّل حضور هذا المفهوم في عديد الحُقول المعرفية المختلفة، على غرار الدِّين، الفلسفة، العلوم الاجتماعية والطَّبِيعية، الآداب، الفنون، والعلوم التَّطبيقية مثل: الطَّب والهندسة<sup>[٣]</sup>. تُعنى رؤية العالم عناية شاملة؛ إذ تهتم، وتستنفر انهماهما بالصُّورة الكلِّية الَّتِي يُكوِّنها الإنسان تكوينًا مُعقدًا، ومُتعددًا عن نفسه، عن العالم الخارجي في سياق الحيِّز المكاني الَّذِي يَسعى إلى الرُّؤية منه، ووجهة النَّظر الَّتِي يعتمدها، والمحيط الطَّبِيعي، والنَّفسي، والاجتماعي، والنَّسق الفكري ببنيتها الثَّقافية، وخلفياتها المؤطَّرة. لها مُسمّيات مُختلفة، ولكن ما يتداول بصفة وافرة هي رؤية العالم. والملاحظ على هذه المسمّيات أنَّها تُشير إلى كلِّ ما هو شمولي كوني وكُلِّي؛ أي أنَّها رؤية غير تجزيئية، أو اختزالية إنَّما تركيبيّة تُركِّز اهتمامها بكلِّ ما يحتوي، وما يُشكّل العالم، توجد في عدَّة تخصصات، ومجالات معرفية، تجتمع في ما بينها وفق

[١]- سورة يوسف، الآية ٤

[٢]- فتحي حسن ملكاوي، رؤية العالم حضور وممارسات في الفكر والعلم والتعليم، ط ١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هردن، فرجينيا، ٢٠٢١م، ص ٢٥

[٣]- المرجع نفسه، صص ٤٦-٤٧

علاقات بينية متداخلة بموجب فضيلة التكامل المعرفي.

### الجذور الفلسفية لمصطلح رؤية العالم

إن مفهوم رؤية العالم مُتجذّر في المثاليّة الألمانيّة والرُّومانيّة German idealism and Romanticism. لقد صاغ «إيمانويل كانط» Immanuel Kant (١٧٢٤-١٨٠٤م) بالصُّدفة مُصطلح رؤية العالم من خلال ذكره مرّة واحدة في إشارة منه إلى الحدس الدّاخلي، أو الإدراك للعالم الخارجيّ الَّذي لا يُمكن فهمه كما هو في حدّ ذاته. بعدها أصبح المفهوم، وعلاقته بالفلسفة، والعلم محوريًّا في الفلسفة الألمانيّة، على سبيل الذّكر جهود «فلهم دلتاي» Wilhelm Dilthey (١٨٣٣-١٩١١م) الرّائدة في بناء نظريّة لنشأة وجهات رؤية العالم، وصياغتها، ومقارنتها، وتطويرها<sup>[1]</sup>. ويُمكن تفسير هذا التّأصيل الموصول بالمثاليّة الألمانيّة، والحركة الرُّومانيّة، أنّ الفكر الألمانيّ بعموم الشّأن فكر مُناهض نقدي احتجاجي، عُرف بزِعزعتِه للأُسُس الفكريّة المتكلّسة، وبطرح تأويلات جديدة مُغايرة، وإعادة كتابة تاريخ الفكر بمنهج يستحضر المهمّش، ويكشف التّمويهات. وأمّا على نحو الحُصوص فإنّ المثاليّة الألمانيّة الّتي تُؤمن بقوة الفكرة، وقوّة الرُّويّة، وقوّة النّظر، وإمكان امتلاك الوجود. والرُّومانيّة الّتي حاولت التّصدّي إلى النّزعات الماديّة الصّاعدة المدمّرة لقيمة الإنسانيّة Humanity والعقلانيّة المجرّدة Abstract rationality، واهتمّت بكلّ ما هو شاعري انفعالي.

### ١-٢ الأهميّة

يُمكن إيجاز أهميّة رؤية العالم في النّقاط التالية:

#### أهميّة الوعي بالفطرة البشريّة

يتضاعف تقديرنا، ويزداد اعتبارنا لهذه الأهميّة عندما يحصل لنا الإدراك بأنّ موضوع رؤية العالم يتّصل بالرّغبة العميقة، وبالْحاجة الأصيلّة من فطرة الإنسان، في التّقيب عن إجابات لأسئلته الوجوديّة، والغائيّة الّتي يطرحها وجوده الدّاتي، وعلاقته بالكون، ما مصدره؟ وإلى أين يصير؟ بيد أنّ شأن هذه الأسئلة لا يظلُّ مُجرّد إحساس فطري، إنّما يتحوّل إلى جهود عقلانيّة مُنظمة يُؤسّس عليها الإنسان تصوّرات ونظريّات، ويلتزم بموجبها بمعتقدات، ويقوم على أساسها بممارسات،

[1]- Arthur Nilsson, world 'view, personal ideology values and beliefs concerning, metaphysics, epistemology, human nature and morality, department of psychology, Hund university, p10

وتبعاً لذلك تنشأ الأحزاب والدُّول، وتُشنُّ الحروب، وتتأسس المنظمات الدَّولِيَّة بُغية حلِّ التَّراعات، وإحلال السَّلام، وإقامة العدل، أو تزعم أنَّ مُناسِبة نشأتها كانت لهذه الدَّوافع<sup>[١]</sup>. إذن، تنبع رؤية العالم، ويتكوَّن موضوعها، ومحور أسئلتها، والسَّعي للإجابة عليها من الفِطْرة البشريَّة القلقة التي تطرح أسئلة ذات علاقة بوجودها مُتعدِّد العلاقات، تحمِل صبغة غائيَّة؛ بمعنى أنَّها أسئلة مُرتبطة بالبدائيات والنِّهايات. ثمَّ لهذه الحاجة أن تنمو، وتتطوَّر لتُصبح أنموذجاً للنَّظر والعمل، وقد تكون رؤية العالم أداة للتَّمويه والادِّعاء؛ حيث تفعل عكس ما تقول، أو تُعلن أنَّها انبثقت من أجل هدف مُعيَّن إعلاناً مُزيقاً في حقيقته مثلما هو الحال مع الأحزاب والمنظَّمات.

### أهميَّة الوعي بالواقع الاجتماعي والعالمي

لا تتوقَّف أهميَّة رؤية العالم عند حُدود أسئلة الفِطْرة البشريَّة، بل ترتبط ارتباطاً وثيقاً، ومُباشراً بانعكاسات هذه الرُّؤية على سُلوك الإنسان، وردود أفعاله، ومواقفه من الأحداث، وتفاعله مع القضايا السياسيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، وغير ذلك<sup>[٢]</sup>. تكبُر رؤية العالم مع الإنسان، ليتعدَّى مُستوى تأثيرها الفعَّال الحدَّ الفِطْري إلى الواقع الاجتماعي، والثَّقافي، والسياسي العالمي، والانخراط تفاعلياً في الأحداث القائمة، ليكون بذلك جزء من العالم بموجب رؤية العالم الخاصَّة به.

### أهميَّة رؤية العالم بحسبها وحدة تحليل في الأعمال البحثيَّة.

تتضمَّن مادَّة البحث عادة الكثير من المعلومات التي تصف الأشياء، أو الأشخاص، أو الأفكار، تأتي لخدمة هدف مُحدَّد له علاقة ظاهرة مُباشرة بموضوع البحث، أو بخلاف ذلك تكون مُتوارية على نحو غير مُباشر. وما نبحت عنه في البحث هو الَّذي يُوجِّه اجتهادات الباحث في اختياره لتصميم البحث، ونوع البيانات، وكيفيَّات جمعها، وطُرق تحليلها. وهذا المبحوث عنه يُدعى بوحدة التَّحليل. وعندما يتعيَّن الهدف في البحث عن حضور رؤية العالم في مضمون مكتوب، أو كلام منطوق، أو سُلوك مشهود، فإنَّ رؤية العالم تُعدُّ وحدة تحليل، أو أداة إجرائيَّة<sup>[٣]</sup>. إنَّ الواضح النَّاتج عن المعمول به أنَّ المنهج يتبع الموضوع؛ إذ تتحدَّد طبيعته توافُقاً، وموضوع البحث، وما نبحت عنه يُدعى بوحدة التَّحليل، التي تكون رؤية العالم حينما نقود جُهودنا، ونهدف إلى البحث، والكشف عنها. لتبيِّن الأهميَّة النوعيَّة لرؤية العالم المنبثقة من فِطْرة الإنسان تصاعداً إلى حيث

[١]- فتحي حسن ملكاوي، رؤية العالم حضور وممارسات في الفكر والعلم والتَّعليم، مرجع سابق، ص ٨٢.

[٢]- المرجع نفسه، ص ٨٩.

[٣]- المرجع نفسه، صص ٩٢-٩٣.

مقتضيات الحياة العمليّة، والعلميّة بمختلف تحديّاتها. ولرؤية العالم الغربيّة جانباً سوداويّاً تمثّل في همجيّتها بالأخصّ في حال الحرب التي تُهدّر من ورائها الأرواح، وتُسفك الدماء، وتتمزّق الإنسانيّة إرباً إرباً، ويسوقنا هذا الواقع المتأزّم على الطّرف الآخر المضطّهد إلى مُساءلة هذه الرؤية، والتّحرّي عن الأسس المؤطّرة لها، والحاضنة الموجّهة لبربريّتها، بالضّبط بعد انحرافها عن مضمونها الأصلي، وتحوّلها إجرائيّاً إلى فعل التّقيض، وهُنا نتساءل: هل ترتبط اللّحظة التّأسيسيّة لهذا الانحراف بما هو بعدي عن المبادئ، أم أنّه لصيق بها كانت لحظته مُساوقة مخفيّة فقط؟

## ٢- المبادئ المؤسّسة لبربرية رؤية العالم الغربيّة

إنّ لبربريّة رؤية العالم الغربيّة جُملة من المبادئ بمنزلة الخلفيّة الدّاعمة، والأكثر المكوّنة لها، تأسّست عليها النّظرة الغربيّة إلى العالم، لتُشكّل اليوم رافداً قوياً من روافد الإجماع الغربي في الحروب، والاشتباكات المباشرة التي تستهدف الأرواح.

### ١-٢ المركزيّة الإنسانيّة

لقد تأسّست الحداثة Modernism على مركزيّة الذات الإنسانيّة The human self بالتّحديد في عقلانيّتها المختلفة؛ حيث «انبتت على الوعي بالذّات عندما حدّدت نظرة الذّات العاقلة إلى نفسها ذاتيّتها الأوّليّة، والمركزيّة من خلال عمّلها التّفكيري المتواصل ما هو إلّا نتيجة لذلك»<sup>[١]</sup>. يظلّ دائماً العقل في تجلّياته المتنوّعة الأسّ الأوّل لمعرفة الحداثة، التي تكمن بالأساس في الاعتماد على العقل من حيث هو الدّعامّة الأولى لمجموع التّحوّلات العميقة، والقاطعة في كلّ الميادين الفكريّة، واللّسانيّة<sup>[٢]</sup>. لكن، حينما حلّ القرن العشرون تحطّم ذلك التّفاؤل عن طريق مُعسكرات الموت، وفرق الموت، والنّزعة العسكريّة، والحربين العالميّتين، والتّهديد بالإبادة النّوويّة، وتجربتها في هيروشيما وناغازاكي. والأسوأ من هذا، الحُكم على مشروع التّنوير بأن يتحوّل إلى نقيض ما أعلنه، وأن يجعل من مسعى التّحرّر الإنساني إلى نظام اضطهاد عالمي باسم تحرير الإنسان. هذه هي الأطروحة الجريئة التي طرحها «هوركايمر»، و«أدورنو» في مؤلّفهما جدل التّنوير الصّادر عام ١٩٧٢م. لقد حاولا التّدليل بخلفيّة تجربة ألمانيا «هتلر»، وروسيا «ستالين» على أنّ المنطق المتواري خلف عقلانيّة التّنوير هو منطق الهيمنة والقمع. والرّغبة الجامحة في السّيطرة على الطّبيعة

[١]- عبد الوهاب المسيري، فني التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، ط٣، دار الفكر المعاصر، دمشق، ٢٠١٠م، صص ٢١٦-٢١٧.

[٢]- المرجع نفسه، صص ٢٢١-٢٢٢.

حملت معها السَّيطرة على البشر، لينتج من ذلك كابوس قهر الذات<sup>[1]</sup>. إنَّ من أهمِّ مُرتكزات الحداثة الغربيَّة القول باستقلاليَّة الذات، ومركزيَّة الإنسان في مُقابل المركزيَّة اللاهوتيَّة التي كانت سائدة في العُصور الوسطى. هذه المركزيَّة تقوَّمت بدورها على التَّقديم المستمر لفلسفات الوعي المنطلقة من الذات نحوها، والتي تحدَّدت في بُعدها العقلاني المعرفي البحت، مُتجاهلة بقية الأبعاد التي تحتاجها العقلانيَّة في تفكيرها، مثلما أسَّست له كوجيتو الفلسفة الديكارتية وفق منطق مُثول الوجود أمام الفكر. لقد كان العقل الكلمة الفاصلة في زمن الحداثة الغربيَّة، وكان المحرِّك الأوَّل لكلِّ شيء، باختلاف تجلِّيات اعتماده من عقل علمي، عقل فلسفي، عقل ثقافي، عقل سياسي، وغير ذلك من توظيفاته المتنوعة في جميع المجالات. لكن ستسقط هذه الجماليَّة التي بدت أنَّها تُحقِّق أمنيات الإنسان بالتَّقدُّم، وتحسين نوعيَّة حياته، والعيش في سلام بسيادته، ويظهر خداعها، وظلامية إشراقها المزعومة عندما فجرَّ القرن العشرون «قرن التَّعريَّة»، أحداث دموية، ومشاهد من الموت، والحروب، والاضطهاد، لتجد الإنسان نفسه أمام حقيقة تمثَّلت في خيبة أمل جارحة جرَّاء تحوُّل كلِّ شيء إلى عكسه، فكانت التَّنائج مُغايرة لما نصَّت عليه المنطلقات التي خرجت عن النَّسق، فقط حينما كذَّب واقع العَمَل مضامين النَّظر. سوف يُصبح الوعي العقلاني، وتصير عود العلم تهديدًا فعليًّا على حياة الإنسان، بعد أن كانت بمنزلة المخلَّص، والحاضن لها، والمحرِّر من قيود التَّفكير، والتَّعبير، وضمن هذا المعترك قُدِّمت العديد من الطُّروحات الفلسفيَّة النَّقدية المعاصرة التي أبرزت مزالق العقل الأداتي Instrumental mind وخطورته على الحياة الإنسانِيَّة بجعلها حياة مُستلبة، وشيئة فاقدة للقيم، والتَّجارب الوجودية الحيَّة التي تمنح للحياة حياة أخرى غير تلك الماديَّة القاتلة في طلبات العيش الرِّغيد والتَّرف. يتقدَّم هذه الطُّروحات ما تضمَّنت رؤية العالم للنَّظريَّة النَّقدية، أو ما يُعرف بمدرسة فرانكفورت، بوصفها مدرسة احتجاجية ثائرة ضدَّ عقلانيَّة المصلحة والهيمنة، ولهذا كان كتاب: جدل التَّنوير، عيئة فلسفيَّة فرانكفورتية فاضحة لحقيقة منطق التَّنوير، والعقل الحداثي، وكاشفة عن مصير دعوى الفلسفة بسيطرة الإنسان على الطَّبيعة التي انتهت بالسيطرة على الإنسان؛ أي سيطرة الإنسان على الإنسان.

## ٢-٢ تجذُّر الفردانيَّة

إنَّ الإنسان الذي يُمكننا أن ندعوه حديثًا عن استحقاق هو إنسان مُفرد، وإنَّه كذلك بالضرورة وفي جميع الأزمنة، لأنَّ كلَّ خُطوة يقوم بها في سبيل المزيد من وعي الحاضر، تجعله يرسم

[1]- David Harvey, The condition of postmodernity, an enquiry into the origins of cultural change, British library cataloging in publication data, p13.

مَسَافَةٌ بَعْدِيَّةٌ عَنْ مُشَارِكْتِهِ لَصُوفِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ مَعَ مُعْظَمِ النَّاسِ عَنْ انْغِمَاسِهِ فِي الْخَافِيَةِ الْعَامَّةِ<sup>[١]</sup>. فَقَدْ أَسَّسُوا لِتَكُونِ الْفِرْدَانِيَّةِ Individualism مَلْمَحًا جَوْهَرِيًّا مِنْ مَلَامِحِ الشَّخْصِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْحَدِيثَةِ، الَّتِي تَعَاظَمَتْ وَتَرَسَّخَتْ بِمَرْكَزِيَّةِ الْإِنْسَانِ. وَتَنَمُّ الْفِرْدَانِيَّةِ عَنِ الْاِسْتِقْلَالِيَّةِ، وَالْجُرْأَةِ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى الْحَيَاةِ مِنْ دُونَ تَرَدُّدٍ وَلَا خَوْفٍ، وَالْإِيمَانَ بِإِمْكَانَاتِ الْإِنْسَانِ فِي التَّغْيِيرِ مِنْ دُونَ الْحَاجَةِ إِلَى وَصَايَةِ عَلِيَا، أَوْ إِلَى مُشَارَكَةِ جَمَاعِيَّةٍ. بَيِّدَ أَنَّ الْإِفْرَاطَ فِي الْفِرْدَانِيَّةِ أَدْخَلَ الْإِنْسَانَ الْمَعَاصِرَ فِي عَصْرِ مِنْ الْفِرَاقِ بَلُّغَةَ الْفِيلَسُوفِ الْفِرَنْسِيِّ «جِيل لِيُوفْتَسْكَي» Gilles Lipovetsky ١٩٤٤م، فَيُصِفُ حَالِ الْمَجْتَمَعِ الْمَا بَعْدَ حَدَاثِي بِأَنَّهُ مُجْتَمَعٌ لَامُبَالَاتٍ جَمَاهِيرِيَّةٌ، يُسَيِّطِرُ فِيهِ الْإِحْسَاسُ بِالتَّكْرَارِ، وَتَأْتِي الْاِسْتِقْلَالِيَّةُ الْفِرْدَانِيَّةُ فِي مَنْحَاهِ أَمْرًا طَبِيعِيًّا، وَيُسْتَقْبَلُ الْجَدِيدَ كَاسْتِقْبَالِ الْقَدِيمِ، وَيَغْدُو الْاِبْتِكَارُ حَدَثًا عَادِيًّا، وَيَتَوَقَّفُ النَّاسُ عَنِ رُؤْيَةِ الْمُسْتَقْبَلِ بِوَصْفِهِ تَقْدَمًا حَتْمِيًّا<sup>[٢]</sup>. إِنَّنَا فِي خُضْمِ عَصْرِ فِرَاقٍ، عَصْرِ غِيَابِ الْاِهْتِمَامِ، وَالْجَدِيَّةِ، وَالْهَمِّ الْعَمِيقِ الْمَتَّبِعِ بِاجْتِهَادَاتٍ لِمَجَابَهَةِ التَّحْدِيَّاتِ، كُلِّ شَيْءٍ مُكْرَّرٍ، وَمَنْسُوخٍ، لَا وَجُودَ لِعَلَاقَاتٍ حَمِيمِيَّةٍ مِنَ الْعَيْشِ الْمَشْتَرَكِ، لِأَنَّ الْاِسْتِقْلَالِيَّةَ الْفِرْدَانِيَّةَ قَدْ أَضْحَتْ ذَلِكَ الْعَادِي الَّذِي لَا يُثِيرُ أَيَّ مَوْجَةٍ مِنَ التَّفْكِيرِ النَّقْدِيِّ، وَذَلِكَ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي يَنْحُو الْجَمِيعَ مَنْحَاهُ بَعْدَهُ دَفْعًا بِالتَّلَقُّائِيَّةِ. إِضَافَةً إِلَى غِيَابِ الْحَمَاسَةِ فِي اسْتِقْبَالِ الْجَدِيدِ، وَالِالْتِفَافِ حَوْلَ الْإِبْدَاعِ، وَتَغْيِيرِ النَّظَرَةِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ. إِنَّهُ زَمَنُ اللَّامْحَتَمَلِ، وَفِرَاقِ الْقِيَمَةِ، وَذُبُولِهَا، وَعَصْرِ التَّمْيِيعِ، وَالتَّسْخِخِ الْبَاهِتَةِ، وَسِيَادَةِ الْحَيَاةِ الْاِسْتِهْلَاقِيَّةِ الرَّبْحِيَّةِ السَّرِيعَةِ، وَالنَّزْعَةِ النَّرْجَسِيَّةِ، وَالْمَتَّعِيَةِ الْمَفْرِطَةِ. تُعْزَى كُلُّ هَذِهِ الْمَظَاهِرِ الْمَعِيشَةِ إِلَى الْاِتْتِشَارِ الْوَاسِعِ لِلْفِرْدَانِيَّةِ مِنْ دُونَ ضَوَابِطِ، وَلَا كَبْحِ جِمَاحٍ، مِمَّا عَيْنَهَا سَبَبًا وَجِيهًا مِنْ أَسْبَابِ بَرَبْرِيَّةِ الْغَرْبِ، وَتَوْحُّشِهِ فِي ظِلِّ فِرْدَانِيَّتِهِ الْاِنْسَانِيَّةِ، وَنُزُوعِهِ إِلَى الْمَرْكَزِيَّةِ، وَالْاِنْفِرَادِ بِالْوُجُودِ، وَاللُّجُوءِ إِلَى التَّعْنِيفِ وَالْإِبَادَةِ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ ذَلِكَ الْمَطْمَعِ الشَّيْطَانِيِّ.

## ٢-٣ احتيال المحرقة اليهودية

دَعَمًا لِمَوَاقِفِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمُنَدَّدَةِ بِالْاِبْتِعَادِ عَنِ حَيَاةِ الْفُرْقَةِ وَالتَّشْرُذِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْعَيْشِ فِي تَوَلِيفَةِ حَرَارِيَّةٍ مُشْتَرَكَةٍ، اِنْتَقَدَ الْفِيلَسُوفُ الْفِرَنْسِيُّ صَاحِبَ اطَّرُوحَةِ الْفِكْرِ الْمَرْكَّبِ Complex thought وإِبْسْتِمُولُوجِيَا التَّعْقِيدِ Epistemology of complexity «إِدْغَارُ مَوْرَانِ» Edgar Morin ١٩٢١م. الرُّؤْيَةُ الْإِسْرَائِيلِيَّةُ الْاِحَادِيَّةُ الْجَانِبِ، وَصَرَّحَ بِتَهْكُمِهِ: وَعِي إِسْرَائِيلَ بِكُونِهَا صَحِيَّةٌ هُوَ مِنْ يَدْفَعُهَا

[١]- محمد سبيلا، عبد السلام بنعبد العالي، الحدائة وانتقاداتها، نقد الحدائة من منظور غربي، ط١، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م، صص ١٧-١٨.

[2]- Gilles Lipovetsky, Père du vide, essais sur l'individualisme contemporain, éditions Gallimard, Paris, 1999, p 14- 15.

لقمع الشعب الفلسطيني. إنّها تستغلّ كلمة محرقة التي تميّز مصير الشعب اليهودي، وتجعل من الحديث عن بقية المحارق إبادات الغولاغ، والعجر، والسود المستعبدين، والهنود الحمر تفاهة، هي من تُبرّر الاستعمار، والتمييز، والفيديو المطبق على الفلسطينيين<sup>[١]</sup>. تستغلّ إسرائيل خلفيّة المحرقة اليهوديّة، أو الهولوكست Holocaust، وتحتمي وراءها مثل مُبرّر لأفعالها الإجراميّة في حقّ الشعب الفلسطيني، وتحتقر من خلالها المحارق الأخرى، وكأنّ اليهود هم فقط من تعرّضوا للاضطهاد. ثمّ إنّ لا يمكن أبداً الاستناد إلى هذه الخلفيّة، والتسويغ بها لاستعماريتها وبربريتها، وهذا بشهادة الفلاسفة اليهود أنفسهم على غرار «موران»، الذي وصف رؤيتها بأنّها رؤية اختزاليّة أحاديّة لا ترى سوى نفسها، ولا تفكر إلاّ في مصيرها، هي رؤية أنانيّة مصحوبة بممارسات بربريّة.

إذن، تُعدّ المركزيّة الإنسانيّة، وتجذّر الفردانيّة، واحتيال المحرقة اليهوديّة من أبرز مبادئ العقل الغربي التي أطرت إمبرياليّة رؤية العالم الغربيّة، وبالعودة إلى السؤوال المطروح حول منشأ انحراف مبادئ الحداثة، يُمكن القول إنّهُ مُتصل بها، لأنّ هذه المبادئ رُغم مضمونها الإنساني الذي بدا للإنسانيّة جمعاء إلاّ أنّه كان للغربي الأوروبي بالتّحديد، من إعلاء للجنس الآري الألماني، واحتقار بقية الأجناس، ثمّ إنّ الكوجيتو الديكارتّي مثلاً أفضى إلى عُزلة وجوديّة رمادية، وانتهت العقلائيّة إلى أداة للقهر بخاصّة حينما تزوجت مع التّقنيّة، ولنا في الحرب كما تقدّم التّنويه حالاً بيّنة تدلّ على بربريّة، وتوحّش رؤية العالم الغربيّة.

### ٣- الحرب من منظور الغرب: ثقافة حاربه غير مُحاربه

يبرز موضوع الحرب بوصفه أحد الموضوعات إثارة للنقاش، وإقامة للجدل المتدفّق، بكونه على صلة مباشرة بحياة الإنسان، ممّا يجعله يُنذر في كلّ مرّة بإمكان إنهاؤها. والحرب ظاهرة قديمة شهدتها المجتمعات، وكانت من حِقبة إلى أخرى تتّصف بطبيعة جديدة بما يتجاوب، وروح المكان، والزمان الذي تتولّد فيه. ويتكثّف الاهتمام بالحرب في الزّمن الحالي، تبعاً لحداثة نتائجها، ولتطبّعها بطباع مختلفة، ولولوج ميدانها أطراف غيرت موازين القوى، واستحدث طرق من أجل فرض منطقتها، لتفجّرهما توافقاً ومصالحهما<sup>[٢]</sup>. بهذه الكيفيّة يُصبح التّفكير الفلسفي النّقدي حول موضوع الحرب ضرورة لا عدول عنها، وفي ما يخصّ نُقطة تُعدّد طبائعها، فإنّ المقصود

[١]- إدغار موران، المنهج، الأفكار: مقامها، حياتها، عاداتها وتنظيمها، تر: جمال شحيّد، ط ١ المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت، ٢٠١٢م، صص ٩-١٠. للاستزادة والتوسّع راجع كتابه الآخر الموسوم بـ: «ثقافة أوروبا وبربريتها».

[٢]- شهرزاد حمدي، الفلسفة والحرب، احتراق واختراق، سلسلة أقلام فكريّة، موقع صحيفة المثقّف.

بها أنَّ البشريَّة على مَدَار تاريخها عرفت حُرُوبًا عديدة مثل الحرب الدِّيْنِيَّة Religious war ، الحرب العسكريَّة Military war ، الحرب الأيديولوجيَّة Ideological war ، الحرب البيولوجيَّة Biological war والحرب السيبرانيَّة Cyber war . ويمكن تعريف الحرب بأنَّها «عَمَل من أعمال القوَّة لإجبار العدوِّ على تنفيذ مَشِيئتنا»<sup>[١]</sup>. تَهْدِفُ الجَهَّة الَّتِي تُفَجِّرُ الحرب إلى قهر العدو، وإلزامه بالرُّضوخ إلى إرادته من أجل المصالح والمنافع، ولكن هل كلُّ حرب هي حرب ضدَّ عدو؟ بمعنى آخر هل دائماً الطَّرْف الثَّانِي في الحرب يُسَمَّى عدوًّا؟ يحدث وأن يُدعى كذلك في حال ما إذا كانت الحرب قائمة بين قوَّتَيْن مُتكَافئتين كلاً منهما يحمل نيَّة الحرب، والهجوم، وينظر إلى الآخر بوصفه عدوًّا، فالعرب الاستعماريَّة الَّتِي تتعدَّى على أمن دولة ما هي حرب من أجل كسب الغنائم، وإمداد وجودها، وتكريس هيمنتها. والسُّؤال الآخر: من يُدعى بالعدو في إطار الحرب؟ العدو هو الَّذِي يَشُنُّ الحرب، ويُعلنها، ويُقيمها؛ أي أنَّه هو الَّذِي يخلق جوَّ التَّعْنِيف، والتَّقْتِيل، ويتسبَّب في التَّشْرِيد، والتَّغْرِيب. إنَّ المتأمل في الحرب الَّتِي شتَّتها، وتشنُّها البُلدان الغربيَّة سواء في إطار حرب غربيَّة-غربيَّة مثل ما حدث في الحرب الرُّوسِيَّة-الأوكرانيَّة، أو في إطار حرب غربيَّة لغيرها من دول العالم، إفريقيَّة كانت، أو آسيويَّة، يلحظ بأنَّ الحرب من منظور الغرب هي ثقافة حارِبة؛ بمعنى أنَّها ثقافة للهجوم، والغزو، والانتهاك، والاستعمار، هي ثقافة للتَّعدِّي، والاقتتال، والتَّشْرِيد، والإبادة، من أجل تزعم الوجود. فهي ليست ثقافة مُحارِبة، ومُقاومة، ومُدافِعة، إنَّما ثقافة خالِقة للعُنف عن طريق المبادرة به؛ أي أنَّها فعل، وليست ردَّ فعل، والنَّتيجة أنَّ الحرب من زاوية نظر الغرب هي أداة لمحاصرة الآخر، والهيمنة عليه، وعلى مُمتلكاته.

## ثانياً: الدِّماء الجزائريَّة والأرواح الفلسطينيَّة بصفتها شواهد على إجرامِيَّة الغرب

إنَّ الإِجْرَامَ الغرِيبِي، وممارساته المتوحَّشة في حقِّ الشُّعوب الَّتِي توجَّه إليها بنزعة استعماريَّة مُستبدِّة قاهرة تبتغي الهيمنة، وإحكام القبضة على الوجود، والحدود، ظاهرة لا تحتاج الحفر لأجل التَّدليل، لها صور عديدة يُمكن اتِّخاذها مثل حالات بيِّنَة، وشواهد دالَّة على توجُّهاته، ومراميهِ الإمبرياليَّة. لتكون بذلك رؤية العالم الغربيَّة في جانب منها غير هيِّن رؤية إقصائيَّة لغيرها. ولنا في الاستعمار الفرنسي للشَّعب الجزائري، والاحتلال الإسرائيلي للشَّعب الفلسطيني مُقتطفات من ذلك المنزع الإِجْرَامِي.

[١]- كلاوزفيتز، عن الحرب، تر: سليم شاكر الإمامي، ط١، المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر، دار الفارس للنشر والتوزيع، بيروت، عمان، ١٩٩٧م، ص١٠٣.

## ١- التوحُّش الغربيّ في الاستعمار الفرنسي للجزائر

تُشكّل الإمبريالية الفرنسيّة للشَّعب الجزائري من أكثر المشاهد الإرهابيّة التي قتلت الإنسانيّة بأبشع الطُّرق، وأحرقت، وأبادت، ونفت لاستعمار دام مئة، واثان وثلاثون سنة بدءاً من تاريخ ١٨٣٠م إلى غاية ١٩٦٢م، مثل لحظة استقلال هي في أصلها لحظة استمراريّة للوجود الاستعماري بسياسة تدميريّة؛ فاللحظة المطلوبة هي لحظة تصفية لم تحصل. وسنأخذ بعض التصريحات التي تُبَيِّن مدى وحشيّة الغرب مُمثلاً في الاستعمار الفرنسي.

### تصريح أحد وجهاء مدينة قسنطينة

«أوقفني الجيش وسُير بي حالة إلى ك... وفي السّاعة العاشرة من يوم السَّبْت بدأ الاستجواب بحُضور عقيد ومقدم ونقيين. وهذا الاستجواب الذي دام ٥٧ ساعة كان يقوم به مقدّم، وقد تعرّضت أثناء الاستجواب إلى أشكال التعذيب الآتية:

– كهرباء في الأصابع وعلى الأذن.

– المغطس.

– ضرب بالسيّاط على أخمص القدمين وعلى الأجزاء الجنسيّة.

– كهرباء في الأجزاء الجنسيّة ويجب أن أشير إلى أنّ الكهرباء كانت تنتج من آلة يديرها نقيب. وبعد أن حُجزت في غرفة، أطلق سراحني في السّاعة الحادية عشرة والدقيقة العشرين<sup>[١]</sup>. إنّه تصريح لوقائع بالغة البشاعة لما تعرّض له الشَّعب الجزائري. ويُفسّر توجيه الكهرباء إلى الجهاز التناسلي الجنسي حُبث السياسة الفرنسيّة التي كانت تُريد قطع النسل الجزائري.

من رسالة أخرى، بعد حادثة وادي الزّبّاتي أذار ١٩٥٦م

بعد ظهر يوم السَّبْت أصاب الإرهابيون أحد الجنود بجرح خطير، وتمّ اقتياد جميع المسلمين القاطنين في المحلّة، وعلى بُعد ميل من مكان الحادث إلى مركز الدّرك أين قضوا الليل بأكمله، وانتقوا منهم ستّة وقتلوا. وأنذروا السُّكان أنّه في حال اغتيال يحدث بعد ذلك، فإنّ ثلاثين مُسلمًا سيلقون حتفهم. وفي اليوم الموالي أطلقت الشُّرطة سراح ستّة من مُسلمي المنطقة كانوا موضع شُبّهة، ولم تُؤكّد ضدّهم أيّ إدانة، بيد أنّ العسكريين وجّهوا إليهم التُّهمة. واكتشفت جثّتهم يوم

[١]- بيير هنري سيمون، ضدّ التعذيب في الجزائر، تر: بهيج شعبان، د.ط، دار العلم للملايين، بيروت، د.ت، صص ٥٤-٥٥.

الاثنين<sup>[١]</sup>. هي مشاهد من الظلم، والتعذيب، والقتل، والتهديد أيضاً لمنع أي مقاومة مُضادة. يُلاحظ كذلك، أنّ الجيش الفرنسي قد كان يمتهن الخداع والتّمويه، مثلما يتّضح في عمليّة إطلاق سراح المشتبه بهم، من ثمّ قتلهم سرّاً.

### اغتصاب وتعذيب الجيش الفرنسي للمُناضلات الجزائريّات ١٩٥٤-١٩٦٢م

شمل إجرام الجيش الفرنسي في الجزائر خلال ثورة نوفمبر الرّجال من المناضلين، وجنود جيش التّحرير، وأفراد المجتمع الجزائري كافة بما فيهم النّساء أيضاً. لتكُن عمليّة اغتصاب النّساء الجزائريّات من قبل الجيش الفرنسي هو الغذاء لهذا الجيش طيلة مرحلة حرب التّحرير، ولم تولي الصّحافة، والإعلام الفرنسي أهميّة لهذا الموضوع إلّا في الفترة الأخيرة. ولنا قصّة «خيرة» التي تعرّضت للاغتصاب من طرف الجيش الفرنسي، وأنجبت إثر ذلك طفلاً. والمجاهدة «مليكة قريش» التي تقصّص قصّة تعذيبها على يد الجنرال «شميت»، وهي مجاهدة جزائريّة اعتقلها الجيش الفرنسي بتاريخ ٧ أوت ١٩٥٧م بواسطة جنود مظلّين عُرف عنهم القسوة والإجرام، وتمّ اعتقالها في أوج ما يدعى يومئذ «معركة الجزائر»، Bataille d'alger وأخذوها إلى مدرسة ساروي القريبة من حيّ القصبة الذي كان معقلاً لجماعة الفدائيّين، والفدائيّات الجزائريّات. واعترفت «قريش» أنّ أحد الضّابطين كان يدعى «شميت» برتبة مُلازم، حضر معه ضابط برتبة نقيب، وأخذ الثلاثة في استجوابها، مع إبداء سلوك حسن في البداية، غير أنّهم سرعان ما انقلبوا إلى وحوش كاسرة عندما رفضت الاعتراف بالتّهم المنسوبة إليها، وباشروا بتعذيبها بعد أن نزعوا لها ثيابها، وتلقّت شتى أنواع التّعذيب منها تسليط الكهرباء على أعضاء حسّاسة<sup>[٢]</sup>. إذن، سجّل الشعب الجزائري مقاومة شديدة، وثابتة ضدّ الانتهاك الفرنسي لحُرّمته، وممتلكاته طيلة فترة وجوده، وبالأخصّ في ثورة نوفمبر المجيدة التي قادها الثوّار الأحرار، والمناضلين الأبرار الذين كُتّبوا عند الله شهداء أحياء يرزقون، ولم يكن الأمر يقتصر على الرّجال فقط، بل طال المرأة الجزائريّة كذلك، التي قامت بدور محوري في ثورة التّحرير، من خلال مُساندة الثوّار، وإمدادهم بالمؤونة، وأيضاً المشاركة في المقاومة. وهُنا تعرّضن المناضلات إلى عمليّات رهيبية من التّعذيب، والاعتصاب من قبل الجيش الفرنسي المتوحّش، فكنّ بذلك رمزاً من رموز المرأة المقاتلة التي تُدافع عن أرضها، وشرفها ضدّ كيان إمبريالي انتهك شرفها، وحُرّمها كإنسان قبل أن تُدعى إمراة.

[١]- المرجع نفسه، ص ٥٧.

[٢]- سعدي بزيان، جرائم فرنسا في الجزائر من الجنرال بوجو إلى الجنرال أوساريس، د.ط، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٥م، صص ٧١-٨٢.

## ٢- التّقتيل الإسرائيلي للشّعب الفلسطيني

لم يتوقّف العدوان الإسرائيلي على كلّ مقوّمات الشّعب الفلسطيني في بلده، ولم تراع خصوصيّة المقدّسات، والبشر، والحجر في فلسطين، حيث عمد العُدوان الإسرائيلي المتكرّر على الشّعب بتغطية، وشرعنة دوليّة غربيّة على مخالفة كلّ المواثيق، والأنظمة، والأعراف الدوليّة. وإنّ ما جرى، ويجري على قطاع غزة محطّة مهمّة ضمن الصّراع العربي الإسرائيلي، كانت لها مُستتبعاتها على صعيد الأطراف الفاعلة في الصّراع، والمنطقة بصفة عامّة، وعلى مُستقبل ودور الرّؤى، والمشاريع المطروحة بهدف تسوية القضية الفلسطينية بصفة خاصّة<sup>(١)</sup>. إنّ لهذه القضية الشائكة التي تُورق كلّ عربيّ مُسلم غيُور على فلسطين الكرامة والحريّة، تداعيات تشمل عدّة أطراف نظراً لأهمّيّتها في إطار منطق الصّراع العربي الإسرائيلي. ومن بين جرائم إسرائيل، ما يتعلّق بالقصف الجوي، والصّاروخي المتوحّش على الإنسان الأعزل، وكلّ ما يرتبط بحقوقه في الحياة، والعيش بأمان في بلده. واليوم، تُواصل تقتيلها، وإبادتها للشّعب الفلسطيني، الذي هاجمته بقوة تدميريّة منذ السّابع من أكتوبر الماضي، وهي تحصد يومياً مئات القتلى والجرحى، وتُدمر المستشفيات، وتُفجّر أماكن وجود الشّعب، مع مقاومة مكابدة من الشّعب الفلسطيني. ما يُمكن قوله إزاء هذا الاحتلال الغاشم إنّ الغرب يُظهر وجهه الحقيقي في الحرب، وينزع قناع الإنسانيّة، والعدالة، والخير، فالحرب منطق للتّعريّة، للفضح، والكشف عن المعادن. وما الجزائر، وفلسطين اللتان تشتركان في نقطة قوّة المقاومة، والدّفاع بشراسة عن شرف الأرض والعرض، إلّا حالين من الحالات الكثيرة التي تُبرز إمبريالية رؤية العالم الغربيّة حينما يسقط الواقع شعارات التّنوير، وحقوق الإنسان، وفلسفات الحقّ، والتّعائش المشترك، والاعتراف بالآخر، ويتركنا نعيش وقائع، ونشهد مشاهد من الإبادة، والإقصاء المعبرّة عن مآرب الغرب.

### خاتمة

بعد إدراكنا نقطة ختام البحث الذي تمحور حول تبين إمبرياليّة رؤية العالم الغربيّة في حال الحرب كأنموذج دالّ على طرح بربريّتها، وتوجّهاتها الإباديّة. ليتّضح لنا أهميّة مضمون رؤية العالم بما يشكّله من دافع لجملة من الممارسات المعيّنة. تأسست هذه الرّؤية على مبادئ، انحرفت عن حمولاتها الأصليّة بصرف النّظر عن حقيقة النّوايا، وصدقيّة المقاصد، نحت منحى عكسيّاً لما

[١]- مجموعة من المؤلّفين، دراسات في العُدوان الإسرائيلي على قطاع غزة عمليّة الرّصاص المصبوب / معركة الفرقان، ط ١، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، ٢٠٠٩م، ص ٩.

نصّت عليه، وأمّا المحرقة فيبدو أنّ مُنطلقها كان للتّحايّل بوصف إسرائيل دوماً ضحيّة، والتّبرير لأفعالها الإجراميّة. وتجدر الإشارة إلى أنّ الحُكم بتوحُّش رؤية العالم الغربيّة ليس حُكماً مُطلقاً ينطبق على كلّ نظر، وعمَل غربي، إنّما هو حُكم مبني بالأساس على مشاهد حيّة، وشواهد ثابتة من قلب الحرب، التي تأتي دائماً لتفضح حقيقة ما يصبو إليه الغرب، وأنّ تنظيراته، وشعاراته الرّتانة الرّحبة تضيق بالآخر في أوّل فُرصة تُتاح لذلك، وأنّه يعيش نوع من الخُبث الوجودي، بين ما يدعو إليه وما يعمَل به؛ إذ لطالما عُرِف عن العقل الغربي أنّه يسعى إلى الرّبط اللّصيق بين العقل النّظري، والعقل العملي، بداع ضرورة تفعيل ما نُفكر به ولأجله، ولكن بالإمعان في مُحتوى الدّعوات، وما يجري في مُعترك الحياة، فإنّ واقع الحال يُؤكّد التّقيض، وإنّ هذا العقل يُنظر للإنسانيّة، ويعمَل للغربيّة. وبالمجمل فإنّ التّتبُّع النّقدي الحريص على إطلاق الأحكام بموجب توفّر أدلّة الإدانة سواء كانت تاريخيّة، أو واقعيّة معيشة، يُقرُّ بإمبرياليّة رؤية العالم الغربيّة، بالتّحديد في الحروب التي تُشنُّ بهدف تحقيق وجود مُنفرد قيادي عن طريق الإبادة، والإقصاء كما تقدّمت الحجّة بمثال الجزائر، وفلسطين، الأولى من الاستعمار الفرنسي، والثّانية من الاحتلال الإسرائيلي. ونستثمر هذا المقام الفلسفي النّقدي، والقلق بمقولاته، وأدواته، للدّعوة بالبحر إلى ضرورة الانكباب تحليلاً، ونقدياً، والإحاطة تفكيكاً، وبناءً بالعقل الغربيّ بعامة، والعقل اليهودي الصّهيوّني بخاصّة، من ناحية طبيعة تفكيره، مرجعيّاته، نماذج فهمه، إجراءاته، ثقافته، نفسيّته، تاريخيّته، والبحث عن الأسباب الدّانيّة، والموضوعيّة للصّراع المُستمر، وصياغة رؤية ثابّة استشرافيّة للمُستقبل. بالإضافة إلى الاشتغال بالنّقد للفكر الغربي، نقدًا دقيّقا، وعميقًا لا ينطلق ذاتيًا بمقتضى وصايا الأهواء، وإنّما موضوعيًا علميًا يعتمد الاستشكال، والاستدلال، ويتأنّى في إصدار الأحكام، وأيضًا لا يتردّد في الفضح، ولا يهاب أيّ وجهة إن تأكّد له استحقاقيّة التّوصيف بالإمبرياليّة، والمنزع الإبادي.

## لائحة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولاً: الكتب باللُّغة العربيَّة

١. المسيري عبد الوهاب، التريكي فتحي، الحدائفة وما بعد الحدائفة، ط٣، دار الفكر المعاصر، دمشق، ٢٠١٠م.
٢. بزيان سعدي، جرائم فرنسا في الجزائر من الجنرال بوجو إلى الجنرال أوساريس، د.ط، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٥م.
٣. سيلا محمّد، بنعبد العالي عبد السلام، الحدائفة وانتقاداتها، نقد الحدائفة من منظور غربي، ط١، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م.
٤. سيمون بيير هنري، ضدّ التعذيب في الجزائر، تر: بهيج شعبان، د.ط، دار العلم للملايين، بيروت، د.ت.
٥. كلاوزفيتز، عن الحرب، تر: سليم شاكرا الإمامي، ط١، المؤسّسة العربيَّة للدراسات والنشر، دار الفارسي للنشر والتوزيع، بيروت، عمان، ١٩٩٧م.
٦. مجموعة من المؤلفين، دراسات في العُدوان الإسرائيلي على قطاع غزة عمليَّة الرصاص المصبوب/ معركة الفرقان، ط١، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، ٢٠٠٩م.
٧. ملكاوي فتحي حسن، رؤية العالم حضور وممارسات في الفكر والعلم والتّعليم، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن، فرجينيا، ٢٠٢١م.
٨. موران إدغار، المنهج، الأفكار: مقامها، حياتها، عاداتها وتنظيمها، تر: جمال شحيّد، ط١ المنظمة العربيَّة لترجمة، بيروت، ٢٠١٢م.

ثانياً: الكتب باللُّغة الأجنبيَّة

1. Harvey David, **The condition of postmodernity, an enquiry into the origins of cultural change**, British library cataloging in publication data.
2. Lipovetsky Gilles, **Père du vide, essais sur l'individualisme contemporain**, éditions Gallimard, paris, 1999.
3. Arthur Nilsson, **world 'view, personal ideology values and beliefs concerning, metaphysics, epistemology, human nature and morality**, department of psychology, Hund university.

ثالثاً: المعاجم والموسوعات

١. ابن منظور، لسان العرب، د.ط، دار صادر، بيروت، د.ت.

رابعاً: المواقع الإلكترونيَّة

١. شهرزاد حمدي، الفلسفة والحرب، احتراق واختراق، سلسلة أقلام فكريَّة، موقع صحيفة المثقّف <https://www.almothaqaf.com/aqlam-3963063-/>

## حرب المئة عام بين إنكلترا وفرنسا

أ.د. أحمد محسن الخضر [\*]

### المُلخَص

تشكّل حرب المئة عام فصلاً مهماً من تاريخ أوروبا في نهاية العصور الوسطى، حرب أسهمت في تكوّن أوروبا الغربية بالمعنى العلمي للكلمة، فمنذ تلك الحرب تمّ التّخلي عن فكرة أوروبا المسيحية بقيادة واحدة (بابوية - إمبراطورية)، كما ارتسمت معالم قوتين رئيسيتين في غرب أوروبا هما بريطانيا وفرنسا، وسيقع على عاتق هاتين القوتين قيادة أوروبا طوال العصور الحديثة. لقد كانت حرب المئة عام أوّل حرب يتمّ فيها استخدام الأسلحة النارية بصورة فعّالة في حسم نتائج المعارك، وكانت حرب المئة تبدّلاً جذرياً في مفهوم القتال في العصور الوسطى، فبعد أن كانت التزاماً إقطاعياً، أصبحت مهنة سُمح من خلالها للبارونات أن يقوم حولهم روابط تبعية أخرى مبنية على المال، لكنّ هؤلاء الجنود المرتزقة من المقاتلين صاروا يلتحقون بمن يؤمّن لهم الأجر الأفضل، ينتقلون من معسكر إلى آخر بمثل سهولة انتقال فرق أدلاء الطُرق، وشاعت ظاهرة أسر الأثرياء من أجل الحصول على الفدية، حتّى أنّ الأسرى كلّهم صاروا مادة تجارية تدرّ أرباحاً جيّدة على طرفي النزاع. بينما كانت فترات الهدنة خلال هذه الحرب فرصة لتفشي ظاهرة القرصنة، وانتشار قطع الطُرق، ففترات الهدوء تخلف مقاتلين عاطلين عن الحرب. لقد كان السكّان المدنيون من الطرفين الخاسر الأكبر في هذه الحرب، ففي أيّام القتال كانوا يتعرّضون للقتل، والسلب، والنّفي، والاعتصاب، وتعرّض أملاكهم للنّهب والتدمير، وفي أيّام الهدن كانوا يتعرّضون للسّرقة، والابتزاز، ودفع الرّائب، والإتاوات دون أدنى رحمة، أو مراعاة للظروف السيّئة التي خلّفتها الحرب، ولعلّ هذه الظروف السيّئة كانت سبباً في دخول البلاد في دوّامات من الفوضى الخطيرة؛ وقد تسببت في أكثر من مرّة في انفجار أحداث عنف، ومواجهات خطيرة، أكل فيها الثوّار لحم نبلاء القصور شواءً.

الكلمات المفتاحية: حرب المئة عام، القارة الأوروبية، إنكلترا وفرنسا، الملك إدوارد، معركة

كريسي.

## أولاً: المدخل إلى حرب المئة عام

لقد عادت الحرب أدراجها إلى ميادين القارة الأوروبية بصورة لافتة خلال القرن الرابع عشر، وسرعان ما اتخذت المظاهر الحربية أشكالاً مختلفة عما كان عليه الأمر سائداً من قبل، ذلك أنّ الدّول المركزيّة التي كانت آخذة في النّموّ شيئاً فشيئاً نجحت في الحد نسبياً من الحروب الفيوداليّة الخاصّة، إلّا أنّها دخلت فيما بينها في حروب ذات صبغة وطنية، وكانت حرب المائة سنة بين فرنسا، وإنكلترا من أبرزها، إذ أعادت للواجهة الصّراع الذي كان محتدماً بينهما خلال القرنين الثاني عشر، والثالث عشر<sup>[١]</sup>.

إنّ مصطلح «حرب المئة عام» الذي ابتكره المؤرّخون المعاصرون، يطلق عادة على المئة سنة الأخيرة من مراحل الصّراع بين إنكلترا، وفرنسا في العصور الوسطى؛ بين سنتي (١٣٣٧م-١٤٥٣م)، فمنذ أن احتلّ غليوم الفاتح (دوق نورمانديا Normandie الفرنسية) إنكلترا سنة ١٠٦٦م والعداء يسود العلاقات الفرنسيّة-الإنكليزيّة. وتجدر الإشارة إلى أنّ النورمانديين استوطنوا إنكلترا، وامتزجوا مع أهلها وصاهروهم؛ فنشأ من جرّاء ذلك التّمازج؛ الشّعب الإنكليزي الحديث، وسبب هذا العداء هو أنّ ملوك إنكلترا النورمانديين الأصل؛ احتفظوا بأملآكهم في غرب فرنسا، وارتبط كذلك الكثير من كبار الإقطاعيين، الذين هاجروا إلى إنكلترا، بإقطاعاتهم في الأراضي الفرنسيّة، وكانت لهم صلة قويّة بدوق في مقاطعة نورمانديا.

في المقابل وجد ملوك فرنسا في تلك الممتلكات الإنكليزيّة على حدودهم بلادهم الغربيّة؛ خطراً يهدّد الكيان الفرنسي، ويحول دون وصول الفرنسيين إلى حدودهم الطّبيعيّة في المحيط الأطلسي، وهكذا لم يهدأ ملوك فرنسا، وظلّوا يعملون لإزالة النّفوذ الإنكليزي من غرب فرنسا، في حين تمسّك الملوك الإنكليز بممتلكاتهم الفرنسيّة، وقاتلوا الفرنسيين في سبيل الاحتفاظ بها. أمّا السّبب المباشر «لحرب المئة عام» فكان إصرار ملك إنكلترا إدوارد الثالث Edward III (١٣١٢-١٣٧٧م) على وراثة العرش الفرنسي بعد أن خلى بوفاة الملك شارلز الرابع سنة ١٣٢٨م. وبالإضافة للنّزاع بين الدّولتين حول أملاك إنكلترا في غرب فرنسا، فإنّ هناك أسباب أخرى؛ أهمّها التّنافس الإنكليزي-الفرنسي، السّياسي والاقتصادي في القارة الأوروبيّة وفي البحار<sup>[٢]</sup>. والصّدّامات بين

[١]- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ تعريب وتقديم محمّد حناوي، ويوسف نكادي، ط١، مطبعة مفكر زنقة السنغال، الرباط ٢٠١٥م، ص١٨٦.

[٢]- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السّياسي والاقتصادي في العصور الوسطى، ط٦، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص١٧٠.

البحارة الإنكليز والفرنسيين، ورغبة إنكلترا في بيع الصُوف الإنكليزي في المدن الأوروبية، والأهمُّ هو تأييد فرنسا لاستقلال اسكتلندا في ثورتها الوطنية سنة ١٢٥٩م، الأمر الذي وتّر العلاقات بينها، وبين فرنسا أكثر؛ إذ ساعدت فرنسا الزعيم الاسكتلندي روبرت بروس؛ زعيم الثورة الاسكتلندية؛ وبفضل هذا الدّعم انتصرت اسكتلندا عسكرياً على إنكلترا<sup>[١]</sup>.

إنَّ أهميّة مصطلح «حرب المئة عام» تتجلى في أنه يعيد إلى الذاكرة ديمومة الضربة العظمى، رغم أنه يتنافى مع الحقيقة في نواح كثيرة، لأنَّ الحرب لم تكن مستمرة بصورة دائمة، بل أخذت شكل هجمات متقطعة بين الطرفين، وقد تابعت حوادثها المتكاملة طيلة قرن ونيّف، وقد جرت في فترات انقطاع أعمالها العسكريّة؛ منازعات على نطاق أضيق في بريطانيا، وإسبانيا، وهولندا. ورغم أنَّ الحرب ما تكاد تهدأ حتّى تشب من جديد، فقد تخلّلتها فترات سلم مؤقتة؛ كانت بمنزلة استراحة المقاتل للطرفين. ضف إلى ذلك أنه في كلِّ من القوتين المتحاربتين، كان هناك أحزاب متنافرة، انتهى التنافس بينها إلى حروب أهليّة، هذا ناهيك عن ثورات الفلاحين، وفتن المدن، ومؤامرات الأمراء، ومغامرات الأسياد؛ الذين استغلّوا ظروف الحرب وما تخلّفه من فوضى، وتشردم لإشباع رغباتهم الوضيعة، كما لا يجب أن يغيب عن بالنا الغارات الفجائية للعصابات المسلّحة، والقراصنة، واللصوص، وقطاع الطُّرق<sup>[٢]</sup>.

وهكذا يجد المؤرّخ أنَّ المدنيّين كانوا الفئة الأكثر تضرُّراً من أحداث هذه الحرب، إذ عانوا من أسوأ النتائج من خلال تدمير ممتلكاتهم وبيوتهم، والاستيلاء عليها، وسلب أراضيهم، وإحراق محاصيلهم، وقتل أبنائهم من قبل جميع الأطراف المتصارعة؛ الخارجيّة والدّاخليّة، لقد كان المدنيّون الفرنسيّون في هذه الحرب الشّعواء أكثر تضرُّراً من المدنيّين الإنكليز، علماً أنَّ الأعمال الوحشيّة التي قام بها الفرنسيّون، والإنكليز ضدَّ المدنيّين الآمنين متساوية تقريباً من حيث عنفها<sup>[٣]</sup>.

وممّا لا شكَّ أنَّ الذي زاد عدد ضحايا هذه الحرب عمّاً سبقها من حروب العصور الوسطى السّابقة، وأضفى شكلاً جديداً عليها هو التّطوُّر التكنولوجي، فرغم أنه كان بطيئاً، إلّا أنه كان خارقاً،

[١]- ثامر مكي علي، محاضرات التّاريخ الحضاري للعصور الوسطى الأوروبيّة، الحاضرة السّادسة، الجامعة المستنصرية، كليّة الآداب- قسم التّاريخ، المرحلة الأولى، الفصل الدراسي الثاني، ٢٠١٨، ٢٠١٩م، ص ٢.

[٢]- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، القرون الوسطى، ج ٣، ط ٢، نقله إلى العربيّة: يوسف داغر و فريد داغر، منشورات عويدات، بيروت - باريس ١٩٨٦م، ص ٤٩٥.

[3]- Whittington, K. E., The Social Impact of the Hundred Years War on the Societies of England and France., A thesis submitted in partial fulfillment of the requirements for the Honors in the Major Program in History in the College of Arts and Humanities and in the Burnett Honors College at the University of Central Florida 2016, p.54

وتجسّد في ظهور المدفع والبارود، بالإضافة إلى تطوّر تقنيّات الحصار. وقد أدّت هذه المستجدّات إلى تراجع تدريجي لدور القصور المحصنة les châteaux forts لصالح نوعين من الإقامات، أو المنشآت؛ وهما القصور الأرستقراطية المخصّصة للإقامة، والاستجمام، والقلاع الواقعة في ملكيّة الملوك، أو الأمراء. وقد تميّزت هذه المنشآت بقدرتها على الصمود أمام قصف المدافع<sup>[١]</sup>.

## ثانياً: المرحلة الأولى من حرب المئة عام

تسهيلاً لدراسة تاريخ «حرب المئة عام» بين إنكلترا وفرنسا، قام المؤرّخون بتقسيمها إلى ثلاثة مراحل؛ المرحلة الأولى، وعرفت بالحرب الإدوارديّة، وتمتدّ من سنة (١٣٣٧م-١٣٨٠م)؛ وخلالها انتصر الإنكليز على الفرنسيين، وكانت الكفّة راجحة لهم<sup>[٢]</sup>، وقد بدأت هذه المرحلة عندما استغل الملك الإنكليزي إدوارد الثالث وفاة ملك فرنسا شارلز الرابع في سنة ١٣٢٨م بدون أن يخلف وريثاً ذكراً يرث العرش الفرنسي، فادّعى بأحقّيته بالتاج الفرنسي؛ متذرّعاً بكونه حفيد فيليب الجميل ملك فرنسا من ابنته ايزابيلا أخت شارلز الرابع، وتحالف مع أحد نبلاء مقاطعة الفلاندر الفرنسيّة الرافضين للحكم الفرنسي، والذي تمكّن من طرد الحاكم الفرنسي، وأيد مطالب الملك إدوارد الثالث. رفض الفرنسيون تلك الادّعاءات، وحشدوا أسطولاً فرنسياً ضخماً قبالة شواطئ نورمانديا سنة ١٣٣٦م، فأعلن أدوار الثالث سنة ١٣٣٧م الحرب على فرنسا، وسرعان ما بدأت العمليّات العسكريّة بين البلدين في صيف السنّة ذاتها؛ عندما احتلّت فرنسا مقاطعة جاسكوني Gascony (دوقية آكتاين Aquitaine) في ٢٤ أيار ١٣٣٧م، وهذه المقاطعة تشمل معظم الممتلكات الإنجليزيّة الاقطاعيّة في الأراضي الفرنسيّة، وتربطها بإنكلترا علاقات اقتصادية، وتجاريّة مهمّة<sup>[٣]</sup>.

لقد بادر الفرنسيون بهجوم على السواحل الإنجليزيّة في ٢٤ آذار ١٣٣٨م، انطلاقاً من ميناء كاليه Calais إلى صولنت؛ حيث نزلوا، وأحرقوا مدينة بورتسموث ذات الأهميّة الاستراتيجية، وفيها تمّ نهب المؤن، والامتدادات الإنجليزيّة، وإحراق المنازل، والمخازن، والأرصفة، وقتل السكّان المدنيّين الآمنين، الذين لم يتسنّى لهم الفرار، أو أنّهم أسروهم، وأخذهم عبيداً. ثمّ هجم الفرنسيون على حاميات الجزر الإنجليزيّة المنتشرة في القتال، وتمّ إعدام أفرادها بدم بارد، كما تمّ إعدام جميع أفراد طواقم السفن الإنجليزيّة التي وقعت في قبضة الفرنسيين. ردّت إنكلترا بشنّ غارات

[١]- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ ص ١٨٦.

[٢]- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي، ص ١٧١.

[٣]- ماجد محي الفتلاوي، رشا الحاجم: حرب المائة عام (١٣٣٧-١٤٥٣م) وأثرها على إنكلترا، مجلة العلوم الانسانيّة، كلية التربية للعلوم الانسانيّة، المجلد ٤٢، العدد الثاني، حزيران ٢٠١٧م، ص ٢.

على طول السواحل الفرنسية، إلا أن المبادرة بقيت بيد الفرنسيين، الذين تمكنوا من مهاجمة مدينة ساوثهامبتون؛ ففر سكانها إلى الريف، ولم تصمد سوى حامية القلعة، وسرعان ما سقطت المدينة، فكرر الفرنسيون مذابح بورتسموث؛ حيث تمّ تدمير المدينة عن بكرة أبيها، وذبح الأسرى بدم بارد، ونهبت الأرزاق التي تعادل آلاف الجنيهات، وبعد عدّة مناوشات بين الأسطولين الفرنسي والإنكليزي، أجبر فصل الشتاء الفريقين المتنازعين على إيقاف عمليّات القتال. بينما شهد العام الجديد (١٣٣٩م) وضعاً مختلفاً؛ فقد انتزع الإنكليز زمام المبادرة من الفرنسيين، بعد أن شكّلوا أسطولاً بحرياً خلال فصل الشتاء، وتمّ استخدامه في الإغارة على الشواطئ الفرنسية، واحراق مدينتي أولت ولو تريبورت، وفي تدمير أسطول فرنسي في ميناء بولوني Boulogne.

لقد تمكنّ الأسطول الإنكليزي في تحقيق انتصارات استراتيجية، ومهمّة في هذه الحرب، بعد نجاح هجومه على جزيرة كاذراند Cadzand التابعة الى كونت الفلاندرز، وإبادة حاميتها العسكرية بوحشية مفرطة. كما تمكنّ الأسطول الإنكليزي في ٢٤ حزيران ١٣٤٠م من تدمير الأسطول الفرنسي، وهزيمته في معركة سلويس Sluis البحرية، والاستيلاء على معظم سفنه، وقتل نحو ٢٠ ألف رجل، ليؤكد الإنكليز بذلك سيطرته التامة على القتال الإنكليزي، ما منحهم المجال للنزول، ومهاجمة السواحل الفرنسية<sup>[١]</sup>.

أعلن الملك إدوارد من نفسه ملكاً على فرنسا في مدينة غنت في ٢٦ حزيران ١٣٤٠م بعد سلسلة من المعارك القصيرة، وغير الحاسمة؛ خاضها في الأراضي المنخفضة<sup>[٢]</sup>، وبعد ست سنوات (أي في تموز ١٣٤٦م) قام الملك إدوارد بغزو فرنسا، عندما رست إحدى قوّاته الحربية في ميناء سانت فاست Vast على الساحل الشمالي الشرقي من شبه جزيرة نورماندي -وعلى بعد عدّة أميال من هذا الموقع، نزلت قوّات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية- ومن المحتمل أن يكون تعداد القوّات الإنكليزية خلال هذا الإنزال قد بلغ خمسة عشر ألفاً، لكن اللأفت للانتباه هو التّشكيل الغريب لها، فبدلاً من الفرسان ثقيلي العدة بخيولهم، والذين كان من الصّعب نقلهم عبر بحر الشمال العاصف، فإنّ الجيش في معظمه كان يتكوّن من الخيالة خفيفي التّسليح، ورماة السهام الذين كانوا يحملون أقواسهم الطويلة القويّة، كان هدف إدوارد هو إجراء غارة سريعة، ووساعة النّطاق عبر الأراضي الفرنسية؛ لضرب معنويّات خصمه، وتدمير موارده، وقد شقّ الجيش طريقه متقدّماً ينهب، ويسلب، ويحرق القرى التّعيسة التي مرّ بها في فالجونز، وكارنتان Carentan، وسانت لوي Sant-Lo التي

[١]- ماجد الفتلاوي، رشا الحاجم: حرب المائة عام، ص ٢.

[٢]- الموسوعة العربية، ص ٧٣٨.

تحوّلت إلى كتل من الحجارة بعد تدميرها تماماً<sup>[١]</sup>. بينما كان الأسطول الإنكليزي يسير بمحاذاة السّاحل، في موازاة الجيش البريّ يعيث هو الآخر فساداً في هذا السّاحل، لمسافة تصل إلى ثمانى كيلومترات في الدّاخل، وقد استولى على كمّيّات هائلة من الغنائم. ثمّ تقدّم الجيش الإنكليزي إلى أن وصل إلى مدينة كان Caen؛ وبسبب إهمال تجديد تحصيناتها اللاّزمة للدّفاع عنها، سقطت المدينة، فاستباحها الجيش مدّة خمسة أيّام، وذبح فيها نحو خمسة آلاف إنسان، وأسر عدداً من نبلائها، ثمّ تحرك الجيش جنوباً باتجاه باريس في الأوّل من آب من السنّة ذاتها.

سقطت مدينة كان في الوقت الّذي كان فيه الملك فيليب قابعاً بالقرب من باريس، في جيش كبير ينتظر المواجهة، تقدّم فيليب بغرض مبارزة الملك إدوار الثّالث في المكان الّذي يختاره، وكان هذا نوعاً من التّحدّي الشّائع بين فرسان العصور الوسطى، إلّا أنّ إدوار كانت لديه أفكار أخرى، فقد نجح في إصلاح أحد الجسور المحطّمة فوق نهر السين عند مدينة بواسي Poissy بعد أن أحرقها. زوحف الجيش الفرنسي رأساً إلى الشّمال الشرقي لتأمين إقليم الفلاندرز، كان الإنكليز قد وصلوا إلى موقع يشرف على نهر أيفيل Abbeville مستفيدين من عنصر الوقت، وهناك استغلّوا مخاضة يسهل عبورها؛ عندما يكون مستوى ماء النّهر منخفضاً بسبب الجزر، فاجتاز الجيش الإنكليزي النّهر تحت حماية النّيران الّتي أشعلها رماة السّهام. لكن عندما وصل فيليب إلى المخاضة نفسها، كان منسوب الماء في النّهر قد ارتفع بفعل المدّ، فتعدّر معه عبور تلك المخاضة. وبينما كان إدوار قد تحصّن بجيشه في مكان مرتفع؛ بالقرب من قرية كريسي Crécy، على حافة هضبة صغيرة يحيط بجوانبها كثير من الأشجار الكثيفة، كان الجيش الفرنسي المطارد فقد أعياء المسير، وشمس آب المحرقة، وغدوا في حال من الفوضى يرثى لها<sup>[٢]</sup>.

اصطدم الجيشان في الميدان في ٢٦ آب ١٣٤٦م، ولعلّ هذه المعركة كانت أقسى الهزائم الّتي مُني بها الجيش الفرنسي، وتكبّد فيها خسائر فادحة، كما أنّها تمثّل ذروة انتصار الإنكليز بقيادة الملك إدوارد الثّالث على الفرنسيين في المرحلة الأولى من حرب المئة عام، ولا تُفسّر هزائم الفرنسيين في كريسي بفارق الشّجاعة، أو العدد، بل بتفوّق النّباليين الإنكليز أوّلاً، وبسوء توزيع الجنود الفرنسيين قبل المعركة ثانياً<sup>[٣]</sup>، والأهمُّ هو استعمال الإنكليز لسلاح البارود الّذي قلب موازين المعركة؛ فقبل

[١]- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة علي السّيد علي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ٣٥٨.

[٢]- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا، ص ٣٥٩.

[٣]- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٥٠١.

الاشتباك أخرج إدوارد الثالث سلاحًا جديدًا؛ هو عبارة عن أنابيب معدنيّة من الحديد يبلغ طول الواحد منها خمسة أقدام، كان قد تمّ حشوها بمسحوق أسود (البارود) وتمّ إشعالها، فكانت تقذف كرات من الحديد، والحجارة يبلغ قطر الواحدة منها ثلاث بوصلات، فكان اللهب المقذوف من هذه البنادق، والانفجار الذي تحدثه، والكرات المندفعة تبدو للفرنسيين، وكأنّها سحر شيطاني. ورغم أنّ الخيالة الفرنسيين ولّوا مدبرين إلّا أنّ وابل القذائف الإنكليزيّة جعلهم يسقطون وسط الأحرش من على جيادهم المضطربة. ورغم أنّ بعض الفرنسيين الشجعان وقفوا بين أكوام الموتى، وقليل منهم وصل إلى خطوط القتال الإنكليزيّة، إلّا أنّه لم يُقدر لأحد منهم أن يخرقها. وعند حلول الظلام انسحب ما تبقى من الجيش الفرنسي، بعد أن خسر ما يقارب ثلث جنوده، بما فيهم نخبة فرسان الفرنسيين؛ الذين تمّ إحصاؤهم فيما بـ ١٥٤٢ ما بين لورد ودوق وكونت، يضاف لهم شقيق فيليب تشارلز الثاني وحلفاؤه: الملك جون من بوهيميا، ولويس الثاني ملك نيفير، بينما نجا فيليب بنفسه<sup>[١]</sup>.

لقد كانت معركة كريسي من المعارك الحاسمة في التاريخ، فقد نتج منها تدهور قوّة فرنسا قرناً من الزّمان، كما كانت تلك المعركة نقطة البداية لتفوّق النّفوذ الإنكليزي في الشؤون الدّوليّة. ومن النّاحية العسكريّة كانت علامة فارقة على تدهور نظام الفروسية، وحلول الأسلحة المتفجّرة محلّه، حيث حلّت الأسلحة النّارية محلّ السيف والبلطة؛ التي كانت تُستخدم في الاشتباك الفردي. وفي مجال القدرات الفرديّة فإنّ البسالة أخذت تخلي مكانها للدّكاء، أو الدّهاء في اختيار الأماكن الدّفاعيّة، والمحصّنة، كما أصبح الفارس النبيل مجردّ هاو، وحلّ محلّه الجندي المحترف. والأهمّ أنّ الحرب أصبحت صنعة وعملاً تجاريّاً<sup>[٢]</sup>، ما أثر تأثيراً عميقاً في تكوين، وبنية الجيوش الأوروبيّة، إذ سمح البارونات أن تقوم حولهم روابط تبعيّة أخرى، مبيّنة على المال، وهكذا تعاقد البارونات الإنكليز مع فرق مأجورة من الجنود المرتزقة، وصار يتمّ تنفيذ الحرب وفق عقود مع فرق من المرتزقة، ويتمّ شنّها في أيّ مكان دون إقامة اعتبار للجنسيّة. وهذا ما سينعكس سلباً على المجتمع الأوروبي بصورة عميقة، لأنّ هؤلاء الجنود المرتزقة من المقاتلين صاروا يلتحقون بمن يؤمّن لهم الأجر الأفضل، ينتقلون من معسكر إلى آخر بمثل سهولة انتقال فرق أدلاء الطّرق<sup>[٣]</sup>، ولم يعد الفرسان أنفسهم يحاربون من أجل الالتزامات الإقطاعيّة، أو الولاء، بل أخذوا يحاربون من أجل

[١]- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا، ص ٣٦٠.

[٢]- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا، ص ٣٦٠.

[٣]- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٥٣٤.

تحقيق المكاسب، وكان أعلى طموحهم أسر بعض النبلاء من أجل الحصول على فدية كبيرة من ذويهم<sup>[١]</sup>.

لقد استراح الإنكليز بعد معركة كريسي يومين دفنوا خلالها قتلاهم، ثم أكملوا طريقهم شمالاً في تدمير المدن، والبلدات الفرنسيّة، بما في ذلك مدينة ويسان؛ ميناء الإنزال العادي للشحن الإنكليزي في شمال شرق فرنسا، وخارج هذه المدينة المحترقة عقد الملك إدوار الثالث مجلسه الحربي، وقرّر أخذ ميناء كاليه البحري. لقد رأى الإنجليز بعد معركة كريسي أنّ من حقّهم الاحتفاظ بجاسكوني، ولما كان الإنكليز قد احتلّوا ميناء كاليه في ٣ آب ١٣٤٧م بعد حصار ناجح، وحصلوا بموجب ذلك على ميناء بحري رئيس على القنال الفرنسي، أسكنه الملك إدوارد بالمستوطنين الإنكليز، أدرك الفرنسيون صعوبة الموقف، لا سيّما بعد انتشار مرض الطاعون الأسود في أوروبا؛ الأمر الذي دفع بالملك فيليب السادس Philip VI ملك فرنسا إلى عقد هدنة (كاليه) في الثامن والعشرين من أيلول ١٣٤٧م<sup>[٢]</sup>. لقد كانت معاهدة مُدّلة لفرنسا؛ حدّاً دفعت قضاة كاهور البلديين؛ الذين أرغمتهم معاهدة كاليه على الاعتراف بإدوارد الثالث ملكا عليهم؛ ليصرخوا: «واعذابه، ما أصعب التخلّي عن السيّد الطّبيعي وقبول سيّد أجنبي مجهول»<sup>[٣]</sup>.

إنّ الأزمات الداخليّة التي عصفت بإنكلترا، واضطراب الحكم، وخلاف الملك الإنكليزي مع أسقف كانتربري، وإفلاس البيوتات الماليّة؛ التي كان يعتمد عليها إدوارد في تمويل حملاته، وانتشار مرض الطاعون؛ الذي أودى بحياة ٢٠٪ من السّكان في سنة ١٣٤٧م، دورٌ كبير في تراجع الملك إدوارد عن مشاريعه في فرنسا؛ إذ تخلّى عن المطالبة بعرشها، مقابل منحه مقاطعة آكتاين بكاملها، وكانت من أغنى مقاطعات جنوبي غربي فرنسا<sup>[٤]</sup>. وفي المقابل أزهقت الحرب الفرنسيين؛ فالحملات العسكريّة الإنكليزيّة خلال الرّيف الفرنسي كان لها تأثير سلبي كبير؛ من خلال سياسة الأرض المحروقة، والسلب المنظم، وتدمير البيوت، وإتلاف الاقتصاد، وإحراق المحاصيل. كان الإنكليز يهدفون من هذه الوحشيّة المفرطة قتل الرّوح المعنويّة عند الفرنسيين، وإجبارهم على الاعتراف بالهزيمة، وإجلاسهم إلى طاولة المفاوضات. إنّ الإفراط في مهاجمة المدنيّين من كلا الجيشين المتصارعين؛ كانت سياسة مدروسة؛ فالانتصار عليهم كان مضموناً كونهم عُزل، ثانياً

[١]- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا، ص ٣٦٠.

[٢]- الفتاوي، الحاجم: حرب المائة عام، ص ٢.

[٣]- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٤٧٧.

[٤]- الموسوعة العربيّة، ص ٧٣٨.

كان الانتصار عليهم يعني نهب مواردهم، ثالثاً كان الانتصار عليهم هزّة عميقة للتّاج الذي يتّبعون إليه؛ حتّى أنّ رجل الدّين الفرنسي Honore Bonet كتب: «في هذه الأيام كلّ الحروب موجّهة ضدّ الأناص الفقراء، وضدّ حاجياتهم»، بمعنى أنّها لم تكن حرباً عادلة، بل كان سرقة على نطاق واسع، لذلك أدان كثير من المؤرّخين تلك الحرب، حتّى أنّهم وصفوا الهجوم الإنكليزي الأوّل على طول السّاحل الفرنسي بأنّه عمليّة سرقة موصوفة، فبعد أن تقدّم الجنود، والتّبّالون، والجنود المشاة على طول ساحل البحر؛ سرقوا ونهبوا كلّ شيء، وكلّ ما عجز الإنكليز عن سرقة أحرقوه، ما تسبّب بأضرار كبيرة على الاقتصاد، والنّقد الفرنسي ما بين سنتي ١٣٥٠-١٣٦٠م<sup>[١]</sup>.

لقد تجدد القتال في سنة ١٣٥٥م بعد أن كان الملك إدوارد الثالث قد اتّخذ قراراً بإرسال حملة عسكريّة لغزو فرنسا تحت قيادة ابنه إدوارد أوف وودستوك Edward of Woodstock المعروف باسم الأمير الأسود، وكانت تلك المرّة الأولى التي يخرج فيها هذا الأمير قائداً خارج إنكلترا، وكان عمره في ذلك الحين خمسة وعشرين عاماً، فقام بحملة على الجنوب الفرنسي؛ تمكّن فيها من إحراز جملة من الانتصارات العسكريّة، في عدّة أماكن موزّعة في جنوب فرنسا، وقد حرص على الاستيلاء على مواقع متجاورة نوع ما حتّى يكوّن منها جبهة واحدة. والويل للمدن التي لا تشتري سلامتها بالمال؛ فقد أساء الأمير الأسود في هذه الحملة معاملة أهالي المدن التي استولى عليها، ما بين حرق، وتخريب، وتدمير، مثلما فعل بمدينة كاركاسون Carracasson، ومدينة ناريون Narbonne، وكثير من الأراضي الفرنسيّة الأخرى<sup>[٢]</sup>، فكان الاستيلاء على مدينة يعني أبحاثها للسلب، والنهب، وهكذا كانت الحرب غذاءً للحرب. وقد ترك لنا المؤرّخون وصفاً لما قام به في إحدى قرى الرّيف الفرنسي بعد أن دخلها، وكانت قرية غنيّة بالمؤن والحبوب، فما كان منه إلّا أن حطّ الرّحال فيها ليومين أو ثلاث، حتّى أنعش جيشه وأراحه، ثم غادرها بعد أن دمرّ مؤن ساكنيها؛ فلا يستفيد منها خصومه، فثقب براميل التّبّيد، وأحرق الحنطة والشوفان<sup>[٣]</sup>، طبعاً بعد أن كان الجنود الإنكليز قد حملوا على ظهور خيولهم، الأمر الذي جعلها تعجز على التّقدّم، فعلى سبيل المثال كان باديفول لا يتنقل من مكان إلى آخر، إلّا مصطحباً عربته ذات العجلات الأربع، كي ينقل عليها ما نهبه من القرى الفرنسيّة، ودامت الحال على هذا المنوال حتّى أوعز ملك نافار بقتله بالسّم، ووضع يده على ثروته، وهكذا وجد المدنيون الفرنسيون أنفسهم الخاسر الأكبر أمام تقدّم الجيوش

[1]- Whittington, K. E., Op. Cit., 2016, p.55

[٢]- هشام الحسيني: الأمير الإنكليزي الأسود وفترة حاسمة من العلاقات الإنكليزية الفرنسية (١٣٦٤ - ١٣٧٠م)، ص ٥.

[3]- Whittington, K. E., Op. Cit., 2016, p.58

الإنكليزية<sup>[١]</sup>. أمّا المدن التي وجد الأمير الأسود صعوبة في التّيل منها، وقبل أهلها شراء سلامتهم بالأموال، فإنّه أجبر سكّانها على تقديم الرّهائن، ودفع ثمن سلامة مدنها غرامات باهظة؛ استخدمها في تسليح جيشه، ودفع مرتبات جنوده<sup>[٢]</sup>. لقد قاومت بعض المدن الفرنسيّة تقدّم الأمير الأسود، ما دفعه لفرض الحصار عليها؛ وحتّى في هذه المدن كان المدنيون فيها هم الخاسر الأكبر أيضًا، فالرّجال كان عليهم أن يتحمّلوا أعباء حرب الحصار، وكانوا يتعرّضون للقتل مع نساءهم، وأطفالهم متى سقطت مدنها، التي كانت تتعرّض للنّهب، ثمّ للإحراق، والتّدمير<sup>[٣]</sup>.

تقدّم الجيش الإنكليزي في الأراضي الفرنسيّة حتّى وصل إلى نهر لورا في تور، وهناك فشلوا في الاستيلاء على القلعة، أو أحراق المدينة بسبب عاصفة مطريّة غزيرة، سمحت هذه الأحداث بلحاق الجيش الفرنسي بالجيش الإنكليزي، وسرعان ما اصطدما في معركة بواتيه Poitiers في ١٩ أيلول ١٣٥٦م، فكانت تكرارًا لما وقع في معركة كريسي، فقد انهزم الفرنسيون على الرّغم من تفوّقهم العددي على الإنكليز؛ الذين تفوّقوا عليهم بتكتيكهم الحاسم<sup>[٤]</sup>، لا بل إنّ الإنكليز قد تمكّنوا في هذه المعركة من أسر جون الثاني John II (١٣٥٠ - ١٣٦٤م) ملك فرنسا مع ابنه الصّغير، والكثير من النّبلاء الفرنسيين، إلى أن دفع الملك فدية كبيرة؛ فكانت أعنف خسارة تلقّتها فرنسا، وأشدّ صفعه تعرّضت لها، حتّى أنّ البلاد صارت مسرحًا للفوضى<sup>[٥]</sup>.

إدًا وقع الملك أسيرًا، ووقع على ولي العهد الشّاب، وعديم الخبرة إنقاذ الموقف، لقد دخلت البلاد في دوامة من الفوضى؛ ولعلّ أشع فصول تلك الفوضى هي ثورة ايتين مارسيل Etienne Marcel، نائب التّجّار في باريس، وروبرت لوكوك Robert Loqoc أسقف لاون Laon، حيث قاد مارسيل ولوكوك الثّوار في باريس في نوفمبر ١٣٥٧م، ومارسوا عمليّات العنف، والسّطو على المناطق الرّيفيّة إبّان السّنوات التي أعقبت هزيمة بواتيه، واستغلّ العوام هذه الأوضاع، وثاروا مطالبين ببعض حقوقهم التي فقدوها، فقد قاد مارسيل هؤلاء الثّوار المسلّحين بعد أن تحوّل زعيمًا للدهماء، وخطيبًا شعبيًّا يستغلّ الاستياء العام لكسب التّفوذ السّياسي، وهكذا ووقعت فرنسا في حرب أهلية بين ولي العهد شارل وبين أنصار مارسيل، وما عقد الموقف أكثر أن مارسيل تحالف مع وليم كارل Karle زعيم ثورة الجاكري Jacquerie، وهي الثورة التي اشعلها الفلاحون في نهاية

[١]- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج٣، م.س، ص٥٠٣.

[٢]- هشام الحسيني: الأمير الإنكليزي الأسود، ص٥.

[3]- Whittington, K. E., Op. Cit., 2016, p.56

[٤]- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا، ص٣٦٢.

[٥]- الموسوعة العربيّة، ص٧٣٨.

أيار ١٣٥٨ م، والتي اتّصفت بكلّ صفات العنف والوحشية<sup>[١]</sup>.

فما هي ثورة الجاكري Jacquerie؟ بعد أن تكبّد المدنيون الفرنسيون معظم مشاق الحرب من خلال العنف المباشر عليهم، وعلى أملاكهم، أو من خلال الإتاوات، ومصادرة الممتلكات، والعقارات؛ وحقيقة فشل طبقة النبلاء الفرنسيّة في ساحة المعركة، وعدم قدرة الحكومة الفرنسيّة إيقاف المرتزقة عند حدّهم في نهب موارد السكّان المدنيّين، والضرائب المتزايدة التي فرضتها الحكومة الفرنسيّة لتمويل الحرب، وبالتالي حمل الفلاحون الفرنسيون الطبقة الأرستقراطية مسؤوليّة التّعاسة التي يعيشون بها، ولم يكن من المستغرب ذلك السخط الشعبي الذي نما بينهم، والذي سرعان ما تحوّل إلى ثورة دامية عُرفت بثورة الجاكري؛ نسبة إلى قائدها جاك بون أوم Jacques Bonhomme، وهذا ما يكشف لنا أنّ هذه الانتفاضة كانت سياسية، واجتماعيّة في الآن ذاته، وهي الانتفاضة الأكثر شهرة في تاريخ فرنسا<sup>[٢]</sup>.

لقد كانت شرارة الثورة الأولى بصدور قانون يلزم الفلاحين بحماية قصور النبلاء؛ التي كانت هي بالأصل بمنزلة رمز لقمعهم وحرمانهم، وهكذا بدأ الفلاحون بمهاجمة بيوت النبلاء بدلاً من حمايتها، والتي كان الكثير منها يشغلها الأطفال، والنساء فقط، بينما كان الرّجال في جبهات القتال مع الإنكليز، وكثيراً ما كان يتمّ ذبح ساكني هذه القصور، ونهب ثرواتهم، وإحراق ممتلكاتهم في نوع من العريضة التي لم تعرفها فرنسا من قبل. ومن أشبع الصُّور التي وصلتنا؛ هي أنّ جماعة من الثوّار قامت بقتل أحد السادة النبلاء، ثمّ قام أفرادها بشواء لحم المغدور على النّار أمام زوجته وأولاده، ثمّ أمروا الزّوجة أن تشاركهم في تناول هذا الشّواء الأدمي للحم زوجها. ورغم أنّ الثورة امتدّت على رقعة واسعة من فرنسا، إلّا أنّها قمعت بعد أسبوعين فقط، وبمنتهى القسوة؛ إذ قام الجيش الفرنسي بمذابح رهيبية ضدّهم، ونجح برجوازية باريس من قتل مارسيل<sup>[٣]</sup>.

وبالعودة إلى ساحة الصّراع بين إنكلترا وفرنسا؛ استغلّ الملك إدوارد حال الفوضى العامّة في فرنسا؛ فجمع جيشه في كاليه في أواخر صيف سنة ١٣٥٩ م، وكان يهدف إلى الاستيلاء على مدينة ريمس Rheims، إلّا أنّ المدينة نجت من السُّقوط بفضل تحصيناتها، فاتّجه الإنكليز في ربيع سنة ١٣٦٠ م صوب باريس، فتعرّض الجيش لعاصفة هوجاء كادت أن تفتك بهم؛ فيما يعرف بـ«الإثنين الأسود»، حتّى أنّهم خسروا نحو ألف رجل، وستّة آلاف حصان، ويبدو أنّ هذه الخسارة

[١]- هشام الحسيني: الأمير الإنكليزي الأسود، ص ٦.

[2]- Whittington, K. E., Op. Cit., 2016, p.64

[٣]- عمرو عبد العزيز منير، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٩٨.

دفعتهم للتنازل؛ وعقد السّلام الأوّل مع ولي العهد الفرنسي، فيما عُرف بمعاهدة بريتاني Brétigny سنة ١٣٦٠م، والتي اضطرت فيها فرنسا إلى قبول الشُّروط الإنكليزيّة، ومنها الاعتراف بسيطرة إنكلترا على مقاطعات واسعة من الأراضي الفرنسيّة، ودفع فدية ضخمة من أجل إطلاق سراح جون الثاني<sup>[١]</sup>.

في الواقع لم تكن هذه المعاهدة نهاية مأساة الحرب بالنسبة للمدنيين الفرنسيين، ففترة الهدوء التي أعقبت هذه المعاهدة خلّفت مقاتلين عاطلين، عن الحرب، ومرترقة عاطلين عن العمل، ضف إلى ذلك انتشار اللُّصوص، وقطّاع الطُّرق على طول الطُّرق السريعة، وفي الغابات، والمناطق غير المأهولة، فأخذوا يهاجمون المسافرين بدون رحمة أكثر من أيّ وقت مضى، لا يسرقون المسافرين فقط، بل كانوا يتلذّذون في قلع حناجرهم بدون رحمة، وهكذا حتّى في أوقات السّلم، والهدنة لم ينعم السكّان المدنيون بالأمن والأمان<sup>[٢]</sup>.

لقد كان المرترقة يتمنون دائماً أن تطول الحروب وتستمرّ، فقد قال جواجون هوكوود لبعض الرهبان الذين تمنّوا حلول السّلام: «أتريدون أن يتمنّى الله جوعاً لي؟ فأنا أعيش من الحرب كما تعيشون أنتم من الصّدقات»، أمّا معاصره أميرغو مارشيه فقد عبر لفرواسار عن أسفه لإنقاعه باكراً عن «عمل الخير»؛ أي عن أعمال السلب والنهب، إذ كان يقول: «آه كم كنّا سعداء؛ حين كنّا نسير ممتطين خيولنا، ونجد في الأرياف كاهناً غنياً، أو على الطُّرقات تاجراً ثرياً. كنّا إذن نفرض الفدية على هوانا، وكنّا كلّ يوم نكسب مالاً جديداً»<sup>[٣]</sup>. في الواقع لقد أسهمت الأزمة الاقتصادية، والاجتماعية بدورها في تزايد عدد المشرّدين، الذين كلّما وجدت مجموعة منهم من يقودها، تحوّلت إلى فرقة مسلّحة، أو تنظيم عسكري، يقوم بعمليات سلب، ونهب أكثر بشاعة من العمليات التي كان يقوم بها المحاربون النظاميون<sup>[٤]</sup>.

ويبدو أنّ الأمير الأسود ولي عهد إنكلترا لم يكتفِ بما حقّق من مكاسب ومغانم، فوضع نصب عينيه إفقار فرنسا، بحيث تطلّ عاجزة عن النهوض، وعملاً بهذه الخطة استقدم عصابات من إنكلترا، أطلقها في فرنسا تسلب، وتنهب، وتحرق القرى الفرنسيّة؛ وقد استولت هذه العصابات على مدينة ليون Lyon، وكذلك على قلعة بريجنيه Brignais قرب ليون، وقد أحرزت فيها انتصار

[١]- الفتلاوي، الحاجم: حرب المائة عام، ص ٣.

[2]- Whittington, K. E., Op. Cit., 2016, p.63.

[٣]- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٥٠٢-٥٠٣.

[٤]- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ ص ١٦٨.

على القوّات الفرنسيّة، ثمّ سيطرت على مدينة أفينون ونهبته، وسيطرت كذلك على مدينة بون-سانت-اسبيري Pont - Saint- Esprit، وذبحوا الكثير من نبلاء المدينة، وهتكوا أعراض النّساء، واستولوا على ثروات كبيرة، ولكن عندما اتّحدت هذه العصابات مع شارل السيّ Charles de Navarre (١٣٣٢-١٣٨٧م) ملك نافار؛ هُزمت هزيمة ساحقة على يد القائد الفرنسي برتراند دي جويسكلين Bertrand Du Guisclin في معركة كوشريل Cocherel في نورمانديا سنة ١٣٦٤م<sup>[١]</sup>.

### ثالثاً: المرحلة الثّانية من حرب المئة عام

لقد بدأت المرحلة الثّانية من حرب المائة عام، والتي عرفت بتسمية الحرب الكارولينيّة نسبة الى شارل الخامس Charles V ملك فرنسا، سنة ١٣٦٩م، بعد أن ساءت أحوال الأقاليم الفرنسيّة التي سيطرت عليها إنكلترا بمقتضى معاهدة بريتاني، نتيجة كثرة الضّرائب، وانتشار العصابات التي تقوم بعمليات السّلب والنّهب، فشكا باروناتها لملك فرنسا شارل الخامس أمرهم؛ فطلب الملك الفرنسي من الأمير الأسود الحضور للبلاط الفرنسي للنّظر في التّظلم الذي رفعته مقاطعة أكويتين ضدّ إدارته لها، فلمّا رفض الأمير الأسود الحضور عدّ ذلك عاصياً لسيّده الإقطاعي؛ بحسب ما تعارفت عليه العادات، والتّقاليد الإقطاعيّة آنذاك، ممّا دفع بشارل الخامس إلى مصادرة المقاطعة في ٣٠ تشرين الثاني ١٣٦٩م، وإعلان نهاية معاهدة بريتاني، فاستأنف إدوارد الثالث ادّعاؤه بالعرش الفرنسي، وعادت الحرب الى الاشتعال مجدّداً<sup>[٢]</sup>.

بدأ الفرنسيّون باستهداف المدنيّين الإنكليز على ساحلهم الجنوبي، وذلك من خلال الهجمات البحريّة السّاحليّة، ففي سنة ١٣٧٠م هاجم الفرنسيّون السّاحل الجنوبي الإنكليزي، وقاموا بسلب القرى والبلدات، وقد عانى الصّيّادون الإنكليز، وعائلاتهم التي كانت تسكن ذلك السّاحل من الهجمات الفرنسيّة، ولعلّ أشهر تلك الهجمات عندما هبط الفرنسيّون على ساحل مقاطعة Sussex قرب حدود كنت Kent، وهي قرية كبيرة يقطنها صيّادو الأسماك والبحّارة، فسلبوا البلدة، وأحرقوها عن بكرة أبيها، ثمّ أخذوا سفنها، وهكذا يظهر أنّ الفرنسيّين لا يختلفون عن الإنكليز في رغبتهم في مهاجمة المدنيّين العزّل، والأمنين، عموماً لم يتمكّن الفرنسيّون من القيام بهذا العمل دائماً، لأنّ معظم الحرب كانت رحاها تدور في بلادهم، وبالتالي كانت هناك صعوبة كبرى في إرسال حملة عسكريّة إلى إنكلترا دائماً<sup>[٣]</sup>.

[١]- هشام الحسيني: الأمير الإنكليزي الأسود، ص ٩.

[٢]- الفتلاوي، الحاجم: حرب المائة عام، ص ٣.

[3]- Whittington, K. E., Op. Cit., 2016, p.57

لقد خضعت مدينة ليموج Limoges للسيطرة الإنجليزية وفقاً لمعاهدة بريتاني، وقد ولّى الأمير الأسود أسقف المدينة عليها، وبما أنّ معاهدة بريتاني انتهت، قرّر الملك الفرنسي شارل الخامس، وقائد الجيش برتراند دي جويسكلين أن يستعيدوا مدينة ليموج مرّة أخرى، قام الجنرال الفرنسي بحصار المدينة، وابتهج سكانها لقدمه، ورغم أنّ أسقف المدينة رفض تسليمها في البداية، إلّا أنّه اضطرّ، وعاد لتسليمها لدوق بريتاني ودوق بيرى Berry ودوق بوربون Bourbon والسير جاي دي بلو Guy De Blois والعديد من اللوردات الفرنسيين، الذين دخلوا مدينة ليموج مزهوين في آب ١٣٧٠م. أمّا الأمير الأسود الذي بلغته أنباء سقوط ليموج بيد الفرنسيين؛ أزعجه الخبر، لا سيّما أنّه كان يعد أسقف ليموج صديقاً له، وكان محلّ ثقته مثل والده، فكيف له أن يكون المساعد الأوّل للفرنسيين ليستولوا على المدينة، حتّى رجال الكنيسة لم يكونوا عند حسن ظنّه بهم. لقد حقد ولي العهد الإنكليزي عليهم جميعاً، وعقد العزم على الانتقام منهم؛ جزاء الغدر والخيانة، وعلى الفور رحل من كوجناك في جنوب غرب فرنسا، ومعه ألف ومائتان من حملة الرماح، والفرسان، والمساعدين، وألف من رماة السهام، وألف من المشاة، وبصحبه أخويه<sup>[١]</sup>.

وصل الأمير الأسود إلى مدينة ليموج في شهر أيلول من السنّة ذاتها، وعندما استعصت عليه المدينة فكر في طريقة أخرى للسيطرة عليها، إذ حاصرها من جميع الجهات، وظلّ نحو شهر، أو أكثر أمام أسوارها مرابطاً، وأمر الحفّارين في جيشه بحفر نفق تحت أسوارها، وطوال هذه الفترة التي شرع فيها الحفّارون بأعمال الحفر، لم تحدث أيّ مناوشات، أو قتال بين الفريقين، وقد حاول أهالي ليموج إعاقة أعمال الحفر بشتّى الطرق، إلّا أنّهم فشلوا في محاولاتهم تلك، وبعد حوالي شهر أبلغ الحفّارون أميرهم بانتهاء مهمّتهم بنجاح، وأنّه يمكن اقتحام المدينة، ودخولها بدون التّعريض لأيّ خطر. وبالفعل أشعل الحفّارون النّار داخل الحفر، وفي صباح اليوم التّالي تمّ تدمير جانب كبير من السور، وعلى الفور قام المشاة باقتحام بوابة ليموج وتحطيمها، وإزالة كلّ الدّفاعات، والحواجز الموجودة فيها، بسرعة فائقة، وبشكل مباغت، بحيث لم يستطع أهل مدينة ليموج القيام بأيّ عمل، أو مقاومة. بعد أنّ استحكم الجنود الإنكليز بالمدينة قاموا بعمليات السرقة، والسلب، والنهب على أوسع نطاق، وقاموا بتنفيذ الأوامر الصّادرة لهم من ولي العهد الإنكليزي بذبح جميع الرّجال، والنساء، والأطفال، بدون أن يراعوا أنّ ذلك يتناقض مع مبادئ الفروسية، ويتفق مع أشنع صور الوحشية والهمجية. ومن المشاهد التي يندى لها جبين الإنسانية، هو مشهد الرّجال، والنساء، والأطفال، وهم جاثون على ركبهم أمام ولي العهد، يلتمسون منه الرّحمة، والشفقة، بينما كان يتقد

[١]- هشام الحسيني: الأمير الإنكليزي الأسود، ص ١٨.

غضبًا، وغيظًا، لم يلتفت إليهم، ولم يُعر توشلاتهم أيَّ اهتمام، بل أمر بقتلهم جميعًا دون أدنى أن يرفله طرف، حتَّى الفقراء لم يرحم توشلاتهم، رغم أنَّه لم تصدر عنهم أيَّ خيانة، لقد ذبح في ذلك اليوم أكثر من ثلاثة آلاف إنسان ما بين رجل، وامرأة، وطفل بقطع رقابهم<sup>[١]</sup>.

استمرَّت الحرب سجالًا بين الطَّرفين؛ وقد استطاعت الجيوش الفرنسيَّة بقيادة الجنرال برتراند دي جويسكلين استرداد كثيرًا من المناطق التي كان الأمير الأسود قد سيطر عليها، حيث حرَّر الفرنسيُّون بواتيه ١٣٧٢ م، وتعرَّض الجيش الإنجليزي لعدَّة هزائم في إقليم جاسكوني، فقد استفاد الفرنسيُّون من حال الفوضى العامَّة في الجيش الانكليزي، وارتباك جنرالاته، فاستولوا من جديد على الأراضي التي كانوا قد تخلَّوا عنها<sup>[٢]</sup>. أمَّا في البحر فقد تمكَّن الأسطول الفرنسي في السَّنة ذاتها، مدعومًا بنظيره الإسباني، من تدمير الأسطول الإنجليزي في معركة لاروشيل La Rochelle البحرية، وأخيرًا تمكَّن الفرنسيُّون بقيادة جيسكلن من هزيمة قوَّات إنكليزيَّة، وبريتونية في معركة كيز Chizé ليحتلَّ بعدها مدينة بريتاني، فاضطَّرت القوَّات الإنكليزيَّة المواجودة على الأراضي الفرنسيَّة إلى الانسحاب إلى إنكلترا<sup>[٣]</sup>.

ردًّا على ذلك أرسل الملك إدوارد الثالث حملة عسكريَّة جديدة في سنة ١٣٧٣ م بقيادة ابنه جون أمير جنت John of Gaunt، نزلت في كاليه، وتوغَّلت في وسط فرنسا حتَّى وصلت إلى منطقة بوردو. لقد عانى المدنيُّون الفرنسيُّون من تقدُّم القوَّات الإنكليزيَّة في بلادهم؛ إذ كان لزامًا عليهم أن يقدموا المؤن للجيش الإنكليزي الذي اجتاح أراضيهم مرغمين، كما كانت محاصيلهم، وأملكهم مباحة للسلب من قبل هذه القوَّات بدون رحمة. ويبدو أنَّ المدنيِّين الإنكليز عانوا من حكومة بلادهم أيضًا؛ ولعلَّ أبرز الشواهد على ذلك هو ما حصل عندما صادر الجيش السُّفن التجاريَّة الإنكليزيَّة من أصحابها؛ من أجل نقل قوَّاته في سنة ١٣٧٨ م، إذ عانى ملاك هذه السُّفن خسائر فادحة، ونفقات كبيرة، إذ كان عليهم أن يصلحوا التَّلَف الذي تعرَّض له المراكب والسُّفن؛ من مراسي، وسواري، وسلاسل، بدون الحصول على أيِّ تعويض، هذا ناهيك عن السُّفن التي غرقت<sup>[٤]</sup>. وتجدر الإشارة إلى أنَّ الاشتباكات استمرَّت متقطَّعة بين الدولتين طوال هذه المرحلة بدون أن يكون هناك انتصار حاسم لأحدهما على الآخر، وقد أنهك طول مدَّة الحرب اقتصاد البلدين وميزانيتهما،

[١]- هشام الحسيني: الأمير الإنكليزي الأسود، ص ٢١.

[٢]- هشام الحسيني: الأمير الإنكليزي الأسود، ص ٢٣.

[٣]- الفتلاوي، الحاجم: حرب المائة عام، ص ٣.

[٤]- Whittington, K. E., Op. Cit. ٢٠١٦, p. ٦٢.

اذ انخفض تعداد السُّكَّان في انكلترا الى النِّصْف نتيجة لخسائر حرب المئة عام البشريَّة، وموجات الطَّاعون الَّتِي اجتاحت انكلترا بين عامي ١٣٤٨-١٣٤٩ م، والَّتِي استمرَّت بشكل متقطَّع حتَّى نهاية القرن الرَّابِع عشر، وهو ما سبَّب ندرة الأيدي العاملة في الزِّراعة، وبالتالي اجتاحت البلاد فترات من المجاعة الخطيرة الَّتِي أثَّرت بشكل كبير على عامَّة الشَّعب؛ الأمر الَّذِي زاد من حال السَّخَط، والغضب الشَّعبي في أرجاء انكلترا، وترك أثرًا مدمرًا على الدَّاخِل الإنكليزي، ورغم أنَّ الفريقين أخذًا يتطلَّعان للسلام؛ وعلى وقع هذه المآسي، وتمَّ عقد هدنة ليولينهين Leulinghen بينهما في ١٨ حزيران ١٣٨٩ م، لتكون نهاية المرحلة الثَّانية من الحرب، إلَّا أنَّ الانتفاضات الشَّعبية كانت قد انفجرت في كلا البلدين<sup>[١]</sup>.

رابعًا: الأزمات الدَّاخِليَّة الَّتِي عصفت بالبلدين لقد توفيَّ الأمير الأسود في سنة ١٣٧٦ م، ثمَّ تبعه الملك إدوارد الثالث في سنة ١٣٧٧ م، وتولَّى حفيده ريتشارد الثاني Richard II ذو الأحد عشر عامًا العرش، وبسبب صغر سنِّه تمَّ تشكيل مجلس وصاية عليه لحين بلوغه السنِّ الَّتِي توَّهله للحكم، وقد شهدت إنكلترا، وفرنسا تدهور الأوضاع الدَّاخِليَّة في كلا البلدين؛ في الواقع لقد أهرقت الحرب كاهل انكلترا؛ وسرعان ما انطلق مسلسل الانتفاضات الاجتماعيَّة في لندن؛ بانتفاضة شعبية ضدَّ الحكومة الإنكليزيَّة، بسبب عدم قبول، أو قدرة الحكومة الإنكليزيَّة على الدِّفاع عن جنوب انكلترا ضدَّ الهجمات الفرنسيَّة، والإجهاد المالي للحرب<sup>[٢]</sup>؛ حيث انتشرت البطالة، وتردَّت أحوال النَّاس المعيشية؛ فقد تحمل الفلاحون، وعامَّة الشَّعب العبء الأكبر من تبعات الحرب البشريَّة والمالية، إذ أُجبروا على الخدمة في الجيش، وعلى توفير احتياجات الحرب المالية المتمثلة بدفع ضرائب أكثر إلى السُّلطة الملكيَّة الَّتِي عملت من جانبها على استحداث المزيد من الضَّرائب في محاولاتها المتكرِّرة لتغطية تكاليف الحرب.

ومنها ضريبة الرِّأس الَّتِي صدرت في عهد الملك هنري السَّادس، والَّتِي عرفت بضريبة «البول طاكس»؛ والَّتِي فرضت على جميع من يبلغ من ثمانية عشر عامًا<sup>[٣]</sup>.

لقد بدأت الثَّورة بحركة عماليَّة اندلعت في سنة ١٣٨١ م؛ احتجاجًا على طبيعة قانون العمل الضَّاغط على العمَّال، واحتجاجًا على إقرار ضريبة الرِّأس، وسرعان ما وجد حُرْفِيُّو، وعمَّال لندن من يتآزر معهم في الرِّيف الإنكليزي؛ ما أكسب انتفاضتهم زخمًا شعبيًّا قويًّا. كما وجدت الانتفاضة

[١]- الفتلاوي، الحاجم: حرب المائة عام، ص ٣+ ص ٦.

[٢]- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ ص ١٨٣.

[٣]- الفتلاوي، الحاجم: حرب المائة عام، ص ٧.

في شخص وات تايلر Wat Tyler زعيمًا محنكًا آزره رجل الدين جون بال John Ball صاحب المقولة المشهورة: «حين كان آدم يقلب التربة، وكانت حواء تنسج، أين كان الجتلمان؟». وقد كانت الانتفاضة عارمة، حيث تمكن القائمون بها من السيطرة على لندن لفترة وجيزة، ولكنهم فشلوا في مواصلة السيطرة على المدينة؛ نظرًا إلى القمع العنيف الذي جوبهوا به، ونظرًا لاغتيال زعيمهم<sup>[١]</sup>.

لقد عانت فرنسا أوضاعًا مشابهة لتلك التي تمرُّ بها إنكلترا، إذ توفيَّ الجنرال جيسكلين في تموز ١٣٨٠م، ثمَّ توفيَّ الملك شارل الخامس في ١٦ أيلول من السنة ذاتها، فخلفه ولده الصَّغير شارل السَّادس Charles VI، البالغ من العمر اثني عشر عامًا، والذي كان يعاني من نوبات الجنون بين حين والآخر، فاشتدَّ التنافس بين أعمامه حول الوصاية على العرش، الأمر الذي أدَّى إلى دخول فرنسا في حرب أهليَّة، إثر ثورة شعبيَّة، في حزيران ١٣٨٢م<sup>[٢]</sup>. عرفت هذه الثَّورة باسم انتفاضة المطرقيين les Maillotins، وهي لا تختلف في جوهرها، ومضمونها عن ثورة سنة ١٣٦٠م، وقد لاقت الثَّورة الثَّانية مصير الثَّورة الأولى<sup>[٣]</sup>، وتتلخَّص أحداثها في مواجهات شغب شعبيَّة قصيرة الأمد، لكنَّها كانت عنيفة جدًّا، انفجرت على إثر قرار السُّلطات الفرنسيَّة الحاكمة بإعادة إقرار مجموعة ضرائب؛ كان الملك شارل الخامس قد أسقطها، وهو يحتضر في شبندر قبل سنتين. لقد عمَّد المنتفضون إلى تسليح أنفسهم بأعداد من المطارق الكبيرة الحجم des maillets؛ سطوا عليها من دار البلديَّة l'Hôtel de ville؛ حيث كانت مودعة هناك استعدادًا لردِّ هُجوم كان يحتمل أن يقوم به الإنجليز؛ ولذلك نُعتت هذه الحركة باسم انتفاضة المطرقيين<sup>[٤]</sup>.

### خامسًا: المرحلة الثالثة من حرب المئة عام

بدأت المرحلة الثالثة من سنة ١٤١٥م وعرفت بالحرب اللانكسترية، نسبة إلى أسرة آل لانكستر الإنكليزيَّة الحاكمة، واستمرَّت حتَّى سنة ١٤٥٣م، وقد تجددت الحرب فيها على يد هنري الخامس (١٤١٣-١٤٢٢م) ملك إنكلترا وحليفه دوق بيرغونديا Burgundy، فغزا الإنكليز شمال فرنسا<sup>[٥]</sup>، واستطاعوا تحقيق نصرٍ مهمٍّ على الفرنسيين في ٢٥ تشرين الأول ١٤١٥م عند أجينكورت

[١]- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ ص ١٨٣.

[٢]- الفتلاوي، الحاجم: حرب المائة عام، ص ٣.

[3]- Whittington, K. E., Op. Cit., 2016, p.64

[٤]- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ ص ١٨٢.

[٥]- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي، ص ١٧١.

Agincourt، بفضل جيشهم المتفوق عددياً؛ إذ بلغت نسبته ٢: ١، وهكذا تمكّن الإنكليز من سحق القوّات الفرنسيّة التي كانت تعاني الجوع، وسوء القيادة، وتمّ في هذه المعركة أسر عدداً كبيراً من النّبلاء الفرنسيين<sup>[١]</sup>.

لقد تمكّن هنري الخامس من احتلال نورمانديا بعد أن خاض عدّة معارك في الأعوام ١٤١٦-١٤١٩م، لقد كان هدف هنري الخامس الأساس تقليل عدد الحصون الفرنسيّة في الشّمالي، وحرمان فرنسا من المساعدات التي كانت تصلها من طريق البحر، في الوقت نفسه الذي كان يسعى فيه لتأمين خطوط إمداده، وتموينه بصورة منظّمة لحملاته المخطّط لها عبر هذا البحر. أمام الضّغط العسكري الإنكليزي اضطرّ ملك فرنسا شارل السّادس إلى توقيع معاهدة تروي Troyes مع هنري الخامس في ٢١ أيار ١٤٢٠م، والتي كان من ضمن بنودها أن يتزوّج هنري الخامس من كاثرين أوف فالوا ابنة شارل السّادس، وأن يرث أبناء هنري الخامس منها العرش الفرنسي بعد شارل السّادس. لقد أثار توقيع شارل السّادس لمعاهدة تروي موجة من السّخط الشعبي، والغضب في فرنسا، ورفض المعارضون الفرنسيّون بنودها، واستمرّوا في قتال الإنكليز، وفي عام ١٤٢٢م توفيّ هنري الخامس ملك إنكلترا، فخلفه ولده الرّضيع واصبح ملكاً على إنكلترا باسم هنري السّادس Henry VI، وبعده بشهرين توفيّ شارل السّادس ملك فرنسا، فعين المعارضون الفرنسيّون ابنه شارل السّابع Charles VII ملكاً على فرنسا في أورليان Orleans، في حين أنّ الإنكليز، والبروغنديين توجّوا هنري السّادس ملكاً على انكلترا، وفرنسا في باريس كما نصّت على ذلك معاهدة تروي، وقد استمرّت الموجهات بين الطّرفين، وكانت الكفّة راجحة للإنكليز حتّى عام ١٤٢٩م<sup>[٢]</sup>.

لقد عانى المدنيّون الفرنسيّون في المناطق التي سيطر عليها الإنكليز -حتّى في فترات عدم القتال- أشدّ معاناة، لقد كانت أولى المشكلات التي واجهوها هي مشكلة الولاء، أي عندما يكونون مع الطّرف الخطأ في الوقت الخطأ، عندها كانوا سيعانون من التّجريد من الأملاك، ومن التّفكي الداخلي، وربّما من القتل والتّنكيل، فعلى سبيل المثال عانى جميع الفرنسيّين الذين كانوا في الأراضي التي احتلّها الإنكليز، لا سيّما أولئك الذين رفضوا أن يعترفوا بسيادة هنري الخامس ملك انكلترا عليهم؛ وأن يعترفوا به ملكاً على فرنسا، فعاقبهم بتجريدهم من ممتلكاتهم العقاريّة، وأجبرهم على التّفكي الداخلي ضمن فرنسا. في الواقع لقد كانت سياسة إنكلترا في عهد هنري الخامس تعتمد مبدأ التّغيير الديمغرافي في المناطق الخاضعة لسيطرتها في فرنسا، إذ اعتمدت

[١]- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا، ص ٣٦٢.

[٢]- الفتاوي، الحاجم: حرب المائة عام، ص ٤.

إبعاد السُّكَّان المشكوك في ولائهم، وأت بسكَّان أكثر ولاءً لها، وأجدر بالثقة، كانوا في غالبيتهم مستوطنين إنكليز. وهكذا تورط المدنيون في حال الحرب العامة، وواجهوا العديد من المشقات بسبب حيادهم أو قلة ولائهم لهذا الطرف أو ذلك، ولعلَّ أبرز الأمثلة هي حال جان جورارد Jean Guerard الذي هرب من باريس مع زوجته الحبلى، فأسر من قبل الإنكليز، ومن قبل الفرنسيين، وأضطرَّ أن يدفع الفدية للإنكليز والفرنسيين، بعد أن اتَّهمه كلُّ طرف بالولاء للآخر<sup>[1]</sup>.

لقد كانت الفدية أمراً رائجاً في حرب المئة عام، فهي الغنيمة الدسمة التي يسعى لها السَّاعون وراء المكاسب، فقد خشي هنري الخامس أن يفسد انتصاره في أزكور إذا ما أتاح لرجاله الوقت الكافي لجمع الأسرى، فأصدر أوامره بقتلهم، ولم يستثن من هذا التدبير سوى أرفعهم مكانة. وهناك بعض الفدى المشهورة في هذه الحرب نذكر منها: فدية الملك جان، وفدية دوغكلين، وفدية الكونت دي دينيا، وفدية شارل دورليان. وقد حدّدت اجتهادات كثيرة مصير أسرى البحر أو البر: «الأسير ملك أسره، ويجب أن يعاد إليه إذا ما فرَّ، وقبض عليه شخص ثالث؛ وتحديد قيمة الفدية بالمناقشة بين الأسير، و«سيده» كانت وفق التسعير متعارف عليه». وإذا قضى شرف الملك بإحسان معاملة أسيره، وبفرض فدية عليه للدفع، كان ينعم عليه بحرية مؤقتة كي يجمع المبلغ المطلوب، والقيمة اللازمة، لكن ما أكثر الذين لاذوا بالفرار بدون أن يدفعوا فديتهم. إلا أنَّ الأسير كان مادّة دين وقد أمكن بهذه الصّفقة الاتجار به<sup>[2]</sup>.

إنَّ ما زاد الأوضاع سوءاً في فرنسا هو حاجة ملوكها لتغطية نفقات الحرب؛ ما دفعهم إلى تخفيض قيمة العملة بتزييفها، فارتفعت أسعار الحاجيات الأساس، وأدّى الأمر إلى جميع الارتباكات الماليّة التي يقودها التضخّم المالي، بما فيها انهيار النقْد بين سنتي (١٤١٦-١٤٣٠م)، فلجأ ملوك فرنسا إلى فرض ضرائب جديدة على الشعب؛ بوصفها ضريبة احتكار الملح وغيرها كثير<sup>[3]</sup>، فهذه هي جريدة «المواطن الباريسي» تشكو في سنة ١٤٢١م من الضرائب الزائدة عن الحد، وارتفاع الأسعار: «ففي كلِّ ليل، ونهار يسمع الإنسان مناً في باريس وحدها الصّرخات المتعالية، بسبب ارتفاع الأسعار، والتُّدرة في كلِّ شيء». حتّى أنَّ الفقراء أكلوا التّفايات التي تحتقرها الخنازير، كما أكلوا أوراق الكرنب والأعشاب، وفي المستشفيات كان يتمُّ تكديس من يصارعون الموت مع الأموات، وسنة ١٤٣٩م التهمت الذّئاب الجوعى أربعة عشر شخصاً في المنطقة المحصورة ما

[1]- Whittington, K. E., Op. Cit., 2016, pp59- 60.

[2]- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج٣، م.س، ص ٥٠٤.

[3]- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي، ص ١٧١.

بين مونت مارتر، وميناء سانت أنطون، وهاجمت رعاة الغنم مفضلة إيّاهم على الأغنام الهزيلة<sup>[١]</sup>. هذا ناهيك عن الكوارث الطبيعيّة التي رافقت الحرب، والتي فتكت هي الأخرى بالسكّان المدنيّين، فعلى سبيل المثال أتت الحرائق في مدن انكلترا، وفرنسا، وألمانيا على أحياء كاملة، ساعدها على ذلك مواد بناء قابلة للحريق، وتكدّس المنازل فوق بعضها، وهزال وسائل مكافحة النّار، حتّى أنّ تولوز نفسها أصابها ثلاثة حرائق خلال المرحلة الثّالثة من حرب المئة عام<sup>[٢]</sup>.

أمّا أشدّ الأخطار التي عانى منها المدنيّون من جرّاء الحرب هي انتشار قطع الطّريق في الرّيف الفرنسي؛ وما قاموا به من أعمال القتل، والسّرقة، والاعتصاب، فقد تحدّث المؤرّخون عن فرق الفرنسيّين المعروفة باسم: skinners العاملة على حدود بيرغونديا خلال هذه الفترة، وكان هؤلاء يسبّبون ضرراً كبيراً بأخذ القلاع، والأنكى من ذلك أنّهم كانوا يقتلون، ويسلبون، ويهتكون عرض كلّ من وقع بأيديهم من المدنيّين بدون تمييز، يعاملونهم بمتهى الوحشيّة كما لو أنّهم أعداء فرنسا<sup>[٣]</sup>. أمّا في سنة ١٤٤٤م فقد اتّخذت جماعة كبيرة من اللّصوص، ومن القتلة مكاناً لها خارج باريس تقيم فيه، وأخذت تستولي على الأغنام من أجل طعامها، وتقبض على الأشخاص لتحصيل على فدية من ذويهم، وقد عانى الرّيف الفرنسي من الخراب، وتدمير الحقول المزدهرة، حتّى أنّ نورمانديا تحوّلت إلى منطقة مليئة بالطّحالب، والأعشاب البريّة، والبوص، وتمّ هجر كثير من الطّرق الرّئيسة، وتحطّمت الجسور، وانسدّت التّرع، بينما امتلأت الموانئ بالطّمي. وأخذت عصابات قطع الطّرق، والمحتالين تجوب القرى، تسلب كلّ ما يقع تحت ناظريها بقوة السّلاح، مقدّمين حمايتهم لكلّ من يدفع لهم، بينما كانوا يحرقون من يرفض تقديم الإتاوات لهم<sup>[٤]</sup>.

إنّ معاناة المدنيّين الأساس خلال هذه الحرب، هو أنّ الجيوش الإنكليزيّة، والفرنسيّة كانت تسعى دائماً للحصول على تجهيزاتها من موارد المدنيّين، بحجّة المجهود الحربي، أو أنّهم كانوا يضعون يدهم عنوة على أرزاق النّاس بدون أن يستأذنونهم بها. وحتّى عندما يهدأ القتال كان السكّان المدنيّون يعانون الأمرين من الجنود، وجشع شركات الجباية في الرّيف، وغالباً ما كانت تعاني من هذا الوضع المدن، والبلدات التي قبلت بدفع الفدية مقابل الحماية العسكريّة، لكن الجنود أخذوا يكرّرون طلباتهم للأموال منعاً لأحراق البلدة، تماماً كما حدث في سنة ١٤٣٧م عندما قبلت

[١]- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا، ص ٣٦٣.

[٢]- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٥٠٥.

[3]- Whittington, K. E., Op. Cit., 2016, p.62.

[٤]- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا، ص ٣٦٣.

مدينة ريمس دفع الجزية للجنود الإنكليز. إنَّ البلدات التي لم تدفع، أو أنَّها وافقت على الدَّفْع ثمَّ رفضت، تعرَّضت لعقوبات، وحشيَّة، وقاسية جدًّا، مثال ذلك ما وقع لأحدى البلدات الفرنسيَّة الواقعة بالقرب من مدينة بوا Poix، حيث وقَّعت المدينة اتفاقية مع القوَّات الإنكليزيَّة بقيادة إدوارد الثالث تعهَّدت فيها بدفع مبالغ ماليَّة كبيرة مقابل سلامتها، وعدم إضرار النَّار فيها من قبل الجيش الإنكليزي، لكنَّ سكَّانها عادوا، وتراجعوا عن دفع تلك المبالغ الضَّخمة، بعدما شاهدوا الجيش يتعد عن بلدتهم، فما كان من الجيش الإنكليزي إلَّا أن أرسل لتلك البلدة ثلَّة من الجنود قامت بإحراقها، بصورة وحشيَّة يندى لها جبين الإنسانيَّة، لقد كان الإنكليز يهدفون من هذه الوحشيَّة المفرطة ضدَّ المدنيِّين هو إشاعة الرُّعب بينهم، وتوصيل رسالة لباقي البلدات الفرنسيَّة الأخرى؛ أنَّه لا تهاون في دفع الجزية، وأنَّه على المدنيِّين الدَّفْع مهما كانت المبالغ كبيرة؛ إن كانوا يرغبون في البقاء على قيد الحياة، وهكذا كان يكفي أن يتقدَّم الجيش الإنكليزي حتَّى يدعن الرِّيف الفرنسي، ويقدمُ الإتاوات، حتَّى لا يكون سكَّانه في عداد القتلى<sup>[١]</sup>. إنَّ الإجماع الَّذي طبَّقه الجنود الإنكليز على المدنيِّين الفرنسيِّين سينعكس سلبيًّا عليهم، فبعد انتهاء هذه الحرب؛ شكَّل الجنود العائدين إلى الإنكليز عصابات، وتحولوا إلى قطع طرق؛ بسبب قلَّة المال، واعتيادهم على العنف، والسَّلب، والنَّهب الَّذي تعلَّموه في فرنسا، وهكذا أخذوا يقطعون الطُّرق، ويسلبون المارَّة، والتُّجَّار، الأمر الَّذي جعل الطُّرق التُّجَّاريَّة في إنكلترا غير آمنة، وأثر سلبيًّا على الحركة التُّجَّاريَّة بين المدن الإنكليزيَّة، فأصبح هؤلاء الجنود يمثِّلون مشكلة خطيرة على المجتمع المدني الإنكليزي<sup>[٢]</sup>.

ولعلَّ أهمَّ فصول المرحلة الثالثة من حرب المئة عام هي قصَّة الفتاة جان دارك Joan of Arc، تلك الفتاة الفرنسيَّة التي انتهى مصيرها بالإعدام حرِّقًا؛ بعد أن اتَّهمها الإنكليز بالهرطقة، بينما عدَّها الفرنسيُّون قديسة، عمومًا لقد كانت أجواء الحرب بيئة خصبة لانتشار الخرافة<sup>[٣]</sup>، ففي إحدى قرى اللُّورين؛ وهي قرية دومرمي Domremy القريبة من نانسي Nancy، كان يقطن أحد الفلَّاحين، وكان في دومرمي شجرة خاصَّة للجنِّ، ونافورة لها شهرة بالسَّحر. وكان لهذا الفلَّاح ابنة تعمل في الحصاد، ورعاية الحيوانات، وتقوم بما تقوم به النِّساء من أعمال الغزل، والنَّسج، وكانت أميَّة لا تجيد القراءة، ولا الكتابة، إلَّا أنَّها كانت فتاة ملتزمة دينيًّا تصرُّ على تناول العشاء المقدَّس كلَّ شهر<sup>[٤]</sup>. وعندما بلغت الثالثة عشر من عمرها، أخذت تسمع أصواتًا من السَّماء تناديها، وهي ترعى أغنامها، وترى في منامها القديس ميخائيل، والقديسة كاترين، وكانوا يطلبون إليها أن تبرح قريتها

[1]- Whittington, K. E., Op. Cit., 2016, pp.58, 59.

[٢]- الفتلاوي، الحاجم: حرب المائة عام، ص ٧.

[٣]- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي، ص ١٧١.

[٤]- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا، ص ٣٦٧.

إلى مدينة أورليان الفرنسية لتخلّصها من الإنكليز الذين ضربوا الحصار عليها منذ أكتوبر ١٤٢٧م، وبنوا حولها سلسلة من القلاع، وكانوا ينتظرون أن تفتك المجاعة بأهلها، لقد قلبت تلك الفتاة موازين الحرب لصالح الفرنسيين بعد أن هزمت الإنكليز في معركة باتي Patay في ١٨ حزيران ١٤٢٩م، لتتوالى بعدها الانتصارات الفرنسية في عدّة مواقع. أمّا المهمة الثانية فهي أن تصحب ولي العهد الفرنسي شارل السابع إلى مدينة ريمس حتّى يتوجّ ملكاً في كاتدرائيتها، وحقّقت جان دارك هاتين الرّسالتين، إلّا أنّ الانتصارات التي حقّقتها جان دارك سرعان ما خبت جذوتها بعد أن أسر البروغنديين جان دارك في معركة كومبيين Compiègne في شمال مدينة باريس في ٢٣ أيار ١٤٣٠م، فسلموها إلى الإنكليز، ولم يحاول الملك الفرنسي إنقاذها، وتركها لمصيرها<sup>[١]</sup>.

لقد كان الإنكليز تواقين للتخلّص من هذه الفتاة، فدفعوها للمحاكمة بتهمة السّحر، والقيام بأعمال الشّعوذة، وعدم الطّهارة، لم يكن هدف المحاكمة هو اكتشاف الحقيقة، بل كان الهدف إيصال رسالة للرأي العامّ أن جان فتاة مارقة، وأنّها صنعت انتصاراتها بمساعدة الشيطان، وبعد ضغط مستمرّ خمسة أشهر، انهارت الفتاة، وقبلت التّهم التي نسبت إليها، ثمّ تراجعت عنها، وهذا ما ألصق فيها صفة الهرطقة، وجعل منها مرتدّة لا تستحقّ الرّحمة. وفي ٣٠ أيار ١٤٣١م أعلن الأسقف كوشو Cauchon أنّها مذنبه، وبدل أن يحيلها إلى محكمة مدنيّة، كون المحاكم الكنسيّة لا تستطيع أن تصدر حكماً بالإعدام، فإنّه سلّمها للجيش الإنكليزي، فتمّ اقتيادها إلى مكان السّوق القديم في مدينة روان Rouen؛ وهناك نفذ فيها حكم الإعدام حرقاً بالنّار، ثمّ ألقى رمادها في نهر السين<sup>[٢]</sup>.

يشكّ كثير من المؤرّخين أنّ الأصوات التي كانت تسمعها جان هي جزء من عمليّة اختلطت فيها عمليّة التّخيّل بمشكلات سن البلوغ، أو بأحلام البالغين، كما اختلط بالاضطراب النّاجم عن اضطرابات الغدد الصّم. وهناك من يقول أنّها كانت تعاني من مرض السّل؛ الذي كان يؤثّر في فصوص المخ، ممّا كان يسبّب اضطراباً جزئياً في وظائف المخ، كما أنّ هلوسة جان الدينيّة لا يمكن إرجاعها إلى قوّة عقلها، ولا إلى معجزة؛ لأنّ المعجزة تتنافى مع العلة، والمعلول، أو الصّلة، والأثر، وببساطة فإنّ جان جانبها الصّواب في ما يخصّ الأصوات التي كانت تسمعها، فهي جاءت من داخلها لا من خارجها، كما أنّها كانت عمليّات هلوسة، وأوهاماً، وهناك احتمال ثالث هو أنّها كانت تكذب إلى حدّ كبير لكي تجذب الانتباه إليها<sup>[٣]</sup>.

وختاماً كانت الانتصارات التي حقّقتها الإنكليز في فرنسا محدودة النتائج، ولا تتناسب مع ما

[١]- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي، ص ١٧١.

[٢]- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا، ص ٣٦٧.

[٣]- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا، ص ٣٦٨-٣٦٩.

استنزفه من أموال وأرواح، حيث عادت بيرغونديا إلى محالفة فرنسا مرة ثانية، وانتهت فصول هذا الصِّراع بانتصار فرنسا، حيث تمكَّن شارل السَّابع؛ المعروف بشارل المنتصر، من استعادة كثير من الأراضي التي سبق أن فقدتها فرنسا، إذ استعاد باريس سنة ١٤٣٦م، ثم نورمانديا في سنة ١٤٤٩م، وبعدها بايون سنة ١٤٥١م، وتأكدَّ انتصار فرنسا في موقعة فورميني Formigny في نيسان ١٤٥٠م، وفي ١٧ تموز ١٤٥٣م خاض الفرنسيُّون، والإنكليز آخر المعارك الكبيرة في حرب المائة عام، وهي معركة كاستيلون Castillon التي كانت محاولة أخيرة من الإنكليز بقيادة جون تالبوت John Talbot لاستعادة الأراضي التي خسروها في فرنسا، إلا أنَّ الإنكليز تعرَّضوا لهزيمة كبيرة، وقتل القائد الإنكليزي تالبوت في المعركة، وتمكَّن الفرنسيُّون بعدها من السيطرة على معظم أراضيهم<sup>[١]</sup>. ولم تتمكَّن إنكلترا من استعادة زمام المبادرة بتاتاً بعد فشل هنري السَّابع في حملة على منطقة بولوني؛ فتخلَّت على إثر ذلك على جميع ممتلكاتها القاريَّة باستثناء مدينة كاليه، وبذلك انتهت فصول حرب المائة سنة، وإن لم يتمَّ ذلك بشكل رسمي إلا في معاهدة بيكويني Picquigny في ٢٩ آب سنة ١٤٧٧م<sup>[٢]</sup>.

وربَّما أنَّ الوضع الذي كان يزداد تدهوراً في إنكلترا هو الذي أجبر إنكلترا على عقد السِّلْم مع الفرنسيِّين، والاعتراف لهم بالنَّصر ففي صيف سنة ١٤٥٠م، أندلع في مقاطعة كنت الإنكليزية تمردٌ كبير يقوده جاك كيد الذي أطلق على نفسه تسمية جون مورتيير، وطالب بمعاينة الفاسدين في السُّلطة، والإصلاح الحكومي، ورفع الحيف عن طبقة الفقراء، والتَّحقيق بالإسراف المالي الذي يشهده بلاط الملك. وقد أخذ التمرد ينتشر بسرعة كبيرة في أرجاء إنكلترا، لا سيَّما بين عامَّة الشَّعب؛ نتيجة للسَّخط على فرض الضَّرائب المتكرَّر لتغطية تكاليف الحرب، وقد تصاعدت حدَّة هذا التمرد بعد أن تمكَّن جاك كيد من هزيمة قوَّة إنكليزيَّة أرسلت لمواجهة، ثمَّ زحف بجموع المتمرِّدين، الذين كان أغلبهم من الفلَّاحين، والعمَّال، والحرفيِّين، والتُّجَّار، يدعمهم عدد من صغار طبقة النُّبلاء إلى لندن، وقام بقتل عمدة لندن اللورد ساي. إلا أنَّ تصرُّفات أتباعه الوحشيَّة، وما ارتكبه في لندن أدَّت لاستياء اللُّندينِّيِّين منهم، فأعدت حامية لندن تجميع قوَّاتها، وهاجمت المتمرِّدين، وتمكَّنت من هزيمتهم، وفي الوقت نفسه أصدر هنري السَّادس الذي كان لا يزال في اليستر عفواً ملكياً عن المتمرِّدين، فانسحب عدد كبير منهم بينما رفض كيد ذلك، فانهزم، وهرب خارج لندن فلاحقته قوَّات الملك، وألقي القبض عليه، وأعدم بدون محاكمة، وعلَّق رأسه على جسر لندن<sup>[٣]</sup>.

[١]- الفتلاوي، الحاجم: حرب المائة عام، ص ٤.

[٢]- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ ص ٢٠٣.

[٣]- الفتلاوي، الحاجم: حرب المائة عام، ص ٧.

لقد أثبتت حرب المئة عام أنَّ الحدود غير الواضحة، ومبادرات الضُّباط، والجنود في المعسكرين، وتصنيفية الحسابات المتوجِّبة؛ كانت منطقاً لمنازعات غالباً ما تشعل نار الحرب، هذا ناهيك أنَّ الأمراء الذين هالتهم فكرة النزاع الدَّامي، وتشبَّهوا تشبُّهًا صبيانياً بشرف الفروسية؛ فكَّروا جدِّياً بتسوية نزاعاتهم في معركة فردية، ومبارزات أحادية. لقد حوَّلت حرب المئة عام الحرب إلى مهنة، استجابة للتقاليد الاجتماعية، والظُّروف السياسية، والضُّرورات الاقتصادية، والمقتضيات التقنية. لقد اتَّسمت حرب المئة عام في القرن الرَّابع عشر الميلادي بكثير من تقاليد العصور الوسطى المستوحاة من سداجة أدب الفروسية: مثل رسائل التَّحدِّي، وطلب المبارزة، والمعارك الفردية، والهدنات المحلِّية، وذهنية المحارب محدود الأفق، وتكوين الجيوش المبني على تفوُّق الفرسان النُّبلاء<sup>[١]</sup>.

## الخاتمة

إنَّ المطلَّع على أحداث هذه الحرب سيجد الوحشية المفرطة التي امتاز بها الفريقان المتصارعان، والتي غالباً ما كانت تمارس على المدنيِّين العزل بدون أدنى رحمة، أو شفقة. لقد مثل العوام في كلا البلدين وقود هذه الحرب من خلال تدمير أملاكهم، وسلبها، ونهبها، وفرض الضُّرائب عليهم، والفتك بهم. لم يرحم الملوك رعاياهم بل فرضوا عليهم كلَّ أنواع الضُّرائب، والإتاوات في سبيل تغطية نفقات الحرب، ما زاد من معاناة المدنيِّين. لقد كانت فترات الهدنة، ووقف القتال فرصة لانتشار القراصنة، وقطَّاع الطُّرق، وهم المرتزقة العاطلون عن الحرب، فكانوا يفتكون بالمدنيِّين، والمسافرين، والعزل، وعابري السَّبيل. لقد تميَّزت حرب المئة عام بشيوع ظاهرة الفدية، حتَّى رغبت جميع الأطراف المتصارعة في أسر الأثرياء، والنُّبلاء من أجل الحصول على مبالغ ماليَّة كبيرة لقاء إطلاق سراح المفدى. لقد أثبتت حوادث الشَّغب الدَّاخلية التي نتجت من حرب المئة عام مدى الوحشية المفرطة التي واجه بها سكَّان البلد الواحد أنفسهم؛ حدًّا وصل إلى أكل لحوم البشر. لقد استهدف الجيش المدنيِّين بمتهى الوحشية ما أسهم في تأصيل هذه الظَّاهرة في الجنود الذين خدموا خلال هذه الحرب؛ حدًّا وصل إلى أنَّ الجنود الإنكليز مارسوا جميع وحشيتهم التي كانوا يطبِّقونها على الفرنسيِّين على بني جلدتهم بعد أن انتهت الحرب، ما أفضى إلى اندلاع حرب الوردتين في إنكلترا في أعقاب حرب المئة عام.

[١]- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج٣، م.س، ص ٤٩٧.

## لائحة المصادر والمراجع

١. إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، القرون الوسطى، ج٣، ط٢، نقله إلى العربية: يوسف داغر وفريد داغر، منشورات عويدات، بيروت - باريس ١٩٨٦م.
٢. ثامر مكي علي، محاضرات التاريخ الحضاري للعصور الوسطى الأوروبية، الحاضرة السادسة، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب-قسم التاريخ، المرحلة الأولى، الفصل الدراسي الثاني، ٢٠١٨، ٢٠١٩م.
٣. جاك لو كوف: هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ تعريب وتقديم محمد حناوي، ويوسف نكادي، ط١، مطبعة مفكر زنقة السنغال، الرباط ٢٠١٥م.
٤. ماجد محي الفتلاوي، رشا الحاجم: حرب المائة عام (١٣٣٧-١٤٥٣م) وأثرها على انكلترا، مجلة العلوم الإنسانية، كلية التربية للعلوم الإنسانية، المجلد ٤٢، العدد الثاني، حزيران ٢٠١٧م.
٥. موريس بيشوب: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيد علي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م.
٦. نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ط٦، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م.
٧. هشام الحسيني: الأمير الانكليزي الأسود وفترة حاسمة من العلاقات الإنكليزية الفرنسية (١٣٦٤-١٣٧٠م).

## لائحة المصادر الأجنبية

1. Whittington, K. E., The Social Impact of the Hundred Years War on the Societies of England and France., A thesis submitted in partial fulfillment of the requirements for the Honors in the Major Program in History in the College of Arts and Humanities and in the Burnett Honors College at the University of Central Florida 2016.

# بحوث تأصيلية

يهدف هذا الباب إلى تفعيل المنهج التأصيلي في الفكر الإسلامي، عبر تظهير الدراسات والبحوث المعمّقة في حقل المعرفة الدينية والأخلاقية والفلسفية... كما يعتني بتقديم بحوث تأسيسية في الحضارة الإسلامية

التّرجمة الثقافيّة والتّعدديّة الكونيّة والاختلاف الإبستيمي

جواد الحبوش

مهام العقل وأدواره في المعرفة الدينيّة

رضا برنجانكار

# التَّرْجَمَةُ الثَّقَافِيَّةُ وَالتَّعْدُدِيَّةُ الكُونِيَّةُ وَالاختلاف الإِبْستيمي

جواد الحبوش [\*\*]

## المُلخَص

منذ التسعينيات من القرن الماضي، أضحى لمفهوم التَّرْجَمَة مكانة هامة في مجالي الدِّراسات ما بعد الاستعمارية، والثَّقَافِيَّة، وذلك لارتباطه بطابع الهجنة الذي يميِّز هويَّات المهجر في علاقتها بألساق الثَّقَافَة المهيمنة. وكان تعريف هومي بابا للتَّرْجَمَة على أنَّها عمليَّة رصد لمشهد الاختلاف الثَّقَافِي (Homi Bhabha: ١٩٩٤، ٢٢٧) هو السَّبب الذي شجَّع علوم الثَّقَافَة على البحث في سبل توسيع مفهوم التَّرْجَمَة اللِّسانيَّة، والنَّصِّيَّة ليشمل الممارسات الثَّقَافِيَّة، والاجتماعيَّة. إنَّ فكرة رصد الاختلاف الثَّقَافِي هاته لا تعني السِّيادة المطلقة على فعل تمثيل الدَّات من خلال التَّرْجَمَة، بل تجسِّد أيضًا ذلك التَّعَالق الوثيق بين الأنا والآخر، وهي تحتفي بطابع الهجنة الذي يميِّز الثَّقَافات، والفضاءات، وتعمل على تقويض النُّظرة الجوهرانيَّة لمفهوم الهويَّة الإنسانيَّة.

إنَّ تناول موضوع التَّرْجَمَة الثَّقَافِيَّة في هذه الورقة العلميَّة يروم إبراز فكرتين رئيسيتين: التَّرْجَمَة بعدها "رفيق الإمبراطورية"، والتَّرْجَمَة بصفتها فعلاً مقاوماً، ومناوئاً لكلِّ أشكال السُّلطة، والمعرفة الغربيَّتين - فكرتان تعكسان معاً مدى ارتباط موضوع التَّرْجَمَة بدهاليز السِّياسة في سياق الحدائث الاستعماريَّة وما بعدها. غير أنَّ فعل المقاومة الذي أراهن عليه لا يقوم فقط على استظهار جوانب المشترك الإنساني بشأن التَّفَاضل حول مفهوم الثَّقَافَة، كما ينظر إلى ذلك هومي بابا من منظور ما بعد استعماري، وكما يوحي بذلك قبله المفكِّر، والنَّاقِد الثَّقَافِي الفلسطيني إدوارد سعيد، خصوصاً في ما يتعلَّق بمفهوم القراءة الطَّبَاقِيَّة (contrapuntal reading)، الذي يمكن من خلاله استشكال فكرة الحدائث الغربيَّة لا بعدها مشروعاً يمتلك الغرب السِّيادة التَّاريخيَّة، والإبستمولوجيَّة حوله، بل بعدد هذه الأخيرة نتاجاً لتجارب الشُّعوب الإنسانيَّة المشتركة، وغناها، وراثتها اللامتناهين، وكذا تفاعلها الخلاق عبر الثَّقَافات، والجغرافيات، والتَّواريخ، والأوطان.

الكلمات المفتاح: التَّرْجَمَة الثَّقَافِيَّة، الإمبراطوريَّة، الاختلاف الإِبْستيمي، الهجنة الثَّقَافِيَّة، التَّفكير الحدودي.

[\*\*] - أستاذ الأدب الإنجليزي والدِّراسات الثَّقَافِيَّة المقارنة، شعبة اللُّغة الإنجليزيَّة وآدابها، كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المملكة المغربيَّة.

## مدخل

تتناول هذه الورقة العلمية موضوع ترجمات المهجر الوسيطة، وسياسات الاختلاف الإقليمي من منظور ما بعد استعماري، يقوم على أساس استشكال مفهوم الترجمة الثقافية في علاقاته بكتابات، وإبداعات/ وجماليات المهجر في السياقات ما بعد حديثة. إذ تعبر هذه التجارب عن غنى، وثراء ذواتها المتنقلة عبر الجغرافيات، والتواريخ، والثقافات، والأفكار نوعاً من الترجمة يتم من خلاله التفاوض بشأن الهويات، والعلاقات، والفضاءات، والأشياء إلخ. ولعل ما نودُّ الاهتداء إليه في بداية هذه الورقة هو تفكيك العلاقة الملتبسة بين الترجمة، وفعل التمثيل الثقافي (cultural representation)، الشيء الذي يدعونا للحديث عن مفهوم الترجمة الثقافية في علاقته بمجالين معرفيين شاسعين: الأنثروبولوجيا، والدراسات الثقافية. رغم أن الباحثين في الحقلين معاً أجمعوا على أن كلمة ترجمة مشتقة من أصل لاتيني، وتعني أن (تنقل شيئاً عبر الحدود)، إلا أن معناها يختلف من حقل معرفي إلى آخر. يجادل روبرت ج. س. يونغ (Robert J. C. Young) في السياق ما بعد استعماري بأن الترجمة الثقافية كانت في البداية مجالاً حكرًا على الأنثروبولوجي، الذي كان يقوم بترجمة «الثقافات البدائية»، وينقلها إلى القارئ الأوروبي<sup>[1]</sup>، وهي ممارسة تحيلنا إلى الدور الهام الذي لعبته الأنثروبولوجيا في سياق الإمبريالية الاستيمية القائمة على مبدأ تميز الثقافة «العقلانية» الغربية عن باقي ثقافات العالم. غير أنه عندما أعلن طلال أسعد عن موت فكرة الترجمة الثقافية في الأنثروبولوجيا<sup>[2]</sup>، بدأت هذه الأخيرة تتبوأ مكانة خاصة في مجال الدراسات ما بعد الاستعمارية، وذلك بعد مقال «سؤال الآخر» للناقد الثقافي هومي بابا. برؤية مناوئة تعبر عن فاعلية الذات المهاجرة إلى أوروبا وأمريكا، يعاكس هومي بابا اتجاه الترجمة في سياق الأنثروبولوجيا الاستعمارية، ليصبح «المهاجر الجديد» أو «التابع» (subaltern) هو وسيط الترجمة بدل الأنثروبولوجي<sup>[3]</sup>.

تستشرف هذه الورقة رؤية ما بعد استعمارية لمفهوم الترجمة الثقافية، وتروم استشكال فعل التمثيل الثقافي بعده خطاباً تتعالق في تخومه السلطة بالمعرفة، والسياسة بالثقافة، والتاريخ بالجغرافيا. فمفهوم الترجمة في مجال الدراسات ما بعد استعمارية يحيلنا أساساً على فعل التمثيل

[1]- Robert Young, "The Dislocations of Cultural Translation," PMLA, Volume 132, Issue 1, January 2017, p191.

[2]- Robert Young, "Cultural Translation as Hybridization", Trans-Humanities, Vol. 5 No. 1 (2012), pp. 155-175, p159.

[3]- Ibid., p160.

الثقافي، ذلك أن الترجمة لا تعني مجرد عملية تحويل النصوص من لغة إلى لغة أخرى، بل أهم من ذلك تحيلنا إلى النصوص التي تكتب بلغة غير الثقافات الأصلية التي تمتح منها، أو تتفاوض بشأنها. وإن كان هذا التعالق بين الكتابة، وفعل التمثيل الثقافي ليس موضوعاً جديداً، إلا أنه في سياق الدراسات ما بعد استعمارية، كان للمفكر الفلسطيني السبق في الكشف عنه خصوصاً في ما يتعلق بفعل التمثيل هذا، وأشكال الهيمنة التي يعبر عنها، والقوى الفاعلة فيها، وكذا أشكال المقاومة، والمناوئة التي تعترضها. وإن كان إدوارد سعيد قد أغفل فكرة المقاومة في كتاب الاستشراق، فإن الثقافة، والإمبريالية، وهو ثاني أهم الكتب التي ألفها سعيد، يستدرك هذه الهفوة بتوجيه اهتمامه إلى فكرة المقاومة من خلال التركيز على ضرورة قراءة النصوص الاستعمارية قراءة طباقية تمكّن من استعادة أصوات المقاومة للآخر المنسي في تخومها، وتمثيله الخاص لذاته، أو المضاد للتمثيل الاستعماري. ونحن ننظر إلى الأرشيف الثقافي، يفترض أن نقرأه ليس قراءة أحادية، بل قراءة طباقية (contrapuntal reading)، ندرك بشكل متزامن كلاً من التاريخ الاستعماري الذي يتم سرده، والتواريخ الأخرى التي يشتغل الخطاب المسيطر ضدها ومن خلالها<sup>[1]</sup>.

يؤكد إدوارد سعيد في الثقافة، والإمبريالية على الدور الهام الذي يجب على المثقف ما بعد الاستعماري أن يقوم به في تقويض الخطابات الغربية. فبدل الانسياق وراء خطاب، وسياسة اللوم، والعتاب (rhetoric and politics of blame)، ينبه سعيد إلى ضرورة الابتعاد عن هذه الرؤية المدمرة التي تغذي العدا، وتزكي المواجهة بين المجتمعات المتروبولية، والمجتمعات المستعمرة سابقاً. يراهن سعيد عوض ذلك على تعالق الثقافات، والتواريخ بإعادة قراءتها قراءة طباقية، ويؤسس بذلك ممارسة نقدية جديدة يصطلح عليها التقد العلماني (secular criticism)، وهو نقد يبدو في نظر سعيد أكثر غنى، ومردودية من مجرد محاولات عقيمة لشجب الماضي، أو أحاسيس بنيسة حسرة على أفوله، أو مضاربات تزكي العدا، وتؤدي إلى الأزمات بين تلك المجتمعات والثقافات<sup>[2]</sup>. تبدو هذه القراءة حبلية بالإمكانات في نظر سعيد، وتسعى إلى خلق معرفة إنسانية جديدة تنبني على ضرورة تجاوز الإبتيم الاستعماري القائم على مبدأ التضاد، والتقابل بين المجتمعات الغربية والأغربية.

تستبصر هذه الرؤية النقدية عند إدوارد سعيد كذلك أفقاً خصباً لاستشكال تاريخ الحداثة الغربية لا بعدها تجربة يمتلك الغرب السيادة التاريخية، والإبستمولوجية حولها، بل مشروعاً إنسانياً

[1]- Edward Said, Culture and Imperialism, (New York: Vintage, 1994), p51.

[2]- Ibid., pp18- 19.

مُشْتَرِكًا تَنَاسَجَ فِي تَحْوِمِهِ التَّوَارِيخُ، وَالجغرافِيَّاتُ، وَالأفكارُ، وَالشُّعُوبُ، وَالأعراقُ، وَالأوطانُ، وَالثَّقَافَاتُ، وَالمجتمعاتُ، وَالحضاراتُ. ففِي السِّيَاقِ ما بَعْدَ اسْتِعْمارِي، تَحِيلُنَا هَذِهِ الممارِسةُ النَّقَّادِيَّةَ عِنْدَ جُولِيانِ كَاو (Julian Go)، وَهُوَ أَحَدُ الباحِثِينَ المرمُوقِينَ الَّذِينَ اسْتَمْتَرُوا كِتاباتِ إِدْوارِدِ سَعِيدِ فِي مِجالِ السُّوسِيولوجِيَا، عَلى الكِيفِيَّةِ الَّتِي ساهَمَتْ بِها الشُّعُوبُ المِستَعْمَرةُ فِي تَشْكِيلِ هُويَّةِ «الْغَرْبِ»، وَالحِداثةِ نَفْسِها، وَكِذا الطَّرِيقَةَ الَّتِي أدمِجَتْ مِنْ خِلالِها رِوايَاتِ التَّابِعِ فِي الرِّوايَاتِ التَّارِيخِيَّةِ بَدونِ التُّزُوعِ إِلى التَّفْكيرِ الجِوهراني<sup>[1]</sup> القائِمِ عَلى مِبدأ التَّضادِّ بِصِفتِهِ سِمةُ رِئِسةِ تَميِّزِ الإِبيستيمِ الاسْتِعْمارِي. تَكْمُنُ أَهمِيَّةُ هَذِهِ المِقارِبَةِ النَّقَّادِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ الَّتِي أُسِّسَ لَها إِدْوارِدُ سَعِيدِ فِي الثَّقَافَةِ، وَالإِمبرياليَّةِ فِي سَعِيها إِلى تَفْنيِدِ كُونِيَّةِ الحِداثةِ الغَرْبِيَّةِ بَعْدَها تَجْرِبَةُ هِجِينَةِ تَعكُسِ غَني، وَثِراءِ التَّجاربِ الإِنسانِيَّةِ بِتَعاقِبِ الأَزمِنَةِ وَالعُصورِ. رِوِيَّةُ سَعِيدِ هاتِهِ لَيْسَتْ مِجرَّدَ رِوِيَّةِ نَقَدِيَّةِ تِرومِ اسْتِعادَةِ أَصواتِ الأَخرِ الشَّرْقيِ المَنِسيَّةِ فِي تَحْوِمِ المِتنِ الحِكاويِّ لِلأَدبِ الاسْتِعْمارِي، بَلِ هِيَ رِوِيَّةُ سِياسِيَّةِ تَسعَى إِلى تَجاوِزِ الإِبيستيمِ الاسْتِعْمارِي، وَتَقْويِضِ المِركِزِيَّةِ الغَرْبِيَّةِ، وَالمِناهِجِ الوَضْعائِيَّةِ الَّتِي ساهَمَتْ فِي تَرسِيخِ مِعارِفِها بِوصفِها حَقائِقَ عِلْمِيَّةً ثابِتَةً عِبرَ الزَّمانِ وَالمِكانِ.

رِهانُ تَقْويِضِ المِركِزِيَّةِ الغَرْبِيَّةِ مِشروعُ فِكرِي كَبيرِ انخِراطِ فِيهِ كِذلكِ المِفْكَرِ وَالسُّوسِيولوجِيِ المِغْرِبِي، عِبدُ الكَبيرِ الخَطِيبِي الَّذِي يَشْكَلُ لَهِ مِفهومُ «النَّقْدُ المِزدِوجُ» أَفقًا شاسِعًا لِلتَّفْكيرِ فِي مِستَقْبَلِ العالِمِ العَرَبِي، وَالمِغْرِبِ الكَبيرِ عَلى وَجهِ الخِصوصِ. غَيرَ أَنَّ رِوِيَّةَ الخَطِيبِيِ لِلسُّوسِيولوجِيَا تَبْدُو رِوِيَّةَ لا اسْتِعْمارِيَّةِ (decolonial vision) أَكْثَرُ مِمَّا هِيَ ما بَعْدَ اسْتِعْمارِيَّةِ، إِذِ تَقومُ عَمليَّةُ التَّقْويِضِ عِنْدَهُ خِلافًا شِئًا ما لِإِدْوارِدِ سَعِيدِ عَلى مِبدأ فَكِّ الارتِباطِ الإِبيستيمي (epistemic delinking) مَعَ الغَرْبِ كِما يَقولُ بِذلكِ وَلِترِد. مِنيُولو فِي السِّيَاقِ الدِيكُولُونِيالي، وَالتَّاسِيسِ لِمِمارِسةِ سوسِيولوجِيَّةِ عَرَبِيَّةِ مِستَقَلَّةِ تَنْبِي عَلى رِكِزِتينِ رِئِسيَتينِ: تَفْكِيكِ المِركِزِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ، وَالنَّزْعَةِ العَرَقِيَّةِ الغَرْبِيَّتَيْنِ، اللَّتانِ تَسَلِّمانِ بِفِكرةِ امْتِيازِ الإِنسانِ الغَرْبِيِّ عَن غَيرِهِ، وَاكتِفاءِهِ الذَّاتِي فِي العالِمِ. وَلِدينا كَثِيرُ ما نَفْكَرُ فِيهِ بِخِصوصِ ذلكِ التَّعالُقِ البِنيوي، وَالتَّعاضِدِ الهِيكِليِّ اللَّذانِ يَربِطانِ الإِمبرياليَّةَ بِجَمِيعِ جِوانِبِها (السِّياسِيَّةِ، وَالعِسكرِيَّةِ، وَالثَّقَافِيَّةِ) بِتَوْسُّعِ العِلْمِ الاجْتِماعِيَّةِ. إِنَّ أَهمَّ ما انْتَبَهَ إِليه الخَطِيبِي فِي هَذَا الصِّدَدِ هُوَ مِصيرُ العِلْمِ، وَالتَّكْنولوجِيَا كَأَداتينِ لِلسَّيطِرةِ عَلى العالِمِ. وَهَذَا يَفْتَرِضُ مِسْبَقًا، أَوْ بِالأَحرى يَسْتَلْزِمُ نَقْدًا لِلمِعرِفَةِ، وَالخِطاباتِ الَّتِي صاغَتْها المِجتمعاتُ المِختلِفةُ فِي العالِمِ العَرَبِي عَن نَفْسِها. إِنَّ تَقْويِضِ السِّيادةِ الإِبيستيميَّةِ الغَرْبِيَّةِ يَسْتوجِبُ الانْقِلابَ اللَّامْتِناهِيَ ضِدَّ أُسْهِ المِراءِ،

[1]- Julian Go, *Postcolonial Thought and Social Theory*, (New York: Oxford University Press, 2016), p113.

وأصوله، تلك التي قوّضها تاريخ اللاهوت، والسُّلطة الأبويّة، إذا كان بوسعنا تحديد المعطيات البنيويّة الدائمة للعالم العربي<sup>[1]</sup>.

لقد أسّس مفهوم «النقد المزدوج» الذي بلوره عبد الكبير الخطيبي في كتاب الحمى البيضاء، وكذا مقال «المغرب الكبير أفقاً للفكر»، (ضمن كتاب النقد المزدوج)، أفقاً جديداً في الفهم، والنقد، والتحليل، وهو يحاول تفكيك رؤية اليسار الفرنسي للقضية الفلسطينية. فعندما كان إدوارد سعيد يفكّك مفهوم الشُّرق عموماً في المتخيّل الغربي، كان الخطيبي يفكّك مفهوم اليسار الفرنسي الذي كان يشكّل أحد مرجعيّاته، ويفضح رؤيته الملتبسة للقضية الفلسطينية. لقد ارتبط هذا النوع من التّفكير، والنقد، والتحليل عند عبد الكبير الخطيبي أساساً بمسألة الهوية، والاختلاف في محاولة منه تجاوز مجموعة من الإشكالات المرتبطة بدراسة المجتمع، والتراث خلال السبعينيات من القرن الماضي، وسعيه الدؤوب فتح آفاق جديدة تقوم على مبدأ استشكال مفهوم الهوية بعدها نتاج تفاعل بين الذات، والآخر، والحاضر، والماضي، بل ورهانه على تعدّدية حدثية مركّبة.

سؤال التعدّدية الحدثية، و«الهجنة» الثقافيّة هذا هو ما ذهب إليه الناقد الأدبي، والثقافي هومي بابا في السياق ما بعد استعماري. كما يُظهر إدوارد سعيد في الثقافة، والإمبريالية أنّ التواريخ، والثقافات، والشُّعوب متشابكة في ما بينها، فإنّ مفهوم «الهجنة» (hybridity) عند هومي بابا في موقع الثقافة يشكّل فضاءً بينياً سمته التّعالق، والتّرابط، والتّقاطع الذي يهدّد جوهر السُّلطة الاستعماريّة. يجادل بابا أنّ «الهجنة» الثقافيّة تكشف عن الفضاء الاستعماري بوصفه فضاءً للتّنازل غير الخاضع لرقابة السُّلطة الاستعماريّة، وهو ما يعاكس ماهيّتها، ويقوّض استقلاليتها. بهذا المعنى، يشتغل مفهوم «الهجنة» لكشف استحالة التّمييز الإبستيمي، والوجودي بين المستعمر، والمستعمر، وعجز السُّلطة الإمبرياليّة عن تحقيق حلم التّقسيم الثنائي بين الذات والآخر. خلافاً لإدوارد سعيد الذي يضفي طابعاً جوهرياً على الهوية في كتاب الاستشراق، يحاجج بابا بأنّ الهوية الثقافيّة تظهر دائماً في «الفضاء الثالث» (Third Space) للتّعبير، فضاء تتوقّف فيه جميع التّقسيمات، والثنائيات الضديّة، التي تميّز إبستيم الحدثية الغربيّة.

يقودني هذا الموضوع إلى الحديث عن التّرجمة الثقافيّة مثل فضاء للمقاومة، والتّفاوض حول الهوية الفرديّة، والجماعيّة، وهو موضوع يعدّ هومي بابا أوّل من نظر إليه في سياق الدّراسات ما بعد

[1]- Abdelkebir Khatibi, *Plural Maghreb: Writings on Postcolonialism*, trans. P. Burcu Yalim, (London: Bloomsbury Academic, 2019), p26.

استعمارية والثقافية. يطرح بابا موضوع الترجمة الثقافية في أحد فصول موقع الثقافة بعنوان «كيف تلج الجدة العالم: الفضاء ما بعد حداثي، والأزمة ما بعد استعمارية، وتجارب الترجمة الثقافية». يزعم بابا أن الترجمة الثقافية ممارسة، أو استراتيجية للتفاوض حول المواقع، والخطابات من خلال الفعل، والممارسة، أو من خلال الأدب، والثقافة، والإعلام، وأساليب أخرى من إنتاج المعرفة والتحليل. ولعل أهم السياقات التي يتفاعل معها بابا تلك التي ترتبط بموضوع الهجرة، وخصوصاً هجرة الجيلين الأول، والثاني من الدول ما بعد استعمارية في اتجاه الغرب. إن من بين أهم الأسئلة التي يحاول بابا الإجابة عليها تلك المتعلقة بأساليب العيش، والمقاومة التي تنهجها الأقليات المهاجرة في مواجهة عنف الثقافة المضيفة، جلياً كان، أو خفياً. ففي سياق موجات الهجرة التي شهدتها بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية من دول الكومنولث (Commonwealth)، ودول أخرى، يشير وندي ويبستر (Wendy Webster) بشكل دامغ إلى عودة الإمبراطورية إلى الوطن، وهو بالإضافة إلى آخرين مثل ستورت هول (Stuart Hall) يحاول فهم كل أشكال العنف العرقي، والإثني، واللغوي، والديني، والجنسي، والإبستيمي الذي يواجه الأقليات في حضن الإمبراطورية - الوطن.

بنفس ما بعد استعماري مناوئ، يدعونا هومي بابا إلى ضرورة مراجعة تاريخ النظرية النقدية، بالتركيز على مفهوم الاختلاف الثقافي (cultural difference) عوض التنوع الثقافي (cultural diversity).

يرى بابا أن التنوع الثقافي موضوع إبستيمولوجي، يتناول الثقافة بحسبها موضوعاً للمعرفة التجريبية، في حين أن الاختلاف الثقافي هو عملية تعبير عن الثقافة، كونها ثقافة عارفة، لها سلطة، وقادرة على بناء نظم التعريف الثقافي. إذا كان الحديث عن التنوع الثقافي يتضمن نوعاً من الأخلاق المقارنة، أو نوعاً من الجماليات، أو الإثنولوجيا، فإن الاختلاف الثقافي هو عملية دالة تقوم من خلالها تعبيرات الثقافة، أو التعبيرات التي تصدر حولها برصد مظاهر الاختلاف، والتمايز، والسماح بإنتاج مجالات قوة، وحقول مرجعية، وتطبيقية بل وإمكانات جديدة من أشكال التعدد<sup>[1]</sup>. إن التعبير عن الاختلاف الثقافي لا يقوم على أساس المفهوم الجدلي الكلاسيكي للنفي في ما يتعلق بشائبة الماضي والحاضر، والتراث والحداثة على مستوى التمثيل الثقافي. يحتاج بابا أن المشكلة تكمن في كيفية التعبير عن الحاضر، ونقله، وترجمته باسم التراث، في شكل ماضٍ لا يعكس بالضرورة

[1]- Bhabha, Homi, "Cultural Diversity and Cultural Differences", The Post-Colonial Studies Reader, ed. B. Ashcroft, G. Griffiths, H. Tiffin, (Routledge, New York 2003), p206.

الوفاء للذاكرة التاريخية، بل استراتيجية لتمثيل السلطة بحيلة الماضي. فعل التمثيل هذا يقوِّض إحساسنا بتأثيرات التجانس للرموز، والأيقونات الثقافية، من خلال التشكيك في إحساسنا بسلطة التوليف الثقافي بشكل عام<sup>[1]</sup>. بهذا المعنى يكون لمفهوم التنظير بعداً أخلاقياً عند بابا، وهو يحاول رصد أساليب عيش المهاجرين في حوض الدُّول التي استعمرتهم سابقاً.

إنَّ الفضاء ما بعد حدثي، لا يعكس ذلك التجانس الذي تدعيه السرديات الكبرى (Grand Narratives) في الغرب، وهي تحتفي بطابع التعدد، والتنوع دون إرادة الكشف عن مواقع القوة، ومجالات التفاعل بين الخطابات في علاقتها بالهويات، والموضوعات، والأفراد، والأشياء. تشبه نظرية ما بعد الحداثة المشكال (kaleidoscope): أداة موحدة هدفها إنتاج تنوع غير محدود، إذ تنظر إلى العالم مثل نظام من العلامات، تشير كل علامة فيه إلى واحدة أخرى، غير أنَّ هذا التعلق لا يجسّد وحدة عضوية، بحيث يصبح من وجهة نظر ما بعد استعمارية.

من الضروري التمييز بين مظاهر، وأوجه تشابه الرموز عبر تجارب ثقافية متنوعة -الأدب، والفن، والطُّقوس، والموسيقى، والحياة، والموت- والخصوصية الاجتماعية لكلِّ عمليات إنتاج المعنى أثناء تداولها بوصفها علامات ضمن مواقع سياقية، ونظم قيمة اجتماعية محددة. إنَّ البعد عبر الوطني للتحوُّل الثقافي الذي يطبع الهجرة، والشَّات، وعمليات الترحيل، وإعادة التوطين يجعل عملية الترجمة الثقافية شكلاً معقداً من حيث الدلالة. إذ لا يمكن الإشارة بسهولة إلى الخطاب المطبَّع، أو الموحَّد (للأمة) أو «الشُّعوب»، أو التقاليد «الشَّعبية» الأصيلة، تلك الأساطير المتضمَّنة في خصوصية الثقافة. إنَّص الميزة الكبيرة لهذا الموقف، على الرَّغم من أنه يثير قلقاً، هي أنه يجعلك تعي بشكل متزايد كيف يتمُّ بناء الثقافة، واستنباء التقاليد<sup>[2]</sup>.

سؤال الثقافة بهذا المعنى يدعونا إلى ضرورة التركيز على فضاءات التفاعل التي يتشكَّل من خلالها الوعي الجماعي بقيمة المشترك الإنساني، وكذا ديناميات القوة التي تصنع تجارب الاختلاف الثقافي باختلاف الروافد التاريخية، والثقافية، والحضارية. إنَّ الفضاء ما بعد حدثي ليس فضاء للاستيعاب الكلي، أو السلبي، بل هو فضاء للمناوئة، والمقاومة لكلِّ أشكال العنف الرمزي، والمادي التي تواجه الذات المهاجرة.

تبرز قيمة الترجمة الثقافية عند بابا في قدرتها على التماهي مع الحداثة، والتفاوض حولها في

[1]- Ibid, p207.

[2]- Homi, Bhabha, The Location of Culture, (London and New York: 1994), 172.

المجال بين ذاتي، والاجتماعي. يجادل بابا أن

التَّحدِّي الذي يواجهه الحداثَة [يبرز] في إعادة تعريف العلاقة الدَّالَّة بـ(الحاضر) المنفصل: تمثيل الماضي بوصفه رمزاً، وأسطورة، وذاكرة، وتاريخ- إلاَّ أنَّه ماضٍ تعيد قيمته التَّكراريَّة كونها علامة تكريس (دروس الماضي) في نصِّية الحاضر التي تسم كلاً من عمليَّة التَّماهي مع الحداثَة، و عمليَّة استجوابها: ماذا تعني كلمة (نحن) التي تعبِّر عن فكرة امتياز الحاضر؟ تبرز إمكانيَّة التَّحريض على التَّرجمات التَّقافيَّة عبر خطابات الأقلِّيَّات بسبب الحاضر المنفصل للحداثَة. إذ تضمن هذه التَّرجمات أنَّ ما يبدو الشَّيء (نفسه) داخل التَّقافات يصير شيئاً يتمُّ التَّفاوض عليه في الفاصل الزمَّني لـ (العلامة) التي تشكِّل المجال بين الدَّاتي، والاجتماعي. ويعبِّر هذا الفاصل في الواقع عن بنية الاختلاف، والانقسام داخل خطاب الحداثَة، إذ يتحوَّل إلى عمليَّة أدائيَّة، يصير معها كلُّ تكرار لعلامة الحداثَة مختلفاً، خاصَّاً بظروفه التَّاريخيَّة، والتَّقافيَّة في اللفظ والتَّعبير<sup>[1]</sup>.

تشكِّل بنية الانقسام هذه داخل خطاب الحداثَة المشترك النَّظري، والتَّجريبي بين أصوات الهامش المناوئة للمركزيَّة الغربيَّة في السِّيَاقين ما بعد حداثي، وما بعد استعماري معاً. لكن في حين أنَّ نظريَّة ما بعد الحداثَة تحتفي بالتَّنوع، والتَّعدُّد كسمتين أساسيتين، تراهن الرُّويَّة ما بعد استعماريَّة على فكري التَّناسج، والاختلاف، وهي تحاول تقويض مركزيَّة الغرب، وتسعى إلى رسم مسارات بديلة عن الإِسْتِيم الحداثي.

لقد شكَّلت التَّرجمة التَّقافيَّة بالمعنى الذي نظر إليه هومي بابا منعطفاً كبيراً، ونقله نوعيَّة في مجال التَّرجمة، وهو يحيلنا على أفق جديد تستعيد فيه الدَّات المهاجرة إلى أوروبا، والولايات المتَّحدة الأمريكيَّة الفاعليَّة التَّاريخيَّة (historical agency) حول فعل التَّمثيل التَّقافي لنفسها، والمناوئ للتَّمثيل الاستعماري. غير أنَّ طابع «الهجنة»، والتَّعدُّد، والتَّنوع، والاختلاف حتَّى الذي يميِّز الفضاءات ما بعد حداثيَّة، والأزمنة ما بعد استعماريَّة ليس نتاجاً لوعي تاريخي بأهميَّة استعادة الفاعليَّة على فعل التَّمثيل التَّقافي بقدر ما هو نتاج «للحاضر المنفصل» (disjunctive present) عن الحداثَة في السِّيَاقين: ما بعد استعماري، وما بعد حداثي. لكي يصير فعل التَّرجمة التَّقافيَّة فعلاً محرراً في الزمَّان، والمكان، لا بدَّ أن يحركه وعي تاريخي في علاقة الدَّات بالمواقع، والخطابات، وهو خيار معرفي يقوم على أساس التَّفكير الحدودي (border-thinking)، والاختلاف الإِسْتِيمي (epistemic difference)، إذ يشكِّل المفهوم معاً أهمَّ أسس الرُّويَّة الديكولوجيَّة المستشرفة

[1]- Ibid., Homi, Bhabha, The Location of Culture, p147.

لمعارف الجنوب العالمي (Global South Epistemologies) بصفتها بديلاً عن تجارب الغرب الإبتسيميّة، ونظريّاته المعرفيّة.

يشكّل المنعطف الديكولونيالي الذي أسّس له مجموعة من المثقّفين في أمريكا اللاتينيّة مثل والتر دي مينولو (Walter D. Mignolo)، ورامون جروسفوغيل (Ramon Grosfoguel) أهميّة بالغة يمكن من خلالها نقد، وتقويض كولونياليّة المعرفة (coloniality of knowledg) وتاريخ المركزيّة الأوروبيّة من وجهة نظر أولئك الذين قاوموا الاستعمار، وساهموا في بناء العالم الحديث. ممثلاً أحد أهمّ أعلام، ورموز المدرسة الديكولونيالية في الفلسفة يجادل والتر مينولو:

تحيلنا الديكولونيالية على أساليب التّفكير، والمعرفة، والعيش، والممارسة التي بدأت مع، وسبقت أيضاً مشروع الغزو، والاستعمار، وتنطوي على الاعتراف ب والقطف مع بني التراتبيّة الهرميّة القائمة على أساس العرق، والجنس، والطبقة الاجتماعيّة، والسّلطة الأبويّة التي تواصل السيطرة على الحياة، والمعرفة، والفكر، و[الحياة] الرّوحانيّة، بنيّ تشابك بشكل واضح مع الرأسماليّة العالميّة، والحدّات الغربيّة، وتشكّل من خلالهما. علاوة على ذلك، تهتمّ الديكولونيالية بطبيعة النّضالات، والتّمثّلات، والإبداعات التي تواصل العمل داخل هوامش الاستعمار ومواقعه المتصدّعة بغية إثبات ما حاول هذا الأخير نفيه<sup>[1]</sup>.

بهذا المعنى، يقوم الخيار الديكولونيالي على مبدأ «العصيان الإبتسيمي» (Epistemic Disobedience) وفكّ الارتباط مع وهم الحدّات الغربيّة، ومثلها الإنسانيّة العليا، ووعودها بالتّقدّم الاقتصادي، والازدهار المادّي. «تركز جغرافيّة التّفكير في السّياق الديكولونيالي بدلاً من ذلك على النّصف الآخر من الحدّات الغربيّة، وهي تسعى إلى توثيق معارف الجنوب العالمي، وتقاليده الفكر عنده، ونظريّاته المعرفيّة. يهدف الخيار الديكولونيالي إلى إعادة رسم خريطة العالم، وإعادة قراءة التّاريخ، وفكّ الارتباط مع التّقليد الغربي المتمثّل في «التّفكير الخطّي العالمي»<sup>[2]</sup> (global linear thinking)، الذي شكّل أحد أسس الإمبرياليّة، والاستعمار الحديثين.

إلى جانب والتر د. مينولو (Walter D. Mignolo)، يمثّل رامون جروسفوغيل (Ramon Grosfoguel) أحد أقوى المدافعين عن المشروع الديكولونيالي. من خلال نقده للمشروع الاستعماري للحدّات، يؤكّد جروسفوغيل أنّ «النّظام العالمي لا يبني فقط على منطق التراتبيّة الهرميّة بين

[1]- Walter D. Mignolo and Catherine E. Walsh, On Decoloniality, Concepts, Analytics and Praxis (Durham and London: Duke University Press, 2018), p15.

[2]- Ibid., p15.

الدُّول، لكنَّه يشمل عناصر مكوَّنة لـ «النُّمو الرَّأسمالي على الصَّعيد العالمي»، التَّراتبيَّة العرقيَّة، والإثنيَّة (الشُّعوب الغربيَّة مقابل نظيرتها اللَّاغربيَّة)، التَّراتبيَّة الأبويَّة (نظام عالمي يكرِّس التَّمييز على أساس الجنس والنوع)، التَّراتبيَّة الهرميَّة الدِّينيَّة، والتَّراتبيَّة اللُّغويَّة، والتَّراتبيَّة اللُّغويَّة المعرفيَّة وما إلى ذلك»<sup>[1]</sup>. في نظر جروسفوغيل، لم تكن أنظمة التَّراتبيَّة الهرميَّة هاته المصاحبة للتَّطوُّر التَّاريخي للرَّأسماليَّة مركزيَّة في صنع النُّظام العالمي «الحديث» فحسب، بل شكَّلت أسس النُّظام العالمي الرَّاهن، وهياكله المؤسَّساتيَّة، حيث أضحت العولمة القوَّة الدَّافعة لكلِّ مظاهر الإمبرياليَّة الجديدة.

في سياق العيش والتفكير ما بعد الحداثي، يستمرُّ مشروع الحداثة في تمثيل العالم بعده التَّقليد المعرفي الوحيد الَّذي يمكن من خلاله الوصول إلى الحقيقة والكونيَّة<sup>[2]</sup>. بالنِّسبة إلى جروسفوغيل، تحرير المعرفة من وطأة الاستعمار يستوجب أن نأخذ على محمل الجدِّ معارف، وكونيَّات، ورؤى المفكرِّين، والنُّقاد من جنوب الكرة الأرضيَّة الَّذين يفكِّرون من خلال فضاءات، وأجساد التَّابع العرقيَّة، والإثنيَّة، والجنسيَّة<sup>[3]</sup>. في مقابل نموذج المركزيَّة الأوروبيَّة، يركِّز مشروع فكِّ الارتباط مع الاستعمار على الأصوات الَّتِي تمَّ تهميشها تاريخيًّا بغية تقويض الهيمنة المعرفيَّة الغربيَّة، والأنظمة الأوروبيَّة المركزيَّة لإنتاجها، ونشرها، وكذا التَّحقُّق من صحتِّها. يشكِّل الوعي الديكولونيالي أفقًا جديدًا للممارسة، والتَّفكير، وهو يحاول خلق أنساق، ومسارات بديلة تمتع من غنى، وثراء التَّجارب الإنسانيَّة المتنوِّعة، أنساق ومسارات تحتفي بالتَّعدُّدِيَّة الكونيَّة (Pluriversality)، والخصوصيَّة الثقافيَّة للمجتمعات الإنسانيَّة. يستشرف هذا المنعطف كذلك مستقبلًا واعدًا للتَّرجمة الثقافيَّة في السِّياقات ما بعد حداثي، وما بعد استعماري معًا. غير أنَّه خلافًا لنظريَّة «الهجنة» (hybridity) و«الفضاء الثَّالث» (third space) الَّتِي أسَّس لها هومي بابا، يركِّز البعد الديكولونيالي على التَّفكير الحدودي (border-thinking)، والحقُّ في الحرِّيَّة، والاختلاف الإِسْتيمي (epistemic freedom and difference). يحتاج هذا إلى تغيير جغرافيَّة التَّفكير نحو تواريخ، وتقاليد معارف بديلة. في عالم اليوم، حيث تشكِّل الأنماط غير المتكافئة لإنتاج المعرفة، وتداولها الميزة الرئيِّسة للمنعطف الرقِّمي، لا بدَّ من التَّأسيس لنوع من التَّضامن الإِسْتيمي عبر كلِّ مواقع المعرفة، والتَّفكير في الجنوب العالمي. إنَّه مشروع تحرُّري طموح، وكبير يجب تبنيه، والإيمان به سواء في عالم الأكاديميَّة، أو خارجه.

[1]- Ramón Grosfoguel, "The Multiple Faces of Islamophobia", *Islamophobia Studies Journal*, 1:1, p10.

[2]- Ramón Grosfoguel, "The Epistemic Decolonial Turn", *Cultural Studies*, 21:22007 3-), p212.

[3]- *Ibid.*, p212.

## الخاتمة

لقد اتضح أن الترجمة لا تعني مجرد عملية تحويل النصوص من لغة إلى لغة أخرى، بل أهم من ذلك تحيلنا على النصوص التي تكتب بلغة غير الثقافات الأصلية التي تمتح منها، أو تتفاوض بشأنها.

لا بد من دراسة، وتحليل هذا التعلق بين الكتابة، وفعل التمثيل نظراً لما انعكس عليها، وأثر فيها في سياق الدراسات ما بعد استعمارية.

لقد كان للمفكر الفلسطيني إدوارد سعيد في كتابه الثقافة، والإمبريالية السبق في الكشف عن ضرورة الاهتمام بفكرة المقاومة من خلال التركيز على ضرورة قراءة النصوص الاستعمارية قراءة طباقية تمكّن من استعادة أصوات المقاومة للآخر المنسي في تخومها، وتمثيله الخاص لذاته، أو المضاد للتمثيل الاستعماري.

وفي هذا السياق كان نقد تصور هومي بابا لمفهوم الهجنة الثقافية (cultural hybridity)، والذي يبدو مفهوماً ما بعد حداثياً ملتبساً، وإعادة استشكاله من منظور ما بعد استعماري مناوئ يقوم على مبدأ «التفكير الحدودي» (border-thinking)، والاختلاف الإبستيمي (epistemic difference) في سعينا إلى تأسيس أفق إنساني بديل عن مظاهر السلطة، والمعرفة الغربيتين.

## لائحة المصادر والمراجع

1. Bhabha, K. Homi. "Cultural Diversity and Cultural Differences". The Post-Colonial Studies Reader. Eds. B. Ashcroft, G. Griffiths, H. Tiffin. Routledge: New York, 2006.
2. Bhabha, K. Homi. The Location of Culture. London and New York: 1994.
3. Go, Julian. Postcolonial Thought and Social Theory. New York: Oxford University Press, 2016.
4. Grosfoguel, Ramón. "The Multiple Faces of Islamophobia". Islamophobia Studies Journal, 1: 1 (Spring 2012).
5. Grosfoguel, Ramón. "The Epistemic Decolonial Turn", Cultural Studies, 21: (2007).
6. Khatibi, Abdelkebir. Plural Maghreb: Writings on Postcolonialism. Trans. P. Burcu Yalim. London: Bloomsbury Academic, 2019.
7. Mignolo, D. Walter and Catherine E. Walsh. On Decoloniality, Concepts, Analytics and Praxis. Durham and London: Duke University Press, 2018.
8. "Epistemic Disobedience, Independent Thought and Decolonial Freedom". Theory, Culture & Society (SAGE, Los Angeles, London, New Delhi, and Singapore), Vol. 26: 7-8, (2009).
9. Said, Edward. Orientalism. New York: Pantheon, 1978.
10. Culture and Imperialism. New York: Vintage, 1994.
11. Young, Robert. "Cultural Translation as Hybridization". Trans-Humanities, Vol. 5 No. 1 (2012).
12. "The Dislocations of Cultural Translation", *PMLA*, [Volume 132](#), [Issue 1](#), January 2017.

## مهام العقل وأدواره في المعرفة الدينية<sup>[1]</sup>

رضا برنجكار<sup>[\*]</sup>

### الملخص

إنَّ دور العقل في المعرفة الدينية يُعدّ من الأبحاث العريقة في حقل «العقل والوحي»؛ إذ كان هذا البحث محطّ اهتمام المفكرين وعلماء الدين على الدوام. ومن هنا، يمكن بيان وتحليل تاريخ علم الكلام في ضوء دراسة دور العقل في المعرفة الدينية، كما يمكن لنا أن نرجع الاختلاف الجوهرى بين المدارس الكلامية إلى رؤية هذه المدارس بشأن هذا البحث. يقوم ادعاء هذه المقالة على أنّ للعقل - في الحدّ الأدنى - خمس مهام وأدوار مهمّة، وهي على النحو الآتي: العقل النظري، والعقل العملي، والعقل الآلي، والعقل الاستنباطي، والعقل الدفاعي. كما يمكن تحليل أدوار ومهام العقل في المعرفة الدينية - في الحدّ الأدنى - بواسطة ثماني آليات، وهي: الميزان، والمفتاح، والاستنباط، والدفاع، والأداة، والتكميل، والتعامل الاستقلالي، والتعامل غير الاستقلالي. ومن هنا، فإنّ أدوار العقل ومهامه أبعاد ممّا تمّ تناوله حتى الآن.

كلمات مفتاحية: العقل، المعرفة الدينية، العقل والوحي، المدارس الكلامية، العقل النظري، العقل الدفاعي.

[1]. المصدر: المقالة بعنوان «كاركردهاى عقل و نقش هاى أن در معرفت دینی» في مجلة «معرفت فلسفی» التي تصدر في الجمهورية الإسلامية الإيرانية باللغة الفارسية، العدد 36، صيف 1391ش، الصفحات 71 إلى 100.

تعريب: حسن علي مطر.

[\*]- رئيس المعهد العالي للقرآن والحديث، قم، وعضو الهيئة العلمية في جامعة طهران.

## مقدمة

إنَّ النسبة بين العقل والوحي كانت محطَّ اهتمام العلماء والمفكرين في الشأن الديني منذ القدم؛ وعلى الرغم من أنَّ باب البحث في هذا الملف قد فُتِح للمرة الأولى بشكل جادٍّ في الإسكندرية - بوصفها ملتقى الفلسفة الإغريقية والتفكير اليهودي والمسيحي<sup>[١]</sup> - وبعد ذلك، كان هذا البحث قد شكَّل محور الجدل بين المفكرين اليهود والمسيحيين والمسلمين على الدوام. وإنَّ مسائل من قبيل: «الفلسفة والدين»، و«العلم والدين»، و«العلم الديني»، و«دور الوحي في المعارف العقلية»، و«دور العقل في المعارف الدينية»، تعتبر من فروع وشُعَب ذلك البحث الكلي، وقد خصَّصنا هذه المقالة للبحث في المقام الأخير من هذه المسائل؛ نعني بذلك «دور العقل في المعارف الدينية».

إنَّ مبحث العقل والوحي بصدد العمل على اكتشاف النسبة والارتباط بين هاتين الطائفتين من المدركات، وهما: المدركات التي يصل الإنسان إليها بوساطة قواه المعرفية، والمدركات أو المعارف التي يوصلها الله إليه بوساطة الأنبياء والرسل. إلا أنَّ بحثنا في هذه المقالة، يدور حول الأدوار والمهام التي يتكفَّل بها العقل بوصفه وسيلة لإدراك الإنسان في المعارف الدينية. وتقوم فرضية هذه المقالة على أساس اعتبار العقل من جهة، وتأثيره على المعارف الدينية من جهة أخرى.

إنَّ دور العقل في المعرفة الدينية كان من أهمِّ الهواجس التي شغلت حيزًا كبيرًا من اهتمام المتكلمين المسلمين. وفي ضوء هذا البحث، يمكن تحليل تاريخ علم الكلام، وتبويب المدارس الكلامية. وإنَّ الاختلاف الأهم بين المدارس الكلامية الإمامية والمعتزلة والأشاعرة، يعود إلى رأي هذه المدارس الثلاث بشأن هذا البحث.

وقد زاد الاهتمام بهذا البحث وأصبح مركزًا للبحث للدراسة أكثر من ذي قبل بعد صدور كتاب «موقع العقل من هندسة المعرفة الدينية»<sup>[٢]</sup> لسماحة آية الله الشيخ عبد الله جوادي آملي<sup>[٣]</sup>. وقد عمد سماحته في هذا الكتاب إلى بحث رؤية الميزان والمفتاح والمصباح. ويقوم ادِّعاء المقالة الراهنة على القول بأنَّ أدوار العقل في المعرفة الدينية أبعد بكثير من هذه الأدوات والمهام، ويمكن - في الحد الأدنى - أن نعدِّد ثمانين مهام للعقل في المعرفة الدينية؛ ولكن قبل بيان هذه الأدوار،

[١]- كابلستون، فريدريك، تاريخ فلسفه (تاريخ الفلسفة)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: جلال الدين مجتوي، ج ١، ص ٦٣٥، نشر علمي و فرهنكي، طهران، ١٣٨٨ هـ.ش؛ إيلخاني، محمد، تاريخ فلسفه در قرون وسطى و رنسانس (تاريخ الفلسفة في العصور الوسطى وعصر النهضة)، ص ٥١، نشر سمت، ط ٢، طهران، ١٣٨٢ هـ.ش.

[٢]- عنوان في الأصل الفارسي: «منزلت عقل در هندسه معرفت ديني».

[٣]- انظر على سبيل المثال: معرفت فلسفي (المعرفة الفلسفية)، العدد ٢٤؛ معارف عقلي (المعارف العقلية)، العدد ١١؛ إسراء (الإسراء)، العدد ٤. (مصادر فارسية).

من المناسب أن نبحث في مهام وأدوار العقل بشكل عام؛ لنتقل بعد ذلك إلى بيان النوع الخاص لأدوار العقل في المعرفة الدينية.

## أدوار العقل ومهامه

يمكن بحث أدوار ومهام العقل من عدّة جهات، إذ يتمّ في بعضها الاهتمام بالعقل بوصفه مصدرًا مستقلًّا، وفي بعض الموارد الأخرى يتمّ الاهتمام بالأدوار والمهام غير الاستقلالية للعقل. وبالنظر إلى مهام العقل في مختلف العلوم، ولا سيّما منها علم الكلام، وكذلك بالنظر إلى الآيات والروايات، يمكن أن نذكر - في الحدّ الأدنى - خمس مهام وأدوار للعقل، وهي: العقل النظري، والعقل العملي، والعقل الآلي، والعقل الاستنباطي، والعقل الدفاعي.

## المهمّة والدور النظري

إنّ الدور النظري للعقل عبارة عن: اكتشاف الحقائق النظرية والوقائع والموجودات والمفقودات. وبذلك تكون معرفة الله والإنسان والعالم من المهام والأدوار النظرية للعقل. إنّ جميع مدركات الإنسان تتحقّق بوساطة القلب والنفس أو الروح، وإنّ العقل سراج القلب وأداة إدراكه، سواء في ذلك إدراك الحقائق الخارجية أو المفاهيم، وسواء في ذلك المفاهيم الجزئية أو المفاهيم الكلية. وبطبيعة الحال، فإنّ النفس في مدركاتها تعتمد في بعض الموارد على الحواس، وفي بعض الموارد الأخرى من دون الاستعانة بالحواس؛ وإنّما تعتمد على مجرد نور العقل في إدراك الحقائق.

هناك من العلماء والمفكرين من يُعبّر عن المهمّة والدور النظري للعقل بعنوان «العلم»، ويستخدم مفردة العقل بشأن العقل العملي - الذي يتولّى مهمّة إدراك الحسّ والقبح العقلي - فقط. وفي ضوء هذا المصطلح، يكون العلم والعقل حقيقة واحدة، ويعود اختلافهما إلى متعلّق الإدراك. فإنّ تمّ بوساطة تلك الحقيقة الواحدة إدراك الموجودات والمعدومات، سُمّي ذلك الإدراك «علمًا»، وإنّ تمّ بها إدراك الواجبات والمحظورات، سُمّي ذلك الإدراك «عقلًا». ويستشهدون لذلك بلغة العرب، إذ يتضمّن العقل مفهوم المنع من الأعمال القبيحة<sup>[١]</sup>. كما أنّ أغلب الروايات المرتبطة بالعقل، تتعلّق بالمهمّة والدور العملي للعقل<sup>[٢]</sup>. وهناك من يستدلّ بهذا الأمر، وهو أنّ العقل شرط التكليف، والطفل يدرك الموجودات والمعدومات؛ ولكنّه عندما يبلغ سنّ الرشد سوف يدرك

[١]- ملكي ميانجي، محمّد باقر، توحيد الإمامية، ص ٤٥، وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامي، طهران، ١٤١٥هـ.

[٢]- محمد ري شهري، محمّد، دانش نامه عقايد اسلامي (موسوعة العقائد الإسلامية)، ج ١-٢، دار الحديث، قم، ١٣٨٥هـ.ش. (مصدر فارسي).

الواجبات والمحرمات، ومن هنا يكون مكلفاً بالتكاليف. وهناك من اعتبر الإطلاقات العرفية شاهداً على هذه المهمة والدور أيضاً<sup>[١]</sup>. وعلى الرغم من ذلك كله، ورد في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة استعمال العقل في الدور النظري. فقد ورد في القرآن الكريم بعد ذكر الآيات التكوينية، مطالباً الناس بالتعقل فيها، وتمت نسبة إدراك الآية والتدبر - من خلال الآية - بذيل الآية إلى أصحاب العقول:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾<sup>[٢]</sup>.

٢. ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾<sup>[٣]</sup>.

كما تمت الإشارة في الروايات إلى الدور النظري للعقل بتعبير العقل. من ذلك مثلاً أن الإمام علياً عليه السلام يقول:

- «بالعقل استخرج غور الحكمة»<sup>[٤]</sup>.

- «أفضل العقل، معرفة الحق بنفسه»<sup>[٥]</sup>.

- «أفضل العقل، معرفة الإنسان نفسه»<sup>[٦]</sup>.

- «بالعقول تعتقد معرفته»<sup>[٧]</sup>.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «بالعقل عرف العباد خالقهم، وأنهم مخلوقون»<sup>[٨]</sup>.

وبذلك يمكن القول بأن مفردة العقل ومشتقاتها، تستعمل أحياناً في المعنى العام المشتمل على جميع المهام والأدوار، ومن بينها الدور النظري والعملي، وتستعمل أحياناً في المعنى الخاص، الذي يشتمل على خصوص دور العقل العملي، وتتم الإشارة إلى سائر الأدوار والمهام بلفظ

[١]- بني هاشمي، سيد محمد، پرتو خرد (شعاع العقل)، ص ٢٤-٢٨، نشر نأ، طهران، ١٣٨٨ هـ.ش. (مصدر فارسي).

[٢]- المؤمنون (٢٣): ٨٠.

[٣]- البقرة (٢): ١٦٤.

[٤]- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ترجمه إلى اللغة الفارسية: علي أكبر غفاري، ج ١، ص ٢٨، دار الكتب الإسلامية، ط ٤، طهران، ١٤٠٧ هـ.

[٥]- التميمي الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، ح ٣٢٢٠، دفتر تبليغات اسلامي، قم، ١٣٦٦ هـ.ش.

[٦]- الشافعي، محمد بن طلحة، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، ص ٥٠.

[٧]- التميمي الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، ح ١٩٥٩.

[٨]- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ١، ص ٢٩.

«العلم». ويمكن أن نصلح على المعنى الأوّل للعقل مصطلح «العقل بالمعنى الأعم»، وعلى المعنى الثاني للعقل مصطلح «العقل بالمعنى الأخصّ»، والمراد هنا هو العقل بالمعنى الأعمّ.

والنقطة الأخرى، هي أنّ المهمّة والدور النظري للعقل، يشمّلان العقل الرياضي والعقل السليم أيضاً، وكلا العقليين يستعملان في دائرة الأمور النظرية. والنقطة الختامية هي أنّ جميع المدارس الكلامية المهمّة، مثل الإمامية والمعتزلة والماتريدية وحتّى الأشاعرة، يؤمنون بدور العقل النظري، كما يؤمنون بالاختلاف ضمن دائرة هذا العقل وكيفية الاستفادة منه.

من المعروف أنّ الأشاعرة لا يستعملون العقل إلّا في مورد الدفاع عن التعاليم الدينية، ولا يؤمنون بالعقل بوصفه مصدراً. إنّ هذا الأمر، وإن كان صحيحاً بشأن العقل العملي، ولكنه لا يصحّ بشأن العقل النظري؛ وذلك لأنّ الأشعري في كتاب (اللمع)، يستفيد من برهان مثل برهان الحركة لأرسطو في إثبات وجود الله سبحانه وتعالى، ويرى أنّ انتقال الإنسان من النطفة إلى العلقة، ومن النقص إلى الكمال، ومن القوّة إلى الفعل، بحاجة إلى ناقل، وهو الله سبحانه وتعالى<sup>[١]</sup>. كما استفاد في نفي الشبيه<sup>[٢]</sup> ونفي الشريك<sup>[٣]</sup> من البرهان العقلي أيضاً. وهكذا، فإنّ الكتب الأخرى للأشاعرة زاخرة بالاستدلالات العقلية. من ذلك أنّ الفخر الرازي - على سبيل المثال - يستفيد من برهان الحدوث، وكذلك من برهان الإمكان؛ لإثبات وجود الله سبحانه وتعالى<sup>[٤]</sup>. ومن بين المجلّدات الثمانية لكتاب (شرح المواقف) للقاضي عضد الدين الإيجي والسيد شريف الجرجاني، تمّ تخصيص سبعة مجلّدات بالأمور العامة المرتبطة بالعقل النظري، وتمّ تخصيص مجلّد واحد بالإلهيات، إذ اشتمل على مختلف الأبحاث - ومن بينها إثبات الصانع - من خلال إقامة براهين متنوّعة<sup>[٥]</sup>.

وعلى هذا الأساس، فإنّ الاختلاف الجوهرية في أصل إثبات وإنكار العقل، إنّما يرتبط بالعقل العملي، وليس في أصل القبول بالعقل النظري. وبطبيعة الحال، هناك اختلاف في حدود ونوع الاستفادة من العقل النظري. يستفيد الإمامية من العقل النظري على نطاق واسع، بينما يذهب الأشاعرة والماتريدية إلى الاستفادة من العقل النظري على نطاق ضيق. كما يكمن الاختلاف بين الإمامية والمعتزلة في أنّ العقل والوحي في تفكير الإمامية عند الأئمة وأصحابهم والكثير من المتكلّمين - في الحد الأدنى - يتعاملان فيما بينهما بشكل وثيق، في حين أنّ هذا التعامل في

[١]- الأشعري، أبو الحسن، اللمع في الردّ على أهل الزيغ والبدع، ص ١٨، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.

[٢]- المصدر أعلاه، ص ٢٠.

[٣]- المصدر أعلاه، ص ٣٠.

[٤]- الفخر الرازي، فخر الدين، المحصل، ص ٣٣٧، دار الرازي، عمّان، ١٤١١هـ.

[٥]- الجرجاني، السيد شريف، شرح المواقف، ج ٨، ص ١٣-٢، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م.

التفكير الاعتزالي، إمّا معدوم وإمّا هو في غاية الندرة. وبطبيعة الحال، فإنّ هذا التعامل حتّى في الفكر الإمامي ليس على وتيرة واحدة. من ذلك - على سبيل المثال - أنّ هذا التعامل في المدرسة الكلامية للكوفة، أكثر منه في مدرسة بغداد.

## المهّمة والدور العملي

كما سبق أن ذكرنا في بحث الدور النظري للعقل، فإنّ الاختلاف الجوهرية في علم الكلام بشأن العقل، يعود إلى الدور العملي للعقل. إنّ أصحاب الحديث والحنابلة والأشاعرة ينكرون الدور العملي للعقل. وأمّا الإمامية والمعتزلة، فإنّهم يقبلون بهذا الدور للعقل، ويقيمون الكثير من أدلّتهم على هذا الأساس.

إنّ الدور العملي للعقل في علم الكلام عبارة عن: إدراك الحُسن والقبح الذاتي للأفعال. يذهب الإمامية والمعتزلة إلى الاعتقاد بأنّ الأفعال - بغضّ النظر عن أمر الشارع ونهيه - تنطوي على صفة الحُسن والقبح في ذاتها، وأنّ الإنسان يدرك هذا الحُسن والقبح في بعض الموارد بعقله. وقد أقام هؤلاء بعض الأدلّة على مدعاهم، ومن بين أهمّ تلك الأدلّة أنّ العقل يدرك حسن بعض الأفعال وقبحها، حتّى من دون أمر الشارع ونهيه، ويحكمون باستحقاق هذه الأفعال للمدح والذم<sup>[١]</sup>. وهذا الأمر يعني الاعتقاد بالدور العملي للعقل. إنّ الأشاعرة من بين المعاني الثلاثة للحسن والقبح (وهي: الكمال والنقص، والتناسب والتنافر مع الغرض، واستحقاق المدح والذم) ينكرون المعنى الثالث، وهو استحقاق المدح والذم، ويقولون: إنّ الشارع وحده هو الذي يستطيع أن يحكم بحسن الأفعال وقبحها؛ بمعنى استحقاق المدح والذم<sup>[٢]</sup>. وهذا الأمر يعني إنكار الدور العملي للعقل.

إنّ أكثر الأدلّة التي يسوقها المتكلّمون في باب الأفعال الإلهية أو العدل الإلهي، تعود إلى العقل العملي؛ إذ إنّ العدل الإلهي من وجهة نظر المتكلّمين، عبارة عن: تنزيه الله سبحانه من فعل القبيح والإخلال بفعل الواجب. وإنّ مبنى هذا المفهوم، هو الاعتقاد بالحُسن والقبح العقلي. وعلى هذا الأساس، فإنّ البحث الأوّل في العدل الإلهي، هو إثبات الحُسن والقبح العقلي على أساس إدراك العقل العملي، والبحث الثاني هو إثبات أنّ الله سبحانه وتعالى لا يفعل القبيح، ولا يترك فعل الواجب<sup>[٣]</sup>.

[١]- الحلبي، الحسن بن يوسف، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، تصحيح: حسن حسن زاده الأملي، ص ٣٠٢-٣٠٥، مؤسسة النشر الإسلامي، ط ٤، قم، ١٤١٣هـ.

[٢]- الجرجاني، السيّد شريف، شرح المواقف، ج ٨، ص ١٨١-١٨٤.

[٣]- الحلبي، الحسن بن يوسف، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، تصحيح: حسن حسن زاده الأملي، ص ٣٠٢-٣٠٥.

وأما سائر أبحاث العدل الإلهي، من قبيل: أن أفعال الله معللة بالأغراض، وأن الله يريد الطاعات ويكره المعاصي، وأن الفعل الناتج من فعل الإنسان يُنسب إلى الإنسان، والتفسير الخاص للقضاء والقدر والإضلال، وعدم تعذيب أطفال الكفار والمشركين، وحسن التكليف وشرائطه، ووجوب اللطف، ونظرية العوض في بحث الشرور والآلام، يتم إثباتها بأجمعها في ضوء الحُسن والقبح العقلي وأداء العقل العملي<sup>[١]</sup>.

كما أن البحث الكلامي الأوّل، بمعنى «النظر والتفكير والتحقيق»، يتم بيانه على أساس وظيفة العقل العملي بوصفه أوّل واجباته ومهامه، وأنّ دليله - وهما: وجوب دفع الضرر المحتمل، ووجوب شكر المنعم - يتبلوران في ضوء الحُسن والقبح العقلي والعقل العملي<sup>[٢]</sup>. كما أنّ دليل الكثير من الأبحاث المرتبطة بالنبوة والإمامة والمعاد، ينبثق عن العقل العملي والحُسن والقبح العقلي أيضاً. وحتى وجوب الإيمان بالله الذي تمّ إثباته بوساطة العقل النظري والنبوي والإمام المعصوم، يعود بدوره إلى العقل العملي أيضاً.

إنّ الفلاسفة المسلمين - من أمثال: ابن سينا و صدر المتألهين - لا ينكرون الحُسن والقبح العقلي، ولكنهم لا يرونه عقلياً، وإنما يرونه عقلياً، وأنّه من المشهورات العامّة، ولا يقبلون بدور العقل العملي بالمعنى المذكور. ومن هنا، فإنّ صدر المتألهين الشيرازي يرى أنّ مراد المتكلمين من العقل هو المشهورات العامّة<sup>[٣]</sup>؛ وذلك لإلّا الكثير من أدلّة المتكلمين - التي تقدّم جانب منها - تقوم على أساس الحُسن والقبح العقلي والعقل العملي، وأنّ هؤلاء الفلاسفة لا يعتبرون الحُسن والقبح عقلياً، وإنما يرونه عقلياً واعتبارياً ومن المشهورات العامّة. وحيث أنّ المشهورات من مواد الجدول دون البرهان، فإنّهم يقولون بأنّ أدلّة المتكلمين جدليّة، وأنّ أدلّة الفلاسفة - القائمة على يقينيّات العقل النظري - برهانيّة.

ذهب ابن سينا في كتاب (منطق الإشارات) إلى تقسيم المشهورات إلى قسمين: قسم أوّليات العقل النظري، والآخر يستند إلى مجرد الشهرة دون الأوّليات. والقسم الأوّل هو المشهورات

[١]- المصدر أعلاه، الحلي، الحسن بن يوسف، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ص ٣٠٦، ٣٠٧، ٣١٣، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٩.

[٢]- المقداد الفاضل، ابن عبد الله السيوري، اللوامع الإلهي في المباحث الكلامي، ص ٨٣-٨٥، دفتر تليغات اسلامي، ط ٢، قم، ١٤٢٢ هـ؛ الحلي، الحسن بن يوسف، مناهج اليقين في أصول الدين، ص ١٦٧، دار الأسوة، طهران، ١٤١٥ هـ.

[٣]- الملاً صدرا، صدر المتألهين الشيرازي، شرح أصول الكافي، ج ١، ص ٢٢٢، مؤسسة مطالعات و تحقيقات فرهنگي، طهران، ١٣٦٦ هـ.ش؛ الملاً صدرا، صدر المتألهين الشيرازي، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج ٣، ص ٤١٩، دار إحياء التراث العربي، ط ٣، بيروت، ١٩٨١ م.

بالمعنى الخاص للكلمة. وقد مثل لهذا القسم بقبح أخذ مال الغير ظلماً وكذلك قبح الكذب<sup>[١]</sup>. وقد ذهب الشيخ نصير الدين الطوسي بدوره في شرح عبارات ابن سينا إلى القول بأن العدل من المشهورات التي تعود إلى مطلوب عموم الناس<sup>[٢]</sup>. وقد مثل ابن سينا للمشهورات في كتاب الشفاء بقبح الكذب والظلم<sup>[٣]</sup>.

وقال الشهيد مرتضى المطهري في هذا الشأن: «إنَّ الحكماء الإلهيين لا ينكرون الحُسن والقبح العقلي، ويرفضون رأي الأشاعرة في هذا الشأن؛ ولكنهم يحصرون حدود هذه المفاهيم بحقل الحياة البشريّة فقط. يرى هؤلاء الحكماء أنَّ مفاهيم الحُسن والقبح لا طريق لها إلى الساحة الكبرىّ بوصفها مقياساً ومعياراً. ولا تفسّر أفعال ذات الباري تعالًى بهذه المعايير والمقاسات البشريّة المحضّة. إنّ الله من وجهة نظر الحكماء عادل، ولكن لا من حيث أنّ العدل حسن، وأنَّ إرادة الله تتعلّق دومًا بفعل الأمور الحسنّة دون القبيحة... يرى الحكماء أنَّ مفهوم الحُسن والقبح في أفعال الإنسان - والتي يتكوّن منها الوجدان الأخلاقي للناس - مفهوم اعتباري وليس مفهوماً حقيقيًا. إنّ قيمة المفهوم الاعتباري قيمة عمليّة، وليست قيمة علميّة واكتشافيّة. وإنَّ كلّ قيمته تكمن في كونه واسطة وأداة. إنّ الفاعل بالقوّة لكي يصل إلى غايته الكماليّة في الأفعال الإراديّة، مضطرّاً إلى صناعة واستعمال هذا النوع من المفاهيم بوصفها أداة للفعل»<sup>[٤]</sup>.

وكما هو واضح، فإنَّ الشهيد المطهري يرى أنّ الفلاسفة المسلمين يرون أنّ الحُسن والقبح أمور اعتباريّة وواقعيّة وبشريّة مئة في المئة، وأداة مصنوعة لأغراض خاصّة، وليست أموراً واقعيّة نفسّر في ضوئها الأفعال الإلهيّة والعدل الإلهي. هذا في حين أنّ المتكلّمين من الإماميّة والمعتزلة في ضوء الوظيفة العمليّة للعقل، يرون أنّ الحُسن والقبح من ذاتيّات الأفعال، وأنّها أمور واقعيّة يعمل العقل العملي على اكتشافها؛ ومن هنا يمكن الاستفادة منه في العقائد، ومن بينها أصول الدين، من قبيل: العدل، والنبوّة، والإمامة، والمعاد، وحتى في الواجب الأوّل؛ أي وجوب النظر أيضاً.

بعد اتّضح موقع ومهام العقل العملي في علم الكلام، من المناسب أن نعمل أولاً على بيان معاني العقل العملي في الكلام والفلسفة، لنبحث بعد ذلك في رؤية القرآن الكريم والروايات الشريفة في هذا الشأن. إنّ المعنى الأوّل للعقل العملي، هو أنّه قوّة يدرك الإنسان بوساطتها حسن

[١]- ابن سينا، حسين، الإشارات والتنبيهات، ج ١، ص ٢٢٠، نشر البلاغة، قم، ١٣٧٥هـ.ش.

[٢]- المصدر أعلاه، ص ٢٢١.

[٣]- ابن سينا، حسين، الشفاء (الطبيعيّات)، ج ٢، ص ٣٧، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم، ١٤٠٤هـ.

[٤]- المطهري، مرتضى، عدل إلهي (العدل الإلهي)، ص ٤٣-٤٤، جامعة المدرّسين، قم، ١٣٦١هـ.ش. (مصدر فارسي).

الأفعال وقبحها أو يدرك بها الواجبات والمحظورات؛ الأعم من القول بذاتية الحسن والقبح بالنسبة إلى الأفعال - وهو قول المتكلمين من الإمامية والمعتزلة - أو أن نفسرها بالمشهورات الاعتبارية التي تعود إلى المصالح العامة، وهو ما ذهب إليه بعض الفلاسفة. إنَّ العقل العملي بهذا المعنى يلعب دوراً إدراكياً، وإنَّ اختلافه عن العقل النظري يعود إلى المدركات. إنَّ العقل النظري يدرك الموجودات والمعدومات، وأمَّا العقل العملي فهو يدرك الواجبات والمحظورات. ويمكن الإشارة من بين أنصار هذه النظرية إلى كلِّ من: الفارابي، وابن سينا في الإشارات، والعلامة الحلبي، والمرحوم السبزواري، والشهيد مرتضى المطهري، وآية الله مصباح اليزدي<sup>[١]</sup>.

والمعنى الآخر للعقل العملي، عبارة عن القوة المحركة بالعمل والإرادة. وعلى أساس هذا المعنى، يكون العقل العملي عبارة عن قوة العمل وليس قوة الإدراك، وأنَّ إدراك الواجبات والمحظورات بدوره يقع على عاتق العقل النظري أيضاً. إنَّ قطب الدين الرازي، والمحقق النراقي، وآية الله جوادي آملی، من أنصار هذه النظرية<sup>[٢]</sup>.

لقد عمد ابن سينا في الطبيعيات من كتاب الشفاء وكتاب النجاة في البداية إلى عدَّ العقل العملي مبدأ تحريك أعضاء الإنسان إلى الأفعال الجزئية المنبثقة عن السلوك والتفكير<sup>[٣]</sup>؛ ولكنَّه عمد في توضيح أدوار العقل العملي إلى بيان ثلاثة أدوار، وقال في هذا الشأن:

"إنَّ للعقل العملي ثلاثة اعتبارات وثلاث جهات، وعلى أساس كلِّ واحد من هذه الجهات تصدر عن الإنسان أعمال خاصّة: الجهة الأولى بالمقارنة إلى القوة الحيوانية النزوعية، والجهة الثانية بالمقارنة إلى القوة الحيوانية المتخيلة والمتوهمة، والجهة الثالثة بالمقارنة إلى ذاتها"<sup>[٤]</sup>.

إنَّ العقل العملي بالمقارنة إلى القوة الحيوانية النزوعية، يؤدي إلى ظهور حالات من قبيل: الحياء، والخجل، والضحك أو البكاء، وهذه حالات خاصّة بالإنسان. إنَّ العقل العملي يستعدّ بفضل الفعل والانفعال - الذي يحدث في الإنسان سريعاً - ليحدث هذا النوع من الحالات في

[١]- الفارابي، أبو نصر، فصول منتزعة، ص ٥٤، مكتبة الزهراء، ط ٢، طهران، ١٤٠٥هـ؛ ابن سينا، حسين، الإشارات والتنبيهات، ج ٢، ص ٣٥٢.

[٢]- الرازي، قطب الدين، حاشية الإشارات والتنبيهات، ج ٢، ص ٣٥٢، دفتر نشر كتاب، طهران، ١٤٠٣هـ؛ النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات، ج ١، ص ٧٥، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف؛ جوادي آملی، عبد الله، منزلت عقل در هندسه معرفت ديني (موقع العقل من هندسة المعرفة الدينية)، ص ٣٣، نشر إسرائ، قم، ١٣٨٩هـ.ش.

[٣]- ابن سينا، حسين، الطبيعيات من الشفاء، ج ٢، ص ٣٧؛ ابن سينا، حسين، النجاة من الغرق في بحر الضلالات، تحقيق: محمد تقي دانش پژوه، ص ٣٣٠، جامعة طهران، ط ٢، طهران، ١٣٧٩هـ.ش.

[٤]- ابن سينا، حسين، الطبيعيات من الشفاء، ج ٢، ص ٣؛ ابن سينا، حسين، النجاة، ص ٣٣٠.

الإنسان. إنَّ هذا العقل بالمقارنة إلى القوَّة الحيوانية المتخيَّلة والمتوهَّمة، قوَّة تعمل على توظيف تلك القوَّتين في استنباط تدبير الأمور الحادثة والقابلة للفساد واستنباط الصنائع الإنسانيَّة؛ وأمَّا بالمقارنة إلى نفسها فهي قوَّة تتوصَّل بمساعدة العقل العملي إلى الآراء المتعلقة بالأعمال، والتي تُسمَّى بالمشهورات؛ من قبيل: الكذب والظلم قبيح<sup>[١]</sup>.

لقد ذكر ابن سينا ما يُشبهه هذه المطالب في كتاب (عيون الحكمة) أيضاً<sup>[٢]</sup>. وفي رسالة النفس لم يذكر من بين هذه المهام والأدوار الثلاثة سوى الموردَيْن الثاني والثالث فقط<sup>[٣]</sup>.

وفي كتاب الإشارات لم يذكر سوى الدور والمهمَّة الثالثة فقط، وذلك بتفسير خاصّ بطبيعة الحال<sup>[٤]</sup>. إنَّ المعنى أو المهمَّة الأولى للعقل العملي، هو الدور العملي وغير الإدراكي. والمهمَّة الثانية وإنَّ كانت إدراكية واستنباطية، ولكنَّ لا ربط لها بالواجبات والمحظورات. وأمَّا المهمَّة الثالثة، فهي ترتبط بالواجبات والمحظورات.

وبذلك، فقد اتَّضح أنَّ هناك آراء متنوِّعة في تفسير العقل العملي. والآن علينا أن نرى ما هي المطالب الواردة في القرآن الكريم والروايات بشأن العقل العملي. والنقطة الأولى في هذا الشأن، هي أنَّ أغلب استعمالات العقل في الأحاديث ترتبط بالاستعمال العملي للعقل<sup>[٥]</sup>.

وفي الآية رقم ١٥١ من سورة (الأنعام) بعد ذكر قائمة من المحرَّمات والأمر القبيحة، قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾<sup>[٦]</sup>.

والنقطة الثانية أنَّه ورد الكلام في الروايات المتنوِّعة عن دور العقل العملي بأشكال متنوِّعة، ويمكن إدراج هذه الأشكال المتنوِّعة - في الحدِّ الأدنى - ضمن أربع مجموعات<sup>[٧]</sup>. وفيما يلي من الضروري بيان مجموعتين من هذه الروايات بالنسبة إلى بحثنا.

الطائفة الأولى من الروايات، هي الروايات التي تتحدَّث عن العقل بوصفه أداة لإدراك حُسن

[١]- المصدر أعلاه، ج ٢، ص ٣٧؛ المصدر أعلاه، ص ٣٣٠-٣٣١.

[٢]- ابن سينا، حسين، عيون الحكمة، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، ص ٣١، دار القلم، ط ٢، بيروت، ١٩٨٠م.

[٣]- ابن سينا، حسين، رساله نفس (رسالة النفس)، ترجمها إلى اللغة الفارسية: موسى عميد، ص ٢٤، جامعة أبو علي سينا، ط ٢، همدان، ١٣٨٣ هـ.ش.

[٤]- ابن سينا، حسين، الإشارات، ج ٢، ص ٣٥٢.

[٥]- محمّدي ري شهري، محمّد، دانش نامه عقايد اسلامي (موسوعة العقائد الإسلامية)، ج ١. (مصدر فارسي).

[٦]- الأنعام (٦): ١٥١.

[٧]- برنجكار، رضا، عقل در أحاديث (العقل في الأحاديث) المطبوع ضمن كتاب: سرچشمه حكمت (معين الحكمة)، ص ٦٧-٧٠. (مصدر فارسي).

الأفعال وقبحها. ومما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام، في هذا الشأن قوله: «عرفوا [العباد] به [العقل] الحسن من القبح»<sup>[١]</sup>.

وعن الإمام علي عليه السلام، قال: «العاقل من يعرف خير الشرين»<sup>[٢]</sup>.

وعن النبي الأكرم (ص)، أنه قال:

«فإذا بلغ [الإنسان]، كُشف ذلك الستر [عن القلب]؛ فيقع في قلب هذا الإنسان نور، فيفهم الفريضة والسنة، والجيد والرديء، إلا مثل هذا العقل في القلب كمثل السراج في وسط البيت»<sup>[٣]</sup>.  
والمجموعة الثانية من الروايات تعتبر العقل أمراً بالفضائل ونهاياً عن الرذائل والسيئات. ومما يروى عن أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الشأن قوله:

- «العقل يأمرك بالأنفع»<sup>[٤]</sup>.

- «الحازم من عقله عن كل دنية زاجر»<sup>[٥]</sup>.

- «للقلوب خواطر سوء، والعقول تزجر عنها»<sup>[٦]</sup>.

وعن الإمام الحسن عليه السلام، أنه قال: «اعلموا أن العقل حرز»<sup>[٧]</sup>.

وفي ضوء هاتين المجموعتين من الروايات، يكون العقل العملي مدركاً لحسن الأفعال وقبحها، كما أنه يأمر بالحسنات وينهى ويردع عن السيئات أيضاً.

وفيما يتعلّق بالدور الثاني للعقل العملي، لا بدّ من الالتفات إلى أنّ المراد من القوّة المحركة ليس بمعنى الإرادة؛ إذ من الممكن للعقل أن يأمر بعمل خاصّ، إلا أنّ الإنسان لا يريد ذلك العمل. إنّ الإرادة في حدّ ذاتها عمل جوارحي، هو مبدأ لعمل جوارحي. إنّ هذا العمل الجوارحي يتمّ بواسطة النفس على أساس القدرة والاختيار. فبعد أن يعمل الجهل والشهوة على أمر النفس بالقيام بالعمل القبيح، وتمارسان الضغط على النفس في ذلك، وفي المقابل يعمل العقل على أمر النفس

[١]- الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ١، ص ٢٩.

[٢]- الشافعي، محمد بن طلحة، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، ص ٤٩.

[٣]- الصدوق، محمد بن علي (ابن بابويه)، علل الشرائع، ص ٩٨، مكتبة الداوري، قم، ١٣٨٥ هـ. ش؛ العلامة المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ١، ص ٩٩، دار إحياء التراث العربي، ط ٢، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

[٤]- الآبي، منصور بن حسين، نثر الدر، تحقيق: محمد علي قرنة، ج ١، ص ٢٨٥، مركز تحقيق التراث، مصر، ١٩٨١ م.

[٥]- التميمي الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، ح ٧٣٥.

[٦]- المصدر أعلاه، ح ٧٣٤.

[٧]- الديلمي، حسن بن محمد، إرشاد القلوب إلى الصواب، ص ١٩٩، انتشارات الشريف الرضي، قم، ١٤١٢ هـ.

بالقيام بالعمل الحسن، ويضغط على النفس في ذلك، تكون النفس على أساس القدرة والاختيار أمام مفترق طريقين؛ ويمكن لها أن تختار امتثال أحد الأمرين وتلبية إحدى هاتين الدعوتين، بحريتها وإرادتها. وحتى النفس في ظلّ هذه الشرائط تلاحظ مرجحات الطرفين، وتقول لأحدهما: كن أنت مرجّحي؛ وبذلك فإنّها تختاره في الواقع بوصفه مرجّحاً لها، وتتخلّى عن مرجّح الطرف الآخر، ثمّ تعمل إرادتها على أساس المرجح الذي تختاره. وعلى هذا الأساس، لا يكون عمل العقل إرادة. ولو كان عمل العقل إرادة، لكان الناس على الدوام مجبرين على العمل في ضوء العقل؛ في حين من الواضح أولاً أنّ الإنسان لا يعمل على أساس العقل دائماً، وثانياً إنّ الإنسان ليس مجبراً ولا مكرهاً. إنّ الدور والمهمّة الثانية للعقل؛ أي الأمر والنهي، هو من قبيل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾<sup>[١]</sup>. إنّ نهي الصلاة ليس بمعنى الإرادة التي تصدر بعد ذلك الفعل، بل إنّ ردع الصلاة يكون بشكل اقتضائي، والدعوة إلى الحسنات وترك السيئات وممارسة الضغط النفسي على الإنسان، واضطرار الإنسان إلى القيام بعمل خاصّ أو تركه.

وعلى هذا الأساس، فإنّ العقل العملي يدرك حسن الأفعال وقبحها بشكل كليّ وجزئيّ، كما يحكم بالواجبات والمحظورات، ويضغط على الإنسان نفسياً؛ ولكنّ هذه الأمور بأجمعها إنّما تكون في مرحلة الاقتضاء دون العلة التامة. إنّ الحكم التكويني الذي لا يقبل التخلف، يعود - بعد إمضاء الله سبحانه وتعالى بطبيعة الحال - إلى إرادة نفس القادر المختار، وليس إلى العقل. إنّ هذا الإدراك والحكم والضغط، يعود إلى قدرة العقل العملي. إنّ الإنسان يجد هذه القدرة في نفسه بنور العقل، ولا ضرورة إلى إحالتها إلى أمور أخرى من قبيل: المصالح الاجتماعية، أو أمر الشارع، أو الضرورة بالقياس إلى الكمال والسعادة النهائية.

إنّ الدور الثاني للعقل العملي، ينطبق بالكامل على المعنى اللغوي للعقل، الذي هو عبارة عن النهي والزجر؛ رغم أنّ المهمّة الأولى للعقل العملي، وكذلك كلّ واحد من أدوار العقل - وإنّ كان على نحو بعيد - يقع في مسار ترك السيئات والقبائح. وسوف نعود إلى هذه المسألة في معرض الحديث عن الدور الآلي.

## الدور الآلي

لقد تمّ التعبير عن الدور الآلي للعقل في الروايات بـ«التدبير» و«المعاش»، والمراد به هو العقل

[١]- العنكبوت (٢٩): ٤٥.

الذي يهدي الإنسان إلى تدبير وإصلاح أمور حياته وتنظيم معاشه الدنيوي. إنَّ هذا العقل يسعى إلى العثور على التدابير التي توصل الإنسان إلى مقاصده وغاياته المنشودة في الحياة. وبذلك، فإنَّ جميع العلوم والفنون التي يتمَّ الحصول عليها من أجل الوصول إلى أهداف محدّدة، تعود إلى العقل الآلي؛ لأنَّ هذا العقل يمثل آلة للوصول إلى الأهداف المحدّدة في الحياة الدنيويّة. إنَّ هذا العقل يزوّد الإنسان بالقدرة على الحساب والتنبؤ بما ستكون عليه الأمور في المستقبل.

إنَّ الفلاسفة المسلمين يعملون في العادة على تقسيم العقل إلى العقل النظري والعقل العملي، ولا يأتون على ذكر العقل الآلي في تقسيماتهم؛ ولكن كما نرى في عبارات ابن سينا، فإنَّ الدور الثاني للعقل العملي - بمعنى استنباط الصناعات الضروريّة - يُشير إلى الدور الآلي. وبطبيعة الحال، فإنَّ أرسطو قد قسّم الحكمة إلى ثلاثة أقسام، وهي: الحكمة النظرية، والحكمة العملية، والحكمة الإنتاجية<sup>[١]</sup>، إذ يمكن إرجاع القسم الثالث من الحكمة إلى العقل الآلي.

ويمكن الإشارة في الروايات إلى موارد من هذه المهام والأدوار، على النحو الآتي:

١. «لا عقل كالتدبير»<sup>[٢]</sup>.

٢. «أدّل شيء على غزارة العقل حُسن التدبير»<sup>[٣]</sup>.

٣. «يا عليّ، لا ينبغي للعاقل أن يكون ظاعناً إلّا في ثلاث: مرمة لمعاش، أو تزوّد لمعاد، أو لذّة في غير محرّم»<sup>[٤]</sup>.

٤. «سبعة أشياء تدلّ على عقول أصحابها: المال يكشف عن مقدار عقل صاحبه، والحاجة تدلّ على عقل صاحبه، والمصيبة تدلّ على عقل صاحبه إذا نزلت به، والغضب يدلّ على عقل صاحبه، والكتاب يدلّ على عقل صاحبه، والرسول يدلّ على عقل من أرسله، والهدية على مقدار عقل مهديها»<sup>[٥]</sup>.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو أنّه يقال من جهة: إنَّ تدبير المعاش وإصلاح أمور الدنيا

[١]- كابلسن، فريدريك، تاريخ فلسفه (تاريخ الفلسفة)، ج ١، ص ٣٨١.

[٢]- الحرّ العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٣٩، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام)، قم، ١٤٠٩ هـ؛ الشيخ الصدوق، محمّد بن علي (ابن بابويه)، من لا يحضره الفقيه، ترجمه إلى اللغة الفارسيّة: علي أكبر الغفاري، ج ٤، ص ٣٧٢، جامعة المدرّسين، ط ٢، ١٤١٣ هـ.

[٣]- التميمي الأمدي، عبد الواحد بن محمّد، غرر الحكم ودرر الكلم، ح ٣٥٤.

[٤]- الشيخ الصدوق، محمّد بن علي (ابن بابويه)، من لا يحضره الفقيه، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ج ٤، ص ٣٥٦.

[٥]- الكراجكي، محمّد بن علي، معدن الجوهر ورياضة الخواطر، ص ٦٠، المكتبة المرتضوية، ط ٢، طهران، ١٣٩٤ هـ.

من مهام وأدوار العقل، وفي السياق ذاته نعلم أن هناك الكثير من الأشخاص الذين لم يتركوا جرماً وظلماً إلا وقد ارتكبوه من أجل إصلاح دنياهم، ويقال من ناحية أخرى: «العقل ما عبده الرحمن». فهل يمكن القول: إن ما كان يعمل هؤلاء الأشخاص على تطبيقه وممارسته - الذي يعود بجذوره ومناشئه إلى عبادة الشيطان - هو العقل؟

والجواب عن ذلك - كما تقدّم بيانه - هو أن للعقل ثلاثة مهام وأدوار؛ فإن كان ما يقوم به العقل الآلي ويعمل على تدبيره قائماً على أساس التطابق مع معطيات البعد النظري والعملي للعقل، وكان تدبير العقل الآلي من أجل الوصول إلى الأهداف والغايات المحددة والمنشودة بوساطة العقل العملي؛ أمكن عد ذلك في المصطلح الديني عقلاً. وبعبارة أخرى: عندما يقوم العقل النظري بإثبات وجود الله سبحانه وتعالى، ويدرك العقل العملي بوجود إطاعته، فإن كان التدبير الذي يراه العقل الآلي واقعاً في هذا المسار ومن أجل تحقيق العبادة والقيام بها على النحو الأفضل، كان إطلاق العقل عليه صائباً؛ وإلا لن يكون هناك - كما جاء في بعض الروايات - سوى تشابه اسمي وظاهري له مع العقل، لا أنه عقل حقيقة: «تلك النكراء، تلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل، وليست بعقل»<sup>[١]</sup>؛ وذلك لأن العقل في مثل هذه الحالة، يكون قد وقع في مسار الشيطان، ويعمل - في الحقيقة - في إطار الجهل.

ومن هنا يمكن القول بأن العقل الآلي في المصطلح غير الديني، يمكن أن يقع في مسار الجهل، كما يمكن أن يقع في مسار العقل، ويكون بذلك في حالة محايدة. وأما في المصطلح الديني، فإن العقل الآلي إن استعمل في مسار العقل النظري والعملي، سُمي عقلاً، وإن تمّ توظيفه في مسار الجهل، سُمي بالنكراء والشيطنة. وفي النقطة المقابلة للمصطلح الديني، يقع مصطلح ديفيد هيوم عن العقل؛ إذ يرى أن العقل الآلي أداة في خدمة الرغبات والشهوات والانفعالات<sup>[٢]</sup>.

لا ينبغي تفسير الدور الآلي للعقل بوصفه مجرد دور فردي وعملي، بل يمكن اعتباره - بشكل أكثر عمومية - مشتملاً على دور معرفي واجتماعي. في ضوء هذا التفسير، يمكن للعلوم الإنسانية - التي هي من قبيل: الإدارة، والاقتصاد، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والسياسة والحقوق - أن تكون أداة ووسيلة لتحقيق الحياة الطيبة والمعقولة التي تمّ التخطيط لها من قبل الدين. وعليه، يمكن للعقل الآلي من خلال الاستعانة بالتجربة وفي ضوء التعاليم الدينية أن يؤسس للعلوم

[١]- الكُليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج١، ص ١١.

[٢]- كابلستون، فريدريك، فيلسوفان انكليسي از هابز تا هيوم (الفلاسفة الإنجليز من هوبز إلى ديفيد هيوم)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: أمير جلال الدين أحلم، ص ٣٣٤-٣٣٧، و ص ٣٤٣-٣٤٧، انتشارات سروش، طهران، ١٣٦٢ هـ.ش.

الإنسانية؛ وهي العلوم التي تقع في مسار إدارة الإنسان والمجتمع، وفي خدمة المجتمع والأمة الإسلامية والحياة الطيبة والمعقولة.

وبذلك يمكن اعتبار تأسيس العلوم الإنسانية الإسلامية من مهام وأدوار العقل الآلي؛ وذلك لأن هذا الدور للعقل يقع في طول الدور النظري والعملي، والذي يتم به إثبات الدين والتعاليم الدينية والحياة السعيدة، والهدف منه تحقيق نوع من الحياة التي تم إثباتها بالعقل النظري والعقل العملي والمعارف الدينية. بل ويمكن اعتبار حتى العلوم الأخرى من قبيل العلوم الفنية والعلوم الهندسية والعلوم الطبية والعلوم الأساسية، من أدوار ومهام العقل الآلي أيضاً، شريطة أن تقع هذه العلوم في إطار خدمة الناس وتلبية احتياجات المجتمع. وبطبيعة الحال، تتم الاستفادة في هذه العلوم من العقل النظري والتجربة أيضاً، بيد أن العقل الآلي بدوره يلعب دوراً في إنتاج هذه العلوم أيضاً؛ وذلك لأن إنتاج هذه العلوم، يأتي في إطار تدبير المعاش والرفاه في الحياة الدنيوية، وهذا الأمر من مهام العقل الآلي. إن العقل الآلي بهذا الدور يتكفل بأداء مهمته ودوره في توسيع رقعة الدين لتشمل مسرح إدارة المجتمع ومعاش الإنسان، كما يساعد المتكلم بذلك في الدفاع عن حياض الدين أيضاً. وسوف نعود إلى هذا البحث عند الحديث عن مساحة جدوائية العقل وفائدته في المعارف الدينية.

### الدور الاستنباطي للعقل

إن المهام الثلاثة التي تقدم بيانها للعقل، هي من المهام والأدوار المستقلة للعقل، بيد أن للعقل في دائرة المصادر الأخرى - من قبيل الوحي - مهمات وأدواراً أيضاً، ومن بينها، الدور الاستنباطي. إن فهم مراد المتكلم، وفهم المنطوق والمفهوم، وفهم مقدمات ولوازم النص، ومقارنة العام بالخاص والمطلق بالمقيّد، وجمعها وتبويبها، وبشكل عام جميع الأمور التي يرد ذكرها في مباحث الألفاظ من علم الأصول، هي من مهام وأدوار العقل الاستنباطي. إن الاجتهاد في اللغة وتوظيف اللغة والصرف والنحو والمعاني والبيان وعلم الأصول؛ لغرض الاجتهاد والاستنباط المنشود للشارع من الكتاب والسنة، من بين المهام والأدوار الاستنباطية للعقل. وهكذا الأمر في فهم التعارض بين العقل والوحي، أو فهم التعارض بين النصين والعتور على حل لهذا التعارض. ومن ذلك - على سبيل المثال - ما ورد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾<sup>[١]</sup>. إن هذه الآية تُشعر بنوع من تجسيم الله سبحانه وتعالى؛ إذ النظر يكون عادة بالعين الجارحة، وهذا يتوقف

[١] - القيامة (٧٥): ٢٢-٢٣.

على أن يكون المرئي جسمًا، ويشغل حيِّزًا مكانيًا، وأن يكون مرئيًا أيضًا. في حين هناك بحث طويل وعريض حول كيفية جسمه وأين يكون محلّ رؤيته؟ ولكن عندما يتمّ ضمّ هذه الآية إلى قوله تعالى في آية أخرى تقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾<sup>[١]</sup>، يحكم العقل بأنّ المراد في الآية الأولى شيء آخر، ولا ينبغي لنا أن نفهم التجسيم منها. وعليه، فإنّه يُصوّر لها معان ووجوه، من قبيل: أنّ المراد من كلمة «ناظر» هو النظر إلى رحمة الله سبحانه وتعالى بعين الأمل. ولا شكّ في أنّ هذه المهمة من المهام الأساسية للعقل.

### المهمة الدفاعية للعقل

إنّ المراد من الدفاع هنا، هو الدفاع بالمعنى العام للكلمة؛ أي الخطوات التي يتّخذها المتكلّم بعد استنباط التعاليم الدينية وفي المواجهة مع المخاطب من أجل إعداد الأرضية لاعتقاده وإيمانه بالدين. وهذه المراحل عبارة عن: البيان، والتنظيم، والإثبات، وردّ الشبهات، والردّ على المدارس والمذاهب المخالفة والمناوئة. وبطبيعة الحال، فإنّ الدفاع في بعض الموارد، إنّما يشمل المرحلة الثالثة والرابعة فقط؛ بيد أنّ المراد هنا، هو الدفاع بالمعنى العام.

إنّ القوّة التي تقوم بالمهام المذكورة في سياق الدفاع عن الدين هي العقل، ونحن نسَمّي هذا الدور الذي يقوم به العقل بالدور الدفاعي للعقل. إنّ العقل يعمل على بيان وتنظيم التعاليم المستنبطة على أساس حالة المخاطب ومقتضيات المجتمع وما إلى ذلك من الأصول والشرائط، ويقوم بإثبات التعاليم التي تمّ بيانها وتنظيمها، ويردّ الشبهات الواردة عليها. وبطبيعة الحال، يمكن في مقام الدفاع عن هذه التعاليم - بما يتناسب مع حالة المخاطب وموضوع البحث - الاستفادة من النقل أيضًا؛ بيد أنّ العقل هو الذي يعمل على تنسيق التعاليم النقلية، وعرضها وتقديمها في قالب الاستدلال الخاصّ.

### أدوار ومهام العقل في المعرفة الدينية

بعد بيان مهام العقل وأدواره، سوف نعمل - في ضوء هذه المهام - على بحث واستقراء أدوار العقل في المعرفة الدينية.

[١]- الشورى (٤٣): ١١.

## العقل باعتباره ميزاناً

إنّ هذه النظرية المنسوبة إلى المعتزلة، تقوم على ضرورة عرض جميع المعتقدات الدينية على العقل بوصفه ميزاناً، وإذا تمكّن العقل من إقامة البرهان على تلك المطالب، سوف نقبل بها، وإلاّ فإنّها لن تكون مقبولة<sup>[١]</sup>. يجب القول في نقد هذه النظرية: إنّ هذا رأي متطرف بشأن العقل؛ وذلك لأنّ العقل يؤكّد - بشكل غير مباشر - على ضرورة القبول بالكثير من المطالب، ولكنّه لا يستطيع أن يقوم مباشرة بإقامة الدليل والبرهان على صحّتها وصوابيّتها؛ بمعنى أنّ العقل عندما يقيم الدليل على وجود الله سبحانه وتعالى، وصدق النبيّ والوحي، وضرورة التبعيّة لهم، يجب عليه القبول بما ثبت لديه من هذا الطريق، وإن لم يكن يمتلك استدلالاً مستقلاً ومباشراً على ذلك؛ في حين أنّ القائلين بهذه النظرية لا يقبلون بهذا الأمر.

وبطبيعة الحال، فإنّ المضمون النقلي يجب أن لا يخالف البديهيات العقلية. وبعبارة أخرى: يجب إزاحة المطلب «المخالف للعقل» جانباً، وبذلك يكون العقل هو الميزان؛ وأمّا المطلب «غير العقلي»، فلا يجب التخلّي عنه؛ لأنّ العقل يعمل على تأييده بشكل غير مباشر.

## العقل بوصفه مفتاحاً

في ضوء هذه النظرية التي تنسب إلى الأشاعرة عادة - وهي بطبيعة الحال نسبة غير دقيقة - يكون دور العقل مجرد دور المفتاح بالنسبة إلى المصدر الوحياني للمعارف، وليس أكثر من ذلك؛ بمعنى أنّ العقل من خلال إثبات وجود الله والأنبياء ووجود الوحي وضرورة التبعيّة لهذه المفاهيم، إنّما يوفر لنا هذه الإمكانيّة، وهي الاستفادة من مصدر باسم الوحي والنقل؛ ولكنّه في حدّ ذاته بوصفه مصدراً معرفياً ليس له أيّ اعتبار أبداً في العثور على معارف الدين الأخرى، ويتعيّن على الأشخاص في ذلك أن يحصلوا على المعارف من طريق النقل فقط.

إنّ هذه النظرية كما نلاحظ، تمثّل رؤية تقليدية وتفريطية وضيقّة للغاية تجاه العقل، وكما أدركنا في بحث مهام العقل، فإنّ للعقل الكثير من الوظائف والمهام الأخرى، ودليل ذلك هو العقل ذاته. من ذلك عندما يدرك العقل حُسن أو قبح بعض الأفعال - على سبيل المثال - لا يمكن القول إنّه يجب علينا التخلّي عن هذا الإدراك العقلي؛ إذ ليس هناك من دليل أو سبب يدعوننا إلى القبول بالحكم العقلي وردّ حكم عقلي آخر.

[١] - الشهرستاني، محمّد بن أحمد، الملل والنحل، ج ١، ص ٤٥، انتشارات الشريف الرضي، ط ٣، قم، ١٣٦٤ هـ.ش.

ومن ناحية أخرى، ليس الأمر بحيث لا يمكن للعقل أن يلعب أي دور في الوظيفة المفتاحية للعقل؛ إذ يمكن للنقل في هذا المقام أن يعمل على تثوير العقل وإرشاده من خلال البيان الاستدلالي العقلي إلى صحة هذا الاستدلال.

### العقل بوصفه سراجًا

هناك من العلماء والمفكرين من عمد - بعد نقد نظرية القول بالعقل بوصفه ميزانًا أو مفتاحًا - إلى بيان نظرية العقل بوصفه مصباحًا وسراجًا. وبطبيعة الحال، فقد تمّ القبول في هذه النظرية بدور العقل بوصفه مفتاحًا أيضًا. «إنّ العقل - في ضوء هذه النظرية - بالإضافة إلى كونه مفتاحًا، يلعب - بالنسبة إلى أصل كنز الدين - دور السراج أيضًا، فهو مصدر معرفي بالنسبة إلى مضامين ومحتويات الكنز أيضًا»<sup>[١]</sup>.

إنّ الذي يُفهم من هذه العبارة في النظرة الأولى، هو أنّ العقل بالإضافة إلى دور المفتاح، يقوم بمهمة استنباطية أيضًا، وأنّ فهم المعارف الدينية يتحقّق بواسطة العقل الاستنباطي والاجتهادي. إنّ هذا الدور للعقل أمر ثابت ومسلّم، ولكن بعد التدقيق في تنمّة كلامه، وكذلك بالرجوع إلى مختلف أبحاثه المتنوّعة التي ذكرها المنظر في كتابه، يتّضح أنّ مراده من العقل بوصفه سراجًا، ليس هو مجرد الدور المفتاحي والاستنباطي المحض فقط؛ بل إنّ كلّ ما يفهمه العقل ولو من غير النصّ، وحتىّ أفهام العقل التجريبي من الطبيعة المشروطة باليقين أو الاطمئنان، سوف تكون داخلة ضمن دائرة المعرفة الدينية أيضًا. وقد قال سماحته بعد العبارة أعلاه: «إنّ العقل في مختلف مستوياته وسطوحه - ابتداءً من العقل التجريدي إلى العقل شبه التجريبي والتجريبي المحض - إذا كان مفيدًا لمعرفة يقينية أو مورثة للاطمئنان، يمكن له أن يكون كاشفًا عن الأحكام الدينية، وأنّ يضمن البعد المعرفي لقوانين الدين جنبًا إلى جنب النقل»<sup>[٢]</sup>.

كما قال سماحته بشأن موضوع البحث:

«إنّ ما سوى الله إمّا كتاب تكوينه، من قبيل: السماء والأرض والإنسان والحيوان، وأمّا كتاب تشريعه، من قبيل: التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم، والقرآن الكريم. وعلى هذا الأساس، فإنّ العقل بمعناه الواسع، يتولّى عملية فهم وإدراك فعل الله وقوله وتصفّح أوراق كتاب تكوينه وتدوينه.

[١]- جواد آملی، عبد الله، منزلت عقل در هندسه معرفت دینی (موقع العقل من هندسة المعرفة الدينية)، ص ٥٢. (مصدر فارسي).

[٢]- المصدر أعلاه، جواد آملی، عبد الله، ص ٥٣.

وعليه، ليس إدراكه في قبال المعرفة الدينية، وخارج حدود معرفة الدين أبداً<sup>[١]</sup>. «ليس لدينا علم غير ديني أصلاً، فليس علم الجيولوجيا ولا أي علم آخر مطلق ومتحرر ولا غير ديني، بل هو ديني فقط»<sup>[٢]</sup>. «إذن فالعلم ليس علمانياً أبداً، وإن أمكن للعالم أن يصبح علمانياً»<sup>[٣]</sup>.

ومن بين أدلته على دينية الفهم اليقيني والاطمئنان للعقل والتجربة، هو «إنّ الدليل العقلي والنقلي كلاهما هبة من الله سبحانه وتعالى»<sup>[٤]</sup>. «وحيث أنّ العالم من صنع الله سبحانه وتعالى على نحو القطع واليقين، فإنّ العلم بدوره يجب أن يكون إلهياً ودينياً لا محالة»<sup>[٥]</sup>.

يجب القول في نقد هذه النظرية، أولاً: إنّ القول بأنّ العقل والنقل هبة، وأنّ العالم مخلوق من قبل الله، لا يصلح دليلاً على أنّ يكون كلّ ما يتمّ فهمه بالعقل والتجربة في باب العالم صحيح، ناهيك عن أنّ يكون دينياً. وثانياً: ليس هناك تلازم بين صحّة أمر ما وكونه دينياً. من ذلك مثلاً أنّنا حتّى لو أدركنا معادلة رياضية ذات مجهولين - على سبيل المثال - واكتشفنا معادلة التفاضل والتكامل، أنّ ندرك باطمئنان أنّ تربة هذه المدينة من نوع خاصّ، لا يمكن لهذه المعلومات أنّ تكون دينية مهما كانت صحيحة. ولكي يتمّ إثبات دينية قضايا العلوم المختلفة، يجب إيضاح وإثبات ملاك الدينية، وأنّ يتمّ إثبات وجوده في القضية مورد البحث، وهو ما نفتقر إليه هذه النظرية. وإذا ما تجاوزنا ذلك كلّ، فإنّ هذه النظرية في غاية البعد عن واقعية العلوم المعاصرة؛ وذلك لأنّ العلوم المعاصرة عبارة عن مجموعة من النظريات القائمة على فرضيات متنوّعة ونماذج مختلفة. إنّ علمية مسألة ما في العلوم المعاصرة، لا تعني صوابيتها وصحّتها؛ بل يعني ذلك مجرد استنادها إلى أسلوب ومنهج خاصّ. ومن هنا، يتمّ بيان الآراء المتنوّعة في العلوم بوصفها علماً، وليس الأمر بأنّ ينظر إليها بوصفها نظرية علمية فقط، واعتبار سائر الآراء الأخرى غير علمية.

## الرأي المختار

كما تقدّم أنّ ذكرنا، فإنّ القول بالعقل بوصفه ميزاناً؛ بمعنى أنّ القضية النقلية إذا كانت متعارضة مع اليقينية العقلية، يجب التخلّي عنها أو تأويلها؛ أمر مقبول، وإنّ العقل النظري والعقل العملي بهذا المعنى ميزان؛ وأما إذا كانت بمعنى أنّ جميع التعاليم الدينية يجب أن تمتلك برهاناً عقلياً

[١]- المصدر أعلاه، ص ٦١-٦٢.

[٢]- المصدر أعلاه، جوادى آملّي، عبد الله، ص ٨٨.

[٣]- المصدر أعلاه، ص ٨٩.

[٤]- المصدر أعلاه، ص ٩٢.

[٥]- المصدر أعلاه، ص ١٣٠.

مباشراً، لم يكن ذلك صحيحاً؛ إذ من الممكن لبعض المفاهيم النقلية أن لا تدرك بالعقل، ولكن حيث أنَّ العقل قد أثبت النقل، فإنَّ هذا المفهوم الثقلي، سوف يكون بدوره عقلياً بشكل غير مباشر أيضاً. إنَّ العقل بوصفه مفتاحاً يعود إلى الدور النظري والعملي للعقل؛ لأنَّ العقل النظري يثبت وجود الله سبحانه وتعالى وصدق النبي، والعقل العملي يحكم بوجود الإيمان بالله تعالى والقبول بالدين. إنَّ هذا الدور أمر واضح؛ لأننا إذا أردنا أن نثبت وجود الله بالدليل الثقلي، لزم من ذلك الدور الباطل؛ وأمَّا القول بالعقل بوصفه مفتاحاً، فلا يعني عدم وجود أيِّ دور للنقل في إثبات وجود الله والدين؛ إذ من الممكن للنقل أن ينطوي على برهان عقلي، ويعمل على إثارة العقل من هذه الناحية.

وأمَّا القول بأنَّ العقل مصباح، فهو إذا كان بمعنى الاعتراف بالعقل الاستنباطي، فإنَّ هذا الدور للعقل من أكثر أدوار العقل ومهامه بدهاة، وهو أمر يعترف به جميع المتكلمين. وحتى المخالفون لعلم الكلام من أصحاب الحديث والحناابلة بدورهم، يعملون على الاستفادة من هذا الدور للعقل وإن في الحد الأدنى، دون أن يأتوا على تسمية ذلك.

بالإضافة إلى هذه المهام والأدوار الثلاثة - على التفسير المتقدم بطبيعة الحال - هناك الدور الدفاعي للعقل، الذي لم يتم الالتفات إليه في النظريات الثلاثة المذكورة آنفاً، وهو أحد الأدوار المهمة للعقل في المعرفة الدينية على ما تقدم توضيحه.

إنَّ الدور الخامس للعقل في المعارف الدينية، هو الدور الآلي. قد يبدو أنَّ الدور الآلي للعقل بمعنى تدبير المعاش والحياة الدنيوية، ومن هنا فإنه لا تكون له أي صلة بالدين. إنَّ هذا الأمر في ضوء الرؤية القائلة بأنَّ الدين لا شأن له بالحياة في هذه الدنيا، وإنما يهتم بخصوص الآخرة، قد يبدو صحيحاً؛ ولكن لو قلنا بأنَّ الدين يتكفل بهداية الإنسان إلى الحياة الطيبة، سواء في الدنيا والآخرة، فإنَّ الأمر سوف يكون مختلفاً. إنَّ الحياة الأصلية والخالدة من وجهة نظر الدين وإن كانت هي الحياة الأخروية، إلا أنَّ طريق الوصول إلى الحياة الأخروية هي الحياة الدنيوية؛ لأنَّ الدنيا مزرعة الآخرة<sup>[١]</sup>. إنَّ الإسلام يمتلك خطة ومشروعاً للحياة الدنيوية، وإنَّ الناس إذا ساروا على وفق هذه الخطة ولم يحدوا عن هذا المشروع، فإنَّهم لن يضمنوا سعادتهم في هذه الدنيا فحسب، بل وسوف يضمنون السعادة الأخروية والأبدية أيضاً. وعلى هذا الأساس، لو سار العقل الآلي -

[١]- الحرائي، ابن شعبة، تحف العقول عن آل الرسول، ترجمه إلى اللغة الفارسية: علي أكبر غفاري، ص ٥١٠، جامعة المدرسين، ط ٢، قم، ١٤٠٤هـ.

في إطار تحقّق هذا المشروع والبرنامج المتطابق مع العقل النظري والعقل العملي والتعاليم الدينيّة - وعمل على تنظيم معاشه الدنيوي ضمن إطار هذا البرنامج، فإنّه سيكون قد قام بمهمّته الدينيّة. وفي هذا السياق، فإنّ الدور الذي يؤدّيه العقل الآلي هو بسط المعارف الدينيّة - التي تمّ الحصول عليها بوساطة العقل النظري والعملي والاستنباطي - على الحياة العمليّة للإنسان، ويقوم بهذا الأمر من خلال إنتاج العلوم المتنوّعة، ولا سيّما منها العلوم الإنسانيّة التي تسعى إلى إدارة وتدبير الحياة الدنيويّة. وبطبيعة الحال، تمّ الاستفادة في هذه العلوم من العقل النظري والعقل التجريبي أيضًا.

إنّ صلة هذا الدور للعقل الآلي في الدين مع علم الكلام، هو أنّ علم الكلام بصدد الدفاع عن الدين. وإنّ دور العقل الآلي بالمعنى المذكور آنفًا، يمثّل نوعًا من الدفاع عن الدين، بل هو أفضل طريق للدفاع عن الدين؛ وذلك لأنّ العقل الآلي من خلال التخطيط للنموذج الديني للحياة المزدهرة، يعمل على إثبات قدرة وتفوق الدين على سائر المدارس والمذاهب الأخرى على المستوى العملي، وقد أثبت أنّ الحياة على أساس التعاليم الدينيّة أفضل من الحياة على أساس التعاليم غير الدينيّة: «كونوا دعاة إلى [دين] أنفسكم بغير ألسنتكم»<sup>[١]</sup>.

إنّ الدور السادس للعقل في المعارف الدينيّة، هو أنّ العقل النظري والعقل العملي بعد أن يعمل على إثبات وجود الله سبحانه وتعالى، وبعد أن يحقّقا دورهما المفتاحي، سوف يواصلان مهمّتهما ونشاطهما في مواصلة الطريق جنبًا إلى جنب مع الوحي أيضًا. يمكن تسمية هذا النشاط بالدور التكميلي للعقل. وفي هذا الدور يمكن للعقل أن يكتشف بعض المفاهيم الدينيّة، ويعمل على إثباتها. من ذلك أنّ العقل - على سبيل المثال - يمكن له أن يثبت المعاد، ويمكنه أيضًا أن يكشف عن بعض المفاهيم في بحث الأسماء والصفات الإلهيّة ويعمل على بيانها. وكما تقدّم ذكره، فإنّ أكثر الأبحاث المرتبطة بأفعال الله والعدل الإلهي، يتمّ كشفها وإثباتها بوساطة العقل العملي. وبطبيعة الحال، من الممكن في بعض هذه الموارد أن يكون الوحي قد تكلم أيضًا، بيد أنّ العقل يكتشف المطالب بشكل مستقلّ ومنفصل عن الوحي. من ذلك أنّ العقل - على سبيل المثال - يكتشف أنّ الله سبحانه وتعالى لا يكلف بما لا يطاق، ويعمل على الوفاء بوعده في إقامة المعاد والجنّة.

إنّ الدور السابع للعقل في المعارف الدينيّة، هو الدور التعاملية والاستقلالية للعقل في سياق

[١]- الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي، ج ٢، ص ٧٧. وقد ورد هذا الحديث بألفاظ أخرى تشير إلى هذا الأمر ذاته أيضًا. المصدر ذاته، ص ٧٨ و ص ١٠٥.

الاكتشاف العقلي للمعارف الدينية. يمكن إدراج هذا الدور للعقل ضمن الدور التكميلي؛ ولكن حيث يتوصّل العقل في الدور التكميلي إلى مطلب دون الاستعانة بالوحي، ويصل إلى الحقيقة في الدور التعاملية من خلال الاستعانة بالوحي، فإننا نبحت هذا الدور بشكل مستقل.

في بعض التعاليم الدينية، بل وفي الكثير من التعاليم، لا يصل العقل إلى مطلب خاص من دون التعاطي والارتباط مع الوحي، ولكن عندما يتّصل بالوحي، ويضع نفسه أمام تعاليم الله سبحانه وتعالى والمرسلين، فإنه سوف يصل إلى الحقيقة بنفسه، ولكن بشكل غير مستقل. من قبيل أن يقوم طالب بعد التعلّم على يد أستاذ الرياضيات بفهم طريقة حلّ عقليّة يكتشف بوساطتها معادلة ذات مجهولين أو ثلاثة مجاهيل. إن هذا الإدراك هو من المدركات المستقلّة للعقل؛ إلا أن الإدراك الاستقلالي للعقل لا يعني عدم الحاجة إلى المعلم. إن الكثير من الأمور العقليّة التي أدركها المتكلّمون من الإماميّة، وعجز الفلاسفة الإغريقيين عن إدراكها، تندرج ضمن هذا القسم. عندما ننظر اليوم إلى ما ذكره أرسطو في بحث التوحيد<sup>[١]</sup>، يبدو لنا من المستغرب أن يكون هذا الفيلسوف الكبير قد عجز عن الوصول إلى أمور أخذنا اليوم ندركها بيسر في ضوء تعاليم الوحي<sup>[٢]</sup>.

ويبدو أن الجملة الجديرة بالتأمّل، والتي ذكرها الشيخ المفيد بشأن حاجة العقل إلى الوحي، والتي نسبها إلى اتفاق وإجماع الإماميّة، ناظرة إلى هذا المقام، دون المهام والأدوار الأخرى للعقل؛ إذ قال في ذلك:

«اتفقت الإماميّة على أن العقل محتاج في علمه وتناجه إلى السمع، وأنه غير منفك عن سماع ينبه العاقل على كيفية الاستدلال، وأنه لا بدّ في أوّل التكليف وابتدائه في العالم من رسول»<sup>[٣]</sup>.

وقد سبق للشيخ الصدوق أن تقدّم على الشيخ المفيد في إبداء هذا الرأي أيضاً<sup>[٤]</sup>.

وإنّ الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، يؤكّد من جهة على أنّ الحكمة هبة من الله، ويذكر من جهة أخرى بأنّ العقلاء وأولي الألباب، هم وحدهم الذين يؤتون الحكمة، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكَرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾<sup>[٥]</sup>.

[١]- برنجكار، رضا، حكمت و اندیشه ديني، در: سرچشمه حكمت (الحكمة والتفكير الديني) المطبوع في: سرچشمه حكمت، ص ٣٨٨-٤١٦. (مصدر فارسي).

[٢]- رباني گلپايگاني، علي، «برهان محرك اول در فلسفه ارسطو» (برهان المحرك الأول في فلسفة أرسطو)، مجلّة: كلام، العدد ٤، ص ٤٩-٦٢، شتاء عام ١٣٧٢هـ. ش. (مصدر فارسي).

[٣]- الشيخ المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، أوائل المقالات، ص ٧-٨، المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم، ١٤١٣هـ.

[٤]- الشيخ الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، التوحيد، ص ٢٩٠، جامعة المدرّسين، قم، ١٣٩٨هـ.

[٥]- البقرة (٢): ٢٦٩.

وقال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في بيان مهام الرسل والأنبياء فيما يتعلق بالمعرفة والحكمة:

«فبعث فيه مرسله، وواتر إليهم أنبياءه؛ ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول»<sup>[١]</sup>.

وبذلك، فإنّ الله سبحانه وتعالى قد أودع في عقل الإنسان خزائن معرفية، ولا يمكن للعقل أن يدرك هذه المعارف من دون تذكير وإشارة من الأنبياء والرسل؛ وإن كان من بعد التذكير والإشارة سوف يكون باستطاعته أن يكشف هذه المعارف بشكل مستقل، وهذا هو الدور التعاملي والاستقلالي للعقل.

والدور الثامن للعقل في المعارف الدينية، هو الدور التعاملي وغير الاستقلالي للعقل. وفي هذا الدور يتظاهر كل من العقل والوحي مع بعضهما من أجل العمل على كشف حقيقة ما، ويعمل على إظهارها للإنسان؛ بحيث أنّ العقل - سواء قبل إشارة الوحي أو بعدها - لا يستطيع أن يكشف نتيجة الاستدلال بشكل مستقل، ولكنّه يستطيع ذلك بمساعدة من الوحي. من ذلك - على سبيل المثال - لو قام كل من العقل والوحي ببيان واحدة من مقدمات الاستدلال، سوف تكون نتيجة هذا الاستدلال حصيلته للتعامل بين العقل والوحي. ويمكن مثلاً بيان هذا الاستدلال لكشف وإثبات الجزاء الأخروي والجنة:

١. أنّ الله سبحانه وتعالى قد وعد المحسنين بالثواب والجنة.

٢. أنّ العقل يحكم بقبح خلف الوعد.

النتيجة: أنّ الجنة حق، وأنّ المحسنين سوف يرون جزاء عملهم فيها.

ونذكر مثلاً آخر على إثبات اختيار الإنسان وحرية:

١. أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يحاكم ويجازي المذنبين ويعاقبهم يوم القيامة.

٢. أنّ محاكمة ومعاقبة المضطرب قبيح عقلاً، وأنّ الله سبحانه وتعالى لا يفعل القبيح.

النتيجة: أنّ المذنبين يتمتعون بالحرية والاختيار.

إنّ من بين الموارد التي يختلف فيها علم الكلام عن الفلسفة، هو الدور التعاملي للعقل. إنّ

[١]- نهج البلاغة، الخطبة الأولى.

الفلسفة - كما سبق أن ذكر في الأبحاث التمهيدية - علم ذو بعد واحد، ومنهجه عقلي؛ في حين أن علم الكلام، بالإضافة إلى المنهج العقلي، يستفيد من المنهج النقلي أيضًا. ثم إن المنهج العقلي ومهام العقل في الفلسفة والكلام مختلفة. ومن بين الاختلافات التي سبق أن ذكرناها هو العقل العملي. والاختلاف الآخر يكمن في توظيف علم الكلام للدور التعاملي الاستقلالي وغير الاستقلالي للعقل. إن الاستفادة من هذا الدور، يُضاعف من قدرة العقل في اكتشاف المعارف والحقائق الدينية؛ لأنَّ العقل يزدهر ويتطور - من خلال الاتصال بالوحي والمعلمين الإلهيين - ويكتشف آفاقًا معرفية أوسع.

### النتيجة

يمكن أن نستنتج من مجموع الأبحاث السابقة أنَّ العقل يلعب دوراً في جميع الأبعاد والساحات المعرفية، ومن بينها المعارف الدينية المتنوعة، وإن كانت هذه الأدوار مختلفة. وحتى في الأمور التعبديّة التي يذهب التصوّر إلى اعتبارها من الحقول الخاصّة بالوحي، يمكن للعقل أن يلعب فيها أدواراً استنباطية ودفاعية وآلية، بل وحتى أدواراً تكميلية، وأن يكون له فيها تعامل غير استقلالي. من خلال الاستقراء الذي أجريناه، توصلنا إلى ثمانية أدوار متنوّعة للعقل في المعرفة الدينية، وهي عبارة عن: دور الميزان، ودور المفتاح، ودور الاستنباط، ودور الدفاع، ودور الآلة، ودور التكميل، ودور التعامل الاستقلالي، ودور التعامل غير الاستقلالي. وإنَّ هذه الأدوار تقوم - بدورها - على خمسة أدوار عقلية، وهي العقل النظري، والعقل العملي، والعقل الآلي، والعقل الاستنباطي، والعقل الدفاعي.

## لائحة المصادر والمراجع

١. نهج البلاغة، انتشارات هجرت، قم، ١٤١٤هـ.
٢. الآبي، منصور بن حسين، نثر الدر، تحقيق: محمّد علي قرنة، ج ١، مركز تحقيق التراث، مصر، ١٩٨١م.
٣. ابن سينا، حسين، الإشارات والتنبيهات، ج ١، نشر البلاغة، قم، ١٣٧٥هـ.ش.
٤. ابن سينا، حسين، الشفاء (الطبيعيّات)، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم، ١٤٠٤هـ.
٥. ابن سينا، حسين، النجاة من الغرق في بحر الضلالات، تحقيق: محمّد تقي دانش پژوه، جامعة طهران، ط ٢، طهران، ١٣٧٩هـ.ش.
٦. ابن سينا، حسين، رساله نفس (رسالة النفس)، ترجمها إلى اللغة الفارسيّة: موسى عميد، جامعة أبو علي سينا، ط ٢، همدان، ١٣٨٣هـ.ش.
٧. ابن سينا، حسين، عيون الحكمة، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، ط ٢، بيروت، ١٩٨٠م.
٨. الأشعري، أبو الحسن، اللمع في الردّ على أهل الزيغ والبدع، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.
٩. إيلخاني، محمّد، تاريخ فلسفه در قرون وسطى و رنسانس (تاريخ الفلسفة في العصور الوسطى وعصر النهضة)، نشر سمت، ط ٢، طهران، ١٣٨٢هـ.ش.
١٠. بني هاشمي، سيّد محمّد، پرتو خرد (شعاع العقل)، نشر نبا، طهران، ١٣٨٨هـ.ش.
١١. التميمي الأمدي، عبد الواحد بن محمّد، غرر الحكم ودرر الكلم، دفتر تبليغات اسلامي، قم، ١٣٦٦هـ.ش.
١٢. الجرجاني، السيّد شريف، شرح المواقف، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م.
١٣. جوادى آملی، عبد الله، منزلت عقل در هندسه معرفت ديني (موقع العقل من هندسة المعرفة الدينيّة)، نشر إسرائ، قم، ١٣٨٩هـ.ش.
١٤. الحرّاني، ابن شعبة، تحف العقول عن آل الرسول، ترجمه إلى اللغة الفارسيّة: علي أكبر غفاري، جامعة المدرّسين، ط ٢، قم، ١٤٠٤هـ.
١٥. الحرّ العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة، مؤسّسة آل البيت (عليهم السلام)، قم، ١٤٠٩هـ.
١٦. الحلّي، الحسن بن يوسف، مناهج اليقين في أصول الدين، دار الأسوة، طهران، ١٤١٥هـ.

١٧. الحلبي، الحسن بن يوسف، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، تصحيح: حسن حسن زاده الأملي، مؤسّسة النشر الإسلامي، ط ٤، قم، ١٤١٣ هـ.
١٨. الديلمى، حسن بن محمد، إرشاد القلوب إلى الصواب، انتشارات الشريف الرضى، قم، ١٤١٢ هـ.
١٩. الفخر الرازي، فخر الدين، المحصل، دار الرازي، عمان، ١٤١١ هـ.
٢٠. الرازي، قطب الدين، حاشية الإشارات والتنبيهات، دفتر نشر كتاب، طهران، ١٤٠٣ هـ.
٢١. رباني گلپايگاني، علي، «برهان محرك اول در فلسفه ارسطو» (برهان المحرك الأول في فلسفة أرسطو)، مجلّة: كلام، العدد ٤، شتاء عام ١٣٧٢ هـ.ش.
٢٢. الشافعي، محمد بن طلحة، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول.
٢٣. الشهرستاني، محمد بن أحمد، الملل والنحل، انتشارات الشريف الرضى، ط ٣، قم، ١٣٦٤ هـ.ش.
٢٤. الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، التوحيد، جامعة المدرّسين، قم، ١٣٩٨ هـ.
٢٥. الصدوق، محمد بن علي (ابن بابويه)، علل الشرائع، مكتبة الداوري، قم، ١٣٨٥ هـ.ش.
٢٦. الصدوق، محمد بن علي (ابن بابويه)، مَنْ لا يحضره الفقيه، ترجمه إلى اللغة الفارسيّة: علي أكبر الغفاري، جامعة المدرّسين، ط ٢، ١٤١٣ هـ.
٢٧. الفارابي، أبو نصر، فصول منتزعة، مكتبة الزهراء، ط ٢، طهران، ١٤٠٥ هـ.
٢٨. كابلستون، فريدريك، تاريخ فلسفه (تاريخ الفلسفة)، ترجمه إلى اللغة الفارسيّة: جلال الدين مجتبوي، نشر علمي و فرهنگي، طهران، ١٣٨٨ هـ.ش.
٢٩. كابلستون، فريدريك، فيلسوفان انگليسي از هابز تا هيوم (الفلاسفة الإنجليز من هوبز إلى ديفد هيوم)، ترجمه إلى اللغة الفارسيّة: أمير جلال الدين أعلم، انتشارات سروش، طهران، ١٣٦٢ هـ.ش.
٣٠. الكراچكي، محمد بن علي، معدن الجوهر ورياضة الخواطر، المكتبة المرتضويّة، ط ٢، طهران، ١٣٩٤ هـ.
٣١. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ترجمه إلى اللغة الفارسيّة: علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلاميّة، ط ٤، طهران، ١٤٠٧ هـ.
٣٢. مجموعة من المؤلفين، سرچشمه حكمت (معين الحكمة)، نشر النبأ، طهران، ١٣٨٨ هـ.ش.
٣٣. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، دار إحياء التراث العربي، ط ٢، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

٣٤. محمّدي ري شهري، محمّد، دانش نامه عقايد اسلامي (موسوعة العقائد الإسلامية)، دار الحديث، قم، ١٣٨٥هـ.ش.
٣٥. المطهري، مرتضى، عدل إلهي (العدل الإلهي)، جامعة المدرسين، قم، ١٣٦١هـ.ش.
٣٦. المفيد، محمّد بن محمّد بن النعمان، أوائل المقالات، المؤتمر العالمي للشيخ المفيد، قم، ١٤١٣هـ.
٣٧. المقداد الفاضل، ابن عبد الله السيوري، اللوامع الإلهية في المباحث الكلامية، دفتر تبليغات اسلامي، ط٢، قم، ١٤٢٢هـ.
٣٨. الملا صدرا، صدر المتألّهين الشيرازي، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، دار إحياء التراث العربي، ط٣، بيروت، ١٩٨١م.
٣٩. الملا صدرا، صدر المتألّهين الشيرازي، شرح أصول الكافي، مؤسسة مطالعات وتحقيقات فرهنگي، طهران، ١٣٦٦هـ.ش.
٤٠. ملكي ميانجي، محمّد باقر، توحيد الإمامية، وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامي، طهران، ١٤١٥هـ.
٤١. النراقي، محمّد مهدي، جامع السعادات، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف.

## منتدى الاستغراب

منتدى الاستغراب نافذة فكريّة، للإطلاقة على عالم الكتب والأفكار، من خلال إجراء قراءات علميّة في الكتب، والأفكار، وحوارات تخصّصية تنسجم مع رسالة المجلة وسياساتها

إشكاليّة العنف والحرية في ضوء فلسفة ما بعد الاستعمار

دعاء عبد النبي حامد

قراءات علميّة

قراءة في كتاب تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب

قراءة: إدارة التحرير

الإرهاب الغربي - روجيه غارودي

أمل ناصر ناصر

محمد والقرآن واليهود.. بوابة إلى الحقيقة

## إشكالية العنف والحرية في ضوء فلسفة ما بعد الاستعمار

دعاء عبد النبي حامد (\*)

### الملخص

إنَّ إشكالية العنف، والحرية من الإشكاليات ذات الخصوصية في الفلسفة الأفريقية الحديثة والمعاصرة، وهي إشكالية ليست وليدة العصر بل تمتدُّ بجذورها في تاريخ الفكر الفلسفيّ. وتعدُّ العلاقة بين العنف، والحرية علاقة، وثيقة نظراً لما يفرضه العنف من قيود تحدُّ من حرية الإنسان، وقد تناولت الفلسفة الأفريقية إشكالية العنف، والحرية بالدراسة، والبحث في إطار النضال ضدَّ مستعمر جرّد كلّ مستعمراته من القيم الإنسانية. لذلك تدور الدّراسة حول ظاهرة العنف، وقضية الحرية من منظور الفكر ما بعد الاستعماري، متمثلة في رؤية الفيلسوف الكاميروني أشيل ميمبي، والذي أسّس نظريته في الفكر ما بعد الاستعماري على نقد المركزية الأوروبية، كما أعطي اهتماماً بالغاً للعنف، وتأثيره في سياسة الموت، وأيضاً أعطى اهتماماً للحرية وما تعنيه في الفكر الأسود.

لقد حظيت ظاهرة العنف بالاهتمام، والمناقشة لما لها من آثار سلبية على الفرد، والمجتمع، وقد يتخذ العنف أشكالاً متعدّدة مثل القوة، والعدوانية، والسلطة، والقانون، كما أنّ له مجالات عديدة مثل العنف الاجتماعي، والعنف الديني، والعنف السياسي. ناقش ميمبي ظاهرة العنف متبعاً التطوُّر التاريخي لها من المنظور السياسي، وعلاقتها بالسياسات العدائية، وأثرها على مفهوم الحرية لدى الفكر الأسود، والتي عدّها الزئوج نضالاً ضدَّ كلّ معتدٍ يبغى فرض الهيمنة، والسيطرة على العقل الأفريقي.

كلمات مفتاحية: العنف، الحرية، الاستعمار، الفلسفة الأفريقية، أشيل ميمبي، الحداثة الغربية.

(\*)- باحثة في الفلسفة السياسية- جامعة القاهرة- جمهورية مصر العربية.

## نظرية ما بعد الاستعمار ونقد المركزية الأوروبية

لقد ارتبط مصطلح ما بعد الاستعمار في العصر المعاصر إلى حد كبير بعمل الناقد الأفريقي أشيل ميمبي، والذي كتب العديد من المؤلفات حول كيفية عمل السلطة، والقمع فعلياً في دول ما بعد الاستعمار في أفريقيا<sup>[1]</sup>. تهدف نظرية ما بعد الاستعمار إلى تفكيك الخطاب الاستعماري، أي التكوين العقلي، والتمثيلات، والأشكال الرمزية التي كانت بمنزلة البنية التحتية للمشروع الإمبراطوري، إنها تسعى لكشف مخزون الأكاذيب التي بدونها كان الاستعمار بصفته تكويناً تاريخياً للقوة سيفشل. فيمكن للمرء أن يقول إنَّ فكرًا ما بعد الاستعمار هو من عدة جوانب فكرة عالمية حتى ولو لم تستخدم هذا المفهوم في بدايتها، كما يمكن عدّ ما بعد الكولونيالية هي أيضاً حلم لشكل جديد من أشكال الإنسانية، ومن أجل وجود سياسة عالمية من الضروري الاعتراف بالحقّ العالمي لكل فرد في وراثته العالم بأكمله، وأخيراً الفكر ما بعد الاستعماري ليس مناهضاً لأوروبا، بل إنه يدعو إلى قراءة بديلة لحدائنا، كما يدعو أوروبا إلى فتح آفاق المستقبل باستمرار بمسؤولية عن نفسها وعن الآخر، وقبل الآخر، لذلك لم تعد أوروبا مركز العالم<sup>[2]</sup>، وهي نظرة تختلف تماماً عن نظرة أوروبا لنفسها بعدّها المركز. كما يدعو أوروبا إلى فتح آفاق المستقبل بصفته مسؤولة عن نفسها وعن الآخر، وبخلاف ما تراه أوروبا فهي لم تعد مركز العالم.

يعدُّ العرق القوة الهائلة، والمدمرة في صنع العالم الحديث، لقد فصل الأسياد عن العبيد، والمستعمرين عن المستعمرين، والمستوطنين عن السكّان الأصليين، رداً على ذلك، ساهمت النضالات التاريخية ضدّ العنصرية، وتفوق البيض في تعميق الركائز المعيارية الأساس للنظام الدولي الحديث. فقد تمّ تعميم حقوق مختلفة بما في ذلك حقّ تقرير المصير. فكانت المفاهيم الأساس للحياة الحديثة مثل الحرية، والعدالة، والمساواة بين جميع البشر، أو الاعتقاد بأنّ السلطة السياسية تهدف إلى حماية الإنسان. فقد كانت القناعة مستمرة بأنّ الديمقراطية هي أفضل شكلاً من أشكال تحقيق الحرية الإنسانية، ترجع إلى النقد الدائم للحكم العنصري من قبل مختلف الحركات المناهضة للعبودية، والمناهضة للاستعمار، والحقوق المدنية<sup>[3]</sup>.

العقل الرنّجي ليس منفصلاً عن العرق؛ لذلك نجد نقد هذا العقل من منظور ميمبي ما هو إلاّ الوجه الآخر لنقد الحداثة الغربية برمتها. موضّحاً أنّ منطق العرق هو نتاج ميتافيزيقا الحداثة

[1]- Ashcroft, B., P175- 176.

[2]- Mbembe. 2021. P72: 76.

[3]- Mbembe. 2015. P1.

الغربيّة، وهو الطّريقة التي نظر بها الغرب إلى العالم، ويقسّمه مع وجود أوروبا في مركزه، يعمل هذا المنطق من خلال وضع شخصيّة جوهريّة في حال العرق الأبيض، بوصفها أعلى في مبادئها، وأسسها، والتي وفقاً لها يتمُّ هيكلة العالم، وينتهي هذا المنطق بأنّ العرق يكون أسطورة خياليّة تمَّ إنشاؤها حول الذات، والآخر من وجهة نظر الرّجل الأبيض، وقد تزامن إنشاء العرق مع مشروع أوروبا، والتّوسّع الغربي، حيث واجه الغرب الآخر باستخدام الاختلاف المطلق للتّمييز بين البشر مع تصنيف غير الأوروبيين على أنّهم أقلُّ من البشر<sup>[١]</sup>.

كانت الحداثة هي الاسم الآخر لمشروع التّوسّع الأوروبي من القرن الثّامن عشر، وبداية القرن التّاسع عشر؛ حيث أصبح القرن التّاسع عشر هو قرن الإمبرياليّة العظمى التي فرضت فيها أوروبا على الشّعوب الأخرى. لذلك فإنّ نقد الحداثة الغربيّة لم يكتمل إلّا بفهم ظهورها مقتترنة بظهور مبدأ العرق، وأهمّيته للتّقسيم، والاختلاف البشري، والمجدّد لأغراض الإقصاء، والتي من خلالها يتمُّ القضاء على مجموعة بشريّة فيزيقيّاً. وكان الاستعمار، أو الإمبرياليّة إحدى الوسائل التي يتجلّى من خلالها التّطلّع الأوروبي للهيمنة على العالم، ويشكّل الاستعمار نمطاً من السّلطان المؤسّس للمنطقيات الثّلاث: منطق العرق، منطق البيروقراطيّة، منطق التّجارة. يعمل العرق في النّظام الكولونيالي بعده مبدأ الجسد السّياسي، أمّا البيروقراطيّة هي ترتيب هيمنة، ومن ثمّ تحلُّ القوّة محلّ القانون<sup>[٢]</sup> لذلك يرى ميمبي أنّ تاريخ الحداثة الغربيّة هو تاريخ العقل الأسود.

### العنف ودورة في السّياسات العدائيّة

يقدم أشيل ميمبي تحليلاً نقدياً لسياسات العنف من خلال تتبّع الأشكال الاستعماريّة، وعندما يناقش ميمبي فينومينولوجيا العنف، فإنّه يتحدّث عن الموت؛ وإنّ أفريقيا الحاليّة هي التي تخطر بباله، ليس لكونها أرض الموت، والجنون الخارج عن السّيطرة أكثر من أيّ مكان آخر، بل لأنّ أفريقيا الحاليّة تظهر في الخطاب الحديث، والمعاصر مثل الظّلام مجردة من الوعي<sup>[٣]</sup>. ويهدف ميمبي إلى تسليط الضّوء على فهم مختلف لسياسات العنف في أفريقيا المعاصرة، وعلى وجه الخصوص في دولة «فلسطين» المحتلّة، وما يقوم به المحتلُّ من فرض سلطته، وهيمنته على الأراضي الفلسطينيّة؛ باستخدام أساليب العنف المختلفة، ونتيجة ذلك؛ ازدياد العنف، والإرهاب

[1]- Gerber, S., 2019, P11.

[٢]- نقد العقل الزنجي، ص ٨٣-٨٧.

[٣]- الأيوبي، أمين، ٢٠٢٢، ص ٢٣٣.

تحت مسميات مختلفة. أيضاً يستعرض ميمبي في تحليله للسياسات العدائية تطوراً تاريخياً لمفهوم الحرب، وما يطرأ عليها من تغييرات في الطُّرُق، والأدوات المستخدمة، والتي من شأنها رسم خريطة جديدة لمفهوم الموت والحياة.<sup>[1]</sup> يقترح ميمبي التفكير في الموت مثل استراتيجية، وتأثيره على السُّلطة، وي طرح سؤال عمّا إذا كانت فكرة السُّلطة الحيويّة ستكون كافية للتعامل مع الأشكال المعاصرة من العنف، إلاّ أنّه عدّها غير كافية، ويقترح مفاهيم الموتى، والمقابر للتفكير في أشكال جديدة من خضوع الحياة لسُلطة الموت، ويقوم بتحليل فترات الاستعمار، والحروب المتأخّرة، وبخاصّة في البلدان الأفريقيّة، وفي منطقة قطاع غزة.

تفترض السّياسات العدائيّة (سياسات الموت) لدي ميمبي أنّ التّعبير النّهائي للسيادة يكمن في السُّلطة، والقدرة على اختيار الّذين يعيشون، والّذين يجب أن يموتوا، لكن تحت أيّ ظروف يمارس الحقّ في القتل، والسّماح بالحياة، ومن هي الدّات التي تمارس هذا الحقّ. وللإجابة على ذلك يتعلّق الأمر بمفهوم السُّلطة البيولوجيّة، وعلاقتها بمفاهيم السّيادة<sup>[2]</sup>.

يبدأ ميمبي من فكرة الحدّثة، والتي كانت الأساس للمفاهيم المتعدّدة عن السّيادة، وكذلك للسُّلطة البيولوجيّة. ويرتكز اهتمام ميمبي في أشكال الهيمنة التي لا يكون موضوعها الأساس الصّراع من أجل السُّلطة، وإنّما موضوعها تحويل الوجود الإنساني إلى أداة معمّمة، وإلى التّدمير المادّي للأجساد البشريّة، والشُّعوب، وهذه السّيادة مثل معسكرات الموت التي تشكّل القانون للمكان السّياسي، أي الحدود التي نحن بصدد العيش فيها. إنّ التّجارب المعاصرة للتّدمير البشري تشير إلى إمكانيّة تطوير قراءة للسّياسة، والدّات؛ مختلفة عن تلك التي ورثت من الخطاب الفلسفي للحدّثة، فبدلاً من حسب العقل حقيقة الدّات، يمكن النّظر إلى فئات أخرى مثل الحياة والموت. وللدّلالة على تلك الفكرة لا بدّ من مناقشة للعلاقة بين الموت والتّحوّل إلى الدّات<sup>[3]</sup>.

ويمكن توضيح هذا المفهوم على النّحو التّالي. إنّ تناول هيغل لمفهوم الموت يرتكز على السّلب المزدوج، حيث يقوم الإنسان بنفي الطّبيعة أولاً، وهو نفي موجّه للخارج، لتطويع الطّبيعة لاحتياجاته الخاصّة، وثانياً يقوم بتحويل العنصر المنفي من خلال العمل والنّضال، وفي إطار تحويل الطّبيعة؛ فإنّ الإنسان يبدع عالماً لكنّه في تلك العملية يتعرّض لسلبه الخاصّ، ومن ثمّ في السّبق الهيجلي يكون موت الإنسان إرادياً نتيجة الأخطار التي تعيها الدّات، فالإنسان وفقاً لهيغل

[1]- Pele, A., 2020, P2.

[2]- Mbembe, A., 2003, P11.

[3]- الأيوبي، أمين، ٢٠٢٢، ص ١٠٥.

ينفصل عن مرحلة الحيوانية، ويصبح ذاتاً في النضال، والعمل الذي يواجهه من خلاله الموت، وبالتالي فهناك صيرورة بين أن تصبح ذاتاً، وتدعم عمل الموت، هذا الدعم هو الذي يحدّد حياة الرُّوح، فكما يقول هيغل إنّ حياة الرُّوح ليست هي الحياة التي تخاف من الموت، وتخلّص نفسها من الدّمار، ولكن هي تلك الحياة التي تفترض الموت، وتعيش معه، فالرُّوح لا تصل إلى حقيقتها إلاّ بالعثور على ذاتها في التّفكُّك المطلق<sup>[١]</sup>.

وبعد أن قدّم مبمبي السُّلطة بوصفها عمل الموت، ينتقل إلى السُّلطة بوصفها الحقّ في القتل، ويدرس المسارات التي توضح أنّ حال الاستثناء، وعلاقة العداوة هي المعيار الذي يعطي الحقّ في القتل، وفي مثل هذه الحال تشير السُّلطة بشكل مستمرّ إلى حال الاستثناء، والطَّواريء، والسُّؤال المطروح هنا ما هي العلاقة بين السُّلطة والموت في ظلّ هذه النُّظم التي لا تعمل فقط إلاّ في حال الطَّواريء؟

في صياغة فوكو للسُّلطة البيولوجية، يتمّ تقسيم النّاس إلى أولئك الذين يجب أن يعيشوا، والذين يجب أن يموتوا، هذه السُّلطة تعرّف نفسها من خلال الحقل البيولوجي الذي تسيطر عليه، وهذه السُّيطرة تفترض مسبقاً توزيع النّوع البشريّة في مجموعات، وتقسيم المجموعات إلى مجموعات فرعية، ووضع حدّ فاصل بين المجموعات بعضها بعضاً، وهذا ما يطلق عليه فوكو مصطلح «العنصري»، هذه العنصرية في السُّلطة البيولوجية مبررة تماماً، وبحسب فوكو فإنّ العنصرية تقنية تهدف إلى السّماح بممارسة السُّلطة البيولوجية، وهي الحقّ السيادي القديم بالقتل (إشارة إلى مرحلة المزرعة، والمستعمرة من بعدها)، وفي الاقتصاد السياسي للسُّلطة البيولوجية، فإنّ عمل العنصرية يكمن في تنظيم الموت، وجعل أفعال الدّولة الإجرامية ممكنة<sup>[٢]</sup>.

وفقاً لفوكو تُعدّ الدّولة النّازية المثال الأكثر اكتمالاً للدّولة التي تمارس حقّ القتل، حيث جعلت الإدارة، والحماية تتعايش مع الحقّ السياديّ في القتل، وبواسطة الاستنتاجات البيولوجية حول موضوع العدو السياسي، وتنظيم الحرب ضدّ الخصوم، وفي الوقت نفسه تعرّض المواطنين للحرب، وطّدت الدّولة النّازية الطّريق الهائل للحقّ في القتل، والذي تُوجّج بمشروع الحلّ النّهائيّ، وهي بفعلها هذا أصبحت النّمودج الأصليّ لتشكيل السُّلطة التي تجمع بين خصائص الدّولة العنصرية، والدّولة القاتلة، والدّولة الانتحارية، هذا الخلط بين الحرب، والسياسة، والعنصرية، والقتل، والانتحار هو

[1]- Mbembe, A., 2003, P14.

[٢]- مبمبي، ٢٠١٩، ص ١٠٩.

أمر فريد من نوعه خاص بالدولة النازية. يرى ميمبي أن تصوّر الآخر مثل تهديد مميت يعزّز قدرتي على الحياة، والأمن واحدًا من العديد من اعتبارات السيادة المميزة للحدث المبكرة، والمتأخرة أيضًا، ويدعم الاعتراف بهذا التّصوّر معظم الانتقادات التّقليدية للحدث<sup>[١]</sup>.

إنّ الروابط بين الحادثة، والإرهاب تنبع من مصادر متعدّدة، وتظهر بوضوح في سرديات مختلفة، يرتكز معظمها على فهم التّنويع للصّواب والخطأ، وللحقيقي والرّمزي. يرى ميمبي أنّ الانقسامات الطّبقيّة، وازدهار الدولة يفترض التّعددية البشريّة، وهي العقبة الرئيسيّة أمام تحقيق الغايات التّاريخيّة المحدّدة سلفًا، لذلك فإنّ الدّات في الحادثة الماركسيّة على سبيل المثال هي في الأساس ذات تريب إثبات سيادتها من خلال شند قتال حتّى الموت، كما هو الحال مع هيغل، فإنّ سردية السّيطة، والتحرّر ترتبط بوضوح بسردية الحقيقة، والموت، ومن ثمّ يصبح الإرهاب، والقتل وسيلة لتحقيق الأهداف الحتمية تاريخياً<sup>[٢]</sup>.

إنّ التّتبّع التّاريخي لظهور الإرهاب الحداثي؛ يبدأ من تناول مسألة الرّق، والعبودية، والتّي تعدّ أولى حالات التّجريب السياسيّ للسلطة البيولوجيّة، فالرقيق تتج من خسارة الوطن، وفقدان الإنسان العبد الحقوق على جسده، وفقدان الحال السياسيّة، وهي تتطابق مع الهيمنة المطلقة، والاعتراب منذ الولادة، والموت الاجتماعي؛ أي الطرد من الإنسانيّة تمامًا. ولأنّ العبد يخضع لسيّده، يتصرّف فيه كيفما يشاء، ولأنّ للعبد سعراً، وقيمة بوصفه أداة للعمل، وبوصفه ملكيّة، يحافظ السيّد على حياته، ولكن في ظلّ عالم مشبع بالقسوة الشديدة، والكلام البذيء، في هذا المشهد الأليم الواقع في جسد العبد، يصبح العنف عنصراً من السلوكيات، مثل جلد العبد، أو قتله: فعل تدمير محض، يهدف إلى نشر الرعب، فحياة العبد هنا شكل من أشكال الموت حيّاً. وفي حال الاستعمار، وفي نظام الفصل العنصري، تأتي سياسات القسوة لتكون تشكياً إرهابياً غربياً، الميزة الأكثر أصالة في هذا التّكوين للإرهاب كما يبيّن ميمبي هو تسلسل السلطة البيولوجيّة، وحال الاستثناء، وحال الحصار. أي إنّ الشّيء الحاسم في هذا التسلسل هو العرق، فإنّ الاصطفاء العرقي، وحظر الزّواج المختلط، والتّعقيم الإجباري، وحتّى إبادة الشّعوب المهزومة، تجد منبعها الأوّل بالطّبع في العالم الاستعماري، ووفقاً ل حنا ارندت، فإنّ الغزو الاستعماري كشف احتمالاً للعنف لم يكن معروفاً من قبل. وبحسب فوكو فإنّ النّازيّة، والستالينيّة لم تقدّم سوى توسّع الآليات الموجودة من قبل في المنظومات الغربيّة الأوروبيّة الاجتماعيّة، والسياسيّة، وبرغم ذلك؛ يمثّل

[١]- أبو رحمة، أماني، ٢٠٢١، ص ١٣١.

[٢]- أبو رحمة، أماني، ٢٠٢١، ص ١٣٣.

الاستعمار في الفكر الحدائى، والممارسة، والخيال السياسى الأوروبى المكان الذى تتشكّل فيه السيادة بشكل أساس من ممارسة السُلطة خارج القانون<sup>[١]</sup>.

إنّ الحقّ السّيدى فى القتل لا يخضع لأيّ قانون فى المستعمرات، فالحروب الاستعماريّة ينظر إليها بوصفها تعبيراً عن العداوة المطلقة، والتي تضع المستعمر أمام عدوّ مطلق، فكلّ تجلّيات الحرب، والعداوة التي همّشت من قبل الخيال القانونى الأوروبى تجد لها مكاناً فى المستعمرات. يتفق ميمبى مع فوكو فى أنّ فهم آليات السُلطة البيولوجيّة مقيّدة فى الدّول الحديثة، لكنّه يذهب إلى أبعد من ذلك؛ حيث ينظر إلى إمكانيّة قتل الآخر على أنّها عنصر أساس لسُلطة الدّولة فى الحدائى تحت ما يسمّى بحال الاستثناء، ومن المنظور التاريخى يدّعى ميمبى أنّ الرّبط بين الحدائى والإرهاب؛ الذى تجسّده النّازيّة يأتي من عدّة مصادر منها العبوديّة التي تعدّ المظهر الأوّل لحالة السُلطة البيولوجيّة، والتي تعنى أنّ العبد لم يُقتل بالمعنى البيولوجى، ولكنّه يبقى على قيد الحياة، ولكن فى صورة مهينة تتخلّلها عمليّات القسوة البدنيّة، والتي تخضع لهدف اقتصادى، كما أنّ المستعمرة، ونظام الفصل العنصرى أيضاً يتخلّلها السُلطة البيولوجيّة، وحال الاستثناء، والحصار، وتشكّل مناطق حرب، وفوضى.

### سلطة الحياة والموت فى ظلّ الاحتلال الاستعمارى الحديث والمتأخّر

إنّ سلطة الاستعمار تعنى أنّ الاحتلال الاستعمارى نفسه يقصد به الاستيلاء على المناطق الجغرافيّة، ورسم الحدود، وممارسة السّيطرة على هذه الأرض، وفرض وضع جديد من العلاقات الاجتماعيّة، والمكانيّة، والتي أصبحت فى نهاية المطاف بمنزلة إنتاج الحدود، والتّسلسل الهرمى؛ وتصنيف النّاس وفقاً لفئات مختلفة، واستخراج الموارد، وصناعة مخزون كبير من التّخيّلات الثّقافيّة، أدّت إلى ممارسة السّيادة، حيث أصبح المكان المادّة الأولىّ للسّيادة، والعنف الذى تحمله معها، فالسيادة تعنى الاحتلال، والاحتلال يعنى وضع المستعمرين فى منطقة ثالثة بين الذات والموضوع، وهذا هو الوضع فى حال نظام الفصل العنصرى «الأبارتايد»<sup>[٢]</sup> فى جنوب أفريقيا<sup>[٣]</sup>.

[١]- سياسات العداوة، ص ١١٤-١١٨.

[٢]- هو نظام الفصل العنصرى الذى حكمت من خلاله الأقلية البيض فى جنوب أفريقيا من عام ١٩٤٨ وحتى تمّ الغاء النّظام بين الاعوام ١٩٩٠-١٩٩٣ وعقب ذلك انتخابات ديمقراطية عام ١٩٩٤. وقد هدف هذا النّظام إلى خلق إطار قانونى يحافظ على الهيمنة الاقتصادية والسياسيّة ذات الأصول الأوروبيّة. قامت قوانين هذا النّظام بتقسيم الافراد إلى مجموعات عرقيّة أهمّها السّود البيض «الملونين»، والآسيويين (الهنود والباكستانيين) وتم الفصل بينهما. منع هذا النّظام حق الاقتراع كما تمّ فصل أجهزة التعليم والصّحة والخدمات المختلفة وكانت الأجهزة المخصّصة للسّود أسوأ وضعاً بشكل عام. ومنذ السّتينات أخذت الاعتراضات الدّولية على هذا النظام ممّا أدّى إلى نبذ جنوب أفريقيا ومقاطعتها من قبل غالبية الدّول هذا بالإضافة إلى المعارضة الدّاخليّة والتي أدت إلى انهيار هذا النّظام بعد أربعة عقود.

[3]- Mbembe, A., 2003, P25.

يصف قانون الاحتلال الاستعماري؛ بأنه ينطوي على تقسيم المكان إلى أجزاء منعزلة، ويرسم حدودًا داخلية تتمثل في مراكز الشرطة، كما أنه ينظّم من خلال لغة قوّة خالصة، وحضور فوري؛ والأهم من ذلك هو إنه يحدّد الطريقة التي تعمل بها سلطة الموت. ويختلف الاحتلال الاستعماري في الحداثة المتأخّرة كثيرًا عن الاحتلال في الحداثة المبكرة، ويعدّ الشّكل الأكمل لسلطة الحياة، والموت في الاحتلال الاستعماري المعاصر في «فلسطين»؛ حيث تستمدّ الدّولة الاستعماريّة مطالبها الأساس بالسيادة، والشّرعيّة من سلطة سردها الخاصّ للتاريخ والهويّة، انطلاقًا من رواية مدعومة بفكرة الدّولة عن الحقّ الإلهي المقدّس في الوجود، وهي رواية تتناقض مع رواية أخرى تستند إلى المكان المقدّس ذاته...<sup>[1]</sup>.

إنّ الاحتلال الاستعماري المعاصر لفلسطين؛ هو أنجح أشكال الموت، حيث ينتهج العنف، والسيادة من منطلق مقدّس، أي منطلق ديني، ويتمّ تصوّر الهويّة الوطنيّة على أنّها هويّة ضدّ الآخر، لذلك؛ فإنّ الآليّات تختلف عن نموذج الاستعمار القديم، ويعدّ العنف الدّيني من أخطر أنواع العنف لما يترتّب عليه من إبادات جماعيّة لقبائل، وشعوب، والقضاء على هويّات تلك الشّعوب.

لقد ظهرت روابط جديدة بين صنّاع الحرب، والآلات الحربيّة، واستخراج الموارد الاقتصاديّة، وتعدّ آلات الحرب مندرجة في تكوين اقتصادات محليّة، أو إقليميّة عابرة للدول، وفي معظم الأماكن إنّ انهيار المؤسّسات السياسيّة الرّسميّة تحت ضغط العنف، يتّجه إلى تشكيل اقتصاد الميليشيات، وتصبح آلات الحرب في ظلّ هذه الحال (الميليشيات وحركات التمرد)، آليّات منظّمة تنظيمًا عاليًا من أجل الاستيلاء، وفرض ضرائب على الأراضي التي تحتلّها، وعلى السكّان. ومن هذا المنطلق لم تعد الحرب تُشنّ بين جيوش دولتين ذات سيادة، بل يتمّ شنّها من قبل جماعات مسلّحة تعمل خلف قناع الدّولة ضدّ جماعات مسلّحة ليس لها دولة، بل تسيطر على مناطق متميّزة جدًّا، وفي حال فشل المنشقّين المسلّحين في الاستيلاء الكامل على سلطة الدّولة، فإنّهم يحرضون على تقسيمات إقليميّة، وينجحون في السّيّطرة على مناطق بأكملها يديرونها على غرار الاقطاعات<sup>[2]</sup>.

وهنا يلقي مبيمبي الضّوء على إحدى السّيّاسات الخطيرة التي يتبعها الغرب مع أفريقيا؛ حيث يكشف دور الاستعمار في صورته المعاصرة، والذي يعتمد على المتمرّدين في الدّول المراد تفتيتها، ودعمهم بالأسلحة، والتّقنيّات المتفوّقة تكنولوجياً في تحقيق الأهداف المطلوبة داخل تلك البلاد،

[1]- Mbembe, A., 2003, P26.

[2]- أبو رحمة، أماني، 2021، ص 135.

وبتدقيق النَّظَر إلى الدُّول الممزَّقة في الوقت الرَّاهن سنجد أنَّ الميليشيات موجودة بشكل أساس في تلك البلاد، وإن اختلفت المسمَّيات مثل طالبان في أفغانستان، الدَّواعش في ليبيا، وغيرهم من الميليشيات المنتشرة بمساعدة القوى الاستعماريَّة، والتي تمدُّهم بالسَّلاح والمال، ومن الجدير بالذِّكر أنَّ تلك الجماعات المسلَّحة بجانب عمليَّات القتل، والإرهاب تقوم بطمس معالم التُّراث الإنساني من خلال تدميره، ومن ثمَّ طمس معالم الهويَّة الحضاريَّة، والثَّقافيَّة للشُّعوب.

إنَّ المركزيَّة الأوروبيَّة ما زالت موجودة في ظلِّ الاحتلال الحديث، والمعاصر لدولة فلسطين، ولكنَّها تتخذ شكلاً آخر لها، وهو الشَّكل المقدَّس، لذلك أصبحت عنصريَّة اليهود ضدَّ الفلسطينيين عنصريَّة دينيَّة، واحتقاراً للجنس الآخر، لم يكن على أساس اللُّون بل على أساس المعتقدات الدينيَّة، وما يترتَّب عليها أخطر أنواع العنف، وهو العنف الديني فيكون لديهم الحقُّ في قتل، وإبادة فئات من البشر تحت مسمَّى الحفاظ على الهويَّة الدينيَّة.

### مفهوم الحرِّيَّة عند أشيل ميمبي

يؤمن هيغل بأنَّ أحداث الماضي كلُّها كانت تتَّجه نحو تحقيق هدف الحرِّيَّة، ففي مقدِّمة كتابه فلسفة التَّاريخ يقول: إنَّ تاريخ العالم ليس إلَّا تقدُّم الوعي نحو الحرِّيَّة. ذلك عكس المفهوم الليبرالي الكلاسيكي للحرِّيَّة. حيث يرى الليبراليُّون أنَّ الحرِّيَّة عامَّة تعني غياب القيود؛ فأنا حرٌّ إذا لم يتدخل الآخرون في شؤوني، ولم يجبروني على فعل شيء لا أرغب في القيام به؛ أنا حرٌّ عندما أقوم بما يحلو لي. أنا حرٌّ عندما يدعني الآخرون وشأني. هذا هو مفهوم الحرِّيَّة الذي أطلق عليه أشعيا برلين «الحرِّيَّة السَّلبية» في مقاله الشهير «مفهومان للحرِّيَّة». إلَّا أنَّ هيغل في مفهومه للحرِّيَّة كان مخالفاً لآراء الليبراليِّين؛ فهو يرى أنَّ فكرتهم لا تعبر عن النُّضوج التَّام، لأنَّها لا تتضمَّن أيَّ تلميح إلى الإرادة الحرَّة كلياً، والحقِّ، والحياة الأخلاقيَّة، وغيرها<sup>[١]</sup>.

إنَّ الحرِّيَّة تعني التَّحرُّر من كلِّ أشكال الاسترقاق والعبوديَّة، ويناقش ميمبي فكرة الحرِّيَّة من خلال مقارنة بين المفهوم في الفكر الغربي، والفكر الأسود. ويعتقد أنَّ الرِّغبة المستمرة في حرِّيَّة الإنسان كانت هي السَّؤال الرِّئيس الذي انكشف حوله أفضل ما في الفلسفة الغربيَّة. بغض النَّظَر عن كينيَّة تصوُّرها، كانت الحرِّيَّة هي المفهوم السِّياسي الأكثر أهميَّة في النَّظريَّة السِّياسيَّة الحديثة، والتَّنويريَّة، وهي تقع في قلب العلاقات الاجتماعيَّة، وتغذِّي المفاهيم ذات الصِّلة بالحقوق، والالتزامات، والعدالة، والمسؤوليَّة. علاوة على ذلك، كما ذهب فوكو، بقدر ما تعدُّ الحرِّيَّة نمطاً

[١]- السيد، محمد، ٢٠١٤، ص ٤١-٤٢.

من النشاط والفكر، فإن ممارسة الحرية تتطلب أخلاقيات رعاية الذات. والذات التي تدور في ذهن فوكو ليست الفرد المعجّد لنظرية الدولة الليبرالية للطبيعة، بل هو كائن اجتماعي بحاجة إلى مجتمع<sup>[١]</sup>.

فالحرية إنتاج يستلزم البناء، ويقتضي إنتاجها الأمن والحماية، إلا أن فوكو في نظر مبمبي قد نسي أن يوضح أن عبودية الزنوج مثلت على مدار التاريخ تدميرًا للحرية<sup>[٢]</sup>. لذلك كانت العلاقة بين الاهتمام بالذات، ومعرفة الذات محورًا حاسمًا لفهم ليس فقط العلاقة الفلسفية بين الذات، والحقيقة، ولكن أيضًا طريقة، ومسألة الحرية نفسها. فقد كان مشروع الحرية هو الأفق الذي تطورّ ضده نقد الحداثة بوصفه نقدًا للحاضر. والجزء الجوهرى من نقد الحداثة نفسها إمامًا يتعلّق بفشلها في تحقيق الحرية للجميع، أو حول ميلها إلى استخدام الحرية مثل قناع لغايات سياسية ساخرة، ولتقدّم مفهومًا للإنسان يمنح امتيازًا لعرق واحد<sup>[٣]</sup>.

إن مشروع الحرية في المنظور الغربي ما هو إلا قناع لتغطية السياسات الاستعمارية الغربية، كما أنها أيضًا غلاف للعنصرية الأوروبية، وتفوق الجنس الأبيض. إن فلاسفة التنوير في مناقشتهم للحرية لم يقدموا أيّ نقد، أو تنديد للعنصرية ضدّ السود، ومن ثم كان عصر التنوير الأوروبي ما هو إلا عصر ظلام على أفريقيا. إن قيم الحرية، والعدالة، والمساواة في الفلسفة الغربية لم تطبق على أفريقيا والزنوج، وإن فلاسفة عصر التنوير هم أنفسهم من قدّموا الأفكار العنصرية، والنظرة الدونية للأفارقة والزنوج، لذلك يمكننا القول إن فلاسفة التنوير قد ناقضوا أنفسهم، وإن قيم التنوير ما هي إلا قيمًا خدمت الأهداف الاستعمارية.

ما يميّز الفكر الفلسفي الغربي حول الحرية؛ هو التعبير عن الحرية مع ديالكتيك السيّد، والعبء من ناحية، ومع الاختلاف من ناحية أخرى. بعبارة أخرى، في المدخل الأعمق للتفكير الفلسفي الغربي حول الحرية، يفترض الاختلاف بعدّه الأرضية النهائية التي يستند إليها معنى الحرية، ويزعم مبمبي أن الفصل بين طريقة الحرية ومادتها، هذا الشعب بين التفكير السياسي للحرية، والتفكير الفلسفي للموضوع نفسه، هو السمة الغالبة لنظريات الحرية الغربية. على العكس من ذلك، تكمن أصالة الفكر الزنجي الحديث في التوفيق بين نقد أسلوب الحرية، ونقد موضوعها. العرق هو ما يسمح لهذه المصالحة، العرق بمعناه المزدوج لشكل من أشكال الحرب، والقانون، والخروج على

[1]- Mbembe, A., 2011, P13.

[٢]- أبو رحمة، أماني، ٢٠٢١، ص ١١٨.

[3]-Mbembe, A., 2011, P14.

القانون من ناحية، والفضاء الفارغ الذي يشكّل علاقات الخضوع الاجتماعية، والنظام السياسي نفسه من ناحية أخرى. الادّعاء الرئيس للنقد الزنجي هو أنّه في سياقات الإرهاب العنصري، يتمُّ ربط عقدة الحرية في الموت، أو على الأقل في التهديد بالقتل، الأساس النهائي الذي بدونه لا يمكن للعوي أن يفكر ويفهم نفسه<sup>[1]</sup>.

إنّ ما يطلق عليه ميمبي (الفكر الزنجي) هو ظاهرة حديثة تمامًا، وهو أيضًا ظاهرة الشتات. فالفكر الأسود شتات ليس بالضرورة لأنّه متجذّر في مفاهيم الإطاحة من مكان المنشأ، في هذه الحالة أفريقيا نقطة مرجعية خيالية في بناء الهوية السوداء، ولكنّ الأهم من ذلك؛ لأنّه يتشكّل في عوامل متعدّدة، ويتنقل عبر دوائر الثقافة، والمعنى التي تستمرُّ في التقارب، والتباعد في نفس الوقت. لذلك، هناك متغيّرات من الفكر الزنجي أكثر تعبيرًا عن الظروف التاريخية لأولئك الذين يمكن أن نطلق عليهم السود الغربيين، أو الأميركيين من أصل أفريقي، ومسألة الرق على سبيل المثال<sup>[2]</sup>.

بالتدقيق في الفجوة التي تفصل بين العبودية، والحرية. من المهم أنّ الخطوة الأولى للحرية، في مثل هذا السياق، هي استعادة الكلام، أو اللغة. فرانز فانون على سبيل المثال، خصّص الفصل الأوّل من كتابه بشرة سوداء قناع أبيض **Black Skin, White Masks** لمسألة اللغة. في الواقع، في ظلّ الاستعمار كان أوّل شكل من أشكال الاحتياج البشري يتمثّل في حقيقة أنّ المستعمر لم يكفّ المستعمر نفسه عناء الرّد؛ لأنّ الرّد سيعني إضفاء مكانة إنسانية معيّنة على الشخص الذي يتحدث إليه. في ظلّ هذه الظروف، فإنّ أوّل موقع للنضال من أجل الحرية هو بالتالي ميدان الكلام واللغة. يوضّح فانون أنّ اللغة هي أوّل حال يستبعد منها المستعمر. إنّ استبعادك من عالم اللغة يعني استبعادك من عالم الإنسان، وهو المجال الذي يتمُّ فيه التعامل مع البشر بصفتهم بشرًا، وتشكيلهم على هذا النحو. في ظلّ ظروف العبودية أيضًا، أصبح الكلام، واللغة الواسيلتين الرئيسيتين لإعادة ترتيب العلاقة بين حرية الإنسان، وجوهر الإنسان<sup>[3]</sup>.

ولأنّ اللغة من السمات الأساس في تحديد الهوية الثقافية؛ عمد الاستعمار إلى حرمان الأفارقة من التعامل بلغتهم الأصلية، وإجبارهم على تعلّم، والتعامل بلغة المستعمر، بل عمد إلى حرمان

[1]- Mbembe, A., 2011, P16.

[2]- Mbembe, A., 2011, P19.

[3]- Mbembe, A., 2011, P20.

الزنجي منذ تجارة الرقيق من إمكانية التعبير والكلام، ذلك بأنهم إذا تكلموا سيصبح لوجودهم قيمة، ومن ثم سعى الاستعمار إلى نفي أي قيمة للسود حتى لو بالكلام. ولأهمية اللغة سعى الفلاسفة الأفارقة أمثال بولين هونتودجي، وكواسي وريدو إلى محاربة الاستعمار المعرفي، وتأكيد دور اللغة في عملية إنهاء هذا النوع من الاستعمار، ولأهمية اللغة أيضاً نادى الشيخ أتنا ديوب بالعودة إلى اللغات الأفريقية، وضرورة وجود لغة أفريقية موحدة.

هناك تقليد طويل الأمد للفكر الأسود يحدد الحرية في عالم الجماليات. هذا نوع من الحرية يمكن أن نطلق عليه الحرية الأصلية. تظهر الجماليات، بهذا المعنى، على أنها المجال الذي نصنع فيه تجربة القوى المتعددة للعقل البشري، والطرق التي تستدعي بها هذه القوى أنماطاً مختلفة من الإدراك في آن واحد: العقل، الفهم، العاطفة، المتعة، التعاطف. وهنا تتمثل الحرية في المقام الأول في الإرادة للاعتراف بنفسه على أنه حر. وهذا يعني التنشئة الواعية لبنية عميقة للعلاقة الذاتية. في الواقع، في تجربة السود، كانت الحرية بالضرورة نتيجة لنوع معين من النضال - النضال من أجل أن تصبح. وكما يوضح فانون، فإن الهدف من الحرية هو استمرار، وتحسين الظروف التي تجعل هذا الصراع ممكناً، وهو شيء يتضمن الوسائل التي من خلالها تخلق الذات نفسها (خلق الذات - اكتشاف الذات). هذا هو السبب في أنه أشار إلى الحرية على أنها تجربة سابقة، وهي محاكمة لا نهاية لها تفترض مسبقاً أخلاقيات معينة للذات، وطريقة معينة في الاهتمام بالذات، وطريقة معينة لتفسير الذات<sup>[1]</sup>.

وعن الرؤية الأفريقية، والتجربة السوداء يرى ميمبي أن النقد الفلسفي الأسود تأثر بالحدثة، وبالتجربة التاريخية للأسر، والعبودية، والقهر الاستعماري والعنصرية. كان التقليد الفرنكفوني الأسود (سنغور، وسيزير، وفانون، وغيرهم) في طليعة هذا النقد. يكشف التقليد الفرنكفوني الأسود أيضاً عن محاولات الغرب لممارسة احتكار العقل، ويكشف القناع عن المعتقدات غير العقلانية المركزية لأي مشروع للهيمنة العرقية. هذا بالضبط ما فعله فرانز فانون. أظهر مدى استعداد القوة الغربية للدفاع عن المعتقدات غير العقلانية التي تشكل أساساً لأي شكل من أشكال العنصرية، إذا لزم الأمر، من خلال سياسة الوحشية، والإبادة الجماعية كل ذلك باسم «الحضارة» والإنسانية. عدم قدرة القوة الغربية على التفكير بشكل نقدي في نفسها في ما يتعلق بالقسوة التي تلحقها بالآخر، وهذا الميل إلى إراقة دماء الآخرين باسم الحضارة، والحرية، والإنسانية، لقد كان هذا في قلب النقد

[1]- Mbembe, A., 2011, P29.

الأسود للحدثة. يجادل النّقد الأسود ضدّ حقيقة أنّ القوى الغربيّة، في سعيها للسيطرة على السّيادة على العالم، تخفي خصوصيّة تمّت صياغتها بشكل مميّز من حيث القيم العالميّة. ومع ذلك فهي عالميّة تقوم على مفهوم عنصري لما يشكّل الإنسان، وتظهر التّخيّلات السّود للحرية كردّ فعل على دافع الموت هذا الذي يخفي نفسه تحت ستار الحضارة والإنسانيّة<sup>[1]</sup>.

هناك نسخة أخرى من التّحرر نواجهها في الخيال الأسود. التّحرير بصفته حركة تضحية هو عمليّة مستهلكة للغاية. من خلال الإرادة البشرية المطلقة، تتمّ التضحية بالذّات من أجل الصّالح العام في المستقبل. هذا ليس بعيداً من الاستشهاد. يتمّ قتل شكل من أشكال الحياة من أجل الحفاظ على شكل آخر. في الواقع، السّعي من أجل الحرية هو محاكمة الموت، وإذا لزم الأمر، قبول مسؤوليّة موت المرء كما أوضح نيلسون. الموت في هذه الحال هو باب الحياة الذي يفتح حقيقة الحياة، الحياة التي تعيش بالتضحية بنفسها. إنّها تضحية تتمّ عن الجميع، ومن هنا جاء طابعها التّعويضي، الموت من مارتن لوثر إلى مانديلا، هذه السّلطة المطلقة الممنوحة للموت، أو إمكانيّة الموت، هذه الحرية الأخرويّة، هي جانب أساس من السرد الأسود الحديث للخلاص. هناك العلاقة بين الحرية والعنف. سواء كان ذلك من النّاحية النظريّة أو لا، فإنّ ممارسة العنف باسم النضال من أجل التّحرير أو في هذا الصّدّد، كان البقاء سمة مشتركة للعديد من الحركات السياسيّة. إنّ قتل العدو هو نقطة الصّفرة للحرية<sup>[2]</sup>.

الحرية إذن بالنسبة للأفارقة تعني النّضال من أجل الاستقلال، والكفاح ضدّ العنصريّة الغربيّة المتغلّسة، كما أنّها في المقام الأوّل تكمن في الإرادة، والاعتراف بالنّفس على أنّها حرّة، كما أنّها بالنسبة للسّود تبدأ من قتل العدو، حين التّخلص من عدويّ، والذي يمثّل خطراً واضحاً لوجودي، وهويّتي، فإنّني بذلك أكون قد خطوت الخطوة الأولى نحو الحرية. إنّ الحرية لا تعني فقط التّخلّص من العدو بصورة جسديّة، بل التّخلص منه أيضاً في الصّورة الثقافيّة والمعرفيّة، والتّخلّص من كلّ الرّواسب الذي خلّفها المستعمر. وخلاصة القول يكشف ميمبي عن العنف كونه متأصلاً في فكرة معيّنة عن العقل، ويدعوا إلى قراءة بديلة للحدثة، كما يرفض العنف بجميع أشكاله، وينادي بإنسانيّة واحدة تحترم جميع البشر بمختلف ألوانهم ومعتقداتهم. لذلك يمكننا القول إنّ أشيل ميمبي يقدّم نموذجاً للسلام العالمي يضاهاي دعوة كانط حول السلام العالمي مع اختلاف ميمبي عن كانط في دعوة ميمبي باحترام العقائد، والمقدّسات، والتي حسبها كانط سبب العنف والدّمار في العالم.

[1]- Mbembe, A., 2004, P296.

[2]- Mbembe, A., 2004, P298.

## لائحة المصادر والمراجع

### المصادر العربيّة

١. ميمبي، أشيل. (٢٠٢١). السّياسات النكراوية أو سياسات الموت. ترجمة: أبو رحمة، أماني. أوراق فلسفيّة، العدد ٧٧-٧٨.
٢. ميمبي، أشيل. (٢٠٢٢). ما بعد الاستعمار (أفريقيا والبحث عن الهوية المسلموية). (ط ١). ترجمة: الأيوبي، أمين، مراجعة خالد قطب. بيروت: ابن النديم للنشر والتوزيع.
٣. ميمبي، أشيل. (٢٠١٩). سياسات العداوة. (ط ١). ترجمة: ميلود، طاهري. بيروت: ابن النديم للنشر والتوزيع.
٤. سينجر، بيتر. (٢٠١٤). هيغل. ترجمة: السيّد، محمد ابراهيم. مؤسسة هنداوي.

### المصادر بالأجنبيّة

1. Mbembe, Achille. (2003). **Necropolitics**. Translated by Libby Meintjes, Public Culture, Duke University press, Vol 15, n 1.
2. Mbembe, Achille. (2004). **Faces of freedom: Jewish and Black experiences**. Published in the wiser review. vol. 7(3).
3. Mbembe, Achille. (2011). **Fragile Freedom (Experiences of Freedom in postcolonial literatures and cultures)**. Routledge Taylor& Francis Group, London and New York, first published.
4. Mbembe, Achille. (2015a). **Apartheid futures and the limits of racial reconciliation**. Johannesburg: witsinstitutie forsocal and economic research.
5. Mbembe, Achille. (2021a). **Out of the Dark Night**. Columbia University Press, New York.
6. Ashcroft, Bill; Griffiths, Gareth; and IFFIN, Helen T. (2007). **Post- Colonial Studies the key concepts**. Routiedge, London and New York, second edition.
7. Gerber, Schalk. (2019). toward a postcolonial universal ontology: nots on the thought of Achille Mbembe.
8. Pele, Antonio. (March 2020). 'Necropolitics' of Achille Mbembe. **Key word in Critical Legal Thinking**. Research Gate.

## قراءة في كتاب تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب

قراءة: إدارة التحرير [\*\*]

### بداية

يصرّح مؤلّف الكتاب الأستاذ جورج قـرم -المفكّر والخبير الاقتصاديّ اللبنانيّ وخريج جامعة باريس في القانون الدستوريّ والعلوم الاقتصاديّة، معهد الدراسات السياسيّة بباريس -فرع الماليّة العامّة- أنّ هذا المؤلّف هو نتيجة تساؤل وسواسيّ منذ سنين طفولته عندما أدرك أنّ الدنيا مقسّمة بين «نحن الشرقيّون» و«هم الغربيّون». ولا يخفي نظرتة النقديّة، حيث يقول: <كنتُ أتضايق كثيرًا من النرجسيّة في الثقافة والعلوم الإنسانيّة الغربيّة ونظرة التعالي، بل والازدراء في كثير من الأحيان، بالنسبة إلى حضارات الشعوب الأخرى ومؤسّساتها وعاداتها>، ويوجّه جانبًا من خطابه النقديّ إلى العديد من المثقّفين العرب؛ لتبنيهم الكثير من الطروحات الفكرية والإشكاليّات الغربية في النظر إلى تطور التاريخ الإنسانيّ دون ممارسة النقد في الطروحات التي كانت تقدّمها الثقافات الأوروبيّة المختلفة حول عبقيّتها وتفوّقها؛ إذ لم يلتفت هؤلاء إلى أنّ لعبة التصادم بين الشرق والغرب هذه هي لعبة تخيّلية ولعبة مرايا خطيرة أطلقتها الثقافة الأوروبيّة الاستعماريّة لتبرير سياسة القوّة والسيطرة على مقدرات العالم.

وفي هذا السياق سعى المؤلّف إلى تحليل ديناميّة أوروبا انطلاقًا من قراءة تاريخها قراءة منهجيّة ونقديّة، فالثقافة الأوروبيّة متنوّعة وفي كثير من الأحيان كانت متناقضة للغاية في تاريخها، وأدّت إلى حروب شعواء ضمن هذه القارّة الصغيرة. إضافة إلى تعدّد الشعوب واللغات والثقافات والتباينات الدينيّة (بين البروتستانت والكاثوليك).

ومن الواضح أنّ المؤلّف قد حدّد هدفه جيّدًا بدراسة مسار التاريخ الأوروبيّ بعيدًا عن كلّ سرديّات تاريخ أوروبا من قبل كبار المؤرّخين والفلاسفة، وعلى رأسهم الفيلسوف الألمانيّ هيغل،

وعالم السوسولوجيا الألمانيّ أيضاً ماكس فيبير، موجّهاً، وفق منهجه، الكلام بشكل خاصّ إلى استيلاء هذه القارّة الصغيرة على مقدّرات دول أخرى، بل وقد زرعت فساداً في العالم باستعمارها القارّات الأخرى، مؤكّداً على ضرورة الخروج من لعبة الصور النمطيّة المتبادلة بين المثقّفين العرب والمثقّفين الأوروبيين، خاصّة وأنّ الثقافة العربيّة الحديثة قد وقعت ضحيّة التخيّلات الثقافيّة السياسيّة الأوروبيّة؛ إذ لا بدّ للثقافة العربيّة من التخلّص من الموقف العاطفيّ الانفعاليّ من الثقافة الأوروبيّة، لكي تتحرّر ثقافتنا من هيمنة المقولات والإشكاليّات الأوروبيّة الفلسفيّة والاقتصاديّة والسوسولوجيّة المتوغّلة فيها، وتدخل في مرحلة بناء استقلال فكريّ يسمح بوضع نظام معرفيّ وقيميّ ومرجعيّ مستقلّ عن الصور النمطيّة المتبادلة بين تخيّلات الغرب حول الشرق وتخيّلات الشرق حول الغرب. فتصبح ثقافتنا متجدّرة فعليّاً في الواقع العربيّ ومسيرته التاريخيّة. وهذا بنظر الكاتب هو الخطوة الأولى لإعادة بناء استقلالنا السياسيّ والاقتصاديّ والفكريّ الحقيقيّ على غرار ما تفعله شعوب أخرى، إسلاميّة كانت، مثل تركيا الحديثة أو إيران أو ماليزيا، أم غير إسلاميّة، مثل الهند والصين وكوريا وفيتنام، وقبلها اليابان.

ويقدم الكاتب تحليلاً موضوعياً لتبيان أساليب وأدوات وتقنيات بناء أسطورة وحدة أوروبا ووحدة الغرب بمكوّناتها وتبريراتها المختلفة، ذلك أنّنا في الشرق العربيّ والإسلاميّ قد بنينا أيضاً العديد من الأساطير متأثرين بتقنيات الثقافات الأوروبيّة في البناء الأسطوريّ. والكثير من المقولات والمفاهيم الأسطوريّة الطابع التي أدخلت في صميم ثقافتنا العربيّة المعاصرة لهيّ بمعظم الأحيان متأثرة إلى أبعد الحدود بالمفاهيم والمقولات الأوروبيّة، بل قد تكون في بعض الأحيان مجرد انعكاس لها، فتندرج في إشكاليّات تاريخيّة وسياسيّة ليست من صنعنا كثقافة عربيّة مستقلّة، بل من نتاج تصدير الإشكاليّات الغربيّة عبر العالم.

في مجال آخر، يجيب الكاتب عن سؤال يرتبط بتلك اللفظة: «الغرب»، وما يرتبط به جغرافياً ومعرفياً وديموغرافياً...، وكيفية انبثاق مفهوم «الغرب»، عارضاً لاستعمالاته الكثيرة في المضامير الفلسفيّة والتاريخيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والجغرافيّة. فهذا المفهوم الجغرافيّ البسيط هو، في الواقع، متعدّد المعاني، وهو كثيراً ما يستعمل على نحو مكثّف ينضح بالانفعاليّة، بل قل بطريقة وسواسيّة عُصابيّة، وذلك في أنماط مختلفة من الخطب الفلسفيّة والأكاديميّة والميتافيزيقيّة (أي التي تُعنى بالمطلقيات التي تتحكّم بحياة البشر) والتاريخيّة، وتلك المعنيّة بالهويّة والسياسة.

وكما سنرى، شهد كلّ من القرنين التاسع عشر والعشرين بشكل خاصّ استعمالاً مكثّفاً لهذا

المفهوم، حتى خلنا معها أنه كان يلعب دور المحور المغناطيسيّ المستقطب المثير للانفعال في الفضاءات الذهنيّة المختلفة، وفي الرؤى والإدراكات الحسيّة المتنوّعة للعالم، التي كانت آنذاك تحرك أوروبا، وتثير فيها الاضطراب كلّما اشتدّ وطّيس التناقضات بين الرؤى التاريخيّة والفلسفيّة للعالم من جهة، وبين المشاعر القوميّة النقيضة من جهة أخرى، مترافقاً مع بروز التفجيرات العنفيّة القوميّة داخل القارة الأوروبيّة نفسها.

ويتطلّع الكاتب في الفصل الثالث من هذا الكتاب إلى أبعد من الميثولوجيات الكبرى التي تغلب على الخطاب التاريخيّ والفلسفيّ الهادف إلى تأكيد المُطلقيّة لاستثنائية أوروبا، وقد حاول تحديد ماهيّة البذور العديدة التي أصبحت في ما بعد، ومنذ منتصف القرون الوسطى، مصدر قوة هذه القارة وسطوتها. ولقد جاءت الكثير من المكونات المهمة من مصدر هذه القوة نتيجة «للتثاقف» (أي التفاعل مع معارف وحضارات الشعوب الأخرى) والتواصل المكثّف والمستدامين بنحو ملحوظ، اللذين قدّرا للأوروبيين اختبارهما مع كلّ التنوع الممكن من الشعوب والتقاليد والعادات السلوكيّة والعلوم والتقنيات ومستويات الحضارة خارج قارّتهم، غير أنّ هذا التنوع الذي طبع التواصل، بقي في الغالب مجهولاً من المؤرّخين والفلاسفة، وخاصّة عندما كان يتعلّق بحقبة القرون الوسطى، حيث درجت العادة على توصيف القارة بكيان منغلق متفوق كلياً على نفسه، ومقيّد بالغطاء الحديديّ الذي كوّنته المسيحيّة الجماعيّة، والتي أمّلت على الفرد تفاصيل سلوكيّاته اليوميّة، وخصّصت له، بدقة متناهية، مكانته الاجتماعيّة في تراتبيّة صارمة.

ويستعيد بالمناقشة في الفصل الرابع والتحليل عنواناً تهكميّاً لأحد مؤلّفات برنارد لويس الأخير (Bernard Lewis)<sup>[١]</sup> الذي يتعرّض فيه، بشكل عنيف، للعالم الإسلاميّ، فيجعل منه مثلاً للفشل التحضريّ المدوّي الذي لقيه في تكيف نفسه مع الفكر العلميّ الذي يميّز الحداثة الغربيّة.

كما يسلّط الضوء على -بحسب تعبيره- العبقرية الشيطانيّة المؤذية والضارة والفتاكة التي ميّرت هتلر (Hitler)، فقد بدا أنّ مثل هذه المحاولة في فهم ما حصل لأوروبا لكي تندهور حضارتها وأخلاقها من مستوى عبقرية موزارت (نموذج الموسيقى) البراقة إلى مستوى الوحشية الهتلريّة هي أكثر أهميّة وشرعيّة من محاولة برنارد لويس في البحث السطحيّ المغرض في أنماط الحضارة

[١]- المقصود هو المؤلّف ذو العنوان «ما الذي حصل؟ الإسلام، الغرب والحداثة»:

Que s'est-il passé? L'Islam, L'Occident et la modernité. Paris, Gallimard, 2002.

وهو صدر أولاً بالإنكليزيّة بعنوان:

What Went Wrong? Western Impact and Middle Eastern Response.

الإسلامية. وعمد -وفي الفصل الرابع عينه- إلى استعراض القصور البالغ في الشروحات الموضحة لظهور النازية وطبيعتها.

وهكذا، يصبح من الممكن الدخول، في الفصل الخامس، في استكشاف معمق لصدام الرؤى، التي كان يُنظر من خلالها إلى العالم، والنظم الفلسفية التي مزقت أوروبا في القرن التاسع عشر. ولقد كان من شأن هذا الصدام أن هباً، ليس لانتصار الأيديولوجية النازية فقط، بل لتدمير الطوائف اليهودية الأوروبية أيضاً، ويعود هذا الصدام في جذوره إلى رفض عنيد لإرث عصر التنوير والمبادئ التي انبثقت من رحم الثورة الفرنسية.

كما يُظهر الفصل السادس من هذا المؤلف كيف أن الرسم الخيالي والأسطوري الذي عكس صورة اليهودي، قد حمل كل آفات أوروبا وشرورها؛ إذ أجمعت الأطياف السياسية من أقصى يسارها إلى أقصى يمينها، على النظر إليه بوصفه كبش الفداء والصحية القربانية المهيأة على الدوام للإهلاك، بغية تطهير أوروبا وتحريرها من الانحطاط المتربص بها؛ لذلك فإن إعادة قراءة تاريخ أوروبا هذه، تكشف بوضوح «حولية الإبادة اليهودية المعلنّة» التي تظهر في تجلياتها الفظة لدى قراءة كبار الفلاسفة وكتّاب الحداثة الأوروبية منذ القرن الثامن عشر.

هذا ما دفع الكاتب، في الفصل السابع من هذا المؤلف، إلى تقديم تقويم نقدي لاضطرابات العالم الراهن الذي ورثناه من تاريخ اصطخب بالتقلبات خلال القرنين المنصرمين، ومن الديناميات الأوروبية المختلفة التي طبعتهما والتي عمد إلى توصيفها على امتداد الفصول السابقة؛ وإذ حاول اجتناب الوقوع في شرك الخلاصات التوليفية والاختزالية الكبرى لهذا التاريخ التي عليها بُني مفهوم «الغرب»، أخضع هذه الاضطرابات للتحليل مستعيناً بمفاتيح فهم جديدة تسمح بتناول تاريخ أوروبا بشكل مختلف، وذلك عبر نظام إدراكي آخر لقراءة تاريخ أوروبا وعلاقتها بالعالم، يجعلها أكثر فائدة وغنى من تلك التي تقترحها المباحث الرائجة، والنقاشات الخطابية الكبرى التي تقدمها لنا وسائل الإعلام الغربية، وكذلك الخطب السياسية الجوفاء على بلاغتها التي ينطق بها صنّاع القرار في أوروبا.

وقد حاول في الفصل الثامن من الكتاب، رسم وتحديد الإشكالية التي يطرحها وجود أوروبا في العالم، والذي قد يمزقه الخضوع للقواعد والأصول كما لعقيدة الانتماء إلى الغرب أو الغربوية (occidentalisme). حيث باتت سطورة الولايات المتحدة الأميركية الثقافية، والسياسية، والعسكرية هي اليوم العنصر المحرّك من جهة، والتأكيد على الاستقلالية، بل الانعتاق من هذه العقيدة التي

كانت السبب وراء الكثير من الدمار والخراب، والعديد من التفجيرات العنيفة داخل أوروبا كما خارجها، من جهة أخرى. ولقد حاولت هنا توصيف الهوة المتفاقمة التي تباعد بين الخطاب المتباهي والخواوي لصنّاع القرار السياسي والنخب التي تدور في فلکهم، وبين واقع المشكلات التي تهزّ العالم وتستثير قلقه واهتياجه. وعلى الرغم من حيوية الفكر النقدي، المعنوي والأخلاقي والسياسي في أوروبا كما في الولايات المتحدة، يبدو عالم صنّاع القرار على ضفتي المحيط الأطلسي كأنه مصاب بالانطوائية وما يرافقها من وهن الفكر ومراوحته على نحو دائري مقفول على نفسه، مما يؤدي إلى هذا الخطاب الأجوف والهجاسي والتهجومي العدواني على السواء. زد على ذلك أنّ سلام العالم ما كان أبداً بهذه الهشاشة التي نراها ماثلة فيه اليوم.

وأخيراً، في خاتمة هذا المؤلّف، حاول المؤلّف تحيّل المخزون الهائل والمدهش من الطاقة الإبداعية الكامنة لإعادة إطلاق نهضة الثقافة والفكر في أوروبا، لو أنّها تخلّت عن الدوغمائية والتقليد المتحكّمة بالخطاب الغربيّ. وفي الخاتمة عينها، يشرح كيف حان الوقت لوضع حدّ لحرب الأفكار والمثّل والأوهام الطوباوية، وخاصّة عقيدة المحافظين الجدد السائدة والنيوليبرالية المسؤوليتين عن الأزمة الاقتصادية والمالية التي نتخبّط فيها، كذلك فإنني أحاول أن أظهر كيف لإزالة الحواجز التي تكبّل الفكر الأوروبيّ، ولانعتاقه من العقائد الجامدة، ولانفتاحه على الثقافات والفلسفات الأخرى في العالم، أن تُساهم إسهاماً كبيراً في بناء عالم أفضل أو، في أيّ حال، أكثر استقراراً وسكينة.

## تفصيل المحتوى

لقد عالج في الفصل الأوّل تحت عنوان: الوظائف العقائدية والأسطورية لمفهوم الغرب الموضوعات الآتية: في منابت الفكر الغربيّ، أركان العقيدة الغربية أو الآلة الصانعة للغيرية الجذرية، البيان الآريّ لإرنست رينان (Ernest Renan)، الحاجة إلى عدوّ مرعب لدوام حياة الأسطورة، «الأسطورة المؤدّجة» أو الحاجة إلى الجذور ونقاوة الأصول، بلورة الأفكار الطوباوية ونظم إدراك العالم المتناقضة، اعتراضات غربية على الخطاب الغربيّ، المعادلة الأسطورية: أوروبا = الحدّثة = الغرب = مستقبل العالم، الفكرة الأوروبية أسطورة أم واقع؟

وأما في الفصل الثاني، فقد تحدّث عن تحرير التاريخ الأوروبيّ من شوائبه؛ وبناء أسطورة الغربية، من خلال بيان: الوظيفة المولّدة لتاريخية مطلقة، دور أسطورة الحملات الصليبية في الذاكرة الأوروبية، «الالتباسات» الكائنة في مفهوم الحضارة في الثقافات الأوروبية، التناقضات

في اختيار اللحظات التأسيسية المختلفة، مثال ملفت عن تحرير التاريخ من شوائبه لدى فرنسوا غيزو (François Guizot)، الارتقاء بالقرون الوسطى المسيحية إلى مصاف الأسطورة التكوينية للغرب في فكر جاك لو غوف (J. Le Goff)، البحث عن «الأعجوبة» الغربية في اعتناق المسيحية أو في الارتداد عنها بشأن الحضارة الغربية، في منابت «الثورة» الغيلية إرث المسيحية المؤسسية المعقد، أسطورة الفردانية الأوروبية، عودة إلى عبقرية المسيحية، واقع تشرذم أوروبا والتنمية غير المتوازنة لدولها، تكون أعجوبة الحداثة الأوروبية استثناء في التاريخ البشري.

وفي الفصل الثالث بحث تحت عنوان: المورثات المعقدة لقوة أوروبا المستقبلية، الدور المنسي للمدن الإيطالية والباباوية، وولادة الرأسمالية الكبرى منذ القرن الثاني عشر، والميل إلى الاستكشاف وإقبال الكنيسة على تشجيعه، إخصاب الثقافات الأوروبية عبر تلاقحها بالثقافات الأخرى، والرؤى الجديدة في العالم في منابت الحداثة الأوروبية، وأسطورة «الثورة المزدوجة» العلمية والرأسمالية في أوروبا، وتعظيم وجه البورجوازي الرأسمالي وشيطنته، وأهميته تدفقات الهجرة الاغترابية في النجاح الاقتصادي، تمزقات التاريخ الأوروبي وأسطورة وحدة الغرب.

وقارن في الفصل الرابع بين موزارت إلى هتلر، فتركزت أبحاثه هنا حول: الموسيقى وجه أوروبا المعجيد المنسي، وأهميته الموسيقى المقدسة والأوبرا في عصر التنوير، وأوبرا «التاي المسحور» لموزارت قمة وجه أوروبا العظيم، من الناي المسحور إلى «هلاك فاست» الأبدى: الانقطاع، ونهاية الأعجوبة الموسيقية في أوروبا، وغموض الانقطاع النازي في تاريخ أوروبا، والتفسيرات المجتزأة والمقيدة للنازية، ضعف عملية وضع النازية في سياقها التاريخي، تبرير النازية بوصفها سداً في وجه الشيوعية والبلشفية، المراجعة الرؤيوية التحذيرية للذات لدى توماس مان، تحليل متبصر للعلاقات بين الليبرالية الاقتصادية والفاشية.

وركز في الفصل الخامس على صدام رؤى العالم في أوروبا، حيث تحدث عن غياب ألمانيا عن توسع أوروبا في العالم، والقرف من الحضارة «الغربية»، ومعادلة الانحطاط الحتمية بحسب سبنغلر، وكونية الإنسان أم خصوصية المجتمعات العضوية، والانجذاب نحو الفلسفة الألمانية والنجاح الصاعق لفكر نيتشه، والعودة المتكررة للسكولاسية في تكوين فلسفات القرن التاسع عشر وشروحاتها، وتصدير اضطرابات القرن الرومانسي إلى روسيا، أنصار البقاء على التراث السلافي (السلافيون) ضد أنصار التحديث على طريقة أوروبا الغربية (الغربيون)، دوستوفسكي وروح الشعوب، وحروب أهلية وحشية، تنامي النازية وتفجر عالمي.

وتحدّث في الفصل السادس عن يوميات أوروبية في الإبادة اليهودية المرتقبة، فعالج أزمة الأيديولوجيا الألمانية وتعميم الفكر المعادي للتنوير، واليهودية المعتبرة كمروّج للمادية الحديثة، والأنثروبولوجيا العنصرية تصطنع صورة سلبية حديثة لليهودية، بيئة تلهم تولّد العقيدة الصهيونية، وقوع الحداثة الأدبية في الشّواق إلى النظام القديم، اليهودي، كبش محرقة الأهواء الفلسفية والسياسية في القرن التاسع عشر، الرّهاب الذهانيّ الهدّيانيّ ضدّ اليهوديّ الكوزمبوليتانيّ وضدّ البلشفية، تدهور الفضاء الذهنيّ الأوروبيّ يجعل من نجاح هتلر أمراً ممكناً؛

وأما الفصل السابع فقد خصّصه للحديث عن عالم القرن الواحد والعشرين كما اصطنعه تاريخ أوروبا لناحية إخفاق أوروبا الديغولية، وصعود النيو- ليبرالية الأنكلو- سكسونية المظفّرة.

### بطاقة الكتاب

اسم الكتاب: تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب La construction d'une histoire

تأليف: الدكتور جورج قرم.

تعريب عن الفرنسية: د. رلى ذبيان

مراجعة وتدقيق: المؤلّف نفسه.

بيانات النشر: ط ١، دار الفارابي، بيروت، لبنان/ ٢٠١١م/ (٤٤٣ صفحة، حجم الصفحة ١٧-٢٤).

## الارهاب الغربي - روجيه غارودي

أمل ناصر ناصر [\*]

في تصور استراتيجي مبني على الماضي وحضاراته، وعلى انبعاث الحاضر في رؤية استشرافية، يقدم روجيه غارودي كتابه "الارهاب الغربي"؛ في دعوة للعودة إلى الله، والترفع على كل انتماء باستثناء الإنسانية، وفي مواجهة التغرب، والتشيؤ الذي فرضته الرأسمالية على الإنسان، وجذوره الأصيلية.

قدم روجيه غارودي كتابه الإرهاب الغربي - الصادر عن دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، وترجمه عن الفرنسية سلمان حرفوش - في سبعة فصول انطلاقاً من سرد تاريخي للغرب، مع تفصيلات في انبعاث الديانة المسيحية، وتحولاتها إلى ديانة بولس، وبعدها يتكلم على عصر النهضة الغربية، وتصويره بوحوش الغابة، ليتقل في الفصلين الآخرين للكلام على رؤية عميقة عن إمكانية العيش بطريقة مختلفة اعتماداً على الحضارات الشرقية القديمة من خلال عوالم الحكمة، وإعطائه تصوراً عن ضرورة قيام الدين الإسلامي متماسياً مع التحولات الحديثة في دراسة نقدية حديثة للقرآن، وبعدها يتكلم على نظام عالمي جديدة يواجه النظام الحالي الذي ترأسه أمريكا في رؤية اقتصادية جديدة، جيوبوليتيكا جديدة.

في ظلّ التّبعية المتزايدة للسياسة الأمريكية، اتّخذ المدلول العميق للاتّجاه الذي يشكّله القرن العشرون، وقبله التّاسع عشر مواجهة تقسيم جديد: إمّا عمالة، وإمّا مقاومة، ما أوجد استحالة الفصل بين النّضال الاجتماعيّ، والنّضال الوطنيّ في ظلّ الخضوع الكبير للمصالح الأجنبيّة في كلّ دول العالم ذات المشاريع الكبرى، والتي استثمرت رؤوس أموال طائلة، وارتبطت بالمقاومة الوطنيّة، والاجتماعيّة لمنع خضوع الاقتصاد لإرادة المحتل مع التّصدي الدائم للفوارق، واللامساواة. ولا يمكن لهذا النّضال الاستمرار إلّا بالوقوف في وجه المؤسّسات، والقوى الاقتصاديّة الأمريكيّة، التي

[\*]- باحثة في النقد الأدبي، طالبة دكتوراه، الجامعة اللبنانية.

تشكّل حجر الأساس للهيمنة الأمريكيّة على العالم، لتعطي شكل النّظام الاستعماريّ الجديد صفة العولمة الإمبرياليّة القائم على مركز وحيد للاحتكار، والتّفرد والقرار، ولأجل إعادة تفعيل المركز والقرار كان ١١ أيلول طريقاً للاستمرار نظام الغرب الرّأسمالي، الأمر الذي فاقم التّخلف بكلّ بقاع الأرض، حيث تموت الجموع الغفيرة تصديّاً لأيدولوجيا المهيمنين «عولمة الإمبرياليّة»، ومعهم هزيمة مؤقتة للأمل الكبير مصدرها خيانة فكر ماركس، الذين لم يفهموا أنّ الثّورة الحقيقيّة تحتاج إلى التّعالّي، وليس إلى الجبريّة.

خمسة قرون من الاستعمار الغربيّ، وخمسون عاماً من الهيمنة الإمبرياليّة الأمريكيّة بواسطة البورصة حاضنة الاحتكار، والعالم منكسر بين شمال وجنوب، وبين الذين يملكون، والذين لا يملكون، حيث نجحت أمريكا بتكديس نصف ثروة العالم على أطلال أوروبا النّازفة في ١٩٤٥.

يأتي التّعليل الأيدولوجيّ للهيمنات من خلال السّقطات المتعصّبة في الأديان، وتحالفها مع السّلطات ما بين الإسلام، وأمثال بولس (مؤسس لاهوت الهيمنة)، أوجد الطّغاة ليصبح الدّين المنحرف عن غاياته السّامية ظهيراً لهذه الفوضى الخلّاقة.

تأخذ الهيمنة الغربيّة متوسّمة العولمة الصّورة التّامة لسلوك الغربيّين لتثبيت هيمنتها بالقانون الإلهي للسّوق معلّلة ذلك باسم الحضارة التي شرّعت الحرق، واستعمار الشّعوب الأخرى، والتي ترتبط جذورها بأسطورة شعب الله المختار، وقد عمّد طريق رسالتها اليوم قادة الولايات المتّحدة الأمريكيّة للإمساك بزمام العالم في ما يسمى بالدّيانة الجديدة القائمة على ربوبيّة السّوق، التي ولّدت عالماً تحت الاستعمار الأمريكيّ، والأوروبيّ يعاني من الجوع والبطالة. وبما أنّ الوهم الغربيّ القائم على ادّعاء الامتياز العرقيّ، يزعم أنّ حضارته بحسب بول فاليري قامت على ثلاثة أعراف؛ الأخلاق المرتبط بالمسيحيّة الكاثوليكيّة، والقانون الممتدّ من القانون الرّومانيّ، والتّعليم المتجدّد من العرف اليونانيّ، وهكذا يزعم الغرب بفرادة هذا الجوهر، والمشكل تسمية الغرب، فإنّ غارودي يربط هذه التّسمية من بلاد الرّافدين في مصر وآسيا وأفريقيا، وأنّ هذه الحضارة المزعومة متعلّقة بأسطورة الفرادة العبريّة، والتّاريخ المزعوم للعبرانيّين وشرعة دولة إسرائيل، والذي لا يعدو كونه محض ميثولوجيا، وهو التّاريخ الذي يريد حاخامات دولة إسرائيل استخدامه لتعليل ملكيّة ما يعدّونه بلدهم الأصليّ، والذي وهب لهم بصكّ يحمل توقيع اسم الرّب، والأمر حقيقة أنّه لا يوجد وثيقة تاريخيّة تؤكّد ادّعاءاتهم، لكنّ ديانات الغرب المسيحيّة سعت إلى جعل تاريخ القبائل العبرانية تاريخاً عالمياً شاملاً، وعمل الكثير من المؤرخين على تثبيت صدق الرّواية التّوراتيّة،

لكن معظم المؤرخين لا يجدون في أي نص مصري، أدنى أثر عن الإقامة الطويلة للعبرانيين في بلاد الفراعنة، ولم يكن العبرانيون هم من ابتكر التوحيد في الهلال الخصيب ومصر، لكنهم كانوا يعدون أن إلههم هو الأقوى وضامن النصر، واستحوذ العرف الكهنوني العبراني على النضج المديد للتوحيد في بلاد الرافدين، وأعاد كتابة التاريخ بعقلية عرقية ضيقة جاعلاً بادئ ذي بدء من فلسطين مركز الخليقة «وأن أورشليم هو المكان الذي يختاره الرب ليقع اسمه فيه».

إن الديانات على امتداد تاريخ الغرب الكامل هي نظام اجتماعي على صورة النظام الكوني، وإن القوة، والسيطرة المهيمنتان في هذه العبادة المسيسة سواء تعلق الأمر بـ«يهوه» رب العساكر، الذي يعطي أمره بإبادة الشعوب المتمردة على الإيمان به، أو زيوس الذي يحرك الصاعقة لقتل كل من يفرض إرادته المطلقة.

الفكرة التوراتية التي تقوم على الوعد القديم، الذي وعد به الرب إبراهيم، يفضي بشرية الأمر الواقع للغزو الإسرائيلي لفلسطين، أو توسيع السيطرة الإسرائيلية في زمن حكم داوود. يعني أن الوعد أقحم في روايات الآباء كي يكون مدخلاً للعصر الذهبي الداوودي، والسليمانى، في حين أن حقيقة الوعد في ذلك الزمن كان مقصوداً به وعد استقرار حضري، ولم يكن هذا الوعد بهدف الاستيلاء السياسي، والعسكري على المنطقة، وفي الأصل إن الوعد الذي أعطي للآباء لم يصدر عن يهوه، وإنما صدر عن الرب أيل الكنعاني، فلم يكن لأحد آخر غير الرب المحلي، مالك الأرض، أن يهب لجماعات العدو بحق الاستقرار الحضري فوق أراضيهم، وإن جميع الأقوام حصلت على وعود مشابهة، لاحقاً أعادت بعض العشائر البدوية المتحضرة تجمّعها بالانضمام إلى قبائل أخرى لتشكيل شعب إسرائيل، واتخذت الوعود بُعداً جديداً. وكذلك يشهد البحث الأثري بل يكذب وجود أطلال تشهد بولادة عصر جديد من الحضارة في فلسطين لدى مجيء العبرانيين، ولا يوجد أي دليل مادي يثبت مجيء شعب جديد، وأن الجماعات الإسرائيلية التي توافدت كانت في جوهرها من البدو الرحل، واستعاروا تجهيزات من سبقهم في تلك المنطقة، وإن الثقافة الفلسطينية كانت ثقافة كنعانية بصورة جوهرية بحسب كاتلين كيفون، وهكذا تمكنت هذه الجماعات ومن خلال وعد يعتبرونه ذي قوة قاهرة أن تولد مفهوماً آخر للتاريخ صاغه حفظة الأعراف الذين يمجّدون انتصارات رب أقوى من أرباب الأحلاف القبليّة الأخرى، وهذه الانتصارات، وأعمال الإبادة على يد موسى ويوشع بن نون بحسب ما يزعمون، جعلت من بني إسرائيل الدولة الصهيونية التي تزعم أنها وريثته، لها شعب ليس كباقي الشعوب، وتقوم فكرة شعب الله المختار بشكل حتمي على رفض الآخر، وهذا ما يتبدى بشكل واضح وجلي إذ استطاعت إسرائيل باسم ذلك التفوق نتيجة

الاصطفاء الإلهي رفض كل قرارات الأمم المتحدة الإنسانية، وترفض مطالب السكّان المحليين الاسرائيليين لا وبل تقوم على التطهير العرقي.

لقد ترتّب على أسطورة شعب الله المختار نتائج تاريخية، فإنّ النصر الذي يمنحه إله يهوه لهذه القبائل، وجعلها شعب الله المختار، ملزماً إيّاها بإبادة جميع أولئك الذين لا يؤمنون معه، هذا التّصور «شعب الله المختار»، كان من أكثر التّصورات في التّاريخ دموية، والذي بدأ بأسطورة الفتوحات على يد يوشع، وباسم المبدأ نفسه «الإختيار الالهي» تمارس الولايات المتحدة سياسة الاستعمار بداية، ومن ثمّ الاخضاع الشّامل لقوانينها تحت ذريعة القدر السّاطع لـ «الشعب المختار الجديد»، وهذا ما بيّنته طريقة تعامل الإنكليز مع الهنود الحمر لدى وصولهم إلى البرّ الأمريكي؛ المستعمرون الذين أصبح أحفادهم من بعد مرور قرنين مؤسّسي الولايات المتحدة، عدّوا رحيلهم من إنكلترا خروجاً توراتياً جديداً، والقائمة على دعمهم بالإبادة المقدّسة التي قام بها يوشع، وأطلقوا على أمريكا أرض الميعاد كي يبنوا فيها مملكة الرّب، واستعانوا بالرّسالة الرّبانية لقتل الهنود، وسرقة أرضهم، من هنا كان خطاب جورج واشنطن الأب المؤسس عن اليد الخفية التي تدير شؤون البشر، ومن ذلك الوقت كانت ثوابت سياسة شعب الله المختار الرّب، والدولار هما حلمتا السّلطة، وأنّ هناك علاقة إلهية من وراء وجود الدّولة الجديدة، وهي الصّيغة نفسها لدى العبرانيين تعليلاً للاعتداءات الوحشية من قبل الولايات المتحدة؛ فإنّ الرئيسين جيفرسون، ونكسون يعدان أنّ الله يريد أن تتولّى أمريكا شؤون العالم.

في مقارنة تاريخية فإنّ الرّؤية الغربية للعالم تعود إلى ٣٠٠٠ سنة قبل المسيح، وإنّ قطعة الغرب مع مصادره الشّرقية ألحقت الظّالة بالانسان، ويظهر هذا التّضاد العنيف مع الرّؤية الشّرقية للعالم التي تجمع محبة الطّبيعة، والتّقوى حيال البشر، التي تنبذ الفردية الوهمية في محاولة للإنصهار مع الطّبيعة، والغرب الممتدّ خلف شواطئ الأورال يظهر استثناءً بائساً في الملحمة البشرية بسبب امتلاكه أسلحة ذات قوة تدميرية، لا تقارن أبداً بقوة التّدمير في الماضي، فكان عصر النّهضة الغربية عنده قائماً على استعباد العالم، والسّيطة عليه بخنق جميع ثقافات العالم؛ هذه النّهضة التي تشكّل أولوية الفرد، وانسجام المفهوم أحد ثوابت تصوراتها للعالم. هذا الغرب الذي استمرّ حتّى القرن الثّامن عشر متماهياً مع المسيحية، ولم يكن له تعريف ممكن غير ذلك، حين تماهى مع السّوق أي أنّه لا يمكن فصل تاريخ الغرب عن تاريخ الكنيسة.

هكذا تتبنّى الكنيسة تراث جميع أساطير التّوليفة العبرانية.

لقد تطعّمت العقلانيّة اليونانيّة الأسطوريّة لاحقاً في تعاليم بولس، وتعهّرت المسيحيّة بالفكر اليوناني، وأدخلوا الى الغرب مسيحيّة حرّقت تحريقاً كاملاً، وهذه المسيحيّة المؤسسيّة الّتي أعطت العالم المسيحيّ شكلاً من أشكال الأباطور قسطنطين حتّى يومنا هذا خرّبها، وأفسدها التّعليم اليونانيّ، والتّنظيم الرّومانيّ، خرّبها وأفسدها الغرب. ومنذ ولادة العالم المسيحيّ جُعّلت المعرفة اللّاتينيّة الحجر الأساس في ثقافة الإنسان الغربيّ، ولم يكن للرّومان سوى خصلتين: القوة العسكريّة وتنظيمهم البيروقراطي، فلماذا القول بتفوّق حضاريّ؟

إنّ الرّسالة الوحيدة ليسوع هي إرشاد النّاس للحياة الإنسانيّة بحقّ، أي الإلهيّة، لقد بين يسوع كيف تكون الإنسانيّة الكاملة، وكما كتب بونوفر فكون المرء مسيحياً لا يعني أن يكون متديّناً، بل يعني أن يكون إنساناً، ولقد بشرّ الفقراء بالنّبأ الطيّب، والدّعوة الّتي جاء بها يسوع لا لبس فيها.

إنّ هذا الاختيار التّفصيليّ للفقراء نادراً ما كان اختيار لاهوتيّات السيّطرة لدى القساوسة، وأسياد الأرض المرتبطين بدرجات متفاوتة بالسلّطات عندما لا يكونون شركاءها، وإنّ التّخليّ عن الأنا الصّغيرة هو شرط نشوء الوعي ويقظته، وهذا هو ثمن القيامة، وحقيقة الملكوت؛ فحقيقة الملكوت ذلك الملكوت الّذي لا يكون الدّخول إليه بالحرب الظّافرة كما هو الحال مع داوود، إنّما بالتّخليّ، والتّرفّع السّامي، وهكذا إنّ المسيحيّة الكاثوليكيّة الّتي تتبنّى الأساطير العبرانيّة لم تكن مسيحيّة حقيقيّة، بل تتبع الصّهيونيّة الّتي أتت بدين كاذب. وهذا ما عبّر عنه نيتشه في كتابه المسيح الدّجال، يقول عن يسوع الّذي يعبر عن إعجابه به حمل النّبأ الطيّب فهو إنجيليّ الحياة، وهو القطب المعارض للقدّيس بولس الانجيليّ الّذي حمل نبأ السّوء، وهذا ما يدخلنا إلى أنّ مسيح بولس ليس يسوع.

تلتزم الكنيسة بموقف غير واضح حيال مسألة حجّة التّسلسل الرّمنيّ للنصوص الدينيّة، فهي على حذر أن تقول للمؤمنين بأنّ بولس أسبق عهداً من الأناجيل الرّسميّة. ولقد عثروا في مصر العليا في ١٩٤٥ على مجموعة في ما يطلق عليه اسم «إنجيل توما» إذ إنّّه لا يروي حياة المسيح، وإنّما يقتطف أقواله لا غير، فتلك المجموعة دُفنت تحت الأرض عن طريق بعض التّلاميذ ولهذا نجت من تدمير المعلّمين الجدد.

إنّ التّعاليم الرّسميّة بأكملها كما قبلتها الكنيسة متأثرة تأثراً واسعاً إن لم تكن محكومة بشخصيّة وفكر بولس، فالنّبأ الطيّب في نظر بولس لا يتمثّل في حياة يسوع الّذي قطعت أقواله وأعماله كلّ صلة بالماضي، وبخاصّة باللّالهة أصحاب القدرة والبطش، وبالتّالي إن نكوص القدّيس بولس بسبب الرّؤيا على طريق دمشق، هذه الرّؤيا موصوفه وصفاً يختلف لديه ولدى تلامذته في تارة

«رؤية سماوية»، وطوراً «إعلان كشف»، وفي مرحلة ثالثة «لقاء إدراك»، يوضّح بولس لم يكن اللقاء مع يسوع، وإنما مع «Christ» (التّرجمة اليونانية «المسيح» في لغة العبرانيين)، وهو يضيف دائماً اسم Christ والتي هي صفة المسيح إلى اسم يسوع وهو اسم علم، ليبرهن على مصداقية صفته الرّسوليّة كأحد شهود يسوع.

لقد سعى بولس لتوفير استمرارية العهد القديم في العهد الجديد، وأعمال الرّسل توضيح بدون مواربة بأنّ بولس «يتكلّم ناموس موسى والأنبياء بأمر يسوع، وهكذا وبحسب رسائله تأكيد على مرجعية الكتب يشير إلى الهمّ الأكبر الذي يجعل بولس الحريص على إدراج يسوع ضمن العرف اليهودي المتوارث. وعلى هذا فلا تعود لحياة يسوع من قيمة، ولا موجب على الاطلاق للإشارة إليها. لقد ولدت السياسة البولسية من إرادة جعل داوود ملكاً بشهادة الله، وهذا ما رجعت إليه التّعالم الدينيّة لعام ١٩٩٢ وتبنّته حرفياً، وللعلم فربّ بولس، إله الكنيسة الرّومانية هو ما كان بحسب رأي دوستيوفيسكي «استمراراً للأمبراطورية الرّومانية الغربيّة».

إنّ الثغرة الهائلة التي فتحها يسوع في تاريخ البشر هو التّعالي ليس تعالي «العليّ الأعلى»، وإنما تعالي «الخفيض الأخفض»، وهذا التّعالي تحديداً ما جرى التّعظيم عليه، وقد تمّ الرّجوع بنكوص منهجيّ منظم إلى تصور الله الملك والملك الله.

إنّ يسوع الذي يجعل «الله المستتر» منظوراً لم يزعم أبداً بأنّه الرّب، وإنما رسول من كان يناديه الأب، أي الحبّ بلا حدود، ولم ينسب إلى نفسه أيّ معجزة، مكرراً إلى الذين ينسبون إليه القدرة السّحرية على المعجزة «إيمانك قد شفاك».

أعلن بيلاطس -بعد استجواب يسوع أنّه لا يجد علّة في هذا الانسان- لرؤساء الكهنة المتآمرين الذين راحو يردّون على بيلاطس «ليس لنا ملك إلاّ قيصر» محتقرين حتّى توراتهم الخاصّة التي لا تعترف بملك آخر لإسرائيل إلاّ الله بذاته، وهذا يبرهن على لامعقوليّة النّزعة اللّاساميّة في الكنيسة التي تتهم «اليهود» بأنهم «الشّعب القاتل لرّب»، في حين لا تقع مسؤوليّة موت يسوع إلاّ على محرّكي اللّعبة الرّواد الأوائل الممهّدين لصهاينة هذه الأيام لجمعيتهم AIPAC و LICR الذين لا يشكّلون من مجموعهم ١٠٪ من الطّائفة اليهوديّة الذين أحلّوا دولة إسرائيل محلّ ربّ إسرائيل، مؤسّسين لأسس اللّاساميّة الإجراميّة التي تخلط الشّعب اليهوديّ مع المافيا، والتي ما تزال تتلاعب به حتّى اليوم، وإنّ مذهب بولس يستخدم الألاعيب نفسها، وهذا ما حقّق له النجاح.

إنّ بولس وانسجماً منه في الوقت نفسه مع فكر اليهود، واليونان، أضفى على يسوع السّمات

التقليدية لقدامى الآلهة، وهذا التصحيح النكوصي أعاد يسوع إلى مستوى آلهة القبائل، محوًّا إيَّاه على هذه الصورة إلى ربِّ القوَّة، بينما كان يسوع رسولاً في المقام الأوَّل إلى الفقراء، وطلب من تلاميذه التَّخليَّ عن كلِّ شيءٍ.

الخلط بين تعليم يسوع، وتعليم القديس بولس أسس لاهوت التَّسلُّط ليدوم ٢٠ قرناً، وفق طرائق داوود، وكانت ولادة الديانة اليهودية المسيحية. ولم يقدِّم القديس بولس بإخفاء الصَّبغة اليهودية على المسيحية وحسب، بل ضمَّها إلى الهيلينية أيضاً.

لم يكن بولس منظماً موهوباً لا غير، فخلق كنائس في المراكز الكبرى للشرق الأدنى، وكان ذا ثقافة إغريقية، ويهودية في الوقت ذاته، وتمكَّن من نشر إنجيله، وليس إنجيل يسوع على امتداد كلِّ الشَّتات اليهوديِّ، ولغته المزدوجة مع الثقافة اليونانية-الرومانية قدَّر لها أن تكون من ثوابت الخطاب اللاحق للكنيسة الرِّسميَّة، وبعدها عرفت المسيحية المكتسبة حلَّة هليينية نجاحاً تعاضم حتَّى أصبحت معه قوَّة في الأمبراطورية الرومانية، وهكذا يكون بولس قد أنشأ يهودية إصلاحية ليس فيها أيُّ قطيعة مع الملحمة الأسطورية للشَّعب اليهوديِّ، لقد ابتداء كلُّ شيءٍ مع إنجيل بولس الذي استبعد كلَّ إنجيلٍ سواه، لقد كان الشَّاعل الأعظم لبولس إدراج يسوع ضمن العرف اليهوديِّ في عقيدة اليهود، يحمي الرِّبِّ المؤمنين وإن يسوع على صليبه كان معرض سخريَّة عندهم، وعدُّوا أنَّ تخليَّ الله عن يسوع يمثل في نظرهم أنَّه ليس المسيح، ولكن بولس ردَّ تلك الحجَّة، وجعلها عقيدة الفداء.

إنَّ الكنيسة اليهودية المسيحية التي نسب بولس إليها تراث «العهد القديم»، حملت الأساطير، وجميع المنظومات المتنوعة التي تألَّف منها الماضي الخياليِّ. بولس الذي أسس المسيحية الرِّسميَّة، ولاهوت السيِّطرة بدأت الكنيسة بعده بالانقسام، والسيِّطرة، وبدأت الكنيسة بالانقسام والتفكُّك، وكانت وحدة الكنيسة في مطلع القرن الرابع مهددة بتبشير قس من الاسكندرية «أريوس»، لقد أتلُفت الأرثوذكسية أعمال، وتألَّف أريوس لأنَّه كان يريد الحفاظ على وحدة الله تصدياً للميل السَّاعي أن يحلَّ محله يسوع إله، وبحسبه إنَّ يسوع فيض من الله، بشرُّ على صورة الله «صورته المثلى»، ونجح أريوس في تبشيريه حتَّى انقسمت جميع كنائس الشرق، فرأى قسطنطين أنَّ القوَّة السَّبيل الوحيد لفضِّ هذا النزاع، فكانت إدانة أريوس في مجمع نيقية عام ٣٢٥م، وأعلم الأمبراطور آباء المجمع أنَّ كلَّ من لا يقبل القرار النَّهائيِّ سوف يصرار إلى نفيه مباشرة، وكانت المشكلة في أساسها مشكلة سياسية، وانضباطاً، وليس مشكلة عقيدة، ففي نيقية كان لزاماً الخضوع لأوامر

الأمباطور إذ كان الأمر الهامُّ لخالص الأمباطور هو أن يصير يسوع إلهًا مثل باقي الآلهة.

لقد وضع مجمع نيقية المسكوني بصورة نهائية أسس الأرثوذكسية البولسية، وهكذا يؤسس النهج القسطنطيني حقبة جديدة في تاريخ الكنيسة، وهي الحقبة القسطنطينية، وأصبحت الكنيسة مؤسّسة من مؤسّسات الدولة. لقد ولد النهج القسطنطيني في نيقية، وجعل قسطنطين من رجال الدّين موظّفين في خدمة الدولة، وأصبحت الكنيسة في سدة الرّئاسة الأمباطورية، والمسيحية البولسية تحوّلت إلى الاضطهاد بعد أن كانت مضطهدة، وهكذا كانت نيقية ولادة لاهوت التسلط.

منذ ذلك النّاتج بدأ الفتح، مع ما رافقه من اضطهادات، ومن صنوف الفظائع، ولم يتمكّن هذا القمع من الوقوف الكامل لتيّار جماعة الطّبيعة الواحدة، وإنّ تأصل القول بالطّبيعة الواحدة في شبه الجزيرة العربيّة يفسّر بدون غرابة التحوّلات الكبرى باتجاه اعتناق الإسلام. اذ عدّ دانتلي في كتابه الجحيم أنّ الإسلام هرطقة مسيحية، ووضع محمّد بين الأنبياء المنشقّين في الجحيم.

إن هذه البولسية السّياسية الملائمة تمامًا للسلطات القائمة، وتحت أسماء متعددة أدّت بالكنيسة الشّرعية ممارسة سياسة استبدادية، وقمعية، وجهتها السّلطة المطلقة على صعيد عقائديّ، وصعيد الحياة الحصريّة للشّان الرّوحانيّ، والصّعيد السّياسي. هذا الادّعاء الثّيوقراطيّ كانت من نتائجه حماية أعظم الجرائم التي اقترفتها سادة السّياسة في الغرب من خلال السّكوت عنها، أو التواطؤ من طرف الكنيسة سواء الحروب الصّليبيّة على المسلمين، أو الأعمال الوحشيّة ضدّ البروتستانت، أو إبادة الهنود الحمر، أو تجارة السّود في أفريقيا، أو حتّى التّعامل مع الفاشيّة في القرن العشرين. لقد ظهر تيّار داخليّ في مواجهة النهج البولسيّ للكنيسة، وما كفّ عن إحياء أجيال من المسيحيّين لحقيقة يسوع تصدّيًا لروما وأخبارها، ورجال الدّين ذوي المراتب الرفيعة. هذه لاهوتيات التّحرّر المعقود عليها آمال كثيرة في عصرنا في أمريكا اللّاتينية وأفريقيا وآسيا، واجهت نضالًا مشتركًا بين الكنيسة وال CIA وهو نضال له دلالاته.

وهكذا يمكن القول أنّ واقع الحال في نيقية ليس قسطنطين هو الذي اعتنق المسيحية، وإنّما الكنيسة ذات المناصب هي التي اعتنقت الأمباطورية، وهكذا كانت الرّوح السّائدة في نيقية متناسبة مع النّظام الإمبراطوريّ في روما إبان حكم قسطنطين، وعدّت الكنيسة نفسها من بعد قسطنطين عندما سيطرت على الأمباطورية الرّومانية أنّها سيطرت على العالم قاطبة، وهي الوحيدة المؤهّلة لتنتقل إلى الجميع تصوّرها الأوحده عن الإيمان.

وشكّلت الكنيسة ومصادرها (اليهود - اليونان - الرّومان) الثّقافة الغربيّة التي أتت بما يُسمّى

بنهضة القرن الخامس عشر، أتت هذه النهضة بفضل طريق الحرير الذي حمل البوصلة، والملاحة، والبارود، والورق، والمطبعات، وهذا ولّد تنافسًا بين البشر في إطار السوق، وخلق أيديولوجيا أرست دعائم العلاقة بين البشر والطبيعة.

إنّ هذه العلاقة التي ميّزت عصر النهضة هي علاقة غالب بمغلوب، تأسست النهضة فوق علاقة الإنسان بنظائره، علاقة فردية بالمطلق، وإرادة تدفع إلى الرّبح والقوّة، وتمثّلت في الفتح للقارة الأمريكيّة، وعبور حدود العالم، وتدمير قارّات، وحضارات، وأنشأت هذه النهضة علاقة أخرى مع الله، وغدت الطبيعة تحت سيطرة التّقنيّة، وتمركزت العقلانيّة في إرادة الرّبح، والقوّة، وقد ولّد عصر النهضة ما يُسمّى المتلازمة المشتركة للرأسماليّة، والكولونياليّة؛ لقد ولّدت الرأسماليّة إنسانًا متعطّشًا لإرادة القوّة والرّبح، وجعلت الكولونياليّة من ذاك الإنسان متنكرًا لجميع الثقافات غير الغربيّة، وهكذا إنّ ما يطلق غالبًا في المجتمعات الغربيّة باسم التّطوّر محدّد بمعايير ضيقة أحاديّة الرّؤية محض اقتصاديّة بالفعاليّة التّقنيّة، وحتى التّخريبيّة، إنّها فعاليّة قائمة على القمع، والتّخريب، وولدت معها نظريّة التّطوّر، والتّخلف، وخلقت اختلالًا اقتصاديًا متعاضدًا بين الغرب، وباقي دول العالم، بعبارة أخرى التّطوّر والتّخلف عنصران من المنظومة نفسها؛ المنظومة الرأسماليّة، والتي قامت على إبادة الهنود الحمر، وتجارة العبيد، وإلغاء العبوديّة، وبداية الكولونياليّة، وتشكّل تطوّر شركات متعدّدة الجنسيّات، لقد أصبح كلّ ما يُطلق عليه اسم نهضة يرفض كلّ قيمة مطلقة، والنتيجة الحتميّة لذلك فديّة العالم، فالنهضة هي ولادة الوحوش الضّارية، وهي بتسمية أخرى إنّها اغتراب الإنسان.

إنّ زعم الغرب أنّه النّمط الأوحده للحدّثة، والتّقدّم قائم على احتقار الثقافات الأخرى، وتدميرها، وإنّ ما تسمّيه كتب التّاريخ المدرسية «الأزمة الحديثة» ليست سوى إنكارًا للوحدة الإنسانيّة والنيقيض لها.

إنّ الثقافة الغربيّة المسيطرة منذ خمسة قرون ظلّنا منها بأنّها الوحيدة المبدعة للقيم، وأنّها المركز الوحيد للمبادرة التّاريخيّة، تقوم بجوهرها على مسلّمات ثلاث للحدّثة: مسلّمه آدم سميث حول العلاقات مع باقي البشر، والتي تقول إنّ إنقاذ كلّ فرد مع مصلحته الشّخصيّة، فإنّه بذلك يُسهم في الرّفاه العامّ، ومسلّمه ديكرت في العلاقات مع الطبيعة، أن نجعل من أنفسنا أسياد الطبيعة، ومالكيها، وفي العلاقات مع المستقبل تتمثّل بمسلّمه فاوست الكاتب المسرحي الذي يقول: «بدماعك القادر، تحوّل الإنسان إلى إله المتحكّم بالعناصر جميعها، والمولى لها». قامت الحضارة الغربيّة على هذه

المسلّمات التي رآها البعض نهاية التاريخ، وعبرّت عن فلسفات ثلاثة: الفلسفة الإنكليزيّة من خلال مسلمة فاوست، والتي تدعو إلى تأليه الشوق الموحّد، والفلسفة الفرنسيّة المتمثّلة بفلسفة ديكارت، والتي تعطي الإنسان الحاسوب، والفلسفة الألمانيّة التي تضيفي إلى عالم اللامعنى الذي يأتي تنويجاً للأيدولوجيا الأوليغارشيّة الكولونياليّة، وتغطّي أيضاً جعل الإنسان سيّد ومالك الطّبيعة من خلال الامتداد، والحركة، وأوجد الحضارة التّقنيّة التي حصرت وظيفة العقل في صنع الآلة كوسيلة للقوّة والثّورة، وهكذا يستبعد كلُّ معنى للحياة وكلُّ غائية فيها، وأوصلت أيضاً إلى تصديق قدرته على تسيير شؤون العالم محلّ الله، هذه التّحوّلات التاريخيّة رفضت عزلة الأنسان عند فيخته، وفهم المحاولة لإيجاد التّركيب بين النّقيضين الشّامل، والفردية عند هيجل جعلهما آخر فرسان الفكر للتّخلّص من الماديّة، لنصل مع أوغست كونت إلى عالم بدون إنسان، وليوقّع على بيان وفاة الفلسفة التي كانت رسالتها البحث عن غايات تفكير الإنسان ونشاطه العملي، حيث كان شعاره نظام، وتقدّم. مع وضع الثّورة الفرنسيّة حدّاً للنّظام الإقطاعي، والثّيوقراطيّ ورسّخته في عصر العقل الصّناعي، بعدما تمحورت أفكاره حول العلم، والسّياسة، والدين، ومعه لا محلّ بعد اليوم إذن في تلك الفلسفة التّاريخيّة إلّا للاكتشاف الكميّ الحاضر تنبؤاً بالمستقبل، ليكون أوغست كونت أبا المذهب العلميّ الشّموليّ التّكنوقراطيّ، وصولاً إلى الإنسان الحاسوب الذي يؤمن بأنّ العلم يمكنه الإجابة على جميع الأسئلة. وعلى هذا فقد فقد استطاع كونت أن يكون في الوقت ذاته التّعبير المجيد عن ذروة فلسفة الوجود، وها قد بدأ الاختلاس الكبير إذ ٩٠٪ من ثروات العالم الماديّة على أيدي من كانوا لا يعيشون إلّا من أجل الذهب والقوّة، وهذا تحديداً ما يطلق عليه الغرب الأزمنة الحديثة؛ فالمؤرّخون مكلفون في تعليم أيديولوجيّتها للصّغار، ووسائل الإعلام مكلفة بالبالغين.

كان بالإمكان أن نعيش بصورة مغايرة إذ لا يفصل الإنسان عن الطّبيعة، ولا يفصل عن الله كي يصبح سيّداً مسيطراً، وهذه الطّريقة المغايرة هي نقيض المسلّمات الثلاث التي قامت عليها الحضارة الغربيّة، ويأتي هذا النمط المغاير من خلال الحضارة الشّرفيّة التي ترسى دعائمها على إعلاء القيمة الرّوحيّة عند الفرد، لقد قدّمت الهندوسيّة أوّل نمط في التّصوّف، أي تقدّم الفكر المنطلق ليس من إشراق يكتشف به إله منفصل عن الإنسان، ويدخل في علاقة معه، من خلال الأواصر والتّواحي، وإنّما من خلال وعي الإنسان في سبيل اكتشاف أعمق حقيقة له، في تماهيه مع المطلق بكليّته التي لا يحدّها حدٌّ، وبخلوده، وتعلّمنا الأوبانيشاد أنّها فلسفة أساس تمكّن لكل أنسان العثور عليها في أعماق نفسه، شرط ألاّ يفسد تفكيره بعقلانيّة تقلّص الفكر إلى مستوى الذّكاء لا غير، والحقيقة الواقعة إلى مستوى الوجود وحسب، لأنّ هذا يجرّ الإنسان داخل كون خانق،

ومحدود، وأمّا البوديّة فقد جاءت رد فعل على تحنّط البراهمانيّة التي راحت تزداد شكلاّ نبتتها، فهي ليست انقطاعاً عن الهندوسيّة، وإنّما إصلاح دينيٍّ وجهته الرجوع إلى نقاء البداية، مع الأخذ ببعض الفروق العميقة في الرّؤية إلى العالم، والحقبة الزمانيّة، والنّاس مع تعريف بوذا للدروب الثّمانيّة: الحكمة الصّالحة، الكلمة الصّالحة، العمل الصّالح، الحياة الصّالحة، الجهد الصّالح، الفكر الصّالح، والتركيز الصّالح. ويضمّ الشّرق دروب الحكمة اليوغا، والتي تعني اتّحاد الإنسان مع الله عندما لا نعود مرتبطين بمتطلّبات الحواس، ولا بالأعمال عندما نتخلّى عن كلّ مشروع يسعى إلى المنفعة الشّخصيّة نكون قد عبرنا درجات اليوغا. وفي الصّين إنّ التّأوية مثل الهندوسيّة تعني الانتقال من الذّات الفرديّة إلى الذّات الكونيّة، والتّأو هو قواعد التّناغم في أعماق الذّات الفرديّة بالخضوع الرّاضي للإيقاعات الكونيّة العميقة، وهو قانون الطّبيعة، والأخلاق معاً. والتّأو هو مصدر إلهام للعلوم الصّينيّة بما فيه من معنى التّرابط المتبادل الدّيالكتيكي بين الظّواهر، ولقد قامت السّياسة، والأخلاق في الصّين على دعائم هذه الفلسفة، فالحدس المركزي في التّأوية ينبع من رفض كلّ ثنائية لـ «أنا» معزولة عن بقية العالم، ولا وجود لكائنات حقيقيّة متميزة، وهذا ما يقع نقيض الحضارة الغربيّة بشكل تامّ. ويتأسّس الانتظام الكوني عند التّأوية على المبدئين الأساسيين للتّأو: الفراغ والديالكتيك، الين واليانغ، وهو الذي يحرك عمليّة الكون، وإنّ التّأو أكبر من الوجود، والقياس باعتباره نبع لا نهاية له من الممكنات، وقد فهم اليسوعيون هذا وهم أوّل من ترجم الإنجيل بحسب يوحنا إلى الصّينيّة.

تتمثّل المراكز الرّوحية الكبرى في آسيا في الهند والصّين بأنواع الإيمان المختلفة، لكن نبوة زرادشت في إيران تشكّل فرعاً أصيلاً من فروع الرّوحانيّة الشّرقية، ومع زرادشت جرى التّأكيد في الوقت نفسه على تعالي الله، وحلوله وهذه الرّؤية الجديدة لله أدت إلى رؤية جديدة للعالم. وأمّا في أفريقيا فحفظت لنا أمّ الأعراق، والبشر حتّى يومنا هذا، تلك العلاقة الحيّة بين الإنسان والعالم، وبين الإنسان وقومه، وبين الحقائق المرئيّة، والحقائق اللّامرئيّة، وبالتّأكيد لا توجد ثقافة إفريقيّة وحيدة، ولكن هناك وحدة عميقة تفرض نفسها حول المعنى الإفريقيّ للحياة بما يتجاوز ذلك جميع العروق والاختلافات. لم تكن تتبدّى تلك الرّوى المضيئة عن الله والإنسان إلّا في عيون الكتب المقدّسة لبلاد الهند، أو الصّين، أو في ومضات نيتشه، وتردّدت بأكثر الصّيغ تواضعاً، وأبلغها تأثيراً، وعلى لسان أكثر النّاس تواضعاً وتأثيراً، لذا انطلقاً من هذه الفلسفات كان بإمكاننا العيش بطريقة مختلفة، وكذلك يمكننا العيش بطريقة مختلفة.

في النّصف الثّاني من القرن العشرين أضحى رأس المال -الذي تمّ جمعه على امتداد خمسة قرون

من التسلط الكولونيالي - طفيلياً بالخالص، لأن المال لم يعد يستخدم في خلق منتجات مفيدة، وإنما في خلق المال، وكل هذا يسمونه تقدماً، وحرية، وديمقراطية حيث تدمرت الطبيعة، وانقسم العالم بين الذين يملكون، والذين لا يملكون، وفسح المجال أمام أقوى، وأقوى الديكتاتوريات للتهام الأضعف، وأضحى العولمة تقوم على الانقسام الحاد بين الشمال والجنوب، ولقد أطلق اسم تطوّر على النمو الاقتصادي الذي تزداد سرعة إنتاجيته، سواء كان مفيداً، أو غير مفيد كالسليح، والمخدرات حتى أصبح هذا العالم عالم الجوع، والبطالة، والإقصاء، وخلق ديانة جديدة اسمها «ربوبية السوق» التي تولد استقطاباً متعاضداً للثروة الاحتكارية على أيدي حفنة، مقابل بؤس الجموع الغفيرة.

كان القرن العشرين مقبرة الآمال، الآمال الميئة لأحلام الذين داستهم الاضطهادات الاجتماعية، والكولونيالية بعدما أفسد الاشتراكية الذين زعموا أنهم أنجزوا التاريخ، واستنسخوا أنماط التنمية من أعدائها، ومن باعوا أوطانهم، فكانت النتائج ربوبية السوق، والموت الإنسان، فكثرت العصابات، والمافيات، والعاطلون عن العمل في كل البلدان التي هي نتيجة الليبرالية الاستبدادية، وإحياء الرأسمالية. وفقد الأمل مع محاربة مع محاربة الكنيسة لحركات لاهوتيات التحرر في أمريكا اللاتينية بمباركة أوروبية، وأطلق اسم نشر الإنجيل في أمريكا على إبادة الهنود الحمر، وهكذا حققت أكثر الحركات الدينية، والقومية تعصباً انتصارها في نهاية القرن العشرين لأنها لحقت بعصب الكولونيالية التي سعت إلى فرض اقتصادها، وسياستها، وجيوشها، وديانتها، وثقافتها على العالم، وقيمت العالم إلى مصطفيين، ومنبوذين، وكل الحركات الدينية انحرفت عن مسار أساس دينها الأصيل؛ فالمسيح الذي اختار الفقراء، مرغته العصبية الاستبدادية للكنيسة، ورسالة القرآن العالمية انغلقت على تقاليد، وأعراف الشرق الأدنى، حتى انتهت بحركة طالبان، وحتى أمريكا اللاتينية أصبحت ضحية الولايات المتحدة الأمريكية، وأفريقيا تعيش تحت وطأة أكثر الديكتاتوريات دموية بمساعدة قدامى المستعمرين الذين انضمت إليهم الولايات المتحدة، وأسيا خربتها أوائل انفجارات الفقاعة الاحتكارية، وأولئك الذين اقترفوا جرائم بحق الإنسانية من هيروشيما حتى أندونيسيا، وصولاً إلى الفيليبين، وأوروبا المستزلمة هي أوروبا المسترخية، واليوم تصدر الولايات المتحدة بطالتها، وثقافتها المضادة عن طريق أفلام العنف، واحتكار الإعلام، وباسم حرية التجارة تستبعد كل منافسة بقوانين الحظر. وهكذا كانت كيفية القرن العشرين فهل من الممكن القفز فوق هذه التجربة نحو القرن الواحد والعشرين؟

سيكون القرن الواحد والعشرين مسرح أكثر الحروب الدينية حسماً، فمطلع القرن كانت الديانة السائدة في الغرب ربوبية السوق، وقد توافرت لهذه الربوبية وسائط الإعلام، والمخدرات. إن ٨٠٪

من مواردها هي من دول العالم الثالث، وتملك أمريكا ٥٠٪ من ثروة العالم، وكلُّ مساعدة تقدّمها لدول العالم الثالث هي مساعدة مشروطة بعدما هبّت بُعيد الحرب العالميّة الثّانية لرفع شارة النّصر، وأعطتها اتّفاقات بريتون وود صفة رسميّة لتوحيد سعر صرف الدّولار، وعدّه مكافئاً للذهب، ليصبح بذلك العملة الدّوليّة. وكذلك أحكمت قبضتها إقتصاديّاً على السّوق من خلال معاهدة مسترخيت التي جعلت أوروبا أمريكيّة، كذلك عسكريّاً من خلال حلف الشمال الأطلسيّ، وتقييد العالم بواسطة صندوق التّقد، هكذا أصبحت أوروبا مستزلمة وأصبحت أوروبا أمريكيّة.

إنّ تمجيد الفساد بواسطة الأوليغارشيّة المهيمنة، وانتهازيّة أرباب العمل، ورواج المخدّرات خدمة لربوبيّة السّوق، وتنفيذاً لليبراليّة الأمريكيّة حيث تلاشى معنى الحياة، بعدما احتلّ اقتصاد المخدّرات موقعاً استراتيجيّاً، وهذا ما تنتهجه السّياسة الأمريكيّة في العالم ككل، حيث استخدمت لعبة الموت ليس فقط عبر الوسائل السّياسيّة، والعسكريّة (صفر قتيل)، وإنّما من الوسائل الثّقافيّة عبر الأفلام الكرتونيّة مثل لعبة Pokémon، وهذا من شأنه التّأثير على الأطفال كثيرًا. من هنا نحن أمام مشروع منهجيّ يقوم على التّفسّخ الإنسانيّ، والرّوحيّ، وانحطاط في العادات، والتّقاليد، وعلى جميع المستويات.

هذه الولايات المتّحدة الأمريكيّة ذات العنف في السّياسة الخارجيّة والدّاخليّة، ولأجل مهمّتها للاستيلاء على ثروات الدّول أكثر، ستكون أكثر عنفًا في المرحلة القادمة. لكن بعد تدمير العراق، وأفغانستان لأجل مصالحها الحيويّة، وبعدها تضامنت مع التّطهير العرقيّ في كوسوفو، وتجاهلته في فلسطين لأجل مصالحها فقط يؤكّد أنّ حلمتا السّلطة في أمريكا هما الله والدّولار. لذا لأجل مواجهة هذه الحالة من الهيمنة، والاستبداد علينا أن نعيد إحياء فرصنا الضّائعة: عبقرية كارل ماركس، وإحياء الإسلام وانبعاثه.

قال ماركس في تنبؤاته التّاريخيّة إنّ النّظام الرّأسماليّ سيولّد ثروات عظيمة، لكنّه سيحدث بؤساً عظيماً، وذاك بتكديس الثّروة في قطب من المجتمع بين يدي حفنة قليلة العدد، مقابل إفقار الجموع الغفيرة في القطب الآخر، في حين آدم سميث قال إنّ الرّأسماليّة ستحقّق المصلحة العامّة، إذا ما لحق كلّ فرد مصلحته الشّخصية، وأثبت على الصّعيد العالميّ أنّ كارل ماركس كان محقّقاً لا آدم سميث. وأمّا ما أصاب الإسلام في الآفة التي أدخلته عصر الانحطاط عندما تحول العرف إلى فردانيّة من خلال التّوجه إلى تقليص مبادئ الإسلام، وعندما لم تعد الشّريعة مبدأ قانون عالميّ، إذ قلّصها المتزمتون للتّأويل الحرفي لعدد من الآيات، وكانت في أساسها حالات خاصّة، لذا يجب على الإسلام إذا أراد

مواكبة الحياة الاغتناء بأعمال التّفكير الانتقادي في تطور العلوم، وعليه الاعتراف من كبار مكتشفي الرُّوح، فإن الأمر المشترك بين الجميع هو الرّسالة الإلهيّة، وما أكثر ما يلحق بها من فساد، لكنّها دائماً تختصر في تعلّم غاية بالبساطة بوحدة الله، ووحدة الإنسانيّة. وهذا يعني على المسلمين واجب قراءة القرآن قراءة نقدية، أي نقد تاريخي لنزول الآيات وأسبابها، وكلُّ نهضة في الإسلام تكون سياسيّة، وروحيّة تتطلّب قراءة جديدة للقرآن لتخليصه من التّفسيّرات الميّتة والمميتة.

إنّ هذه الهيمنة الأمريكيّة على العالم، والانحطاط في الأديان كلّها، وانحرافها عن مسار رسالتها الحقيقيّ، هكذا سيطرت الحضارة الغربيّة بحسب ما أطلقوا عليها اسمها، وفرضت أمريكا هيمنتها، حدث شرخ في الجيوبوليتيكا مع ازدياد التّبعية الأوروبيّة لأمريكا، جرى استثناء لآسيا، ووجد كلام كبير عن هذا الاضطراب الحاصل، وهذا المنطق اللّإنسانيّ للنّظام الأمريكيّ، وكانت هذه المؤلّفات ليست سوى أمثلة قليلة عن الرّؤية الرّسميّة للعالم، والمفروضة من أسياد اللّعبة الأمريكيّان بحيث ما يشكل ثلاثة أرباع الجنس البشريّ ليست محسوبة على هذه المجموعة الدّوليّة، وهي كلمتها ليست مسموعة بل غدا القضاء عليها هدف الحضارة الغربيّة، وهو الحلف المتواطئ (الإسلاميّ الكونفشيوسيّ)، وعدت الحضارة الغربيّة أنّ إيران والصين هما العدو الأول كما توضّح في كتاب هنتينغتون صدام الحضارات.

إنّ مشكلة المركزيّة في هذا العصر ليست حول مستقبل الأمبراطوريّة الأمريكيّة، وأزلامها الأوروبيون فحسب، وإنّما يخصّ الأرض قاطبة، إذ تحتاج هذه الأرض إلى إعادة التّوازن لهذا العالم، ويقتضي تصحيح مسار ٥٠٠ عام من الاستعمار الذي بمصادرتة، وسرقاته، ومجازة، ولد التّقسيم الكبير الحاكم على نصف العالم بالجوع، وعلى باقي العالم بالبطالة، ومن هنا تنبع مهزلة الدّيون الذي يفرضون شروطاً سياسيّة لتسديدها إلى FMI صندوق النّقد الدّوليّ، أو البنك الدّوليّ، في حين أنّ أمريكا غير مجبرة على دفع ديونها، وبخاصة أنّها كانت سبباً في سرقة الذهب، والفضة من أمريكا اللّاتينيّة، وكذلك سرقة القطن الهنديّ، والمصريّ على أيدي الإنكليز، وغيرها في العالم كلّ، ولكن لا شيء يعيد التّوازن بعد هذا الخلل سوى المبادرات الاقتصاديّة والتي هي ليست مستحيلاً.

لأجل إقامة جيوبوليتيكا مختلفة في القرن الحادي والعشرين يجب تقديم اختبار حقيقيّ مختلف عن العولمة التي تمثّل أشدّ أنواع البطش الرّأسمالي وحشيّة، والمتمثّل بهيمنة الولايات المتحدّة الأمريكيّة، وإنّ مشاريع إيران والصين تمثّل اختباراً يصبّ في هذا المجال، وهذه المشاريع

ستنفذ لأجل إنقاذ مستقبل البشر، والكرة الأرضية، لكن هذه الدول تشكّل طفرات غير مألوفة، وتوازنات غير مستقرة باستثناء روسيا الشاسعة التي لا يمكن لإنسان اليوم أن يتنبأ بيقين راسخ بمستقبلها، لكن بإمكاننا أن نرسم فرضيات العمل في بلدان آسيوية هي اليوم في خضن التغيير، والتي كان الغرب طيلة قرون قد استولى على التحكم بمستقبلها.

تأخذ نقاط التوازن فعاليتها بإعادة تفعيل القيم الآسيوية الأساس، والأعراف البراهمية، وقيم الفروسية في اليابان، والحكمة البوذية، وأن تضمّ في الوقت نفسه القوى الجديدة للتقنية، والتحكم بها، ووضعها في خدمة جميع البشر.

إنّ النمط الغربي الذي يعطي للسوق الدور المنظم للعلاقات الشخصية، والاجتماعية وضع الهند تحت الهيمنة الاقتصادية، والسياسية بمجاعتها، وانقساماتها، وعرفت الفيتنام التصدير الفاضح للكولونيالية الفرنسية، وأما اليابان متميز إذ جرّبت الحفاظ على كنوزها الثلاثة: التوظيف أبد الحياة، وراتب الشيخوخة، ونقابة المشروع من خلال التطبيق الطّاحن للعقيدة الليبرالية، وهكذا يكون العامل قطعة يمكن رميها وإعادة شرائها بهشاشة.

سيظلّ للعالم منكسراً ما دامت مستمرة هذه المنظومة القائمة، فهي المسيطرة على السوق، إذن المطلوب لمحاربة ما يقومون به من تفتيت، وتفكيك، وذلك بالتسديد على قلب فعاليتهم الذي لا قلب له: السوق. والمطلوب من المثقفين تحليل تقنيات العبودية، وفضحها مهما كانت المخاطر المحققة، حتى إعلامية، وسياسية، وقضائية، وهذا الكفاح لا يمكن خوضه انطلاقاً من هدايات فردية، بل على المجتمع المدني أن يأخذ على عاتقه خلق سلطات مضادة في بلدان العالم الثالث، والتي عليها أن تأخذ بعين الاعتبار «جماعات الأساس» لاهوتيات التحرر في أمريكا اللاتينية، وهناك أمثال كثيرة قادرة على التغيير والفعالية، وهكذا انطلاقاً من مثل جماعات الأساس المؤسسة على أكثر الجوانب الإنسانية يمكننا بناء مستقبل ذي وجه إنساني ضمن وحدة الإيمان، وبما يتجاوز الحواجز المغلوطة بين الديانات والأحزاب، وهكذا يتشكل نسيج اجتماعي جديد على صورة إنسانية رغم التمزقات، والندوب في القرون السابقة، وهو أمر ليس بالسهل ولكن الشروع به.

وكذلك من المناسب رفض اليد من الإنشاء البالي المتحدث عن اليمين، وعن اليسار لأنّ هذا الكلام لم يعد يسمح بمحاربة العدو الرئيس، ولأنّ في هذا الإنشاء خضوع للأمريكيين ولسياستهم، أو مقاومة هذا التراجع الاجتماعي والثقافي.

هذه التحالفات الجديدة التي قد تحدث تغييرات مبشرة بالخير في التصويت لغير صالح معاهدة

مسترخيت، ويجب على المجهود الرئيس أن يكون مجهود توضيح نظري، كما يجب الشرح كيفية استطاعة السيطرة على الأحداث في السياق الدولي، وواحدًا من أساليب المواجهة في مواجهة كل عرف للثقافة الأوروبية.

عملت الحضارة الأوروبية على تخدير الذوق في جميع الميادين، وخلقت تربة خصبة للعنف، وللتردّي الأخلاقي، والتخبّط الثقافي للشباب واحدًا من أرباب تلك الفوضى الدولية الجديدة، وأصبحت الأرض أرض البطالة، والتفاوت، والإقصاء، واللامعنى في العلاقات الدولية، فإن كل كلمة ترفع شعار القطيعة مع تلك الفوضى يجب أن تشمل أيضًا القطيعة الثقافية. ويتطلب الأمر عدم الاستسلام للقبول الدماغوجي خوفًا من التعامل كسلفيين.

وتصديًا للسلفية الكولونيالية في الغرب، والتي تزعم امتلاك الحقيقة المطلقة، وتريد فرضها على العالمين، يجب التحرك ضد كل سلفية متشددة، لأن هذه الحركات المتشددة بقيت محصورة في الماضي، ولم تجد بديلًا منه، لذا إن الاختيار بين تقليد الغرب، أو تقليد الماضي كالاختيار بين طريقين مسدودين.

وهكذا لأجل تحقيق التوازن لا بد من إيجاد أسواق جديدة، يمكن لكل المشاريع الإنسانية أن يكون لها اليد العليا على الاستسلام لمزالتق، وانحرافات أيديولوجيا رأسمال، والقوانين الاقتصادية، وهذا مع تغيير مواقع الإنتاج، وهكذا على نظام قائم أن يعطي مبادرات تحمل اقتراحات، وحلولًا بديلة لتحقيق إعادة التأهيل على الصعيد العالمي، وبهذا تتبين وجوه الفوارق بين الرأسمالية، والاشتراكية، الرأسمالية تتمثل بتنحية كل سمة أخلاقية لصالح اللعبة العمياء السوق، في حين أن الاشتراكية تتطلب في خط الانطلاق اختيارًا أخلاقيًا. لذا تتطلب المعركة في سبيل المستقبل اقتصادًا جديدًا يضع الحد للقرصنة المالية الدولية، ويعمل على نقيض بروتون وود، ويجب أن تتم المعاملات الاقتصادية في البلدان بعملاتها المحلية، إضافة إلى إسقاط مديونية البلدان التي مستعمروها القدامى هم المديونون الحقيقيون اتجاهها، وكذلك أن تتمكن من الوصول إلى الهدف الأعظم، هو فرض ضريبة شديدة الوطأة على كل عملية مالية ذات طابع احتكاري بمعدلات باهظة بحيث يصبح من المستحيل عمليًا اللجوء إلى مثل تلك المضاربات. هذه الإجراءات الثلاثة تؤدي إلى إعادة صياغة العالم، خدمة للوحدة المتناغمة لهذا العالم، وهي نقيض الشكل الإمبريالي المتجانس للمنظومة، وفي هذه الإجراءات تكمن هزيمة العملاق الأمريكي ذي القدمين الفخاريين، هذا العملاق الأمريكي الذي ينظر إلى الدول التي تمارس الإرهاب دولًا ديمقراطية ما دامت السوق

الحرّة الممهّدة للغزو الاقتصاديّ الأمريكيّ لا تلاقي أيّ عوائق. ولا نكتفي بذلك بل يجب على الإعلام أن يسهم في هذا الدّول لأنّ واحدًا من أهداف الحضارة الغربيّة هي السّيّطرة المطلقة على الإعلام، والسّوق، والمناهج التّعليميّة إضافة إلى دور الجيوش، والآلة الحربيّة. لذا هنا علينا بلورة تعريف جديد للديمقراطيّة لأنّ الديمقراطيّة الأمريكيّة قائمة على أوليغارشيّة الرّق، واستعباد السّوق، وثقافة صفر قتيل، وهي للبيض وليس للسّود، هي ديمقراطيّة الموالين للهيمنة الأمريكيّة حتى لو مارسوا القتل والإرهاب. وهنا يطرح سؤال وجيه من هو الإنسان المقصود بالديمقراطيّة؟ لذا نحتاج إلى مشروع شرعة واجبات لكلّ إنسان لأنّ الإنسانيّة جماعة واحدة، وكذلك لأنّ الاقتصاد والسّيّاسة مهمّتها تنظيم العلاقات الاجتماعيّة على جميع المستويات، لذا هناك بذور أمل في إيجاد نظام عالميّ جديد يمنح قدرة الشّراء لجماهير العالم الثّالث، ويجد حلولاً للهجرة، والبطالة ويعيد التّوازن لكوكب الأرض.

إنّ مشروع «طريق حرير» جديدة، والجسر العابر للقارّات، هو أمل جديد يحقّق وحدة العالم بمشاركة جميع الشّعوب، وجميع الثّقافات، وهذا المشروع هائل لإعادة تأهيل الأرض، وبناء خاصرة جديدة قويّة، ومتينة، وعادلة، وهذا يمثل نهضة أسيويّة جديدة بين إيران، وروسيا، والصّين، وطريق الحرير، هذا وسيلة للتخلّص من الاستبداد الاقتصاديّ الذي تمارسه الولايات المتّحدة الأمريكيّة، والتي قامت على مصادمات العالم.

إنّ الحلّ الوحيد من خلال تطوّر تضامنيّ للاستعاضة عن العولمة الإمبرياليّة المجرمة بحقّ البشر، والثّقافات، وهو جسر حقيقيّ يربط ضفتيّ الجزيرة الأوروآسيويّة الكبرى، ويمهّد لإعادة تشكيل عالم موحد بتفرّعاته، وامتداداته من أفريقيا، وصولاً إلى موريتانيا للوصول إلى الشّبكات التّجاريّة الأمريكيّة، إضافة إلى المشاريع التي يمكن لروسيا أن تقوم بها مع الجسر الأوروآسيوي يشكّل البديل المتعارض مع العولمة، مع الأخذ بعين الاعتبار قدرة السّيّطرة على المياه، والمناخ بدراسات إقتصاديّة مؤثّرة وفعّالة، هناك ظاهرتان دوليتان الأوّل متعلّق بموقع إيران الجغرافيّ، والذي يمكنها من تبوؤ مركز اقتصاديّ أساس لأنّ المناطق المحيطة بها لا تملك منفذًا بحريًا باستثناء جورجيا، فهي مضطرة لاستخدام كلّ الطّرق الإيرانيّة، وأيضًا للصّين موقع جغرافيّ مفصليّ بسبب حدودها المشتركة مع آسيا الوسطى، وهذا يجعل الصّين، وإيران تملكان موقعًا جغرافيًا مفصليًا يمنحهما قوّة إقتصاديّة هائلة. ولا بدّ لهذا الموقع أن يتوّج بالربط الحديديّ الأوروآسيوي الذي يسهل نقل البضائع، والمبادلات التّجاريّة، وختامًا إنّ حضارة المداريات التي أسهمت الولايات المتّحدة في تدميرها، وسرقة مقدراتها سيسمح لها وفق هذا النظام الجديد بالتكلم وإثبات نفسها وستكون على رأسها البرازيل.

## قراءة في كتاب محمد والقرآن واليهود.. بوابة إلى الحقيقة

يمكن تقسيم المجهودات الاستشراقية اليهودية إلى ثلاث مراحل رئيسة، أولها: مرحلة «الاستشراق اليهودي»، والتي تبدأ بالتوجه نحو دراسة الإسلام، والمجتمعات الإسلامية كونها جزءاً من الحركة الاستشراقية في الغرب، والتي ظهرت مع بدايات القرن الـ ١٨ الميلادي؛ فقد احتل اليهود مكانة مرموقة داخل حركة الاستشراق الغربي-الأوروبي، وثانيها: مرحلة «الاستشراق الصهيوني»، والتي ارتبطت - بطبيعة الحال- بالحركة الصهيونية التي ظهرت في شرق أوروبا عام ١٨٨١؛ الأمر الذي ميّزه عن الاستشراق الغربي من حيث أن أصبح له أهدافه، وموضوعاته الخاصة الهادفة لخدمة الحركة الصهيونية، وتأسيس الوجود اليهودي في فلسطين من الناحيتين العلمية والتاريخية<sup>[١]</sup>.

أمّا المرحلة الثالثة والأخيرة فهي مرحلة «الاستشراق الإسرائيلي»، وتبدأ مع قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ بصفتها امتداداً لكل من «الاستشراق اليهودي»، و«الصهيوني»، وبالتالي فقد حملت سمات، وأهداف المرحلتين السابقتين نفسها، في الوقت نفسه الذي انفردت به بسمات، وأهداف خاصة بها، صبّت جميعها في خدمة الأهداف السياسية، والفكرية لإسرائيل<sup>[٢]</sup>.

ويعدُّ الكتاب المائل للعرض بعنوان «محمد والقرآن واليهود... بوابة إلى الحقيقة» باللُّغة العبرية لمؤلفه «نير تسوريف»، واحداً من أحدث، وأبرز المؤلفات الاستشراقية الإسرائيلية، التي صدرت مؤخراً، حول الإسلام، والقرآن الكريم، وما يتعلّق بهما، والذي يركز بالأساس حول تأثير القرآن الكريم على طبيعة تفكير المجتمعات الإسلامية، ونمط حياتها، وكذا رؤيتها لليهود، وتعاملها معهم، وما عدّه مؤلّف الكتاب مظاهر كراهيتهم من قبل المسلمين؛ إذ يركّز الكتاب بشكل أساس على موقف القرآن من بني إسرائيل، وكذا موقفه من القدس؛ فيرى مؤلّفه أنّ كتابه يقدم نظريّات

[١] محمد خليفة حسن: المدرسة اليهودية في الاستشراق، مجلة رسالة المشرق، الأعداد ٤-١، المجلد ١٢، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٦-٢١.  
[٢]- أحمد صلاح البهنسي، الاستشراق الإسرائيلي، الإشكالية، السمات، الأهداف، مجلة الدراسات الشرقية، العدد ٣٧، ٢٠٠٧، ص ٤٧٤.

جديدة تهدم ما زعم أنها الأساطير القرآنية حول القدس، ومكانتها في الإسلام.

يُجسد الكتاب الاهتمام الاستشراقي الإسرائيلي بالقرآن الكريم لا سيما ما يطرحه حول «القدس»، ومفهوم «الجهاد»، ورؤيته لبني إسرائيل، وهو الاهتمام الذي يمكن التّأصيل لتزايد في إسرائيل بأحداث الـ ١١ من سبتمبر، وما أعقبها من تزايد الفضول الشعبي العالمي، والإسرائيلي بالقرآن الكريم بشكل دفع الدوائر الاستشراقية الغربية بشكل عام، والإسرائيلية بشكل خاص لزيادة التركيز على القرآن الكريم، وعلومه، وتأثيره على عموم المسلمين، وهو ما تجسّد في تصريح أوري روبين صاحب أحدث ترجمة عبرية لمعاني القرآن الكريم بالقول إنَّ هدف ترجمته هو تقديم القرآن للقارئ الإسرائيلي البسيط، بهدف معرفة المفاهيم المحرّكة للشخص المسلم<sup>[١]</sup>.

وقبل الولوج إلى استعراض أهمّ محتويات، وأقسام الكتاب، وما تضمّنته من أفكار ورؤى مؤلّفه، نرى أنّه من الأهمية بما كان استعراض المعلومات البيلوغرافية المتاحة عن مؤلّفه، ودوافعه لتأليف هذا الكتاب، وإلقاء الضّوء على أبرز المناهج الاستشراقية المستخدمة به، وذلك على النحو الآتي:

### أولاً: مؤلّف الكتاب ودوافعه لتأليفه:

«نير تسوريف»، مؤلّف الكتاب هو مستشرق إسرائيلي حاصل على الماجستير (اللّقب الجامعي الثّاني) في تخصص اللّغة العربيّة من جامعة «بار ايلان» الإسرائيلية، والليسانس (اللّقب الجامعي الأوّل) في اللّغة العربيّة، وتاريخ الشّرق الأوسط من جامعة «حيفا» الإسرائيليّة. علاوة على ذلك فإنّه مُقدّم (احتياط) بالجيش الإسرائيلي، وخدم في الوحدة ٨٢٠٠ الاستخباراتية الإسرائيليّة تحديداً<sup>[٢]</sup>، وهي الوحدة المسؤولة عن التّجسس الالكتروني بالاستخبارات العسكرية الإسرائيليّة «أمان»، كما أنّها الوحدة المسؤولة عن قيادة الحرب الالكترونيّة بالجيش الإسرائيلي<sup>[٣]</sup>.

كما خدم «تسوريف» في إطار عمله العسكري بالإدارة المدنيّة للجيش الإسرائيلي بمنطقة نابلس الفلسطينيّة بالضّفة الغربيّة، وعمل كذلك في مكتب منسّق عمليّات الجيش الإسرائيلي بالضّفة

[١]- مقابلة إذاعية مع «أوري روبين» حول ترجمته لمعاني القرآن الكريم، بتاريخ ٢٠٠٤/٩/٣، نقلا عن:

<http://www.urirubin.com/Interviews.html> .

[٢]- يمكنك العودة للموقع الالكتروني <https://www.netbook.co.il/Book.aspx?id=13974>

[٣]- للاستزادة حول هذه الوحدة الاستخباراتية الإسرائيلية وأنشطتها وطبيعة عملها يمكنك زيارة الرابط

<https://www.aljazeera.net/news/pages/673dd7bd-b3184294--b5407-b217d7397e0>

الغربيّة، كما عمل في الوحدة العسكريّة المختصّة بالإعلام العربي. وكان له كذلك نشاطٌ صحافيٌّ، فقد عمل مراسلاً للشؤون العربيّة بصحيفة «ماكور ريشون» الإسرائيليّة ذات التوجّهات اليمينيّة<sup>[١]</sup>.

علاوة على الكتاب المائل للعرض؛ فإنّ مؤلّفات «تسوريف» تعدُّ قليلة، وأبرزها كتاب «اشتقاق وتحديث المفردات والمصطلحات اللُّغوية في لغة الصّحافة العربيّة»، والذي صدر في إسرائيل عام ٢٠٢١، ويقع في ٤٣١ صفحة، ويتمحور حول تحليل لغة الإعلام العربي وتوجّهاته، ومدى تأثير تطوّر هذه اللُّغة على الجمهور العربي العامّ لا سيّما ما يتعلّق بهذا التأثير على القضايا السياسيّة، والاجتماعيّة، والدينيّة المختلفة<sup>[٢]</sup>.

بالنسبة للدّوافع التي تقف وراء تأليف «تسوريف» للكتاب المائل للعرض النّقدي، فقد صرّح في حوار خاص أجرته معه صحيفة «يديعوت أحرونوت» الإسرائيليّة بتاريخ ٢٤ فبراير ٢٠٢١ حول الكتاب، إنّهُ هدف إلى معرفة عقليّة، وثقافة المجتمعات العربيّة، ومعرفة طرق التّعامل معها، ومعرفة الإسلام، وأضاف أنّ ذلك كلّهُ يستلزم المعرفة القويّة للقرآن، وآياته بعدّه الكتاب المركزي، والأهمّ في الإسلام، وأكد أنّ الفهم العميق لآياته تكشف الطّبائع المميّزة للمجتمع العربي- الإسلامي، والأسس المركزيّة المؤثّرة على طبائع سلوكيّاته، وأنماط تفكيره<sup>[٣]</sup>.

ولفت «تسوريف» في هذا الحوار إلى أنّ إسرائيل هي جزيرة صغيرة محاطة ببحر عربي إسلامي، وبالتالي فإنّ فهم ما هو مكتوب في القرآن أمر ضروري لفهم جذور الصّراع الإسرائيلي- العربي، لا سيما وأنّ القرآن هو قناة مهمّة لفهم العقليّة العربيّة، وثقافتها، وكذا الدّين الإسلامي، وفهم عدد من الأفكار الإسلاميّة المهمّة، وعلى رأسها فكرة «تقديس الموت»<sup>[٤]</sup>.

وعن أسلوب كتابته «تسوريف» في الكتاب فيشار إلى أنّه «أسلوب إعلامي / صحفي» أكثر منه «علمي / أكاديمي»، وهو ما يرجع بطبيعة الحال إلى تخصّصه الوظيفي في أجهزة الاستخبارات الإسرائيليّة؛ إذ كان مكلفاً بمراقبة، وتحليل، وسائل الإعلام العربيّة، كما أنّ ذلك يحيلنا إلى ظاهرة لافتة من ظواهر الاستشراق الإسرائيلي، وهي أنّ كثيراً من المستشرقين الإسرائيليين المعاصرين حتّى

[١]- يمكنك العودة للموقع الإلكتروني <https://www.netbook.co.il/Book.aspx?id=13974>

[٢]- يمكنك العودة للرابط الإلكتروني [https://www.nli.org.il/he/books/NNL\\_ALEPH997010396322305171/NLI](https://www.nli.org.il/he/books/NNL_ALEPH997010396322305171/NLI)

[٣]- أنظر الحوار كاملاً على الرابط [https://jerusalem.mynet.co.il/food\\_leisure/article/rkMtRFQM00](https://jerusalem.mynet.co.il/food_leisure/article/rkMtRFQM00)

[٤]- المرجع نفسه.

لو كانوا أكاديميين يكتبون بشكل دوري في وسائل الإعلام الإسرائيلية، ومن أمثلتهم البروفيسور ايال زيسر، أستاذ دراسات الشرق الأوسط وبلاد الشام بجامعة تل أبيب، والذي له مقال أسبوعي في صحيفة «يسرائيل هايوم» الإسرائيلية ذات التوجه اليميني.

يُلاحظ كذلك استخدام «تسوريف» في الكتاب كمًّا معلوماتياً أرشيفياً كبيراً من الصحف العربية تعود إلى فترة الثمانينات حتى عامي ٢٠١٠-٢٠١٢، ولا شك أن هذا الكمّ المعلوماتي قام بتجميعه، وتحليله من خلال عمله الاستخباراتي المتمثل في جمع المعلومات عن الإعلام العربي، وتحليلها. يتضح أيضاً من تحليل البيانات المتوفرة عن مؤلف الكتاب جمعه بين الصفة العلمية المتخصصة في الدراسات العربية، والإسلامية، وبين تخصصه الوظيفي، أو العملي في الأجهزة الاستخباراتية، والعسكريّة الإسرائيليّة المعنيّة بدراسة الشؤون العربيّة والإسلاميّة، وهي صفة تسم عدداً ملحوظاً من المستشرقين الإسرائيليين، والذين لا تتوفر بهم الصفة الأكاديمية وحسب، بل يكونوا عسكريين، أو على ارتباط وثيق بأجهزة أمنية، واستخباراتية إسرائيلية، أو يكونوا أعضاء بها، أو على الأقلّ يقدمون خدمات علمية، ومعلوماتية بشكل مباشر لهذه المؤسسات والجهات.

يُشار كذلك إلى أن التكوين العلمي، والمهني لمؤلف الكتاب المائل للعرض، ما هو إلاّ نتاج آلية إسرائيلية متكاملة هدفت إلى إعداد متخصصين في الشؤون العربية، والإسلامية، والشرقية بشكل يخدم منظومة اتّخاذ، ودعم القرار في إسرائيل، وإدارة الصراع العربي- الإسرائيلي، وهو ما انعكس كذلك من خلال محتويات الكتاب التي قدّمت كمًّا معلوماتياً مشفوعاً بتحليل لعدد كبير من المفاهيم، والرؤى، والأفكار التي تعدّ مفصليّة في تكوين الشخصية العربية والإسلامية، بشكل يمكن القول معه إن الاستشراق الإسرائيلي هو الجناح العلمي لدوائر صنع القرار في إسرائيل، وكذا الدوائر الاستخباراتية، والعسكريّة بها، فلا عجب أن يُنظر للمجهودات الاستشراقية داخل إسرائيل على أنّها مجهودات ذات «بُعد قومي أمني استراتيجي».

استخدم «تسوريف» في كتابه منهجين أساسيين من بين المناهج الاستشراقية العامة، أولهما هو «المنهج الإسقاطي» والذي يقوم بإسقاط الواقع المعيش على الحوادث، والوقائع التاريخية، وبرز استخدام «تسوريف» له من خلال استخدامه للفظّة، أو مصطلح «الجهاد» تحديداً من بين

الكثير من الأمور الأخرى التي استخدمها للإسقاط؛ فقد حاول استخدام هذا المنهج لإسقاط معانٍ، ورؤى سياسية، وفكرية معينة من خلال هذا المصطلح بمحاولة ربطه بمعاني القتل، وسفك الدماء، والحرب دون غيرها من المعاني الأخرى التي ينطوي عليها هذا المصطلح، بل إنه ربط بين هذا المصطلح، ومصطلحات أخرى تهدف جميعها إلى خدمة أيديولوجيته الاستشراقية الإسرائيلية؛ فقد ربطه كذلك بمصطلح «الاحتلالات الإسلامية»، والتي قصد بها تحديداً «الفتح الإسلامي للقدس»؛ إذ عدّه احتلالاً رغم أنه لم يرد به أي أمر قرآني، وكذا ربطه بمصطلح «الشهيد» الذي حسبه تجسيداً حياً لدور الدين الإسلامي في نشر الإرهاب.

كما استخدم «تسوريف» منهج التأثير والتأثر، الذي يقوم على محاولة تفرغ الظاهرة الفكرية من مضمونها محاولاً ردها إلى عناصر خارجية في بيئات ثقافية أخرى، بدون وضع أي منطق سابق لمفهوم الأثر والتأثر، بل إصدار هذا الحكم دائماً لمجرد وجود اتصال بين بيئتين، أو ثقافتين، وظهور تشابه بينهما، مع أن هذا التشابه قد يكون كاذباً، وقد يكون حقيقياً، وقد يكون لفظياً، وقد يكون معنوياً<sup>[١]</sup>.

بالنسبة لاستخدام «تسوريف» لهذا المنهج فقد تجلّى في العديد من المواضع، لعلّ أبرزها عدّه أنّ القرآن الكريم بل الدين الإسلامي هو اقتباس مشوّه من اليهودية، وكتبها المقدّسة وبخاصة المقرأ، أو العهد القديم، ليكرر بذلك تلك الشبهة القديمة/ الحديثة التي لطالما ألصقتها المستشرقون لا سيّما اليهود منهم بالقرآن، وبالدين الإسلامي، وتبرز معه -في الوقت ذاته- سمة مهمة من سمات الاستشراق الإسرائيلي، وهي «الامتداد والتكرار»؛ بمعنى أنه امتداد للاستشراق الغربي الأوروبي؛ إذ نشأ في رحمته، وتبنّى موضوعاته، وكرّر شبهاته، وافترائه نفسها حول الإسلام، ومصادره الرئيسية، وفي مقدّماتها القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف.

## ثانياً: محتويات الكتاب وأهم أقسامه

ينقسم الكتاب إلى ثمانية أجزاء موزعة على ٤٠ فصلاً، وعناوين هذه الأجزاء كالآتي:

١. محمّد والقرآن والقبائل العربية عبدة الأصنام

[١]- حسن حنفي، المرجع السابق، ص ٧٨.

٢. محمد والقرآن والعلاقة مع اليهود

٣. فرائض الجهاد بالقرآن

٤. الظواهر الاجتماعية - الثقافية بالمجتمع العربي

٥. كراهية اليهود والصهيونية وإسرائيل بالإعلام العربي - الفلسطيني

٦. جذور الصراع بين إسرائيل والعرب والفلسطينيين

٧. هل السلام ممكن مع العرب والفلسطينيين وبأي شروط؟

٨. دعوات ومطالب بالعالم العربي لإصلاح الدين الإسلامي

مع ذلك، يمكن تقسيم الكتاب - بشكل عام - إلى ثلاثة أجزاء رئيسية، الجزء الأول يمكن وصفه بالـ «تعريفي»، أو «التمهيدي» نظراً لأنه يمهّد للأفكار، والموضوعات التي ستطرح في بقية أجزاء الكتاب؛ فيركّز على وصف، وتعريف بأسس الدين الإسلامي لا سيّما القرآن الكريم من حيث مكوناته، ومكانته لدى عموم المسلمين، وأهميته لديهم، ومدى قوّته، وتأثيره عليهم من حيث الأفكار، وكذا السلوك الاجتماعي علاوة على التأثير في نمط الحياة الثقافية والممارسة الدينية والمجتمعية.

علاوة على تقديم هذا الجزء من الكتاب كمّاً معلوماتياً كبيراً عن الإسلام، والقرآن الكريم، فإنّه يبدو فيه الحرص الشديد على تقديم القرآن على أنّه مجرد اقتباسات من التّوراة، ويلفت في هذا الصّدّد بشكل عامّ إلى ما حسبه تأثّر قصص القرآن الكريم تحديداً بالقصص التّوراتي لا سيّما المتعلّق بالأنبياء، والشخصيات الدينية مثل موسى، وإبراهيم، ويوسف، ويعقوب عليهم السّلام، وكذا قصتي أصحاب الكهف، وأصحاب الأخدود.

يهدف هذا الجزء من الكتاب إلى فهم، ومعرفة جذور، وخلفيات الظواهر التي تميّز المجتمعات العربية، والتي يرى الكتاب أنّ أهمّها الكذب، والمغالاة، وغياب الفكر التّقدي، وعدم الاستعداد للتّوافق علاوة على اتّهام الآخر، وهو ما يوضح تمهيد هذا الجزء لفكرة ترد فيما بعد حول الإسلام مع العرب، والفلسطينيين، ومدى جدوى السّلام معهم، وكذا تأثير القرآن على المواقف السّياسية

للعرب، والفلسطينيين اتّجاه إسرائيل واليهود.

كما ركّز هذا الجزء على شخصية النبي محمد عليه الصّلاة والسّلام محاولاً تقديم بيلوغرافيا مختصرة عنه؛ إذ يورد أنه ولد عام ٥٧٠ للميلاد، وتوفي عام ٦٣٢ للميلاد، وأنه سليل قبيلة بني هاشم بمدينة مكة بالسّعودية، وينتمي إلى عائلة من وسط اجتماعي متوسّط، وفقد أمه في سنّ صغيرة، وتربّى لدى عمّه أبو طالب، ولفت إلى أن زواجه في سنّ الـ ٢٥ من خديجة سيّدة الأعمال، والتّجارة البالغة من العمر ٤٠ عاماً خدمه في بداية دعوته بصفته نبياً، ووفّر له دعماً أمنياً، واقتصادياً مهماً.

علّق «تسوريف» كذلك على الآيات ٢-١٢ من سورة النّجم «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ». وحسب أنّها انعكاس للجدل الدّيني الذي دار بين محمد، ومعارضيه لا سيّما اليهود، والنّصارى منهم في بداية دعوته بمكة، مؤكّداً أن ما ورد في هذه الآيات حول أن ما ينطق به محمد هو وحى يوحى يعدّ أساساً مركزياً من أسس الإسلام.

قسّم «تسوريف» دعوة محمد صلى الله عليه وسلم إلى فترتين أساسيتين، الأولى: في مكة التي توجّه فيها إلى العرب من عبدة الأصنام، ووصف لهم بعض المفاهيم الدّينية الأساس: مثل قدرة الله على خلق العالم في ستّة أيّام، ويوم القيامة، والعقاب الذي تعرّض له الغابرين من الأمم الدّين عصوا الإله. أمّا الفترة الثّانية فهي بعد الهجرة عام ٦٢٢م، والتي برز فيها اضطراب محمد إلى أن يستلّ سيفه ضدّ معارضيّه العرب الدّين حاربوه، وسخروا منه، وأرادوا إخضاعه.

يلحظ كذلك تركيز هذا الجزء على علاقة النبي محمد صلى الله عليه وسلم باليهود، وكذا رؤية القرآن الكريم لهم؛ إذ تعمّد مؤلّفه تكرار الرّؤى الاستشراقية القائلة بوجود عداء غير مبرر من جانب النبي الأكرم، والقرآن الكريم اتّجاه بني إسرائيل، وأنّه يأتي في سياق الكراهية القويّة من جانب دين الإسلام اتّجاه أبناء الدّيانات الأخرى عامّة، وبرز في هذا الجزء كذلك تكرار ما بات شائعاً في الآونة الأخيرة بالأوساط العلميّة، والإعلاميّة الإسرائيليّة من أنّ القرآن الكريم به اعتراف بحقّ اليهود في القدس، ومنطقة الحرم القدسي الشريف.

استعرض الكتاب في هذا الصدد كذلك ما عدّها محاولة محمّد محو الهويّة اليهوديّة القوميّة والدّينيّة، لاقناع اليهود بقبول دينه، ونبوّته، والاعتراف بالقرآن بدلاً من التّوراة. كما لم يفت مؤلّف الكتاب التّركيز في هذا الجزء على الجهاد تحديداً من بين الفرائض الإسلاميّة الواردة في القرآن الكريم، وبطبيعة الحال، ضرب به المثل على ظواهر العنف، والتّطرّف التي رأى أنّها باتت منتشرة في المجتمعات العربيّة، وما يتعلّق بذلك من مشاهد باتت منتشرة بها مثل قطع الرّؤوس، حاسباً أنّ هذا المشهد هو محاكاة لما كان يقوم به النّبي محمّد، وأنّ هذا ما مهّد الطّريق فيما بعد لما وصفه مؤلّف الكتاب بـ«الإرهاب الإسلامي العالمي»، بل ربط هذا المصطلح بمصطلح الفتوحات الإسلاميّة التي عدّها احتلالات إسلاميّة.

يرتبط هذا الجزء كذلك بما أبرزه الكتاب من دعوات إعلاميّة، وفكريّة بالعالمين العربي، والإسلامي لما سمّاه بإصلاح الدّين الإسلامي وفق قيم، ومعايير الحداثة، والتّطور؛ إذ استعرض الكتاب أفكاراً، ورؤى مفكّرين، ومثقفين مسلمين لإصلاح عدد من الأفكار، والرّؤى الإسلاميّة التي قادت وفقاً لوجهة نظرهم إلى العنف، وسفك الدّماء في المجتمعين العربي- والإسلامي، ما دفعهم لإطلاق دعوتهم إلى إصلاح شامل بالإسلام يشمل التّعليم، ومراقبة الوعّاظ، ومضمون ما يتمّ تقديمه بالمساجد.

أمّا الجزء الثّاني من الكتاب فهو يطبّق ما طرحه في الجزء الأوّل على الواقعين الاجتماعي، والثّقافي في المجتمعات العربيّة والإسلاميّة، لا سيّما تأثير القرآن الكريم، وعدد من مفاهيمه، ورؤاه لا سيّما المتعلّقة بموضوعات سياسيّة معاصرة على سلوك العرب، والمسلمين الاجتماعي، وكذا على تصوّراتهم الثّقافيّة، بخاصّة ما يتعلّق بذلك من كراهيّة المسلمين، والعرب لإسرائيل، والصّهيونيّة، وانعكاس ذلك في وسائل إعلامهم المختلفة.

يستعرض هذا الجزء من الكتاب الظّاهرة المسمّاة بـ«معاداة السّاميّة» في الإعلام العربي عامّة، والفلسطيني خاصّة، والأفكار الرّئيسة الشّائعة بهذه الظّاهرة مثل الثّار، والرّموز النّازيّة، وبروتوكولات حكماء صهيون، وكراهيّة إسرائيل، والصّهيونيّة، ونزع الشّرعية عن إسرائيل، ونبذها، ورفض وجود إسرائيل دولة قوميّة للشّعب اليهودي، ورفض وجود الشّعب اليهودي على أرض إسرائيل، والقدس، وانكار الهولوكوست.

يربط «تسوريف» في هذا الجزء بين ظاهرة المعاداة للسامية، وبين موقف القرآن من اليهود، أو بني إسرائيل، فيشير إلى أنه رغم وجود سلسلة طويلة بالتّوراة تؤكّد أنّ اليهود هم شعب الخلاص الذين اختارهم الربّ من بين كلّ الشعوب إلّا أنّ القرآن ينكر ذلك، رغم اعتراف القرآن بمعجزات الإله لموسى، وبالمعجزات والآيات المتمثّلة في خروجهم من مصر، وشقّ البحر الأحمر لهم. كما أكّد «تسوريف» أنّ القرآن لا توجد فيه ولا آية واحدة تعترف بحقّ المسلمين في أرض إسرائيل (فلسطين)، إلّا أنّه استدرك بالقول إنّ مصطلحات أرض إسرائيل، أو أرض كنعان، أو الأرض الموعودة غير واردة بالقرآن، ووارد مرّة واحدة فقط لفظ الأرض المقدّسة، وهو شبيه بالمصطلح التّوراتي الوارد في سفر زكريا، والذي يشير إلى الأرض المقدّسة.

كما يطرح هذا الجزء من الكتاب مواقف، ورؤى مختلفة حول التّفريق بين الإسلام المعتدل، والإسلام الراديكالي، والذي، من وجهة نظر مؤلّف الكتاب، يدعو إلى قتل أيّ شخص يكفر بالله، وليس مسلماً بما في ذلك اليهود، والشّروع في حرب مقدّسة تحت اسم «الجهاد» ضدّهم، وقتلهم، والقتل خلال هذه الحرب للفوز بلقب شهيد، وهي الحقائق التي يرى مؤلّف الكتاب أنّها تحول دون وجود إسلام معتدل في وقتنا الرّاهن.

بالنسبة للجزء الثالث من الكتاب فيمكن وصفه بـ«السياسي البحت»؛ إذ يتعرّض لجذور الصّراع الإسرائيلي - الفلسطيني، ويحلّل إمكانيّة إحلال السّلام، وظروف ذلك. فيؤصّل هذا الجزء من الكتاب للصّراع، ويُرجه إلى سلوكيّات، ورؤى النّبي محمّد التي طبعت سلوك المسلمين، والعرب في الوقت الحالي بالعنف، وكوّنت لديهم أيديولوجيّة دينيّة سياسيّة تنظر للأقليات الدّينيّة الأخرى نظرة دونيّة، ودفعتهم إلى انتهاج سياسات معادية، واعتناق أخلاقيّات مزدوجة المعايير، علاوة على الحروب النّفسيّة، وعمليّات غسيل المخ التي يتّهجها الوعّاظ المسلمون بالمساجد، وهو ما انعكس على حروب الاستنزاف التي نشبت عقب ما عرف بالرّبيع العربي، كما أنّها انعكست كذلك على سياسات الفلسطينيّين اتّجاه إسرائيل في إطار هذا الصّراع.

وفقاً لمؤلّف الكتاب فإنّه يحلّل في هذا الجزء سمات الصّراع العربي - الإسرائيلي - الفلسطيني من زوايا جديدة، والتي تعتمد على القرآن صاحب التأثير الكبير على سمات هذا الصّراع، وماهيّته. كما يطرح تساؤلاً هل بالإمكان إحلال السّلام بين إسرائيل، والعرب الفلسطينيّين ووفق أيّ شروط؟

وهل الفلسطينيون مستعدون للتوصل إلى حلول وسط، ويمكنهم الاعتراف بإسرائيل دولة قومية للشعب اليهودي، وأيضاً التوقيع معها على اتفاق سلام.

كما يربط مؤلف الكتاب ذلك بما عدّه محاولات فلسطينية لتشويه تاريخ الشعب اليهودي لسلب حقوق اليهود الدينية، والتاريخية على أرض إسرائيل، والقدس، وجبل الهيكل (الحرم القدسي الشريف)، وينطلق نحو عرض عدّة جهات نظر، ورؤى عربية، وإسلامية تشكك في أحقية المسلمين بالقدس، والحرم القدسي الشريف، ومدى قدسيتهما في الإسلام والقرآن، وعرض نظريات جديدة حول موقع الأقصى المذكور بالقرآن مرة واحدة فقط، ولم يحظ بالقداسة من جانب محمد مثلما حظيت الكعبة في مكة.

ورأى «تسوريف» أنّ ظاهرة معاداة السامية الحديثة من جانب العرب، والفلسطينيين تتأسس على مفاهيم قرآنية التي تتعرض بشكل سلبي، وعدائي لليهود، ففي الإعلام الفلسطيني الحديث تنتشر دعاية أنّ اليهود لهم طابع عدواني، وعنصري، وإمبريالي، وفوضويين، ويرفضون الاعتراف بالأديان الأخرى، كما أنّهم منافقون، وتجّار مخدرات، وخمور.

في هذا الصدد، استشهد مؤلف الكتاب بما ورد في كتاب الكاتب العربي عبد الستار سعيد بعنوان (حرب الوجود بين القرآن والتلمود)، سلسلة طويلة من الأوصاف السيئة لليهود مثل (المفسدون في الأرض)، و(الشیطان اليهودي)، و(شياطين التلمود)، و(أبناء إبليس)، حاسباً أنّ هذا مثال منعكس على ما يروج له في الإعلام الفلسطيني والعربي. وربط «تسوريف» ذلك بالحرب التي دارت بين محمد، واليهود الذي رأى فيهم أعداء لدعوته، ولنشر دينه الجديد، وبالتالي وصفهم بالأعداء مثلما هو وارد في الآية ٨٢ من سورة المنافقون ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

تجدر الإشارة كذلك إلى أنّ مؤلف الكتاب أشار في مقدمته إلى أنّ الكتاب يستند أساساً إلى الآيات القرآنية بالعربية، وكذا على عدّة اقتباسات من الأحاديث النبوية، وعلى كتب، وأبحاث كتبها باحثون من كلّ أنحاء العالم بما في ذلك باحثون مسلمون، علاوة على مقالات، وتقارير في صحف عربية، وفي مواقع انترنت كتبها إعلاميون، وأكاديميون عرب. كما أنّ الكاتب استعان بفقرات من العهد القديم لعرض وجهة النظر اليهودية حول ما هو وارد في القرآن.

يعترف مؤلّف الكتاب نفسه في المقدّمة أن جزءاً كبيراً من الأدب الإسلامي، والعربي الذي كُتب حول القرآن، وسيرة النبي محمّد والإسلام كان أميناً ويعكس الواقع، إلّا أنّه قال إنّ جزءاً صغيراً منه لم يكن كذلك، واشتمل على أكاذيب، وتحريفات للوقائع التاريخية، لافتاً إلى أنّ استنتاجاته العلميّة التي توصل إليها في الكتاب، والتي قامت على تحليل، وشروح للآيات القرآنيّة التي اعتمد عليها بشكل واقعي ومنطقي.

### بطاقة الكتاب

اسم الكتاب: «محمد والقرآن واليهود... بوابة إلى الحقيقة»

للمستشرق الإسرائيلي نير تسوريف.

إعداد: د. أحمد البهنسي

تأليف: نير تسوريف

مكان وسنة النّشر: دار نشر «تسميريت»، إسرائيل، ٢٠٢٠

عدد الصفّحات: ٥١٢ صفحة

## ترجمة ملخصات المحتوى بالإنجليزية

### Summaries of Researches and Articles



## **The Western Worldview: Existence by Annihilation and Living by Exclusion The State of War as a Model**

Chehrazade Hamdi

War reveals secrets, true intentions, and hidden goals behind announced slogans. This is evident through the practices of the Western genocidal mind in the wars waged against various nations. The Western war culture is offensive and colonial in nature, and not defensive. This barbarism is based on a worldview which dictates existence by extermination and living by exclusion. This worldview was founded on a set of principles which had a clear impact in directing actions. For instance, the French colonization of Algeria and the Israeli attacks on Palestine are two examples of the brutality and imperialist expansion of the West. This essay aims to demonstrate the cruel practices, torture, killing and displacement which the West inflicts, in accordance with its worldview, on subjugated nations during war. The essay mainly relies on a critical methodology, and employs analysis, synthesis, and inference.

## The Hundred Years' War between the Kingdoms of England and France

Ahmad Mohsen al-Khodr

The Hundred Years' War represents an important chapter in the history of Europe in the late Middle Ages, a war that contributed to the formation of Western Europe in the scholarly sense. After the war, the idea of a Christian Europe under one leadership (papacy or empire) was abandoned. Two major powers began to emerge in Western Europe -Britain and France- who would take over the leadership of Europe throughout modern times. The Hundred Years' War was the first war in which the effective use of firearms was crucial in deciding the outcome of the battles. The war witnessed a radical transformation in the concept of combat in the Middle Ages. Previously, war was a feudal commitment, but in the Hundred Years' War it became a profession which allowed barons to recruit men and establish affiliations based on money. These hired mercenary soldiers were not bound to their masters; they shifted their alliances to those who paid them better wages and moved from one camp to another very swiftly.

During this period, the phenomenon of capturing the wealthy for obtaining a ransom became common, and prisoners of war were transformed into a commodity that generated lucrative profits for both sides of the conflict. Periods of truce during the war resulted in unemployed fighters and therefore witnessed the spread of piracy and bandits. The civilian populations on both sides were the main losers in this war. In times of fighting, they were subject to killing, pillage, exile and rape, and their property was looted and destroyed, while in times of truce, they were robbed, extorted, obliged to pay taxes, and paid levies without any mercy or consideration for the adverse circumstances brought upon by the war. It is likely that these bad conditions were a cause that contributed to plunging the region into a dangerous spiral of chaos. On more than one occasion, violence erupted and lethal confrontations took place, in which revolutionaries eradicated the nobles.

## Campaigns: Consequences and Results

Nadia Mohammad Zuhair al-Ghazuli

The main Crusader campaigns which targeted the Levant spanned the years between 1095 and 1291 CE. The common feature between these campaigns was the Crusader desire for assaulting other nations and usurping their natural rights. In light of this fact, we find that the only policy for the maintenance of the Crusader presence in the region during each campaign was the mass slaughter of the natives, setting cities on fire to plunder them, and launching a series of rapid raids on lands which neighbored these cities for the purpose of obtaining provisions, and then ravaging these lands. This research takes into consideration the changing nature of the Crusader concept, the expansion of Crusader wars, and the inhuman practices which gave the Crusades the character of fanaticism and violence. It is clear that these wars and campaigns represented the spirit of the medieval Western Middle World and the prevailing ideas therein on religion and war; the former represented by the dominating power of the Church, and the latter represented by the feudal system.

The traditional view on the reasons behind the Crusades holds religion to be the main factor behind the launching of these wars, an armed pilgrimage to Jerusalem with the aim of "liberating" the Holy Sepulcher in the Church of the Holy Sepulcher. While the religious factor, founded on intolerance and the exploitation of religion, is undeniable, it should not obscure the other causes of the Crusades, such as the pursuit of economic interests and political ambitions. Politically, the papacy found the Crusades to be a successful way to steer the West towards a single purpose, and was able to implement a single policy which dominated the capabilities of Western political forces. In fact, war was the primary purpose behind the Crusader campaigns, and warfare was the basis of life in the Crusader principalities which were established in the Arab East. In this war, the crusaders committed many atrocities. They had come to destroy the civilization of the East, and it took two centuries for this civilization to influence the moral character of the barbarian warriors who had come from the West.

## Reasons and Motives Behind the Crusades: 490-691

AH/1096-1291 CE

Ammar Mohammad al-Nahar

The Crusades, from the very beginning, were the product of an intersecting and extremely complex set of factors, and formed a highly intricate phenomenon. Therefore, any attempt to interpret the Crusades in light of a single factor or a set of specific factors -such as emotional religiosity, religious zeal, the desire of the leaders of the Crusaders to acquire more land, the destitute social conditions in which the peasants and impoverished people of Europe lived, the greed of the merchants of Italian cities to gain commercial privileges, papal political aims, or personal ambition- will be doomed to fail. This is the viewpoint of Qasem Abdu Qasem, one of the most prominent chroniclers of the Crusader wars, although all of these factors were indeed among the reasons which set the Crusades in motions.

This essay examines the sources, references, accounts, details, and perspectives of historians on the Crusades to discover, as closely as possible, the causes and motives of the Crusades. The author elaborates as needed and joins his scholarly efforts with those that preceded him, adding his study to former studies on the topic matter and making it accessible for researchers and interested readers.

### A Historical Critical Glimpse into the Main Crusader

## Western Wars and Conflicts (The Clash of Emperors)

**Abbas Merhej Faraj**

The period of Medieval Europe, which spanned the fifth century to the fifteenth century, witnessed several developments in various domains. It was quite expected throughout this long period of time -which separated between ancient and modern history- for historical transformations to occur. These transformations led to changes in many political principles and concepts, and to alterations in economic, social and intellectual relations. Examples of these transformations are the conflicts and bloody wars which erupted among the kings and rulers of Europe, turning the continent into a stage for competition between kingdoms and ideological and feudal conflict. This led to the migration of European tribes from the far north to the south, and from the eastern regions to the west. States were established, some fell, while others preserved their existence. The economic system also changed after the emergence of feudal lords and highly wealthy owners.

This essay analyzes a subject matter which relates to the church and war in the Middle Ages, a topic which abounds in historical sources. The church possessed undisputed authority, while the idea of warfare could not be separated from any incident in European medieval times. These numerous wars and conflicts in Europe led to inner disruption and negative consequences on all aspects.

## A Critical Glimpse into the Tyranny of the Emperors Nero and Domitian

**Rafah al-Bushi al-Dabbagh**

This essay examines aspects of the tyranny and despotism of two Roman emperors, Nero and Domitian, with a focus on an analysis and criticism of their actions. When Nero assumed power, he presented himself to the Roman people and military as the legitimate heir to the previous emperor, and was named “Claudius of his time.” Nero then embarked on eliminating anyone whom he deemed to pose an obstacle to his authority or a hindrance to the accomplishment of his goals, even if that person were very close to him such as his mother, Agrippina. Nero was known for his fondness for certain arts such as dancing and music, and he indulged in amusement and a highly lavish lifestyle, neglecting his governance and administration duties and implementing unsuccessful policies. This was coupled with the ineptitude of his functionaries, the brutality of his soldiers, the voraciousness of tax collectors, and political crises, leading to widespread tumult in the Roman Empire and deterioration in the general administration of the Roman provinces. Rome’s relations with allied provinces in the east also witnessed a decline, as Nero neglected all populations in his empire with the exception of the Greeks. The result was the bankruptcy of the empire’s coffers and the famous Great Fire of Rome. Nero’s misrule and oppression eventually ended in his suicide in 68 CE. In 81 CE, the Roman emperor Domitian rose to power by appeasing the Roman military and the powerful elements in the empire, but his rule was marked by despotism. Due to his brutal policy and authoritarianism, Domitian’s closest associates deposed him.

## The Ramifications of the Roman Occupation of Egypt and the Ancient Maghreb

**Aqil Numair**

Over the course of several centuries, the Roman Empire fought many wars and conflicts, and expanded its lands, thus colonizing many nations in the process. It is widely known that the negative actions and misconduct of the colonizer have a detrimental effect on the people and the resources of the colonized countries. This was indeed apparent in the wars the Romans waged, even though they tried to present a single, attractive image of a Roman civilization highly advanced and developed in the field of art, architecture and administration. The other side of the picture was obscured, such as the malpractice of Roman politicians and administrators in governing the countries they occupied, and the brutal policy these officials adopted in suppressing the revolts which erupted in Egypt and North Africa following the Roman confiscation of agricultural land.

This essay examines the economic suffering of nations under Roman hegemony, especially in terms of the agricultural suffering of the natives, taking into consideration that agriculture formed the main pillar of life in that historical period. The essay touches on the aims and background of the Roman occupation of Egypt and the ancient Maghreb. It considers the negative political and economic consequences of the Roman occupation, especially the Punic Wars which expanded to the regions of north Africa and led to the destruction of Carthage, the obliteration of its landmarks, and the cancellation of the role of its previously Numidian allies who aided the Romans in the destruction of Carthage and contributed to the Roman expansion in Mauritania.

## Synopses of Essays in Issue 32 of Al-Istighrāb

### **The Military Campaigns of Roman Emperors to the East: Trajan, Marcus Aurelius and Septimius Severus**

**Ahmad Hussein al-Mash'al**

History books have recorded the imperialist and expansionist policy of the Roman Empire since ancient times, highlighting the constant Roman effort to expand territory, dominate the political choices and economic resources of other nations, and ensure the absence of any threat to Rome's project and military campaigns. This explains the aim of Roman emperors to invade the East and occupy new lands for the purpose of fulfilling the dream of achieving hegemony over the shores of the Persian Gulf and dominating global commercial routes between the Mediterranean and the Persian Gulf. To achieve this goal, Roman emperors waged many wars which extended for protracted periods of time. For instance, the Romans engaged in a long and bitter struggle with the Parthian Empire which lasted for two centuries and a half. The emperor Trajan was able to reach the shores of the Persian Gulf through cunning and deception, and was the first and last Roman emperor to reach this highly-coveted site.

This essay examines and critiques the military campaigns of Roman emperors to the East, and the prolonged battles they waged in the region. It sheds light on the Roman adoption of a policy of colonialism, scheming, and deceit which did not stop at any limit regardless of the results and consequences. The Romans coveted Mesopotamia, the main center for distribution of eastern commercial goods, and attempted to carry out an invasion of the region. The two Roman emperors, first Marcus Aurelius and then Septimius Severus, ventured to accomplish this mission but their imperialist campaigns failed and did not add any new region to Roman territory. In fact, during these campaigns, the Romans suffered many losses in equipment and men.

Occidentalism

# AL-ISTIGHRAB

32

Intellectual Refereed Quarterly Dealing with Studying and  
Understanding the West Scholarly and Critically

Published by the Islamic Center for Strategic Studies Issue

No. 32 - 8<sup>th</sup> Year - 1445 H - Autumn - 2023

Licensed by The Ministry in Lebanon By Decree # 423/2016

## Editor-in-Chief

Hashim AL Milani

## Scientific Editorial Board

PRO. DR. SAYED HUSEIN NASR	PROFESSOR OF RELIGION STUDIES, GEORGE WASHINGTON UNIVERSITY
PRO. DR. TAWFEEQ BIN 'AMER	PROFESSOR OF ISLAMIC CIVILIZATION, TUNISIA UNIVERSITY
PRO. DR. KHANJAR HAMIYEH	PROFESSOR OF PHILOSOPHY, LEBANESE UNIVERSITY
PRO. DR. SATTAR AL A'RAJI	DEAN OF JURISDICTION FACULTY, AL QUFAH UNIVERSITY
PRO. DR. A'MER A'BED ZAYD AL WAE'LY	PROFESSOR OF ISLAMIC CONTEMPORARY THOUGHT, FACULTY OF ARTS AND HUMANITIES, AL QUFAH UNIVERSITY
PRO. DR. A'BDEL JABBAR NAJI	PROFESSOR OF HISTORY, BAGHDAD UNIVERSITY
PRO. DR. MAJDI E'Z EL DEEN HASAN	PROFESSOR OF PHILOSOPHY, AL NEELAYN UNIVERSITY, THE SUDAN
PROF. MOSTAFA EL-NASHAR	PROFESSOR OF ANCIENT PHILOSOPHY, CAIRO UNIVERSITY, EGYPT
PRO. DR. MUSTAFA AL NASHAR	HISTORIAN AND PROFESSOR OF MODERN SCIENCES, CANADA UNIVERSITIES
PRO. DR. HADI FADLULLAH	DEAN OF THE FACULTY OF RELIGION, AL MA'AREF UNIVERSITY, LEBANON

## Senior Graphic Design Producer

Ali Mir Hussain

For Contact

Telephone: 00961-1-274465

Website: <http://istighrab.iicss.iq>

E mail: [istighrab.mag@gmail.com](mailto:istighrab.mag@gmail.com)

Islamic Center for Strategic Studies- Civil Compa.

IBAN: LB78 0052 0024 0013 0102 4055 9014

IBL BANK SAL. Swift Code: INLELBBE

Bank money  
Transfer

32

Occidentalism

# AL-ISTIGHRAB

Intellectual Refereed Quarterly Dealing with Studying  
and Understanding the West Scholarly and Critically

**Published by the Islamic Center for Strategic Studies**  
**Issue No.32 - 8<sup>th</sup> Year 1444H . Autumn - 2023**

The opinions in this magazine unnecessarily express the Center's views



يسرُّ إدارة مجلة الاستغراب

أن تعلن عن اعتماد نظام الاشتراك السنوي على النحو التالي:

الاشتراك السنوي: أفراد: \$١٠٠، مؤسسات أكاديمية ومراكز أبحاث: \$١٥٠، مؤسسات حكومية: \$٢٠٠  
بما فيها أجور البريد الخارجي

يرسل طلب اشتراك إلى العنوان الإلكتروني التالي:

[istighrab.mag@gmail.com](mailto:istighrab.mag@gmail.com)

على أن يتضمن الطلب المعلومات التالية:

- الاسم الثلاثي / أفراد/ مؤسسات أهلية/ مؤسسات حكومية:.....

- العنوان بالتفصيل:.....

- البريد الإلكتروني:.....

- رقم الهاتف: أاضي:..... خلوي:.....

التوقيع:

ملاحظة: يتولّى القسم الإداري تأمين وصولها عبر البريد السريع على العنوان الوارد في طلبكم، كما يمكنكم التواصل مباشرة على الأرقام التالية: ٠١/ ٢٧٤٤٦٥ - ٧٦/٠٥٩٣٣٣

## The Scholarly Editorial Staff

Pro. Dr. Ibrahim Mohammad El Zein	Malaysia
Pro.Dr. Ahmad Abdulhalim Atiah	Egypt
Pro. Dr. Husein Nasr	U.S.A.
Pro.Dr.Hamid Parsania	Iran
Pro. Dr. Khalil Ahmad Khalil	Lebanon
Pro. Dr. Zaim Khenchelaoui	Algiers
Pro. Dr. Suad Al Hakim	Lebanon
Pro. Dr. Vitaliy Naumkin	Russia
Pro. Dr. Fathi Al Miskini	Tunis
Pro. Dr. Velin Belev	Bulgaria
Pro. Dr. Carl Ernest	U.S.A
Pro. Dr. Muthaffar Iqbal	Canada
Majdi Izziddin Hassan	Sudan

## Translators

- Asaad Mandi Alkaabi
- Hiba Nassir
- Hasan Ali Matar Alhashimi

## This quarterly

“Occidentalism” An intellectual quarterly aimed at studying and understanding the West from a cognitive and critical perspective

The quarterly “Occidentalism” is interested in understating the West by becoming acquainted with its approaches and intellectual, cultural and ideological structures and rereading them with a well-informed critical spirit. The objective of the Islamic Center for Strategic Studies from publishing this quarterly is based on the need to establish a creative intellectual expanse that leads to a commensurate communication between Islam and the West at the level of cognition and civilization.

At the forefront of the issues we deemed appropriate to work on within the aforementioned expanse is the attempt to approach the West from an angle that goes beyond what the Arab and Islamic elites were and are accustomed to in the past and the present, especially with respect to how the values and knowledge of the West are dealt with, whether in terms of pure imitation of these values or in terms of their complete refusal .

To illustrate its end, this quarterly adopts an integrative methodology based on the activation of three parallel and interrelated lines:

**The first line:** Getting acquainted with western societies as they are in reality, by staying updated about their scientific, intellectual, cultural and political developments, through the knowledge that the elites of these societies have to offer in the context of their analysis of the issues and problems they’re experiencing at the outset of the twenty first century.

**The second line:** Learning about the approaches and policies adopted by the West vis-à-vis the East and Islamic societies in particular, in order to reveal many of the realities and allay the illusions that have captured the Arab and Islamic thought for a long period of time.

**The third line:** This is the line of criticism which has three facets:

**The first facet:** A criticism of the values of western thought and their repercussions at the intellectual level on the Arab and Islamic intelligentsia, and a demonstration of the resulting mechanisms of negative Occidentalism.

**The second facet:** A criticism of the West by the West itself through the selection and translation into Arabic of writings by western philosophers, intellectuals and researchers about issues that reflect the situation of their societies and the transformations heating these societies up in different fields.

**The third facet:** A criticism of the West by the Arab Islamic elites, proceeding from their knowledge of it and of its history and their attempt to compare it based on creative evenness and equal terms .

occidentalism

# الاستغراب AL-ISTIGHRAB

**Intellectual Refereed Quarterly Dealing with Studying  
and Understanding the West Scholarly and Critically**

Licensed by The Ministry in Lebanon By Decree # 423/2016

Published by the Islamic Center for Strategic Studies  
Issue No.32- 8rd Year - 1445H - Autmun 2023



المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

<http://www.iicss.iq>

<http://istighrab.iicss.iq>

[istighrab.mag@gmail.com](mailto:istighrab.mag@gmail.com)



تطبيق المجلة  
app qr code